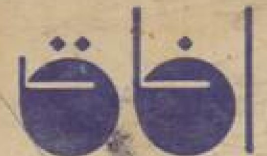
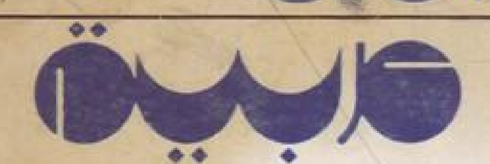
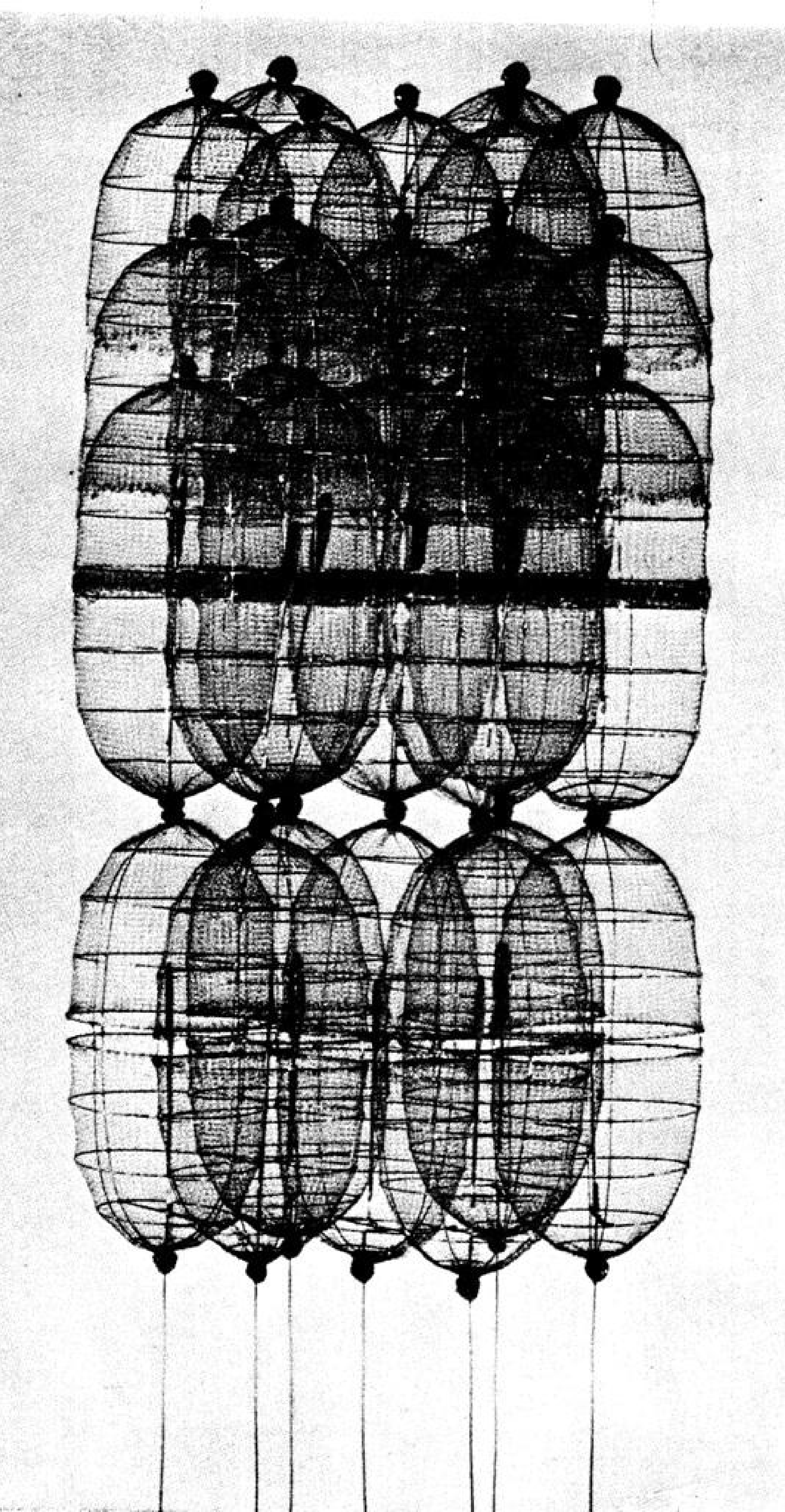
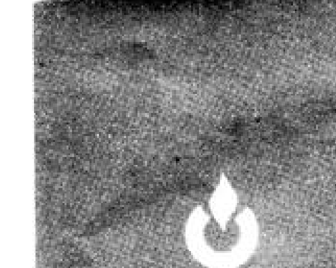



العدد الثالث - آذار ١٩٩٠م / شعبان ١٤١٠هـ - السنة الخامسة عشرة

- الغورباتشوفية.. الردة على اللينينية؟
- ملف خاص: الناصرية.. الفكرة والاختبار.. الى أين؟
- الملك فيصل الاول بين المطالب الوطنية والضغوط الانكليزية.







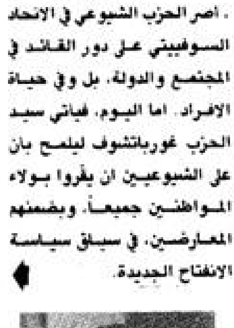
مجلة فكرية شهرية عامة تصدر عن دار الشؤون الثقافية العامة
وزارة الثقافة والاعلام

المراسلات:
آفاق عربية ص.ب (٤٠٣٢)
اعظمية - بغداد - العراق
هاتف (٤٤٣٦٠٤٤)
تلكس (٢١٤١٣٥)

منذ الأيام الأولى للبولشفية، أصر الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفييتي على دور القائد في المجتمع والدولة، بل وفي حياة الأفراد. اما اليوم، فياتي سيد الحزب غورباتشوف ليلمح بان على الشيوعيين ان يقروا بولاء المواطنين جميعاً، وبضمنهم المعارضين، في سياق سياسة الانفتاح الجديدة.



ماذا تكون هذه «الناصرية»؟ هل هي فلسفة؟ ام انها نظرية؟ ام فكر؟ ام مجموعة من المنجزات، المادية والمعنوية، للثورة؟ ام انها الانتساب الى «شخص» جمال عبدالناصر كبطل تاريخي.. هذا، وغيره، مايقوله د. غالي شكري في حواره في الحلقة الثانية من الملف الخاص بالناصرية.





اذا كانت افكار الملك فيصل الاول السياسية غير خافية على القارئ العربي، فان الشيء الذي لايزال بحاجة الى تسليط الضوء عليه هو افكاره الاقتصادية وخططه ومشروعاته لمعالجة المشكلات الاقتصادية في اوائل عهده من اجل بناء الدولة العراقية الناشئة، ورفع المستوى المعاشي في البلاد.



في سياق التعرف على الحركة الأدبية، الروائية والقصصية والشعرية، يعرض مقال «ملامح الرواية الغربية في عام ١٩٨٩»، اهم الاتجاهات التي يقودها كبار الكتّاب في اوربا الغربية التي تتجسد، غالباً، باللجوء الى المكتشفات العلمية والتقنية لحبك موضوعاتها الفنية لاسيما في الرواية الفرنسية.

الأسعار

العراق ٥٠٠ فلس، الاردن ٥٠٠فلس، الكويت ٥٠٠ فلس، السعودية ١٠ ريالات، قطر ١٠ ريالات، اليمن الشمالية ١ ريالات، اليمن الجنوبية ٨٠٠ فلس، الامارات ١٠ دراهم، البحرين ٩٠٠ فلس، مصر ٨٠٠ ملم، السودان ٨٠٠ملم، ليبيا ٧٥٠ فلساً، الجزائر ١٠ دنانير، المغرب ١٠ دراهم، تونس ٨٠٠ فلس.

الاشتراكات

١٠ دنانير للاشخاص، ٢٠ ديناراً للمؤسسات، ٦٨ دولاراً في الاقطار العربية، ٨٤ دولاراً في الدول الأخرى.

في هذا العدد

■ تعرض المقالات كافة على نخبة من الاختصاصيين ■ لاتعاد المقالات الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

■ الاشراف الفني: فخري خليل ■ طبعت على مطابع دار الشؤون الثقافية العامة



وبعد هذا التطور في مسار ثورتكم، عندما نتحدث عن الشعب فكاننا نتحدث عن الحزب، لان الشعب اليوم بخواصه العامة هو حزب الشعب ولا اعني في هذا ماهو مولود تاريخياً من خواص، وإنما ماهو متكون، ولعب دوراً في حقل الشخصية العراقية عبر اكثر من عشرين سنة، كان الدور الاساسي فيه للحزب. ولذلك بامكاننا ان نصف شعبنا العراقي العظيم الآن بالقول بانه شعب الحزب في الوقت الذي نقول ان حزب البعث العربي الاشتراكي هو حزب الشعب العراقي في القطر العراقي، وان كان من حيث المبادئ، هو حزب الامة.

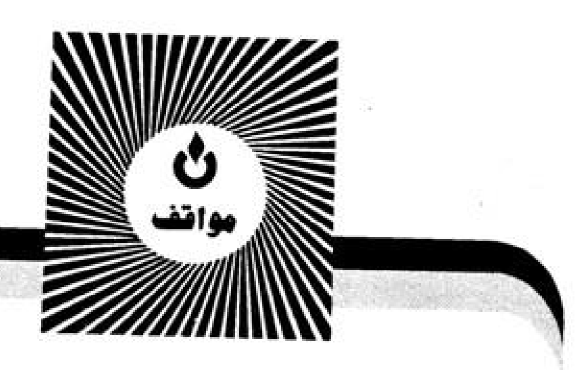
الرئيس القائد
صدام حسين

في أضواء





الغلاف الاول
(البراق) للفنان كاظم حيدر
الغلاف الاخير
تصوير الدكتور احسان فتحي



«نصفي مازال في المعارضة» جدلية القيادة والابتكار الديمقراطي

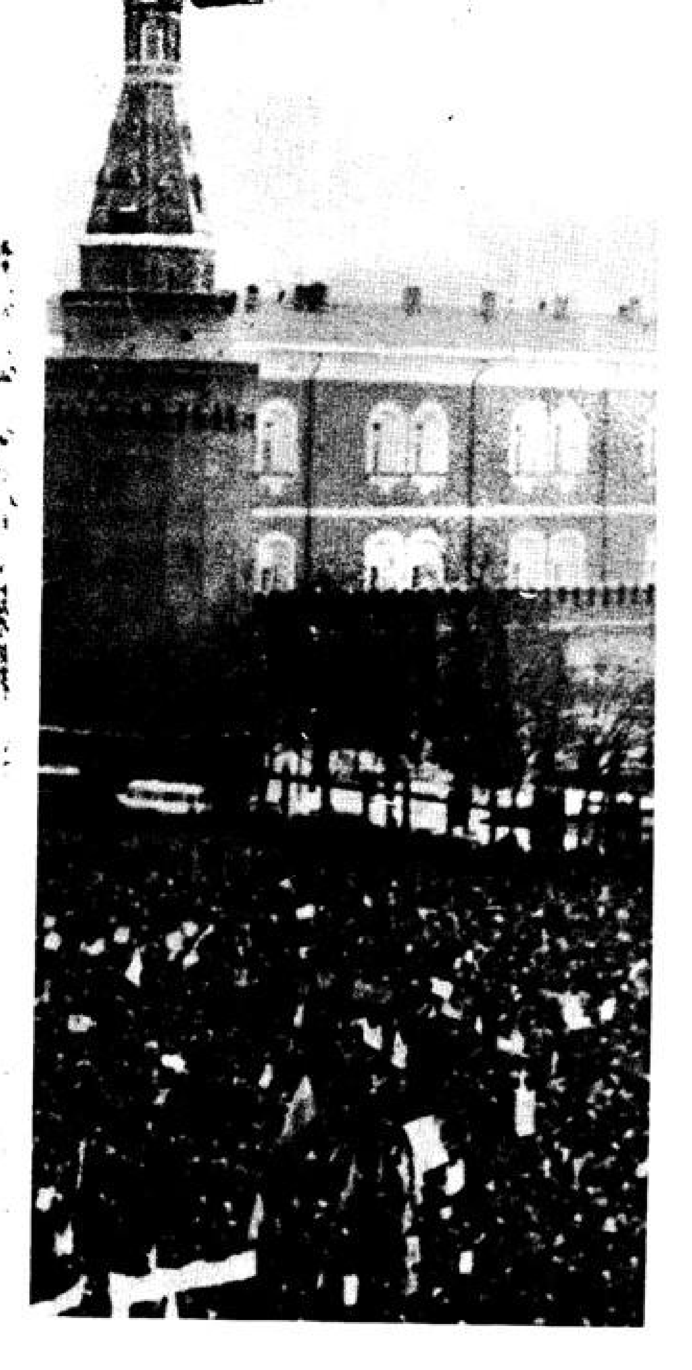
● رئيس التحرير

لم تكن نهاية العصر حدثاً اعتيادياً، ولم يكن امر نهايات العصور كذلك طيلة التاريخ الانساني، فثمة قلق خاص وشوق وتوتر يسود الدنيا، يدخل في ذات الانسان، يعيد تكوينه، يصقله، يعرض مبتكراته وافكاره الى الامتحان. ترى اية جادة ينبغي ان يسلك، واي طريق؟ وتذهب البشرية مذاهب شتى عند اعتاب القرون اللاحقة، فتظهر نظريات وتزول اخرى، وهكذا كان القرن التاسع عشر عصر الايديولوجيات، حيث افصحت الاذهان الفلسفية وغيرها عن نفسها في عشرات الصياغات التي كانت تنبني ايضاً على نتاجات الذهن البشري في صياغاته العقلانية المعروفة في عصر التنوير، عند هيوم وبيركلي وروسو وبنثام، بينما كانت تتعايش مع هذه الافكار مبتكرات عقول اخرى، شفافة ترصد وتتامل وتناقش وتعترض، هامسةً في الغالب. هكذا نستمع لكانت، وغوته، وامرسن. بينما كانت (الايديولوجية) العقلانية تفصح عن نفسها في أشكال براغماتية تخص العلاقة بين الانسان والواقع. وكان ان افصحت فلسفة بنثام عن نفسها عند مل، وابنه جون في فلسفة الراسمالية المعاصرة، القائمة على الحرية الفردية اولاً والمنافسة الحرة ثانياً، ليصبح كتاب (في الحرية) لجون ستيوارت مل دليلها بعدئذ. تتمخض عنه عشرات الافكار والصياغات، لكنه يبقى برغم شكاوى المبدعين، ذلك المتنفس

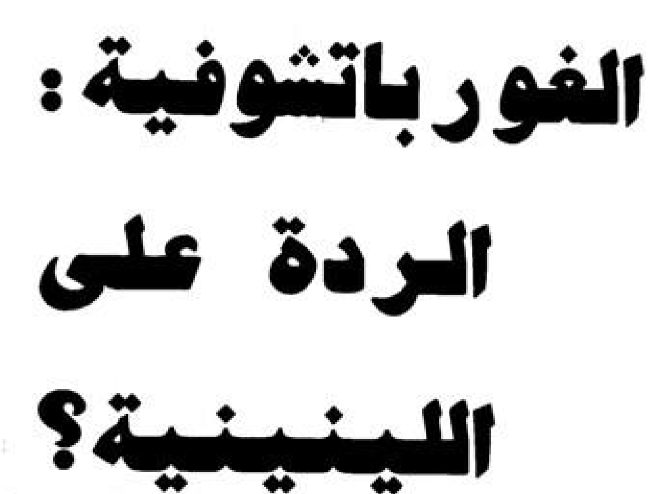
معبراً عن آمال الامة وطموحـاتها، من خـلال طموحـات ابنائهـا انفسهم، لتاتي اضافات الرفيق القائد صدام حسين خطيرة، بعدما وضع الافكار محل التطبيق، ليضيف ويستعيد ويبتكر في بناء الدولة القطرية نموذجاً قومياً، يواجه التحديات دون ان ينهار امامها او يفقد مثله او غاياته. فالمثـل والمبادئ اسـاسية وجميلة وصحيحة، هكذا يقول لرفاقه من محافظة بابل؛ بينما ينظر الى مايجري في العالم بتلك الذهنية التي رصدت الوقائع منذ زمن مشخصة العيوب في كل النظريات التي تتجاوز روح الانسان وطراوته وينابيع القداسة لديه التي ترفعه فوق مستوى المادة، وتقربه الى حيث تنبني السماء في القلب والعقل مُثلاً وواحات شوق وراحة وحبور. اذن هل تصبح تاسيسات التجربة اصناماً؟ كلا، (اشعر بان نصفي مازال في المعارضة)، هكذا يقول صدام حسين، مستعيداً ماقاله من قبل، منذ سنوات، في رفضه لكل ماهو مؤسسي. فالحق والواجب يدعوك الى هذا البناء لتمضي الدولة في خدمة الأمة، دون ان يعني ذلك ان مايتم تشييـده يغلق عليك الرؤيـة الجميلة والتطلع الخلاق الى الكمال.

وهكذا كانت القدرة لدى صدام حسين تفوق التصور في الإنجاز المحكم على شتى الاصعدة، من التفاصيل الحياتية الصغيرة الى المنظومة الصاروخية، من مواجهة مشكلات السوق الى اسقاط العدوان الايراني وتسفيه دعاته. وهكذا كانت قدرته المتطلعة الى امام تبتغي الكمال دائماً دون ان تدعيه، مجددة نشطة دؤوباً، معتمداً التامل والملاحظة في سياق المبادئ الصحيحة الاساس، مبادئ «البعث» الخلاقة، منبهاً دائماً الى اهمية «اطلاق الناس من سجنها»، كما يشـير الى اغلاط الايديولوجية المغلقة والانظمة (التوتالية) او الشمولية المعادية للديمقراطيـة، منوهاً منذ البدء ان العالم (قرية صغيرة)، وان التفاعل مع الانسانية ينبغي ان يكون اساسياً في السلوك والتفكير دون انهماك في نقل او انحسار في الذهن.

وهكذا يظهر الذهن الخلاق لصدام حسين، قائداً ومبتكراً، مشيداً لتجربة، وناقداً لما يحتمل ان يظهر عنها من هنّات، في مسيرة مهمة في التجربة الديمقراطية التي تشغل صدارة الاهتمام في نهايات هذا العصر.







الغورباتشوفية: الردة على اللينينية؟

ساهم في هذه المقالات:

STROBE TALBOTT

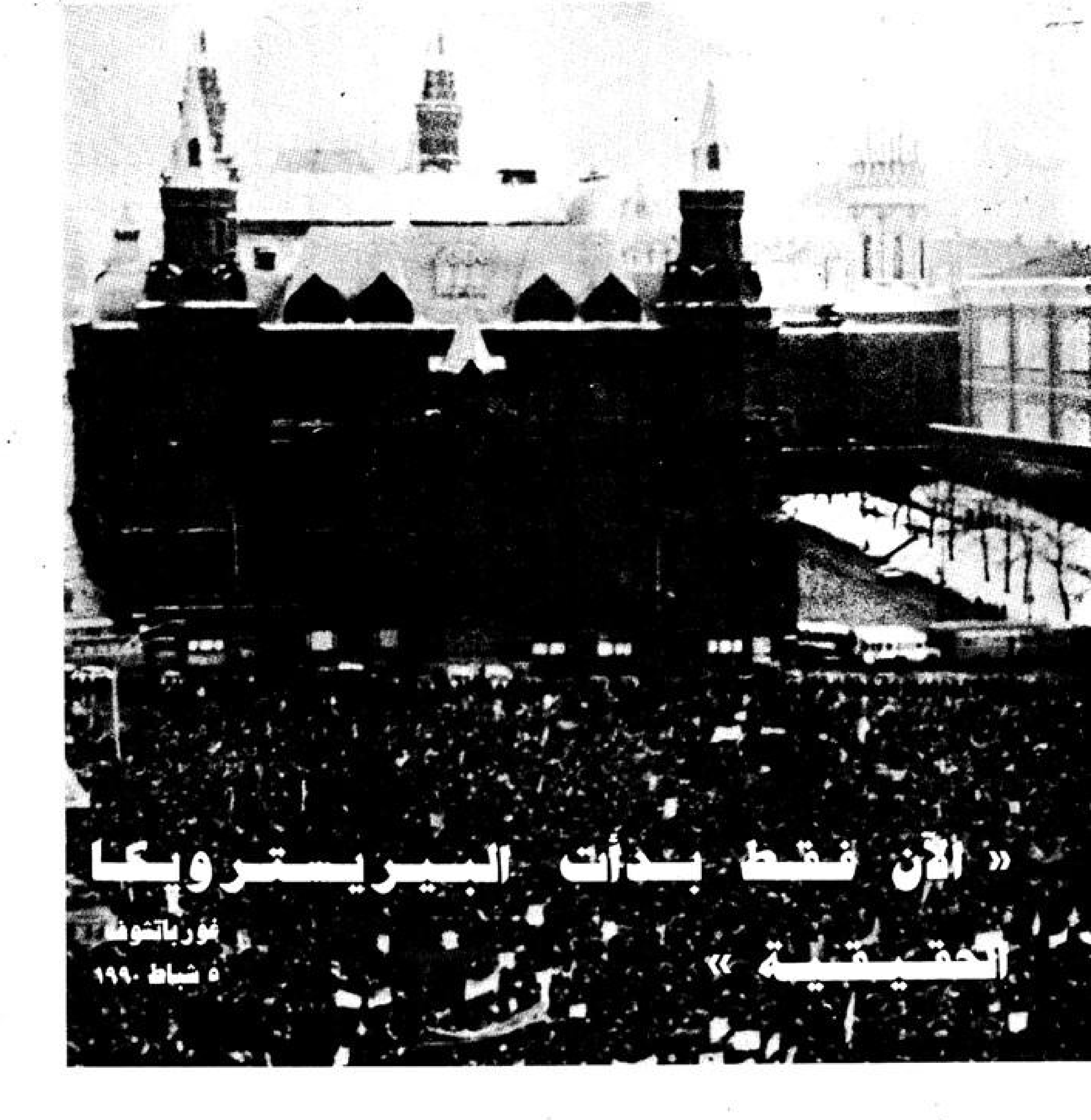
JOHN KOAN

OTTO FRIEDRICH

BRUCE W. NELAN

FRISCO ENDT

في الاسبوع الماضي عادت الثورة الغورباتشوفية الى الوطن. ان كثيرا من الكلمات والشعارات كانت مألوفة في جيشانات اوربا الشرقية في العام الماضي، لكنها عادت في مشهد جديد، في المركز الجغرافي والسياسي للعالم الشيوعي. هذه المرة لم يكن المشهد في براغ اوبودابست اولايبزك، بل في موسكو حيث احتشد المواطنون في الشوارع وهم يحملون شعارات خلاصتها: اطردوا السيئين. وفي هذه المرة يبدو ان السيئين انفسهم في الكرملين قد انتبهوا للامر، فبدأ الاوصياء على السلطة المطلقة عملية الاقلاع عنها. في هذه المرة لم يكن ميخائيل سيرجييفتش، مسؤول الحزب المتحرر، في مكان ما من



« الآن فقط بدأت البيريسترويكا الحقيقية »

غورباتشوف
٥ شباط ١٩٩٠

الافق، تاركاً الامور تحدث بذاتها، بل كان هو نفسه فوق منصه عالية، جاعلاً اياها تحدث.

في عام ١٩٨٩ الثوري أصبح العالم معتاداً على مشهد الشيوعيين الحاكمين وهم يسيرون على منحدر السلطة الزلق. كان هذا في اوربا الشرقية وليس في الاتحاد السوفيتي. كان الاتحاد السوفيتي شيئاً مختلفا: ما كان لهذا ان يحدث فيه.

كان معروفاً ان الكرملين واعضاءه يتمتعون بحكمة تقليدية. نعم ان غورباتشوف قد خلق ظروفاً لانهاء حكم الحزب الواحد في كل من بولنده وهنغاريا والمانية الشرقية وتشيوكوسلوفاكيا وبلغاريا بلفت انتباه الانظمة فيها بأنها اصبحت حرة بنفسها. اما هو فلم يستطع ولم يشأ ان يتخلى عن الاحتكار الشيوعي للسلطة في بلاده. وقد سارت الحكمة بهذا الاتجاه. وبالرغم من تحرر غورباتشوف من وهم «الواقع السوفيتي»، وبالرغم من طموحاته نحو «اشتراكية انسانية»، فهو لم يكن بشخصه توماس جيفرسن او ڤاكلاف هافل. لقد كان سليل يوري اندروبوف، وقد جاء الى المدينة وشق طريقه. وكان ما يزال الظن به شيوعياً مخلصاً، ومؤمنا حقيقياً بعقيدة احتكارية في جوهرها. كانت هناك حقيقة واحدة عن كيفية تنظيم المجتمع، ولهذا كان يجب ان يكون للسلطة مصد واحد.

ثم كان هناك العامل الامبريالي الذي يوجب الحفاظ على موقف الحزب الذي يرفض التحدي. وفي الوقت الذي كان فيه غورباتشوف مستعداً لارخاء العلاقات مع مستعمرات الاتحاد السوفيتي خارج الحدود، الا انه كان وطنياً سوفيتياً، ولهذا كان يعتز بكرامته لذلك لم يكن لديه، بشكل مؤكد، اي رغبة بتفتيت بلاده واعطاء اعدائه المبرر الذي كانوا يفتشون عنه، برميه في كومة مزبلة التاريخ.

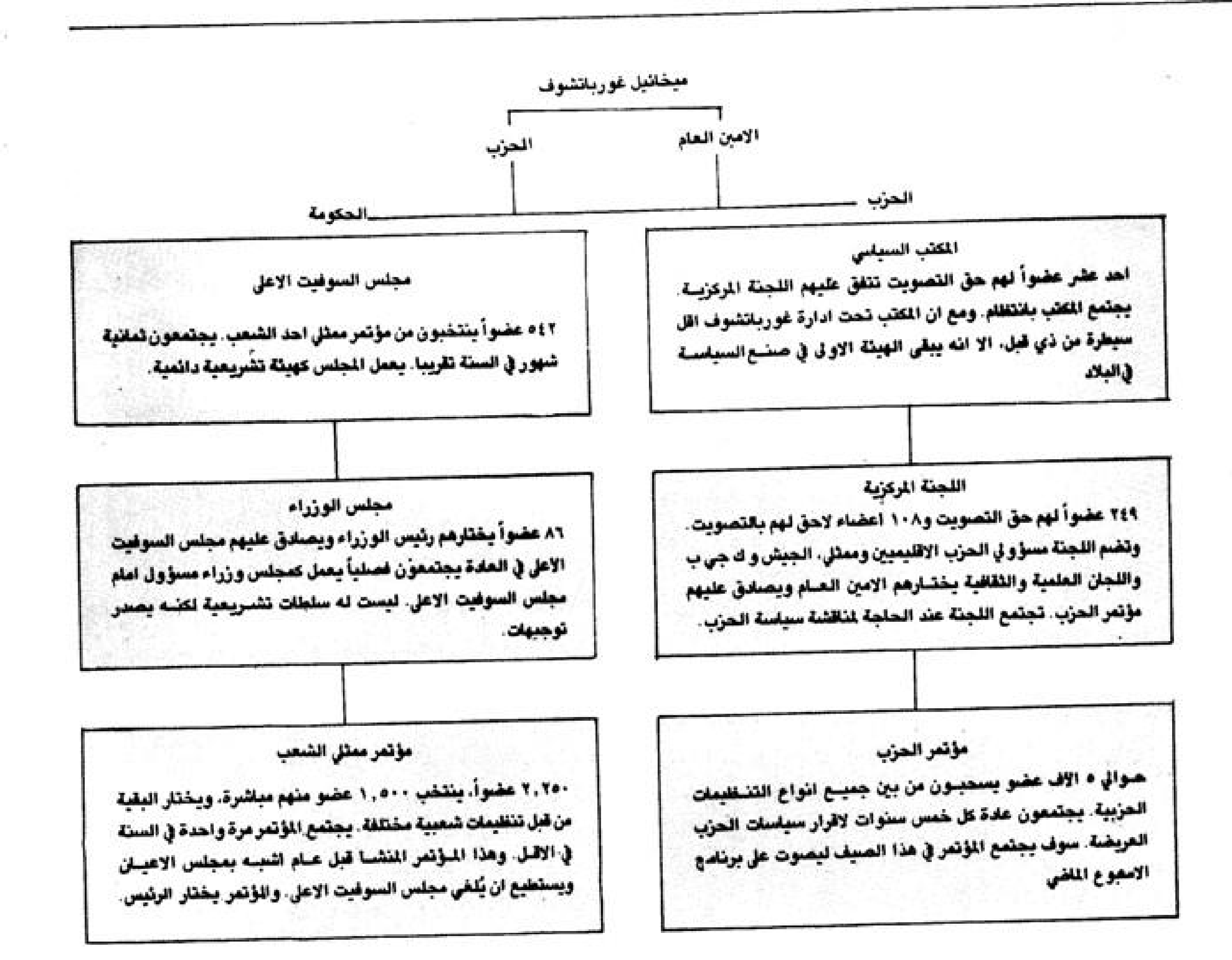
كان يقال غالباً ان الحزب هو المؤسسة (الكلية) الوحيدة التي بوسعها ان تحدث الجذب الضروري في مقاومة القوى العديدة البعيدة عن المركز. وانه اذا ما فرض نظام متعدد الاحزاب على امبراطورية متعددة القوميات، فأن موسكو ستكون عاصمة لبقايا دولة كانت تسمى روسيا. في الاخير يوجد جدل بأن جزءاً من مخطط لعبة غورباتشوف هو صيانة بنائين متنافسين في السلطة هما: الحزب والدولة، وان يبقى مسؤولا عن كليهما وان يناور بالتوتر الخلاق بينهما. وبوصفه الامين العام للحزب، كان غورباتشوف على رأس اقوى جهاز في الحياة السوفيتية. واستطاع ان يزيح التقليديين العاملين تحت امرته وان يرقي المفكرين الجدد، وان يطهّر الحزب من المتراجعين وان يراقب حركات الاعاقة والتخريب والتمرد. وفي ذات الوقت بوصفه رئيس مجلس السوفيت الاعلى كان قادراً ان يتقدم كراس حربة نحو المعارضة المخلصة ويثبت وجوده علناً مع قوى التغيير، قابضاً على النشاطات كلها تحت سيطرته، وشاغلاً مركزاً وسطاً بين متطرّفي جميع الاوساط. وبذلك عزز مكانته في البلاد وفي الخارج بوصفه البديل المركزي لجميع الحمقى. بأختصار انه الرجل الذي لاغنى عنه. انه يلعب لعبة تحدي الموت على حبل عالٍ مشدود بين عمودي الحزب والدولة. الى حد قريب، كانت هذه اللعبة تسير سيراً حسناً، حتى بالنسبة لغورباتشوف نفسه. الا انه يشق طريقه في التاريخ بطريقة من تتطلب منه سلامته الشخصية ان يتجنب كمائن من يريدون به شرّاً. لذلك كانت طريقة المباغتة في شق الطريق من افضل انواع الحرس الخاص به، اذ يتجنب بأستمرار الوقوع في الشراك، بتغيير مساره على الدوام. وهو يفيد من حالة التضارب او التنافر، بل انه يخلق من هذه الحالة نوعاً من انواع الفن السياسي وان قدراً من عبقريته يكمن في قدرته على جعل مالم يكن التفكير به مألوفاً بالامس، شيئاً معقولاً اليوم وشيئاً محتوماً غداً. ويظن انه يتلذذ بأجتياز الخطوط الحمر التي يحددها له رفاقه وخبراء الشؤون الخارجية على انها خطوط يجب ان تقف جرأته عند حدها دون تجاوز. وفي هذا المجال كانت ضربته الكبرى في الاسبوع الماضي، اذ استطاع من خلال اللجنة المركزية ان يستل موافقتها على التخلي عن سيادتها.. فكانت هذه الضربة هي قطف ثمار الغورباتشوفية. ومن الجائز ان تكون هذه الضربة هي نقطة التحول المهمة الفريدة في تحول الاتحاد السوفيتي وفي تطور غورباتشوف نفسه.

منذ الايام الاولى للبولشفية بقيادة لينين، أصر الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي على دور القائد في ـ وعلى ـ المجتمع والدولة والثقافة، واهم من ذلك كله، في حياة الفرد، واطلق الحزب صفة ديكتاتورية البروليتاريا، على نفسه، وكذلك صفة طليعة الكادحين، وقد عمل على وفق مبدأ «المركزية الديمقراطية» على ما في هذا المبدأ من تناقض اصطلاحي صارخ بين (المركزية) و (الديمقراطية). وكان كل فرد يعرف، التمويه في هذا الكلام وما ترمي اليه كل كلمة تقال: وهو ان الحزب هو السيد، ولاوجود لسيد آخر غيره.

اما الآن فيأتي سيد الحزب ويلمح الى الشيوعيين بأن م يجب، في نهاية المطاف، ان يُقرّوا بولاء المواطنين من جميع المعارضين من صنوف المعارضة الاجتماعية والدستورية وربما حتى المسيحية الديمقراطية، وكذلك النقابية التي هي على غرار نقابة التضامن البولندية والفلاحية من اي نوع كان، (ومن يدري؟) ربما من الجماعات الملكية، ومن الدينية الاصولية. ان هذه التحولات والتوجهات " تستغرق شهوراً. اذا ما سارت بالطريقة التي هي عليها الآن. الا ان المهم هو ان مبدأ الديمقراطية قد ترسخ وان غورباتشوف قد جرَّ رفاقه، وكثير منهم يرفسون ويولولون، الى اتخاذ القرار الخطير.

ان الحزب بالنسبة للسياسة مثل الغوسبلان (اي وكالة التخطيط الحكومية المركزية) بالنسبة للاقتصاد. فلوقت ما كان يسمح لابناء جورجيا المغامرين ان يطيروا الى موسكو في الشتاء القارص ليبيعوا ورودهم بأي سعر يستطيعون الحصول عليه في محطات قطارات الانفاق. اما مؤخراً، فأن الكولاكيين (اي المزارعين الاغنياء) فيبيعون في اكشاك خاصة الخضروات التي يزرعونها في اراض خاصة. ويكسب سواق سيارات الاجرة واصحاب المطاعم والناشرون المالَ، في انطقة رأسمالية ناشئة في صلب التعاونيات. وحتى الدولة اخذت بهذا المسلك، اي بإرساء المزايدة على العملات الاجنبية بالروبلات على اكثر المزايدين عطاءً. لكن في جميع الحالات كانت سياسة عدم التدخل الاقتصادية غير المرئية فعالة فقط في هوامش الحياة الاقتصادية.

تلك هي المسألة ـ ان الاصلاح هامشي ـ وهذا هو ما يفسر حركة غورباتشوف الاخيرة، البالغة الجراة. وسوف يكون الشهر القادم هو الذكرى السنوية الخامسة لتسنّمه كرسي السلطة.



وبالحساب السوفيتي، انها نهاية الخطة الخمسية الفردية الاولى لغورباتشوف. لذلك حان وقت اعطاء الحكم على التجربة. وهذا الحكم قاس. ان حصة المستهلك السوفيتي ليست راكدة بل انها مخربة. ان الكلمات الرنانة امثال: الكفاءة والحافز والمبادرة والتنافس والانتاجية والمساواة والكرامة، باتت جوفاء مثل الشعارات القديمة عن مجد العامل الاشتراكي.

ان ما قد سُمّي بالبيريسترويكا الاولى آلت الى الاخفاق. والسبب الرئيس، بالرغم من ضروب الحث والحض لحكامها الاصلاحيين، هو ان الاتحاد السوفيتي مازال يمتلك اقتصاداً موجهاً ونظاماً سياسياً ديكتاتورياً. فمدراء العمل ينتظرون الاوامر من أعلى. والقادة الاقليميون ينظرون الى موسكو، وكل فرد ينظر الى الحزب، والى تلك الهيئة التي اجتمعت وناقشت ومن ثم اذعنت لارادة غورباتشوف في موسكو في الاسبوع الماضي، الا وهي اللجنة المركزية.

ان كلمة (مركز) ذاتها لها مدلولات في الروسية: وان غورباتشوف يقوم بمعركة ضدها وهو يستعد لاعوامه الخمسة القادمة، من اجل بيريسترويكا ثانية. قد تكون المركزية هي نظام الوقت الراهن، الا ان المركزية كانت حقيقة حياتية على مدى عقود من الزمن. ومن الصعب على العادات القديمة والمخاوف القديمة ان تموت، لاسيما حينما يكون الحزب مازال قائما، اذ يُبقي عليها حيّة. ولهذا السبب فأن غورباتشوف وناصحيه الرئيسيين توصلوا الى تلك النتيجة: انه لامر متضارب ان تكون المطالبة بمزيد من الاصلاح مع وجود مستمر لحزب كامل السلطة. فالتحديث يتطلب التنازل عن السلطة المركزية، اي عن الحزب الذي هو بطبيعته العصية الاصلاح يقاوم هذا التنازل. اما غورباتشوف فقد قرر بأن الحزب يشكل عقبة في طريق البيريسترويكا الثانية. ويجب اجراء فعل ما، وهذا ما جرى في الاسبوع الماضي.

دعـوا الاحـزاب تـبدأ..

جون كوان



ـ للأسف، اننا بدأنا ننبذ كل شيْ قـديم بسهـولـة وضمن ذلـك تلك الاشيـاء التي من الممكن ان تكون مفيدة الآن.

بـوغور نيگـاتشيف، عضو المكتب السياسي المحافظ.

كانت الاشارة الاولى على انتهاء محنة ميخائيل غورباتشيف التي دامت ثلاثة ايام قد جاءت قبل الساعة التاسعة والنصف بقليل من مساء الاربعاء الماضي، حينما سطعت اضواء عدسات التلفزيون في قاعة وزارة الخارجية فجأة. وعلى مدى ثلاث ساعات كان مراسلو صحف موسكو ينتظرون بفارغ الصبـر وفداً من رسميي الحـزب برئاسة عضو المكت السياسي الكسندر يـاكوفيلف ونـائب الرئيس آناتولي لوكيانوف، لكي يأتوهم بـأنباء السـاعات الاخيـرة للجلسة المتكاملة للجنة المركزية للحزب الشيوعي. كان هذا الحدث يُعتبـر اجتماعاً اما مؤيداً او معارضاً للقائد السوفيتي وبرنامج اصلاحاته السياسية والاقتصادية التي لاسابقة لها. كان السؤال يتعلق بمدى قدرة غورباتشيف على مواصلة كسب المواقـع وبسط سلطتـه على المحافظين المحصنين من اعضاء الحزب.

لم تكن هناك حاجة للسؤال. فما ان ظهر مسؤولو الكرملين من القاعة، حتى لوحظ ان الجواب مكتوب على وجوههم. وبعد ان امتدح الجلسـة المكتملة بكـونهـا «خـطوة مهـمـة.. بعيـداً عن النمـوذج البيروقراطي ـ الفاشستي للاشتراكية، باتجاه مجتمع ديمقـراطي اختار الاشتراكية، سؤل باكوفيلف عن كيفية تاثير الاجتماع عـلى موقف غورباتشوف، فابتسم قائلاً: «كان التأثير ايجابياً جداً، جداً».

وهذا صحيح، صحيح جداً. ومع ان من السهل في هذه الايام، ايام التغيير الساحق في العالم الشيوعي، ان تُستخدم كلمـات مثل «تاريخي» و«صاعق» غالباً، حتى انها من كثرة الاستخدام قد تبدو ضبابية المعنى، لكن ماانجزه غورباتشيف في الاسبوع الاخير هو شيْ «تاريخي» حقاً. ومع وجود الجدل عما ستلعبه هذه الاصلاحات، فان شهر شباط لعام ١٩٩٠ سوف يدخل في التاريخ السوفيتي بوصفه شهراً مساوياً في اهميته لشهر شباط ١٩١٧ عندما انتهت سـلالة رومانوف بعد ٣٠٠ عام من الحكم بتنازل القيصر نيكولاي الثاني عن العرش.

بعد مناقشة صاخبة وافقت اللجنة المركزية المؤلفة من ٣٤٩ عضواً على مسودة البرنامج السياسي الذي سينـهي في الواقع احتكار الحزب الشيوعي للحياة السياسية والاقتصاديـة على مـدى سبعة عقود من السنين. علاوة على ذلك اقترحت اللجنة المركزيـة فحصاً دقيقاً لمكتب الحزب السياسي الحاكم وانشاء نظام رئاسي للحكومـة يضع في يدي غورباتشـوف سلطة واسعة ويمنحـه، على الورق في الاقل، سلطة اعظم من سلطة اي زعيم آخر في التاريخ السوفيتي. وهذا امر جيد بالنسبة لحزبي أُشيع عنه قبل اسبوعين فقط انه سوف يستقيل. ومن الطبيعي ان يقال ان غورباتشـوف كان يعـاني من صعوبة سياسية تقريباً منذ اليوم الذي تسَلّم فيه السلطة قبل خمسة اعوام. على اية حال، منذ بداية هذا العام، كانت هناك دلائل على ان الزعيم السوفيتي كان يتعثر في عمله المتوازن البارع. فبالرغم من توسطه الشخصي، اقسم الشيوعيون الليتوانيون على مواصلة درب التحدي في الاستقلال عن موسكو. كمـا ان التوتـرات العرقيـة في قفقاسيا تفجرت في صورة حرب اهلية حقيقية، مما اضطرت معها موسكو أن ترسل دبابات الى اذربيجان لحماية السلطة السوفيتية. في غضون ذلك اصبحت الهمهمات مسموعة عن وجود فراغ في القيادة المركزية، كما تناقصت البضائع الغذائية والاستهلاكيـة وتزايـدت الجريمة والفساد.

كان هذا كله دليلاً، بالنسبة لمناوئي غورباتشيف المحافظين، على ان صيغته في الاصلاح كانت تدفع البلاد نحو الفوضى. يُضاف الى ذلك ان اعضاء اللجان الحزبية الذين أُطيح بهم وعادوا شيوعيين اعتياديين نفّسوا عن غضبهم ايضاً بسبب فقد انهم الامتيازات التي كانوا ينعمون بها في وقت كـان يقف فيه كـل فرد آخـر في الطابور منتظراً.

في عشيـة الاجتماع اعـدّ الاصـلاحيـون من ذوي العقـول الراديكالية لضربتهم السياسية الاكثر تاثيراً لحد الآن. في الحقيقة

●لقد فات الاوان ان نناقش اذا كانت البلاد تحتاج الى نظام متعدد الاحزاب أولا تحتاج. فهذا عمل قد انجز.

نيكولاي رزخوف، رئيس وزراء.

●لقد أوصلنا الوطن الام الى حالة مزرية، وحولناه من امبراطورية نالت اعجاب العالم كله الى دولة ذات حاضر غير مجيد ومستقبل مجهول.

فلاديمير بروفيكوف، السفير في بولندا.

ليس بالامكان الخروج بمقارنة مهما كانت، منذ سنوات النظام البولشفي. ان جمهوراً يزيد عن ٢٠٠ الف شخص شق طريقه في وسط موسكو صوب ظلال جدران الكرملين في اجتماع يدعو الى التغيير الديمقراطي. كانت الرسالة واضحة في الشعارات البارزة فوق السائرين وهي: ايها الحزب الشيوعي السوفيتي.. سئمناك. ليذهب ليگاتشيف وزمرته.. ٧٢ عاماً على طريق لايؤدي الى اي مكان.

واذا كان امناء الحزب الاقليميون المتحفظون من الاصلاح الذين جاءوا للاجتماع في الجلسة، بحاجة الى شعارات مخطوطة تذكّرهم بمخاطر تأخير التغيير، فما كان عليهم الا ان يطلوا من نوافذ فنادقهم ويروا ذلك البحر من المحتجين.

وفي اليوم التالي كان غورباتشيف رابط الجاش ظاهرياً حينما قدم خطابه الافتتاحي، غير ان المشاركين لاحظوا ارتعاشة توتر في صوته. لقد قال انه لم يكن قصده "ان يجعل الموقف درامياً وان ينمّ عن صفة حزينة" للقرارات المصيرية التي تواجه الجلسة، لكن "الحزب سيكون قادراً على انجاز رسالته كطليعة سياسية لو انه فقط يعيد بناء ذاته جوهرياً وان يتقن فن العمل السياسي في الظروف الراهنة وينجح بالتعاون مع جميع القوى الملتزمة بسياسة البيريسترويكا". لكن كلمته التي دامت ساعة واحدة لم تلق ترحيباً حاراً بعد الانتهاء منها.

وبعد ان تحمل غورباتشيف، في شهر كانون الماضي، نازلة من النقد في الجلسة، كان مستعداً ان ينازل جمهوراً صعباً مرة ثانية، مع اختلاف واحد هذه المرة: الا وهو ان جريدة "البرافدا" كانت تنشر المحاضر الكاملة للجلسات المغلقة في كل يوم.



ـ هذه هي فرصة غورباتشوف الاخيرة، فاما ان يتصرف واما ان يفقدنا.

بورس يلتسن، برلماني واصلاحي من موسكو

وبالرغم من الكلمات القاسية الموجهة الى برامجه عبر الايام الثلاثة التالية، فان غورباتشيف الذي عُرف عنه نفاد الصبر علناً، قد حافظ على رباطة جأشه. كما انه تبادل المزاح مع عضو المكتب السياسي (يغورليگاتشيف) الزعيم الفعلي للمعارضة المحافظة، عندما عاد الاخير الى مقعده بعد ان قدم دفاعاً غوغائياً ضد برنامج غورباتشيف. وحينما جرى التصويت مؤخراً على اقرار الوثيقة. التي اقرها الجميع ماعدا صوت واحد مخالف هو صوت بورس يلتسن - فقد كسر الزعيم السوفيتي التقليد ودعا ١٠٨ اعضاء مرشحين للجنة المركزية واكثر من مائة ضيف للمشاركة في التعبير عن آرائهم. في هذه المرة كانت الاستجابة بعرض الموافقة الاجماعية بالايدي. ان هذا البرنامج الذي مازال يتطلب اقرار مؤتمر الحزب له في الصيف القادم، ليس مخطط عمل نوعي بقدر ماهو مخطط اولي للاصلاح. لقد اشتكى بعض اعضاء اللجنة المركزية بأنهم تسلموا الوثيقة عند وصولهم الى الجلسة، ملمحين الى ان الوثيقة قد سودت على عجل او انها حجبت عمداً لتضع القوى المحافظة في موقع في غير صالحها. من اهم نقاط الوثيقة مايلي:

١ ـ يجب تعديل الفقرة السادسة من الدستور السوفيتي المنتهية بالدور "القائد" للحزب الشيوعي والترحيب بامكانية منح اعتراف رسمي بالحركات السياسية الاخرى.

كان غورباتشيف، قبل عام، قد رفض فكرة نظام متعدد الاحزاب بوصفها هراءً وحذّر من اتخاذ قرار متسرع ازاء الفقرة السادسة في مؤتمر نواب الشعب في كانون الاول. لكنه في زيارته الى لتوانيا في كانون الثاني لم ير "مأساة" في تطور نظام متعدد الاحزاب، وقال في الاسبوع الماضي انه مازال على الحزب الشيوعي ان يناضل من اجل ان يلعب دوراً قائداً لكن "في اطار العملية الديمقراطية وبتركه لجميع الامتيازات القانونية والسياسية." وقال ان الشيوعيين اعترفوا بأن احزاباً بديلة قد تتطور وانهم على استعداد للتعاون واجراء حوار "مع جميع التنظيمات الملتزمة بالدستور السوفيتي والنظام الاجتماعي المصادق عليه في هذا الدستور" غير ان البيان لم يوضح ماهو موقف الكرملين ازاء الجماعات السياسية التي لاتؤيد نظاماً اشتراكياً.

متى سوف يصبح الاتحاد السوفيتي ديمقراطية متعددة الاحزاب؟ من المحتمل الا يكون ذلك في وقت قريب، مادام الاحتكار الشيوعي الراهن في السلطة، والبناء التنظيمي له منتشر في جميع انحاء البلاد. وفي الاسبوع الماضي حذّر ياكوفليف ضد اجراء



ـ نحن لانؤمن بأن اي حزب مفرد ينبغي ان يدعي الاحتكار.

الكسندر ياكوفيلف، عضو المكتب السياسي ونصير غورباتشوف.

مقارنات كثيرة بين الاحداث في اوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي، مشيراً الى ان معظم تلك الاقطار كانت تتمتع بتقاليد السياسة المتعددة الاحزاب. وان الجماعات التي تناصر الفاشية والارهاب والعسكرية والتطرف القومي لاتتجاوب مع صيغة تسجيل الاحزاب. لكن ليس من الواضح بعد من الذي سوف يقرر الاحزاب المؤهلة.

٢ ـ يجب اعادة تنظيم المكتب السياسي واللجنة المركزية بمستشارين حزبيين جدد

كان الليبراليون في الاسبوع الماضي قد عبروا عن خيبتهم لعدم وجود تغييرات في العاملين في اللجنة المركزية. ومن الجائز ان غورباتشيف قد قرر انه لاموجب لغربلة المكتب السياسي مادامت ايام المؤسسة معدودة على اية حال. وتتطلب الخطط الجديدة انشاء لجنة رئاسة مركزية مؤلفة من حوالي ٣٠ عضواً يراسها رئيس ومساعدا رئيس. وبأمر لايقاف الاتجاه الانشقاقي الذي بداه الشيوعيون الليتوانيون، فقد تضم الرئاسة ممثلين من جميع الجمهوريات الخمس عشرة.

ان غورباتشيف يريد ايضاً لجنة مركزية جديدة عصرية "تعمل على قاعدة ثابتة" مؤلفة فقط من ٢٠٠ عضو لهم حق التصويت بدلاً من الـ ٢٤٩ عضواً الحاليين الذين لهم حق التصويت اضافة الى الـ ١٠٨ اعضاء اخرين الذين لاحق لهم بالتصويت واعلن ايضاً انه ضد اختيار الاعضاء لمجرد كونهم يحتلون مراكز هامة. وكان لاقتراحه هذا منتقدوه لاسيما من قبل السفير في بولندا (فلاديمير بروثيكوف) الذي تساءل بسخرية ان كان العدد ٥٠٠ سوف يفسد من شأن الديمقراطية، بدلاً عن الـ ٢٠٠ عضو المقترحين في الوثيقة".

٣ ـ يجب انشاء مركز رئاسي مزود بالسلطات التنفيذية والادارية الكاملة.

لقد ناقشت الجلسة خططاً لاستثمار المركز الرئاسي لسلطات أعظم، من اجل خلق رئاسة على غرار نموذج الرئاسة الامريكية او الفرنسية. ومن المحتمل ان تضم الحقيبة الجديدة للرئيس السوفيتي مسائل الامن القومي والسياسة الخارجية و (ك. جي. ب) والنظر الشامل في الاصلاحات الاقتصادية. ويعتقد جورجي ارباتوف، افضل اخصائي في البلاد في الشؤون الامريكية، ان الرئيس الجديد يجب ان يتمتع بسلطات (ڤيتو)، ملاحظاً "اننا ينبغي ان ندرس التجربة الامريكية بعناية في هذا الموضوع".

في الوقت الحاضر سوف يستمر انتخاب الرئيس من قبل مؤتمر ممثلي الشعب، لكن فكرة الانتخاب الشعبي المباشر من الممكن ادخالها في دستور جديد.

ان مركزا كهذا سيكون على مقاس غورباتشيف، جاعلاً منه في الواقع راعي البيريسترويكا، ومشرفاً قوياً يستطيع ان يكون فيصلاً بين الجماعات ذات المنفعة السياسية وان يحث البرلمان عملياً وان يحجب التشريع الذي قد يتناقض مع رؤيته الاصلاحية، بأيجاز سوف يكون الرئيس الجديد "يداً حديدية" في المركز يؤيده المناصرون والاعداء للاصلاح الجذري في غضون فترة الانتقال الى دولة يحكمها القانون.

لكن هل سيذهب غورباتشيف الى المنصب بوصفه شيوعياً؟

كان هذا السؤال قد وجهه جيمز بيكر وزير خارجية الولايات المتحدة الى غورباتشيف في لقاء معه. فرد الاخير:

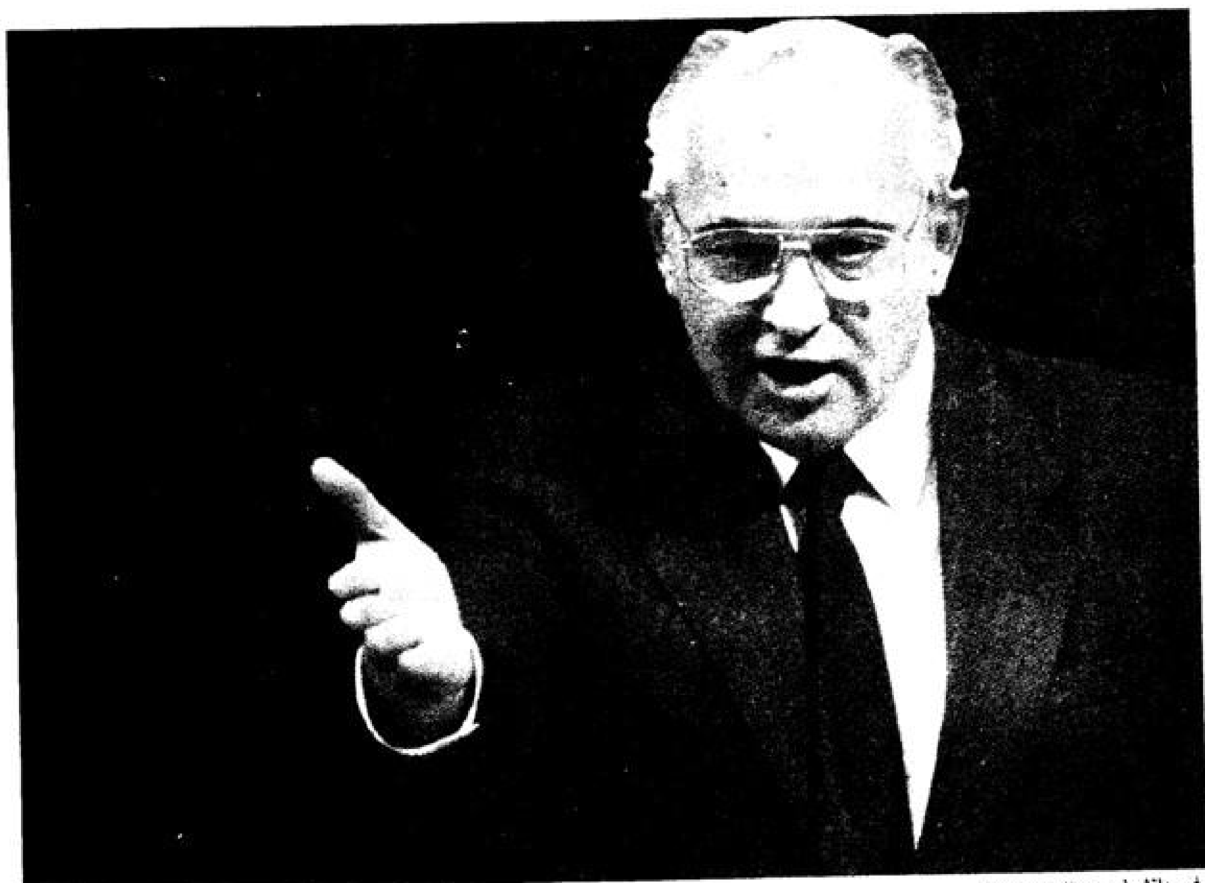
"لننتظر ونرى."

٤ ـ يجب السماح بجميع انواع الملكية ماعدا النوع الناشئ عن استغلال مواطن لآخر.

هل ان الحزب الشيوعي مستعد ان يصادق على الملكية الخاصة؟

قال يوري بروكوفيف رئيس الحزب في موسكو والذي كان عضواً في اللجنة لتنقيح البرنامج، ان المناقشة حول الملكية في الاسبوع الماضي كانت حادة لدرجة "انها استغرقت ساعات من اجل كتابة جملة واحدة." فبدلاً من القول "ملكية خاصة" عدلت الوثيقة واصبحت الصيغة «هي الملكية الناشئة عن العمل الفردي». ان تخفيف التحديدات قد يسمح بظهور اعمال صغيرة ذات ملكية خاصة او بظهور مصانع تشكل وحداتها الانتاجية الخاصة بها لصناعة الادوات او الاجهزة الزراعية مثلاً.

ويؤكد البرنامج ان من حق الفلاحين تأجير الارض (مع حقوق الوراثة) بواسطة المستشارين الحكوميين المحليين والسوفيتات. وتمثل هذه العبارة انتقالة مهمة بعيداً عن الممارسة الراهنة المتعلقة بأيجار الارض بواسطة المزارع التعاونية والحكومية. ومن المتوقع ان



غورباتشوف يدير ظهره الى لينين

يشجـع هذا عـلى خلق زراعة صغيـرة الحجم. وحسب تصـريـح غورباتشيف، «يجب ازالة جميع العوائق في طريق الفلاح. ويجب ان تطلق يده.»

٥ - يجب ان تنشـأ الفيدراليـة السوفيتيـة على اسـاس نظام الاتفاقيات مـع الجمهوريـات، بحيث تسمح هـذه الاتفاقيـات بأمكانية وجود علاقات مختلفة الانماط مع موسكو.

لقد عاقب غورباتشيف اللتوانيين ذوي النـزعة الانشقـاقية لرفضهم فكرة فيدرالية سوفيتية جديدة منجزة.

ان برنامج الحزب يتبع الخط الاسـاسي الذي أقر في جلسـة ايلول الماضي بخصوص القوميات. انه يدعـو الاتحاد الراهن الى اعـادة التنظيم على اساس عقد طوعي جديد بين الجمهوريات والسلطات المركزيـة. لكنه يتـرك الامكانيـة مفتوحـة "لاشكال متنـوعـة من الارتباطات الفيدرالية."

لقد تشدد المحافظون في اليوم الاخير للجلسة في مسألة معالجة اعضاء الحزب الليتواني العاصين او المتمردين.

لكن غورباتشيف لجأ الى نغمة توفيقية حاثاً رفـاقه اللتـوانيين ان يعلقوا قرارهم بالانفصال عن دوائر موسكو المركـزية وان يقـدموا برنامجاً ينظر فيه مؤتمر الحزب في هذا الصيف. وقال انه ينبغي ان يقدم الحزب المركزي مسـاعدة لاعضـاء الحزب اللتـواني الذين يحـافظون عـلى اخلاصهم. لكنـه يقبـل بحضـور المنـدوبـين من المجموعتين المخلصة والمتمردة الى مؤتمر الصيف القادم.

وقال غورباتشيف: «يجب ان نكون جميعنا معاً، وان يشعر كل منا بدعم الاخر وان نعمل سوية. ويجب الا نبدأ بالانقسام الى قبائل وجماعات. فهذا الطريق يؤدي الى تدمير الحزب والبلاد».

ان التاريخ وحـده هو الذي سيقـول كلمته: ان كـانت هذه الكلمات ستثبت كونها دعوة ناجحة للوحدة او انها دعوة طريفة لعصر سبق له ا ن توارى.

كيف ننقذ البيريسترويكا ؟

فرسكو اندت



حوار مع نائب رئيس الوزراء السوفيتي (ليونيد ايفانوفنش ابالكن). العمر ٦٠ سنة. المصمم المعماري الاول لاصلاحات غورباتشوف الاقتصادية. اجرى الحوار معه مراسل نيوزويك (فرسكو انديت). عندما كان يقوم بزيارة الى هولندا في الاسبوع الماضي:

- بعض اصلاحاتك المقترحة.. سوق محررة.. ملكية ارض.. اصلاحات ضرائبية.. قد ادخلت عليها حكومتك تعديلات في اجتماع الشهر الاخير لمؤتمر ممثلي الشعب.. لماذا؟.

● في وضعنا الصعب يجب أن نلعب لعبة الاجماع. بالنتيجة نال البرنامج دعماً واسعاً وثقة من برلماننا. وارى في ذلك انتصاراً وانا سعيد بالنتيجة.

- ماذا عن الاسبقيات؟ اتريدون قروضاً؟ مشاريع مشتركة؟ ام تقنية من الغرب؟.

● نريد تعاوناً في جميع المجالات. نريد ان نمنح مشاريعنا ونظائرها من المشاريع الغربية الحرية الكاملة لترسيخ اسبقياتها الخاصة. لكن على قمة اسبقياتنا ترصين سوقنا الاستهلاكية وتداول النقد في البلاد وايجاد الحلول للمجموعة الكاملة من المشكلات الاجتماعية المترابطة. ليست هيبة الدولة وحدها بل مصير البيريسترويكا ايضاً يعتمدان على النجاح في هذا المجال.

- ما قوة موقف غورباتشوف؟ كم يستطيع أن يبقى في السلطة، لاسيما وان الرفوف في مخازنكم فارغة؟.

● انت تعرف الجواب على هذا السؤال جيداً. عندما تختفي البضائع الاستهلاكية في المخازن فأن قائد البلاد لايتمتع بتعاطف الناس معه. هذا هو الموقف دائماً في مثل هذه الحالة. لكن دعني أوضح هذه المسألة بجلاء: ان من واجبي انْ احصل على نتائج سريعة وعلى نطاق واسع. واننا في فترة تتراوح بين ستة اشهر وعام سنرصّن السوق الاستهلاكية، لنري الناس ان الامور في تحسن. وبذلك نقوي سلطة البيريسترويكا وندافع عنها، وكذلك نقوي سلطة غورباتشوف. تلك هي مشكلتي.

- اليست السنة فترة زمنية قصيرة جداً؟.

● لقد منحنا البرلمان حق الثقة. ومثل هذا الحق له شرط دائماً. فاذا لم ننجح في عام واحد، فأن مدعين جدد سوف يأخذون مسؤولية الحكومة. ليست جميع المشاكل سوف تُحل في عام واحد، لكن من المهم ان نرصّن ونؤشر انعطافة نحو الافضل. والامور ستتحسن في الشارع، وسيكون من الممكن ان نسترد انفاسنا.

- ما هي اكبر اخطاء غورباتشوف في الماضي القريب؟.

● ينبغي الا يُقدم غورباتشوف على انه نصف إله. انه لايتخذ قراراته دون استشارة الآخرين. انني احب ان اقلب السؤال: ما هي الاخطاء التي اقترفتها القيادة السوفيتية في الماضي؟ الجواب: اخطاء كثيرة.

اننا فشلنا في تعلم الدروس من الاقطار الاخرى عند ادخال الاصلاحات الاقتصادية. فالاصلاحات يجب ان تبدأ بالزراعة اولاً، وبالصناعة الخفيفة وصناعة الخدمات ثانياً. وجميع هذه الاصلاحات كان ينبغي ان تُنجز بسرعة. لو اننا اصلحنا زراعتنا قبل اربع اوخمس سنوات، كان من الممكن ان يكون الوضع افضل الآن. في هنغاريا والصين بدأت الاصلاحات بالزراعة ومن هناك خلقوا سوقاً لمنتجاتهم.

اما نحن فقد قدمنا نظام الاصلاح الضرائبي في وقت متأخر جداً. وهذا ما فعلناه ايضاً في التخطيط وفي ادارة المؤسسات.. وكانت

الغلطة الحرجة هي الطرح المتسرع لحملتنا ضد الكحول. وكان لذلك كله اثره السلبي على ميزانيتنا، فبرز الاقتصاد التحتي ولم تظهر النتائج الايجابية. وبعبارة اخرى، اتخذت القرارات بسرعة متناهية دون استشارة العلماء او الخبراء الآخرين. هذا اعطانا درساً: لااحد يعمل دون ان يخطئ.

- لكن كان يبدو في كانون الاول انكم اجلتم الاصلاحات.

● احياناً قد يبدو اننا نؤجلها، وبضمنها الانتقال الى الاقتصاد التسويقي، في عامين او ثلاثة. لكن في الواقع ليس الامر كذلك اطلاقاً. انني اتساءل من اين يأتي الناس بهذه الافكار؟ لعل ذلك مرجعه انكم توقفتم عن امكانية الغاء ملكية الدولة ووضع نظام للاقتصاد التسوقي مباشرة؟.

● ان اقل ما يجب ان نفعله للاعداد لانتقالة كهذه هو ان ننزع ملكية الدولة وان نؤسس الاساس الصحيح: اي اسواق البضائع والاسهم المالية والمراكز التجارية والاستقلالية والوسائل المنظمة المضادة للتضخم، والطرق التي توفر الحماية الاجتماعية وتدرب الناس. وهذا يعني انه لايوجد مكان لسوق متطور من اي نوع كان عندنا لحد الآن. كان السوق هو موضوع المناقشات في الاتحاد السوفيتي في السنوات الخمس والعشرين الاخيرة. اما الاختلاف اليوم فهو ان ننتقل من الكلام الى الفعل.

- لكن هناك اسبقيات ملحة اخرى. هل تعتقد ان حكومتك ستكون قادرة على كبح حرب اهلية في قفقاسيا؟.

● ان الموقف حرج. ان جميع الجهود لايجاد حل سياسي باءت بالفشل. فقد سفكت دماء وحصلت ضحايا بشرية. هذا شيء مؤلم بالنسبة لشعبنا السوفيتي. سوف نفعل كل شيء من اجل ترصين الموقف بالوسائل السياسية.

- كيف تقيم الفرص لأن تصبح جمهوريات البلطيق مستقلة؟.

● سوف تصبح هذه الجمهوريات مستقلة شأنها شأن جميع الجمهوريات في الاتحاد السوفيتي. واذا تحدث المرء عن الاستقلال الاقتصادي لهذه الجمهوريات، فأن قانوناً جديداً وضع موضع التنفيذ في اوائل كانون الثاني وطبقته هذه الجمهوريات الثلاث مع روسيا البيضاء. وهذا يعني انهم يستطيعون ان يقوموا بأعمال مع الغرب بصورة مستقلة.

امرأة من ايستونيا:

نحن نصنع تاريخاً..


لوريستن

للمناضلين من اجل الحرية ذكريات طويلة. ففي عام ١٩٥٦ استمعت (مارجو لوريستن) الى المذياع وهو يعلن سحق الانتفاضة الهنغارية. واللغة الهنغارية هي واحدة من اللغات القليلة الرئيسة التي ترتبط بلغتها الايستونية الام. وهي تتذكر شعورها بالقنوط والتعاطف نحو محاولة هنغاريا الشجاعة من اجل الحرية، ولو انها كانت محاولة لم يحن نضجها بعد، ولهذا فقد اخمدها الاستبداد الشيوعي. اما الآن، وهي زعيمة للجبهة الشعبية الايستونية، فان لوريستن تعمل من اجل استقلال شعبها. ان العوائق ضدها ضخمة، وهي ليست مثل العوائق في الاقطار المتحررة حديثاً في اوربا الشرقية، لأن ايستونيا جزء من الاتحاد السوفيتي نفسه، كما انها احدى جمهوريات البلطيق الثلاث المستولى عليها في ١٩٤٠. غير ان لوريستن، وهي في التاسعة والاربعين من العمر، تأمل ان يساعد لتخطيط الهادئ والمنهجي على النجاح في الوقت الذي تفشل فيه اشكال التمرد المندفعة. انها تصرّ على القول: "نحن لسنا مشكلة داخلية في الاتحاد السوفيتي. ويجب ان نتخلص من عقلية الحرب العالمية الثانية وان نجد صيغة جديدة لحل المشكلات الاوربية لاسيما المشكلات الحدودية، ويجب ان نجد مكاننا في العالم."لقد ساعدت لوريستن، التي تتراس قسم الصحافة في جامعة تارتو، في تنظيم مظاهرة ضخمة في آب الماضي اشترك فيها مليون شخص من لاتفيا وايستونيا ولتوانيا. انها مسرورة بالتشريع السوفيتي الخاص بخطة الاستقلال الذاتي لجمهوريات البلطيق التي ستمنح الجمهوريات الثلاث السيطرة على اقتصادياتها المحلية. تقول: «كانت هذه فكرة الجبهة الشعبية. اما الان فهي فكرة متبناة رسمياً».

وتشمل خطة الجبهة في الحصول على الاستقلال الشامل من الاتحاد السوفيتي، على اجراء مفاوضات مع موسكو. تقول لوريستن: "اننا نصنع تاريخاً لشعب الاتحاد السوفيتي كله. واننا نرشد الى طريق الخلاص. ليس بالضرورة طريق الخلاص من الاتحاد السوفيتي نفسه، بل طريق الخلاص من وضعنا البائس. فاذا استطعنا ان نكون احراراً، فسوف يكون بوسع الآخرين جميعاً ان يكونوا احراراً."

نظرة تاريخية موجزة الى الحزب الشيوعي السوفيتي

اوتو فريدريتش



لينين في عام ١٩١٩.. صورة من الماضي الغابر

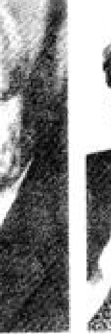
● كـان المـؤتمـر الأول لحـزب العمـال الديمقـراطيين الاشتـراكيين الروس، الذي صار حزبـاً شيوعيـاً فيما بعـد، يتألف من تسعة مندوبـين فقط يمثلون اربـع نقابات وصحيفـة عمـال وجمعيـة ديمقـراطيـة اشتراكية يهودية سيـاسية. اجتمـع هؤلاء المنـدوبون التسعـة في (منسـك) في الايـام الثلاثة الاولى من شهر آذار ١٨٩٨ واعلنوا انفسهم حـزبـاً وطالبـوا بـاطاحـة حكـام رومـانوف وعـادوا الى بيـوتهم حيث القي القبض على ثمانية منهم فوراً

● تمت الاطاحة بالقيصرية بعد ٢٢ عاماً. وكـان وريث تلك الجمـاعـة الذي لم يكن حـاضراً اجتمـاع (منسك) هـو فـلاديمـ اليانوف الذي اطلق على نفسه اسم لينين من بين اسماء أخرى.

● كان لينين ابناً لمعلم عالي الثقافة وقد طُرد من المدرسة لمشاركته في احتجاج طلابي. وفي فترة تسكعه في البيت اكتشف اعمال كارل ماركس التي كانت تتنبأ بالسقـوط الحتمي للراسمالية وامبراطورياتها. في نهايـة الامر حصل على شهـ ـة القانون. وادى به اعجابه بكارل الى السفر الى سـويسرا حيث التقى بالمنفي جورج بليخانوف. عند عودتـه الى الوطن قبض عليه وحوكم وسجن ونفي الى سيبيريا. عليه فان لينين كان بعيداً حين مولد الحـزب الديـمقـراطي الاشتـراكـي في (منسـك).. وعند خـروجه من سيبـريـا في ١٩٠٠ عـاود الارتباط بقـوى بليخـانـوف واصـدر جريـدة (الشرارة) لتنـظيم عودة ميلاد الديمقراطيين الاشتراكيين، في نهايـة ذلك العام في ميونخ. وفي بروكسل في ١٩٠٣



ستالين في الثلاثينات



بريجنيف



خروتشيف

افتتح الاجتماع الثاني للحزب. بعد ذلك مباشرة انقسم الحزب الصغير. فأصر لينين على ان يبقى الحزب صغيراً ولكن بانضباط عال ووصف حزبه بحزب البولشفيك (الغالبية) فيما أطلق على المجموعة الاصغر المنشفيك (الاقلية). واستمر هذا الانشطار عقوداً طويلة. وكان بليخانوف قد اتخذ جانب المنشفيك وكذلك فعل (ليف برونشتاين) الذي كان يوقع كراساته النارية باسم (تروتسكي).

● وحينما انتفض العمال الروس في تمرد تلقائي واسع النطاق في ١٩٠٥، كان تروتسكي، وهو مازال في الخامسة والعشرين من عمره، هو الذي قاد سوفيتية العمال الاولى في سان بطرسبرغ وقبض على مقاليد السلطة بأسمها، حيث حطم جنود القيصر التمرد وارسلوا تروتسكي الى سيبيريا، ومن هناك هرب، بينما بقي لينين في جنيف يخطط ويناور. وفي النهاية، اي في ١٩١٢ بعد امتلاكه القوة، طرد جميع المنشفيك من حزبه.

● وعند اندلاع الحرب العالمية الاولى عارض لينين الحرب بحماسة، وقد قادته هذه المعارضة الى اعتاب النصر.

● بسبب الانتصار الالماني واعمال الشغب المطالبة بالخبز وعلامات العداء الشعبي تنازل القيصر نيكولاي الثاني عن العرش في آذار ١٩١٧. عند ذاك أعلن لينين ان الوقت قد حان للثورة.

● لم يكن بوسع لينين قيادة الثورة من المنفى في جنيف طبعاً. فطلب من برلين السماح له بالسفر الى الوطن عبر المانيا. وافق الالمان فرحين ووفروا له عربة قطار حصينة وخصصوا له نفقات سرية تعين خطته في ايقاف الحرب.

● في تموز ١٩١٧ اندلعت اعمال شغب فالغى الامير لفوف البولشفيك وابعد لينين الى مكان سري وقبض على تروتسكي الذي وصل لتوه من نيويورك وتحالف مع لينين. وعند خروج تروتسكي من السجن حرّك الحرس الاحمر للدفاع عن سوفيتة بيتروغراد التي كان يترأسها. لم يقاتله جنود الحكومة. فطالب لينين بانتفاضة مسلحة، وسيطر البولشفيك على الابنية الحكومية ومحطات الطاقة الكهربائية ودائرة البريد واخيراً القصر الشتوي للحكومة.

● في اليوم الثاني اي الثامن من تشرين الثاني ظهر لينين امام مؤتمر السوفيتات ورفض كل حديث عن حكومة اشتراكية ائتلافية واصر على مجلس وزراء للبولشفيك وحده وصار رئيساً للوزراء وعين تروتسكي وزيراً للخارجية.

● في ١٩١٨ الغى جميع الاحزاب واعادة تسمية حزبه فسماه الحزب الشيوعي.

● ولما آلت اليه مقاليد السلطة، كان لدى لينين الآن سلاح جديد من قوى الشرطة المسماة (تشيكا) التي خولت السوفيتات المحلية بأن تقبض فوراً على جميع اعضاء المنظمات الثورية المضادة. وحين أطلق الثوري الاشتراكي (فاني كابلن) الرصاص على عنق لينين، اعدمت (التشيكا) ٥٠٠ عضواً من رفاق حزبها في ليلة واحدة.

● في ١٩٢٠ انخفض الانتاج الصناعي الى حوالي ١٥٪ عن مستواه ما قبل الحرب، وجعل التضخم المتصاعد الروبل بلا قيمة تقريباً وانخفضت التجارة الخارجية الى الصفر. وبدأ الفلاحون، المطلوبة غلالهم في المدن، يخفون ما يحصدون او لايحصدون. وفي عام ١٩٢١ قتلت المجاعة ملايين لاتحصى من الناس.

● ولمواجهة هذه المحنة، بدأ لينين يتبع اساليب متعرجة. وطبقاً للسياسة الاقتصادية الجديدة التي دشنت في عام ١٩٢١ سمح بالمشاريع الخاصة مرة ثانية وصار بوسع الفلاحين ان يحتفظوا ببعض غلاتهم او ان يبيعوا قسماً منها، كما اعيد دفع اجور الوقت الاضافي، واصلح المصرف الحكومي الجديد من شأن العملة.



احد اعضاء اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفييتي يغادر الكرملين في موكب فخم

وكما كان متوقعاً، حصلت تحسينات في الحال، فزادت الانتاجية وارتفع شأن التجارة. لكن في هذه الفترة ، أصيب لينين بنوبة قلبية، الا ان نوبتين قلبيتين أخريين ادتا الى اصابته بالشلل وبعد ذلك بـ ٢٢ شهراً توفي وهو في الثالثة والخمسين من عمره.

● لقد ترك الحزب منقسماً على نفسه بخصوص السياسة الاقتصادية الجديدة التي انتقدها تروتسكي ورفاقه بوصفها عودة الى الراسمالية. ولسوء الحظ كان لينين قد ترك اجهزة الحزب بيد جوزيف فيساريونوفتش الذي كان صلباً وحاذقاً ومجيداً في خلق المكائد. ولجأ الاخير الى التحالف مع جماعات أخرى مما سد الطريق على تروتسكي.

● بعد هزيمة تروتسكي فك جوزيف ستالين تحالفه وارتبط بقوى اكثر محافظة. وفي اواخر العشرينات طرد تروتسكي وآخرين من الحزب. وفي ١٩٢٩، وقبل ان يمسك بمركز حكومي كان ستالين سيد الموقف. لقد امر بتطبيق برنامج قاس من التصنيع الاجباري والزراعة التعاونية، وهو برنامج كلف ملايين الانفس. وفرّ تروتسكي الى المنفى.

● وفي ١٩٢٦ صار ستالين قيصراً غير متوج ووضع دستوراً جديداً وصف فيه الحزب الشيوعي بأنه حزب النخبة، مع ان عدد المسجلين فيه من الاعضاء البالغين لم يرق الى ١٠٪ .وبين عامي ١٩٣٩ ـ ١٩٥٢ لم يعقد ستالين مؤتمرات الحزب. فقد فضل ان يدير الامور بنفسه، كما اتضح ذلك في المحاكمات التطهيرية بين عامي ١٩٣٦ ـ ١٩٣٨. وامام هذه المحاكمات وقف رجال كثيرون الواحد بعد الاخر واعترفوا باشكال كثيرة عن الخيانة العظمى والفساد والتخريب. وأُعدم خمسون منهم.

● بالرغم من هذه الجرائم، فقد كانت هذه الفترة هي الفترة العظيمة لتنامي قوة الحزب الشيوعي في انحاء العالم، لاسيما وان الكساد قد عم البلدان، واطل قرن الفاشية المشؤوم. واعتبر كثير من الناس الرأسمالية والديمقراطية مدانتين بينما اعتبروا الشيوعية هي الموجة للمستقبل. لكن عندما تحالف ستالين مع هتلر ومكّن النازيين من البدء بالحرب العالمية الثانية، خفت ولاء الناس له. وفي عام ١٩٤١ عندما غزا هتلر روسيا، صار للسوفييت من يعجب بهم عند الحلفاء الغربيين.

● لكن بعد رميه رئيس شرطته (بيريا) رمياً بالرصاص، وبعد ان خلفه نيكيتا خروتشيف: جرى تحول في السياسة بما سمي سياسة التخلي عن التحفظ. وفي خطاب دام اربع ساعات امام المؤتمر العشرين وصف خروتشيف للمخلصين الحلقة الكاملة لجرائم ستالين لاول مرة.

● وفي العام نفسه، اي عام ١٩٥٦، ذابت هذه السياسة بسرعة وحينما اطاح الهنغاريون بحكومتهم واستمتعوا بأسبوع من الاستقلال، قام خروتشيف بأرسال الدبابات السوفيتية لاستعادة النظام القديم.

● وحينما أُجبر خروتشيف على الخروج من السلطة في عام ١٩٦٤ جاء بريجنيف الذي كان اكثر اصراراً على الحفاظ على النظام القديم، فأرسل مزيداً من الدبابات للقضاء على استقلال تشيكوسلوفاكيا في ١٩٦٨، وحذر بأنه سيقوم بما قام به مرة أخرى كلما كان ذلك ضرورياً. كذلك اعلن في ١٩٧٧ دستوراً جديداً يشدد اكثر من ذي قبل على الدور القيادي للحزب. ●

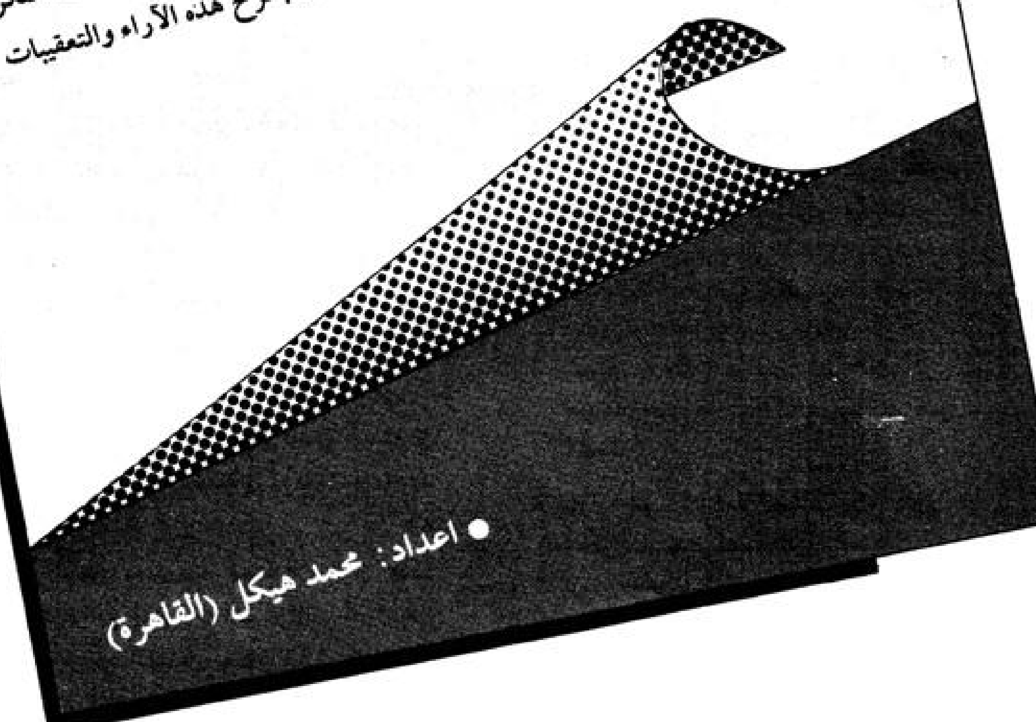
ترجم التحقيق:
عبد الواحد محمد

ملف خاص

٢ آفاق تفتح ملف الفكر القومي

الناصرية: الفكرة والاختبار

تفتح «آفاق عربية» في هذه الحلقات ملف الفكر القومي الناصري، باحثة فيه في ضوء مستجدات الظروف العالمية، وتلك التي تخص الفكر القومي ومتحاورة مع عدد من الأسماء السياسية والفكرية.. والافكار الواردة في هذا الملف حرة، قابلة للنقض والاتفاق، متاحة لمفكري الامة في اطار الملف بأكمله، اي ملف الفكر القومي: اتجاهاته ومستقبله. وتبقى «آفاق عربية» معنية بطرح هذه الآراء والتعقيبات قبل ان تقول كلمتها الأخيرة.



● اعداد: محمد هيكل (القاهرة)

د. غــالي شكري:

الناصرية حركة تاريخية وعلامة فارقة بين عصرين



في التداعيات، كان الحوار مع المفكر غالي شكري العائد من باريس بعد غياب عن مصر طال ١٣ عامـاً، لكنه لم يكن غياباً كاملا، انما الغياب بالجسد، لكن العقل والفكر والرصد، كان من نصيب مصر، وهذا شـأن كل الذين فـرضت عليهم الهجرة في السبعينات.

وغالي شكري عمل خلال فترة الهجرة استاذاً بالجامعة اللبنانية، فالجامعة التونسية، واخيرا بجامعة السوربون في فرنسا، وله في هذه القضية التي نناقشها عدد من المؤلفات منها: عروبـة مصر وامتحان التـاريخ (١٩٧٤).. والثـورة المضادة في مصر (١٩٧٨).. والكتاب المهم الذي كان أطروحة الدكتوراه ـ «النهضة والسقوط في الفكر المصري الحديث» ـ (١٩٧٨). كما كتب فصلا بـاسم "عبد النـاصر والمثقفون" نشركخاتمة لكتاب "مذكرات ثقافة تحتضر" الذي صـدر في كانون الاول ١٩٧٠ ،وكان عبارة عن تسجيل يوميات للمشهد العظيم لرحيل عبد الناصر.

كان الحديث مع الرجل، يمثل نقلة مهمة في تطور "ملف الناصرية".. اذ طرح عددا من المقولات المهمة التي تستدعي المناقشة اكثـر من القراءة او التـأمل، وذلك شـأن المفكرين الجدليين الذين يمثل غالي شكري احد روافد تيارهم.

• • من البـديهي، ونحن بصدد رصـد التجربـة الناصرية ومناقشة: هل هناك "نظرية ناصرية".؟ ان نسال الدكتور غالي شكري: هل انت منضم الى القافلة "التي ترى ان الناصرية ـ كرصد عظيم في التجـربة التـاريخية ـ تصلح كـنظريـة يجب ان تطبق، والناصريون مـوجودون الآن في السـاحة السياسية لاقامة حزبهم، الذي يعتمد النـاصريـة منهـاجا للحـركة، ام ان لك رأيـاً آخر حـول هذه المسالة؟

• يقول د. غالي شكري: ان السؤال حول "نظرية ناصرية" يفرض علينا القول بأن غياب هذه النظرية ينقص من التجربة، وان حضور النظرية يرفع من شأنها.

ومنذ البداية أحب أن اقول ان عبارة «هناك ناصريون، ولكن ليست هناك ناصرية» تتضمن مفارقة، لأن المرء لا يمكن ان يوصف بشئ غير موجود، فما دام هناك ناصريون لابد ان تكون هناك ناصرية.

ويصبح السؤال بعدئذ محدداً في دائرة: "ماذا" تكون هذه الناصرية؟ هل هي فلسفة؟ ام أنها نظرية او فكر او مجموعة من المنجزات المادية والمعنوية للثورة الناصرية؟ ام انها الانتساب الى "شخص" جمال عبد الناصر كبطل تاريخي؟

اظن انه من المفيد ان اضع أمام القارئ رأياً على هذا النحو: ان الناصرية هي "حركة تاريخية و علامة فارقة بين عصرين" قبل اي بحث في صياغة نظرية.

انها من ناحية: حركة تحرر وطني وحركة استقلال قومي في آن، ومن ناحية اخرى فهي فكر واسلوب عملي يستوعبان في الكيان السياسي (الدولة) متغيرات مابعد الحرب العالمية الثانية والحرب العربية الصهيونية الأولى.

لا شك انه كانت هناك دائماً مسافة بين النظر والتطبيق، ولكن الحصاد الأخير يقول ان اتساع مفهوم التحرر الوطني لاجراءات التمصير والتأميم الواسعة، أضاف بعداً حاسماً هو التغيير الاجتماعي بتأسيس النواة الصلبة في القطاع العام. ويقول الحصاد ايضاً أن اتساع مفهوم الاستقلال الوطني لقيام الوحدة اضاف بعداً حاسماً هو حتمية الفرز الاجتماعي لدولة الوحدة، ولكن الحصاد يقول اخيراً ان العجز عن ابداع الصيغة الديمقراطية الموائمة لهذا التحول التاريخي قد مهد الأرض للانفصال اولا (١٩٦١) وللهزيمة ثانياً (١٩٦٧). ولم يكن الميثاق الوطني او بيان ٣٠ مارس هو الذي هُزم، لانه لم تتح لهما فرصة التطبيق الكامل اصلا، ولذلك كان من اليسير وقوع انقلاب الثورة المضادة، ولكنه ظل منذ ولادته الى اليوم في مأزق بسبب ثورة ٢٣ يوليو ذاتها، ولو ان حكم الثورة المضادة قد تلا حكم الملك فاروق، لما كان هذا المأزق على هذه الصورة ولكنه جاء بعد "الحركة التاريخية" و "العلامة الفارقة بين عصرين" فكان المأزق؛ إذ اصبحت هناك القيمة المعيارية وهي "الناصرية" مقياساً اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً لكل ماجرى ويجري.

هل يهم بعدئذ القول:ما اذا كانت هذه الناصرية "نظرية" ام لا في عصر يستحيل فيه الابداع النظري بعيداً عن الابداع الاجتماعي ـ التاريخي؟

ان النظريات السياسية الكبرى لم تخرج من معطف مراكز الابحاث والجامعات، فهي ليست نتيجة "التأمل" او تجارب المختبرات. وانما هي وليدة الابداع التاريخي لحركة الشعب ولذلك لم يكن المطلوب في اي وقت ان "يجتمع" البعض بعيداً عن الضجيج اليومي للشارع لصياغة نظرية، فهذا مستحيل، وانما المطلوب ان ينزل هؤلاء الى الشارع سيد كل النظريات. وستظل الناصرية، كرجل وحركة تاريخية وعلامة فارقة ودولة وصواب وأخطاء ملهماً فكرياً وعملياً، لا مجرد تراث يليق بالمتاحف، بل أعتقد ان الناصرية بهذه المعاني لها حضور في بقية التيارات الفكرية ـ السياسية المناضلة من أجل نهضة وطنية وقومية جديدة.

● كان زعيماً للمعارضة ●

● ● دكتور غالي،هناك من يقسم الحقبة التاريخية المهمة منذ ٢٣ يوليو ١٩٥٢ وحتى الآن... الى ثلاث مراحل، هي على التوالي، من ١٩٥٢ وحتى ١٩٦٢ وهي مرحلة الثورة. ومن ١٩٦٢ الى ١٩٧٠ (وتسمى بمرحلة عبد الناصر، او بانها كانت ثورة على ثورة) ثم المرحلة الثالثة منذ رحيل عبد الناصر وللآن، وهي ماتسمى بالناصرية.

مامدى موافقتك على هذا التقسيم، وما هي ملامح هذه الفترة التاريخية؟

● يقول الدكتور غالي شكري: انني في التحليل اميز بين الرجل والدولة، بالرغم من صعوبة ذلك في رؤية "الواقع".ذلك ان الدولة سابقة على الرجل بآلاف السنين، ولكنها اكثر تركيباً من الافكار والطموحات والواجبات.

في هذا السياق ارى جمال عبد الناصر زعيماً للمعارضة طيلة مراحل تطور "الدولة" من سلطة محمد نجيب الى سلطة عبد الحكيم عامر الى سلطة كمال الدين حسين. ولم يحدث قط في اعتقادي ان انفرد عبد الناصر بالحكم كما يتخيله حتى بعض الذين يحبونه. فمنذ البداية كان عبد الناصر "واحدا" بين مجموعة استولت على السلطة. كان واحدا متميزا بالموهبة والحضور، ولكنه لفترة كان "واحدا" فقط.

في مارس ١٩٥٤ استطاع ان يحسم الصراع على السلطة، ولكنه في الحقيقة ظل واحدا (قوياً) بين آخرين، حتى حصل على اول تأييد شعبي يخصه مباشرة حين وقعت محاولة الاعتداء على حياته في المنشية بالاسكندرية، وتعاظم التأييد بأشتراكه في مؤتمر باندونغ وعقده صفقة الأسلحة المشهورة، حتى وصل هذا التأييد الذروة في تأميم قناة السويس والانتصار السياسي في العدوان الثلاثي.

واصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية، ولكنه على وجه آخر كان قد اصبح زعيماً وطنياً وبطلا قوميا. وهذه الزعامة التي منحته القدرة على توقيع الوحدة مع سوريا، بالرغم من اعتراض غالبية زملائه. وغداة الأنفصال كان اقرب هؤلاء الزملاء الى نفسه هو

الذي "يتمرد" حتى يكرس نفسه "زعيما" للمؤسسة الفكرية العسكرية بعيداً عن سلطة عبد الناصر.

وفي المؤتمر الوطني للقوى الشعبية، واجراءات ١٩٦١ تبين بالدليل القاطع ان عبد الناصر هو زعيم المعارضة، حتى انه لم يستطع اقرار الميثاق الوطني حينذاك الا مشفوعاً بما سمي "تقرير لجنة المائة" الذي يناهض علناً المحتوى الوطني التقدمي للميثاق.

ثم... السنوات الخمس التالية، وهي ذاتها سنوات الخطة الاولى، وهي أخطر مراحل الرجل والدولة معاً، وقد انتهت بالهزيمة، ومرة أخرى تكشف الوقائع المجسمة في مشهد "المحاكمة" ان الدولة، لم تكن بالضبط دولته، ولعلها كانت دولة الثورة والثورة المضادة في وقت واحد حيث يظهر أقرب الزملاء الى القلب على الرأس "مشروع انقلاب" غداة الكارثة، ويظهر آخرون في المؤسسة العسكرية واجهزة الدولة كمعارضين صريحين للرجل والمبادئ، ثم ينتهي هذا كله، بعد ثلاث سنوات بسقوط الاقنعة نهائياً عن الوجه الدميم للثورة المضادة. كانت القامة التاريخية لجمال عبد الناصر هي التي حالت دون الانقلاب ثلاث سنوات، وما ان استشهد حتى استولت الثورة المضادة على السلطة، واتضح بما لا يدع مجالا للشك أن جمال عبد الناصر الذي يمثل الأقلية داخل السلطة، هو الذي يمثل الأغلبية خارجها ولكن الوقت كان قد فات. ولم يكن أنور السادات والذين عاونوه في الانقلاب "سلعة مستوردة من الخارج" ولكنه - ولكنهم - كانوا تأكيداً لموروث لم يكن من السهل تغييره في زمن قصير.

لم يكن هذا ممكناً باي مقياس، ولذلك لا يجوز الدمج بين الرجل والدولة على الاطلاق، ولا ينبغي النظر الى انقلاب ١٩٧١، وكأنه نهاية العالم او يوم القيامة، فالامور من احدى الزوايا كانت تجري في مسار شبه طبيعي، ومن زاوية أخرى يجب الاقرار بأن الدولة المصرية - وليس المجتمع - قد شهدت هزة تاريخية في فترة وجيزة نسبياً: النظام الجمهوري، الغاء الألقاب، مجانية التعليم، الاصلاح الزراعي، تمصير المصالح الأجنبية، تأميم الملكية. لم تعد الدولة اذن كما كانت، وان لم تتغير.

كان عبد الناصر رجل دولة من طراز رفيع، ولكنه لم يكن رجل هذه الدولة الوحيد، ولم تكن الدولة بدورها دولة الرجل. لذلك، فاننا نتجاوز كثيرا حين نقول "الدولة الناصرية". لقد كانت مشروعاً لم يتحقق، وما أبعد المسافة بين الفكر الناصري في الميثاق وبيان ٣٠ مارس وبين اجهزة الدولة ومؤسساتها.

وقد كان جمال عبد الناصر من أشجع القادة التاريخيين، حتى انه وصف هذه الدولة بعد الهزيمة بأنها من ورق، وبأنها دولة المخابرات. وقبل الهزيمة هو الذي اشار بصوت عال الى "الطبقة الجديدة" و "حزبها الرجعي"... وهو صاحب النقد الذاتي التاريخي بعد الانفصال. ولم يكن عبد الناصر بهذا النقد يمتص الغضب او يحتوي المجهول ولكنه كان حريصاً على اقامة دولة الثورة.

● الناصرية حركة تاريخية و«علامة فارقة بين عصرين» قبل اي بحث في صياغات نظرية.

● في السياق التاريخي لثورة ١٩٥٢، ارى جمال عبد الناصر «زعيماً للمعارضة» طيلة مراحل تطور الدولة: من سلطة محمد نجيب الى سلطة عبد الحكيم عامر الى سلطة كمال الدين حسين.

● لا تقاس اي حركة تاريخية بميزان كمي، اي باحصاء السلبيات او الايجابيات. الحركة التاريخية ثمرة حصيلة تاريخية.

ولم يكن ذلك ممكناً الا بعد معركة التحرير، الا ان فصول المؤامرة كانت قد تمت ورحل الرجل وبقيت الدولة التي يسهل غزوها من الداخل كخطوة ضرورية. فالثورة المضادة لم تكن - بالرغم من ادواتها المصرية - ثورة مصرية مضادة بل كانت اساساً للمؤامرة الامريكية الصهيونية ضد "الأنموذج الناصري" الذي كان مايزال قيد البناء.

الناصرية.. انموذج ملهم

● ● هذا العرض التاريخي التحليلي، يفرض سؤالاً عن الحصاد التاريخي للتجربة، وهو يقدم معطيات للنظرية الناصرية

● الدكتور غالي: لا تقاس اية حركة تاريخية بمقياس كمي اي باحصاء السلبيات والايجابيات... الحركة التاريخية تثمر حصيلة تاريخية. من هذا المنظور اقول ان الناصرية حركة تاريخية باتجاه التقدم، فقد أسهمت في بناء مجتمع جديد يطارد الاستغلال بأشكاله المختلفة، وقدمت محاولة لاقامة انموذج اجتماعي مغاير عما اعتاده "العالم الثالث" وأعطت رصيداً من الخبرة الثمينة لاقامة الوحدة القومية.

كان الاستقلال الوطني والقومي هو جوهر الحركة التاريخية للناصرية، وقد تعرضت من الداخل والخارج لضربات كبرى، ولكن ظلت بصمتها على طريق التقدم لا تمّحي.

الناصرية ليست نظرية للتطبيق في اي مكان من عالمنا المتخلف، ولكنها كانت وستظل انموذجا ملهما لتجارب عديدة في هذا



عبد الناصر

العالم، مستقبلها في مصر هو مستقبل التحرر الوطني والاستقلال القومي، ومن ثم فهي حاضرة تحت لافتات متنوعة في بعض التجارب وتيارات الفكر السياسي العربي، وفي ظني انها اشمل من اي حزب او تيار يحمل اسمها، واكثر غوراً في اعماق التربة المصرية، والعربية عامة. والناصرية لم تمت برحيل عبد الناصر، بل لعلها في غياب الدولة والسلطة اضحت لاول مرة أمام الامتحان العظيم في صف المعارضة، وفي ظروف جديدة ودون قائد تاريخي.والامتحان ليس تقويماً للماضي، بل نضال في الحاضر واستكشاف للمستقبل.

● ● يدفعنا ذلك يادكتور غالي: الى التساؤل المطروح حول مستقبل الناصرية، هل لها مع الرصيد امتداد في الشارع المصري خاصة، والشارع العربي عامة؟

متغيرات الشارع المصري

● يقول: هناك متغيرات حثيثة سواء في مصر او الوطن العربي، او في العالم لم يشهدها جمال عبد الناصر ولاما يسمى (دولته).

عصر البترول مثلا أتخذ ابعاداً لم نعرفها في الخمسينات والستينات، الموقف من الصراع العربي الصهيوني لم يعد كما كان عليه من ٢٠ سنة، حرب لبنان، حرب الخليج، ذلك كله ترك بصمته على التركيب الاجتماعي الاقتصادي لأنماط الانتاج والاستهلاك.

وتسألني: هل هناك (شارع ناصري)؟ وبالتداعي يتبلور السؤال حول (الحزب الناصري). لقد نالت المتغيرات الطارئة من هياكل العمل ومن تشكيل القيم على السواء، اي ان امرا جوهرياً قد حدث في علاقات الانتاج التي لم تعد هي (العلاقات التي عاشت في ظلالها الناصرية). ولقد نال التغيير مقومات الحياة في الريف والمدينة، بحيث ان الشارع "الناصري" الذي تكون من الاصلاح الزراعي والتأميمات والسد العالي وعشرات المصانع والتعاونيات قد تغير بنيويا، فقد وصل الدولار الى العرب والكفور والنجوع وسافر مئات الألوف من الفلاحين والعمال والمثقفين الى ديار النفط وعادوا بكل منتجات المجتمع الاستهلاكي، تغيرت الدنيا "الناصرية" اذن.

ليس معنى هذا ان المجتمع خلا من الطبقات الشعبية التي تبلور قوامها من الاجراءات الناصرية، ولكن التركيب الطبقي في مصر تغير شكلا ومضموناً في السنوات العشرين الأخيرة، بحيث بات من الصعب اطلاق صفة الناصرية على هذا "الشارع الشعبي". ولم يحدث ان استطاع المثقفون الناصريون من سياسيين وخبراء ايجاد همزة الوصل بين الماضي والحاضر. لم يحدث ان اقاموا الجسر بين الهامات ومنجزات الناصرية والشارع الشعبي الجديد، ومن دون هذا "الاتصال" لا يتكون الحزب.

هناك ناصريون مأخوذون ببطولة "الرجل" والمبادئ المجردة عن التاريخ الاجتماعي للدولة الناصرية. وهناك ناصريون مرتبطون بمجمل (المرحلة) من عطائها الشامل.

وهناك ناصريون يتوقفون عند اعتاب الخمسينات وأخرون عند ابواب الستينات.

هؤلاء جميعاً لا يشكلون شارعا شعبياً، بل تيارا متعدد الجداول، وهو تيار يعيد النظرية لكثير من ارتباطات الماضي وتداعياته، ويستوعب احياناً الدروس والعبر، ويمثل بعض جوانب التغيير اللاهث.

ولكن الشارع والحزب قضية اكثر تعقيداً، لا يحكمها الماضي ولا "الحسابات السياسية" العاجلة او الضيقة. ليس المطلوب فقط هو "تخيل لو ان عبد الناصر مازال حياً.. ماذا كان يمكن ان يتخذ من قرارات؟ فعبد الناصر لم يكن قرارا، بل ابداعا تاريخيا، لم يقلد ثورة ١٩١٩، ولا ثورة عرابي بالرغم من ان التراث الثوري المصري كان حاضرا في وعيه ولا وعيه معاً.

الابداع التاريخي اذن هو المطلوب، وليس الترميم او الاعتذار، اذا تناقضت التعددية الحزبية مع اطروحة الاتحاد الاشتراكي، فأن النضال من أجل التعددية واية صيغ اخرى للتخطيط الاقتصادي او التنمية الزراعية او التطور الثقافي هو الوسيلة. ومادام التحرر الوطني والاستقلال القومي هما الهدف، فأن الابداع التاريخي سيكون ناصريا، حتى لو تم انجازه تحت مسميات أخرى، فالناصرية جزء من الضمير كحركة تاريخية وجزء من هيكل القيم كعلاقة فارقة بين عصرين. ان اراضينا المحتلة وبلادنا التابعة، واسواقنا المنهوبة، كلها بانتظار الابداع التاريخي الذي يستلهم هذه الضوابط. تحرير الارض والانسان من الاستغلال الداخلي والخارجي، وتوحيد الوطن المجزأ.

عصام الاسلامبولي:

جيل الناصريين الواعد !

عصام الاسلامبولي هو الاختيار الآخر في الملف، وهو انموذج للمؤمنين بفكر عبد الناصر، كما انه يمثل الفكر الناصري الواعد ، اذ انه واحد من المؤسسين للحزب الاشتراكي العربي الناصري.

أعطى كثيراً للتجربة، من عمره الشاب، يعد لرسالة دكتوراه عن "النظرية الناصرية"... وهو يمثل جيل الناصريين الذي لا تربطه صلة مباشرة بعبد الناصر، فلم يكن واحداً من رجاله ـ في حياته ـ ولم يمارس مهام في الفترة التاريخية للرجل، اذ انه ـ اي عصام ـ قد تخرج في كلية الحقوق عام ١٩٧٣.

لذلك.. كان الاختيار له، والحوار معه، ممثلاً «للشباب الناصري.»

● ● في البداية كان علي ان اسأل عما بين القوسين، اي في الذي طرحه د. عصمت سيف الدولة في بداية الملف، من تحفظ، اذ انه قال: ان الحديث في هذه القضية الآن ـ ويقصد الناصرية ـ قد يثير من الفرقة اكثر مما يعمل على الالتقاء، لذلك كان يشير الى تاجيل المناقشة والجدل حول الفكر الناصري، الى ان يلتقط الناصريون انفاسهم ويخرجوا "بحلمهم" اي "الحزب" الى حيّز الوجود وبعد ذلك يتجادلون حول قضايا نظرية.

لذلك قلت للاستاذ عصام الاسلامبولي: مارايك في تحفظ الدكتور عصمت سيف الدولة؟ وهل حقاً ان المناقشة حول "الناصرية والناصريين" قد تثير انشقاقاً بين صفوفكم، وانتم تناضلون لاعلان حزبكم؟

● يقول: يجب ان ندرك ان اخفاء الحقائق، وعدم مناقشتها، هو اكبر خطأ يمكن ان يقع فيه الناصريون، لذلك ينبغي ان يتداولوا فيما بينهم، وان يتجادلوا في كل الافكار مادام الهدف هو الوصول الى الحقيقة التي في النهاية ينبغي ان تكون موجهة لخدمة هذا التيار، وهذه القوى بدات تتكون معالمها، والتي باتت تشكل اداة تغيير حقيقي في داخل هذا المجتمع.

لذلك.. فانا لست مع الذين يخشون طرح اي امر مهما كانت درجة الخلاف حوله، لان التستر على اي افكار او اخفاءها ليست في صالح احد، سيما الناصريين.

ومما اود ان اضيفه في هذه النقطة، اننا لا نستطيع ان نقول، انه بمرور عشرين عاماً على طرح فكر ثوري، وهو الفكر الناصري يمكن ان نتوقع ان يستقبله الناس بسهولة، فهناك من سيقاومه شر مقاومة، وهناك بالطبع من سيتربص به.

لذا، فليس بغريب ان نقاوم كافكار، وان نقاوم كاشخاص وان يشك في افكارنا، وان يشكّك في عبد الناصر نفسه، وهو الرجل الذي ننظر له باحترام وبتقدير لذلك الدور النضالي والبطولي الذي كان تعبيراً عن نضال الامة العربية على مدى ١٨ عاماً.

والامر الغريب هو الا يهاجم هذا الفكر، والا نتصور ان اعداء الثورة قد اكتفوا بما قالوه في حق عبد الناصر، وماردده عنه او عن ممارساته. فاذا تصورنا ان اعداء الثورة قد اقتنعوا بما بذلوه واكتفوا، فان ذلك خطأ كبير سوف نقع فيه. لا بد ان ندرك وان نعي ان اعداء الثورة متربصون بنا دائما، وان اعداء الفكر الثوري قائمون ومنظمون، وذلك ما كان عبد الناصر يحذرنا منه. ولقد اثبتت الرجعية انها حزب منظم، وقادر على ان ينقض على مكاسب الثورة، وقد فعلها بالفعل .. وقادر على ان يضع يده في يد كل الحلفاء الذى يمكن ان يقفوا في صف واحد ضد فكر عبد الناصر.

لذلك: فان الحوار والجدل، يصلب العود، ويصهر التجربة، ويوصل الى قناعات تفيدنا في حركتنا.. وهذا هو المطلوب.

عودة للبداية

● ●استاذ عصام: وانت تبحث اكاديميا ـ في اطروحتك للدكتوراه عن الناصرية كنظرية سياسية ـ وتناضل مع زملائك سياسيا من اجل اعلان الحزب، يكون السؤال: هل هناك "ناصرية" ترقى الى مستوى "النظرية"؟

● يقول عصام الاسلامبولي: انني اتحدث في هذه القضية التحديد بوصفي ناصريا، وليس معنى ذلك انني انحاز في قضية فكرية انحيازا بتعصب، ولكن لكي نبحث في نقطة: هل للناصرية مقومات نظرية أم لا؟.. ولا يفوتني هنا ان اذكر اننا في زمن سقطت فيه فكرة الحياد العلمي المجرد، ولكن هناك الحياد القائم على الاصول النظرية العلمية التي لا تمنع اطلاقا انتماء الباحث الى فكر معين.

عندما يوجه السؤال، هل الناصرية كفكر وكنظرية قائمة؟ اذا كان هذا السؤال من سائل لا يريد في النهاية الا ان يثبت انه ليس هناك ناصرية، وبالتالي لا يوجد فكر ناصري، فهذه الاجابات لا تعني السائل، اما اذا كان السؤال للبحث حول هذه الفكرة والوصول الى حقيقة فيها، فنحن نتحدث متجاوبين للوصول الى هذه الحقيقة.

هل الناصرية نظرية ام لا؟ ان ذلك يجعلنا نتطرق الى ماهية النظرية، وهل يقصد بالنظرية تلك النظرية الفلسفية البحتة المجردة، ام ذلك النوع من النظريات التي تسمى بالنظريات الثورية الحركية، ومعنى الحركية هنا، تلك التي ترتبط بالانسان والمجتمع. وبطبيعة الحال ونحن بصدد الحديث عن الناصرية، فاننا سوف نبحث في اطار النظريات الثورية التي ترتبط بحركة الانسان ومجتمعه، وتطوير المجتمع ودفعه للامام.

وملاحظة اخيرة هي انه ليس شرطا ان يكون النموذج الجاهز امامنا على وجود النظرية من عدمه، هو النظرية الماركسية، بمعنى انه لا ينبغي ان تكون المعيار الذي ينبغي ان نقيس عليه اي فكر جديد، والا وقعنا في مغالطة فكرية في الاساس، وليس معنى ذلك انكاراً للنظرية الماركسية، كنظرية ثورية طرحت في أواخر القرن الثامن عشر، او ان نقلل من شأنها، ولكن ليس من العدل، عندما نتناول فكرا، ان نقيسه على فكر معين بالذات، فاذا كان مماثلا له فمعنى ذلك انه نظري وان لم يكن فمعنى هذا انه ليس بنظرية!

الناصرية... لماذا؟

● ● هنا نطرح التساؤل ـ والحديث مازال لعصام الاسلامبولي ـ لماذا نسمها "بالناصرية" ولم نسمها مثلا فكر ثورة ٢٣ يوليو؟

● الاجابة تبرز هنا: من ان ثورة ٢٣ يوليو قد قامت بمعرفة مجموعة من الضباط الأحرار تباينت اتجاهاتهم السياسية والفكرية، لكنهم التقوا على مجموعة من "المبادئ الستة" ارتضوها كبرنامج عمل، بمختلف منابعهم واتجاهاتهم. وطوال الفترة من ٥٢ الى ١٩٦٢، مرت التجربة المصرية بمرحلة تسمى نظريا "المحاولة والخطأ"، وهو منهج برغماتي حيث تعرضت التجربة فيه لمواقف كثيرة كان من اثره انه انضج الفكر الثوري الاجتماعي الجديد حيث طرح على المجتمع المصري عام ١٩٦٢ في وثيقة الثورة الأساسية ووثيقة الناصرية الأساسية وهي "الميثاق".

كما ان عبد الناصر تميز ـ على ماسواه ـ باستيعابه للمتغيرات الاجتماعية التي حدثت في المجتمع، واستوعب بشكل هائل هذه المرحلة، ثم انه كان وراء دفع المجتمع الى انجاز "الميثاق" وعليه، فانه لا شك ان انتساب الفكر الى عبد الناصر، وتسميته بـ "الناصرية" أمر طبيعي، رغم ان هناك محاولات لسلب هذه التسمية، ومحاولة سلخ تسمية "الناصرية" عن فكر عبد الناصر، هي محاولة يراد بها ضرب الفكر في حد ذاته، ورده الى ما قبل ١٩٦٢.

واذا ماقلنا انه فكر ٢٣ يوليو، فهل هو فكر جمال عبد الناصر، ام فكر زكريا محي الدين، ام فكر انور السادات، مع التباينات الكثيرة في الأفكار؟

مما لا شك فيه انه كان لعبد الناصر اليد الطولى في انجاز الوثيقة الأساسية والبنية الحقيقية للناصرية بما سُميّ بالميثاق. وعظمة الميثاق هنا: انه لم يكن تعبيراً عن رغبة شخصية لجمال عبد الناصر حسب، أو رؤية خاصة به، بل انه استطاع ان ينجز هذا الميثاق عن طريق مؤتمر قوى الشعب الذي عقد عام ١٩٦٢، واقره على هذه الوثيقة الشعب، واقسم بالحفاظ عليها. والذي يحسب التجربة، ان عبد الناصر باستيعابه النظريات السابقة، كان يدرك تمام الادراك ان هذا العطاء الفكري ليس عطاءا مُنزّلاً، بمعنى انه اعطى عشر سنوات للمراجعة، لذلك كان ينبغي ان يراجع الميثاق عام ١٩٧٢، لو ان الثورة كانت مستمرة، والتي ارى انها انتهت عام ١٩٧٠، وأجهز عليها نهائياً بانقلاب مايو ١٩٧١.

وهنا يجب ان اشير الى مصادر الناصرية، وهي في تقديري تخضع لنوعين: الأول مصادر نظرية وهي الوثيقة الاساسية "الميثاق".. اما المصادر التطبيقية فهي من خلال احاديث عبد الناصر وخطبة ولقاءاته والدساتير.

المطلوب في الصياغة

● ● قلت: وانتم تجمعون مصادركم، في محاولة لايجاد صياغة نظرية، هل توضع في

الاعتبار مصادر اخرى مثل:
(١) ما كتب عن عبد الناصر محليا وعربيا وعالميا.
(٢) التجربة الساداتية (ومدى استخلاص نتائج لحساب المسالة الناصرية).
(٣) هناك كتاب للدكتور عصمت سيف الدولة اسمه "نظرية الثورة العربية" هل يمكن النظر اليه بعين الاعتبار على اساس انه، اي الكتاب، من وجهة نظر معدة، وثيقة مهمة للفكر الناصري القومي؟

● يقول عصام الاسلامبولي: الناصرية عندما تبلورت في الميثاق، لم تكن هذه الوثيقة "الميثاق" نتاج انغلاق على مجموعة من الناس وضعت نفسها في غرفة لتضع نظرية ولكنها كانت حصيلة حياة وتفاعلات وتجربة وخطأ لمدة عشر سنوات، حتى ظهرت هذه الوثيقة. كما ان الامر الذي يحسب للميثاق انه لم يغلق امامه الباب ضد افكار اخرى، وقد اكد ذلك - الميثاق - بانه كان متأثراً بالفكر والعطاء الانساني بشكل عام دون ان يصده عن ذلك جمود او تحجر.

وازعم ان هذه الوثيقة صالحة - على الاقل - للأساسيات المتوفرة داخلها، ولكن لا بد من نظرقلها مرة أخرى، لتطويرها. بل اكثر من ذلك، هذه الدعاوى كان ينبغي ان تتم عام ١٩٧٢، ولكن تعذر قيامها لان القيادة في مصر بعد رحيل عبد الناصر فقدت السمة الثورية لها والتي تمكنها من المحافظة على الفكر وثوريته لكي تدفعه للتطور، بل حاولت ونجحت في استخدام هذا الفكر "كشعار" بينما كانت تطبق نقيضه، لتكفر الناس بهذه المضامين، مستخدمة في ذلك كل وسائل الاعلام، ووسائل التضليل المختلفة متضامنة مع الثورة المضادة.

وانا مع كل محاولة اجتهادية تعطي الناصرية تدفقاً فكريا يؤصلها، ويزيد من الامعان فيها، لكن تبقى المشكلة: وهي ان كل كاتب، وكل مفكر عربي وقومي يعطي اجتهاداته وافكاره لتأصيل النظرية، وهذا أمر مطلوب وحيوي، ولكني لا ارى، في النهاية، انه ليس هناك الزام على احد، لأني اعتقد ان الاجتهادات الشخصية للبلورة الفكرية للناصرية، تصبح جزءا أصيلا منها، الا ان ذلك يتم عن طريق الاداة التي تستطيع ان تقول: هذا من الناصرية، وهذا من غير الناصرية، واعني بالاداة "الحزب الناصري".

وسوف تبقى كل اجتهاداتنا الفكرية مجرد اجتهاد فكري، وبلورة فكرية سواء في ذلك نحن أو أساتذتنا. لكننا لا نستطيع ان نقول في النهاية، ماذا نقبل، وماذا نرفض من هذا العطاء؟ لان صاحب هذا الحق الوحيد هو «الحزب».

لكن مما لاشك فيه ان هذا العطاء الانساني الزاخر بالاجتهادات، لا يمكن التقليل من شأنه، بل بالعكس ينبغي الالتفات اليه جيدا، والاستعانة به الى اكبر درجة ممكنة، لانه في النهاية لصالح الفكر الناصري.

☐ أيهما: الحزب ام النظرية؟

● ● استاذ عصام: طرا على ذهني سؤال: اذا كانت مشكلة ثورة يوليو انها قامت بدون فلسفة وبدون نظرية، واستمرت عشر سنوات تستخدم المنهج البرغماتي الى ان استقرت المسالة في وجدان الزعيم، الذي كان يمثل قمة الفكر، وبدات تتشكل رؤيته وانحيازه لقوى الشعب العامل...

الا يكون الخطا مرتين: ان تقوم ثورة يوليو بلا نظرية، ثم قيام الحزب بدون نظرية يجعل الناصرية - مرة اخرى - تقع في مطب تاريخي؟

اليس من الافضل ان ينكب عدد من المفكرين والمخلصين على صياغة هذا الفكر الانساني بحيث يكون هناك خطان: احدهما نضالي يوصي بتشكيل قواعد الحزب والعمل على اعلانه، والثاني في تاصيل وصياغة النظرية لانها تحتاج لجهد ووقت ومراجعة؟

لماذا لا تبداون في هذه المهمة الضخمة، الحزب يقوم، ونظريته تعد، بحيث تنزل الشارع وتقول له: هذه هي النظرية التي نعمل على اساسها؟

● يقول: الأمر المهم الذي يجب ان يوضع في الحسبان، اننا الآن، ونحن في مرحلة تأسيس الحزب، واستكمال بنيانه، لا نستطيع ان نكلف مجموعة معينة لتقوم بوضع او صياغة نظرية لأن: من الذي سيكلف هؤلاء؟ ومن ذا الذي سوف يعطيهم "الصك" ان ما سوف ينجزونه هو من صلب النظرية؟

ما لم يتم البنيان الحقيقي للحزب، وتكون هناك مسئوليات محددة في داخل هذا الحزب مثل اللجان وغيرها، فالمسألة تصبح صعبة ان لم تكن مستحيلة.

والامر الثاني، ان هناك محاولات قائمة تتم في داخل البنيان -

تحت التأسيس - لوضع برنامج وليس نظرية، تحاول ان تترجم الافكار في بعض القضايا التي تشغل المجتمع.

والنظرية - واقول مرة اخرى سواء اتفقت معك او اختلفت على وجودها - لا نستطيع ان نقول انها قائمة بالفعل، او غير قائمة، ولا يملك أحد ان يقول ما يقوله مفكر معين داخل النظرية او خارجها الا عندما يقوم الحزب، وعندما يقوم سوف تصبح المسئوليات محددة وسوف يكون التعبير تعبيرا جماعياً، وساعتئذ سوف يحدد عما اذا كان هناك نظرية ام لا وعما اذا كانت هناك محاولات جادة تدخل في صلب الفكر الناصري، دخيلة ام من داخله، فالحزب هو الذي يحسم كل هذه المسائل.

وتبقى نقطة أساسية اود ان اتحدث فيها قبل الخوض في النظرية الناصرية، وهي تتعلق بالماركسية، ومتى أمكن اطلاق صفة النظرية عليها. الجميع يعلم ان النظرية الماركسية بدات مصادرها الأساسية "بالمانيفستو" الذي لم يأت من فراغ، اذ كانت هناك كتابات، عبارة عن مقالات كتبها ماركس في مختلف المجالات سواء في المانيا او كتب بعضها انجلز، حيث استغرقت من ١٨٤٤ الى ١٨٤٧، وفي نوفمبر (تشرين الثاني) ١٨٤٧ انجز ماركس وانجلز ما اسمياه "ببيان الحزب الشيوعي او المانيفستو" حيث نشر في فبراير ١٨٤٨. والسؤال هنا: هل بظهور المانيفستو، اقتصرت الماركسية على هذا البيان؟ الواقع ان كتابات ماركس وانجلز استمرت حتى وصلا الى كتاب "راس المال" الذي انتهيا من اعداده مابين ١٨٦٧، ١٨٨٠، عندئذ اكتملت النظرية الماركسية.. لذلك نقول: انه بوثيقة واحدة لا يمكن ان تكتمل النظرية، لانه بالمقارنة مع النظرية الماركسية انها لم تكتمل الا باكتمال اوراقها الأساسية.

اذن، يصبح هناك نوع من الاجحاف عندما نقول: لا ينبغي ان نطور "الميثاق".. ويكون هناك نوع آخر من الاجحاف عندما نقول اننا نقيس فكرة النظرية على الميثاق فقط، ولكني انتهي من هذا برأي محدد: ان الميثاق لم تكتمل له كل مقومات النظرية السياسية الثورية التي نريدها، ولكنه طرح الارهاصات الأساسية لتكوين نظرية سياسية تطورت عن تجربة، وارست بعض المفاهيم الجديدة في العمل السياسي، وفي المعاني والايدلوجيات الموجودة بشكل مميز عن غيرها. انها استوعبت ظروفاً اجتماعية كانت قائمة، واستطاعت ان تقدم اطروحات جديدة تختلف عن الماركسية في مفاهيمها، وعن الليبرالية، ومن الممكن ان تكون باجتهادات المفكرين والحزب - فيما بعد - مكملة لأرضية النظرية.

☐ النظرية الثورية

ان النظرية في رايي ينبغي ان تكون لها سمات محددة، وطبيعة محددة، وعلى سبيل المثال إن النظرية السياسية الثورية تعرف بانها «مجموعة» من المبادئ العامة المتماسكة المترابطة التي تتفاعل وتشمل القيم والمعايير الأولية والمناهج الأساسية في تعريف وتقييم الانسان والمجتمع والتاريخ. معنى ذلك انها تحدد القانون الذي يحكم كل هذه العلاقات الاجتماعية.

والطبيعة الخاصة بالنظرية الثورية هي انها تكون باستمرار أداة للتغيير، واداة لدفع المجتمع وتطويره، وهي - ايضاً - مصدر دائم لتحديد الأهداف وتحديد الاستراتيجيات، ومصدر رسم الخطط التي تقوم عليها خطط التنمية.

● ● اذن: هل يتضمن الميثاق بعض او كل ما جاء بهذا المفهوم للنظرية؟

● اعتقد ان الميثاق مليء بالافكار الاساسية التي تحدد موقفاً معيناً تجاه القومية، والانتماء العربي، بل القومي، بمفهوم يختلف عما كان مطروحاً في اوربا في القرون الوسطى عندما اقترنت القومية - هناك - بالبورجوازية بينما اقترنت في الميثاق بالجانب الاجتماعي وهو الاشتراكية وبالتالي أضافت «الناصرية» المفهوم القومي والمفهوم الاجتماعي التقدمي.

ونفس الشئ فعلته الناصرية عند رؤيتها للأديان السماوية، اذ نظرت للدين، واقرت هناك «خالقاً» "هو الذي يسير الحياة، واعطت للدين رؤية جديدة، حيث يدفع الانسان للامام، لان ذلك هو حقيقة الدين.

وفي الحقيقة: ان الافكار الذي تضمنها الميثاق تعتبر ارضية صالحة، وقابلة للتطوير والاكتمال بالاجتهادات النظرية من قبل الحزب والمفكرين. ولكن - اعترف - ان الميثاق، يفتقر الى الرؤية الشمولية لتكوين نظرية. هنا يأتي دور الحزب، لكي يطور الافكار، ويستكملها، لتصبح نظرية صالحة للتعامل لا في مصر وحدها ولا العالم العربي وحده انما في العالم الثالث.

واخلص من هذا الى ان ماطرح في الميثاق هو ارهاصات او بدايات صالحة لان تكون هناك نظرية متكاملة، ويعتبر وثيقة اساسية، ومصدراً للنظرية، التي هي مسؤلية الاجيال القادمة، التي يجب ان تنجز هذه النظرية بشرط الحفاظ على المبادئ الاساسية الواردة في الميثاق، دون تحريف فيه او انحراف عنه لانها افكار علمية قائمة على ديناميكية الحياة وحركتها.



الصراع السياسي والفكري وتأثيراته النفسية والاجتماعية في أوربا الشرقية

الفردوس المفقود.. متى تنعم به دول الكتلة الشرقية؟

د. عزيز علي - الكويت

مدير تحرير مجلة "الرسالة" الكويتية

يبدو اليوم ان السياسة التي تنتهجها الاحزاب القائدة في البلدان الاشتراكية ،ونقصد بها الاحزاب الشيوعية في أوربا الشرقية. يمكن وصفها بالواقعية بعض الشئ لانها كما يبدو بدات تتسم بالقناعة لانه لايمكن اليوم القيام باي عمل جدي وراسخ بدون إرادة الاغلبية الجماهيرية في هذه البلدان. وان عبارة هنري كيسنجر التي وصف بها السلطات البولونية حينما كان يشغل مناصب عليا في البيت الابيض (فترة نيكسون ١٩٦٨ - ١٩٧٦) بدات تتغير. فالبولونيين يفهمون في السياسة الان على عكس وصف كيسنجر التهكمي حين قال (ان البولونيين يفهمون في امور عديدة، لكنهم جهلة في المسائل السياسية). فرئيس الدولة البولوني الشيوعي التوجه والانتماء، يارزولسكي، يقول: ليتعين علينا النظر الى الحقائق الاجتماعية كما هي وليس كما نرغب في رؤيتها، لانه ادرك الى اي نهاية اوصلت الشعب والتجربة الاشتراكية البولونية

السياسة التي تنظر للأمور وتصورها دوماً بعين سعيدة فرحة متفائلة بكذب مخادع.

ان بولونيا التي جاء اسمها نسبة الى القبائل السلافية سكنت المنطقة الغربية ـ الجنوبية من جمهورية بولندا الحالية حيث اسست تلك القبائل في بداية القرن العاشر مايشبه الدويلة الصغيرة. وفي كتاب المؤرخ العربي ابراهيم يعقوب ظهرت أول الأنباء للعالم العربي عن بولندا و شعبها وتاريخها «بلد الملك ميشك الأول» في كتاب «الطرق والممالك» للبكري. وهذه المعلومات يعيرها البولونيون اهتماماً كبيراً. فهذا البلد ومنذ قرون عديدة خضع اكثر من مرة للاحتلال والتقسيم: من السويديين، والبروسيين والنمسويين والألمان والروس ولغاية الحرب العالمية الثانية حيث بدأت بولندا الشعبية تعيش حالة من الاستقرار والسيادة.

لقد استخدمت بولندا في الطور الاول من بناء اسس الاقتصاد الاشتراكي ـ بعد الاستقلال ـ مناهج التخطيط والتنظيم والادارة السوفياتية الموجودة في حيز التطبيق آنذاك وأعطت هذه المناهج بعض النتائج الايجابية. وأسهمت بشكل غير قليل في بناء واعمار مادمرته الحرب وما احتاجته الفترة اللاحقة منها في الجانب العمراني، والصناعي، والاقتصادي. بيد ان تلك المناهج قد «اكل الزمان عليها وشرب» وبدت متخلفة الى حد كبير امام متطلبات الحياة المعاصرة حتى اصبح التطبيق الأعمى لصيغ جاهزة جامدة قديمة خنجراً في خاصرة المجتمع. فلقد فقدت المناهج المعتمدة على الاوامر قوتها الفعلية، ولم تستطع تأمين النمو في إنتاجية العمل. وتضخم الجهاز الاداري



الذي تجاوز حدوداً كبيرة، وفاحت رائحة البطالة المقنعة ، واصبحت الوسائل غير مشروعة في الادارة والتنفيذ واستحصال المكاسب الشخصية مسالك خطيرة وسلوكيات يومية تمارس من قبل مستويات عديدة ويلمسها الجميع.

ان الطريق الاشتراكي في بولندا، كما في غيرها من البلدان الاشتراكية الاخرى، كان ينبغي ان يندرج في مبدأ واقعي بُدء العمل فيه اليوم وأخذ بنظر الاعتبار، الا وهو، كل حسب قدرته وابداعه وعمله ، وكان يُفترض من زمان خلق ظروف اجتماعية وحقوقية وتنظيمية في مرافق الانتاج وفي جهاز الدولة التي كان عليها ان تعتمد الصيغ والوسائل التي تجعل من العاملين يشعرون بقيمة عملهم بصورة فعلية وليس ترديداً دعائياً مفرطاً، وان تتم المساعدة على تثبيت هذا الوعي والسلوك في مختلف جوانب العمل. لقد بدت التجربة الاشتراكية في تلك الايام وكأنها تحفر قبرها بيدها، حيث غدت المواقف الفعلية وعداً لم يتحقق، ولم يجد المواطن تعليلاً مقنعاً لكل الظواهر المرة، وكان من نتائج وضع مثل هذا استهانة الانسان بالعمل وقيمه، وبدت على الارض الاشتراكية عادات وقيم وسلوكيات لاتنسجم والمفهوم الانساني الحقيقي للاشتراكية الفعلية. ان تاريخ بولندا يؤكد على ان خطر الازمات ينشأ ويتنامى عندما تُنتهك المبادئ العامة ولاتؤخذ في الحسبان الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية ذات الخصوصية الوطنية للبناء الاشتراكي. فعملية بناء الاشتراكية هي اخذ حاجات وتطلعات الجماهير بعين الاعتبار ، والتفاعل مع همومها وامزجتها، وتحليل التناقضات والمصاعب التي تنشأ في مجرى عملية التطور .البناء الاشتراكي هو حركة الجماهير الحية التي لايمكن برمجة تفاصيلها على اساس صيغ جامدة. فبرمجة السعادة والرفاهية في مجتمع وحياة متحركة ومتفاعلة على اساس نظري جامد يتحول في اغلب الاحيان الى تعاسة حقيقية، وان الناس ادركوا مثلما ادرك سياسيو بولندا الاشتراكيين ان السباحة مع التيار وبخط مستقيم دون إرادة التغيير قادت اكثر من مرة الى مستنقع خطير.

المجتمع البولندي وقواه الرئيسة

من هي القوى الاساسية في المجتمع البولندي؟

ان القوى المؤثرة في الرأي العام هي:

١ ـ الحزب الشيوعي البولوني

٢ ـ نقابة التضامن

٣ ـ الكنيسة الكاثوليكية .

أولاً: الحزب الشيوعي البولوني: والذي كان حتى فترة قصيرة حزباً قائداً، يقود بولندا عبر ائتلاف مع الحزب الديمقراطي وحزب الفلاحين تحت لافتة حزب العمال البولندي الموحد...بيد ان التاريخ يشير الى ان حزب العمال البولندي الموحد ـ الحاكم سابقاً ـ شهد في حياته ثلاث ازمات رئيسة كبيرة، حدثت كل عشر سنوات تقريباً، وقد انعكست في حالات الركود الاقتصادي الخطيرة، وانهيار بعض المؤسسات السياسية ,وفقدان الثقة بقادة الحزب الشيوعي الذين كانوا يقودونه في فترة الأزمات وخيبة الأمل الواسعة سواء في القيم الممارسة ،او في النهج الاقتصادي والاجتماعي الذي كان مطبقاً مما ادى الى خلق ازمات وحالات خلل دورية. ان استذكار ازمات وتجربة بولندا بعد الحرب يعني بصورة خاصة تذكر الاحداث الاكثر إيلاماً في مدينة بوزنان (حزيران ١٩٥٦)، وأحداث الساحل في عام ١٩٧٠، والظواهر التي أدت الى أوضاع الثمانينات المعروفة. لقد أصبح حزب العمال البولندي الموحد ،وبالذات قيادته الشيوعية، هدفاً رئيساً للهجوم، وطرحت بولندا آراء ووجهات نظر تقول: ان الحزب أصبح «غير قادر على إدارة الدولة، وعمليات تطورها، وفقد الحق المعنوي في قيادة البلاد»، وطرح منذ سنوات عديدة برنامج التعددية السياسية الحقيقية الذي نادى بالحرية لنشاطات المجموعات السياسية الأخرى، والغاء دور الشيوعيين كقوة قائدة للمجتمع البولندي، وطالب بعضهم بحصر دوره بتمثيل خارجي شكلي صرف في مجال العلاقة مع الأحزاب الشيوعية في البلدان الاشتراكية الأخرى. وكان اصحاب مثل هذه الافكار ينوون تحويل الحزب الى منظمة من الطراز الأشتراكي الديمقراطي، أو الى اتحاد يضم المعجبين بالاشتراكية. وظهرت ميول داخل الحزب نفسه سُميت بحركة «البُنى الأفقية» كادت ان تؤدي في الجوهر الى الاخلال بالوحدة التنظيمية للحزب وتقويضها كانعكاس عملي للنزعات والآراء المذكورة، وهذا ماكانت تعيه موسكو، وقيادة الحزب الشيوعي البولندي وتعي مخاطره، ومن أجل ان لاتفلت المبادرة من أيدي الشيوعيين، ومن أجل إعادة جاذبية الأشتراكية الى ذهن البولونيين كانت البيريسترويكا ،وكانت العلنية في بلد تتداخل فيه الصور مثلما تتداخل فيه مراكز القوى الحقيقية الفعلية الى الحد الذي يصعب فرزها بالدقة المطلوبة. فمن بلد يُقال عن شعبه ان ٩٩٪ منه موالون لموسكو و٩٩٪ معادون لها خرجت منظمة التضامن المعارضة التي هاجر اليها المئات بل الآلاف من اعضاء الحزب الشيوعي البولندي ومن مستويات متعددة في ذروة الاحداث التي مرت بها بولندا إبان أحداث الثمانينات، حتى بدا الانسان ميالاً الى تصديق ماكان يُشاع في الشارع البولندي ابان الازمة من ان هناك توجيهات سرية كانت توجه الى

عناصر الحزب الشيوعي البولندي لخلق الجو المناسب لترك الحزب والانضمام الى منظمة التضامن المعارضة في ظاهرها للسلطات الاشتراكية آنذاك !! انه تهيؤ للتغيير المرسوم في الديكور السياسي والاجتماعي والاقتصادي الذي بواسطته لابواسطة غيره يمكن السيطره على الامور وبتضحيات اقل.. ان وجهة النظر هذه تجد اكثر من صدى لها في الواقع السياسي. وبالمتابعة المتأنية للاحداث في بولندا، سنرى جزءاًمنها عند تسليطنا الضوء على مراكز القوى الأخرى في بولندا عبر هذه الدراسة.

ثانياً: نقابة التضامن: لقد نشأت هذه النقابة عام ١٩٨٠ على موجة الاحتجاج العمالي، وأنضم لهذه النقابة التي ترأسها عامل بسيط هو (ليخ ڤاونسا) ملايين الناس في بداية عملها، وأمل الكثير منهم ان تكون مجالاً حقيقياً للدفاع عن مصالحهم بعد ان يئسوا من امكانية تحسين احوالهم، وطرحت نقابة التضامن شعارات ذكية تطعن في طبيعة واسلوب قيادة حزب العمال البولندي الموحد!! من دون ان تطعن بالاشتراكية وذلك حينما رفعت لافتتها المركزية «نعم للأشتراكية، لاللتشويهات»، مما ساعدهم على جذب الكثير من المتململين والمستائين من عناصر الحزب الشيوعي البولندي ومن الناس الآخرين «وساعد على تأكيد تصورنا السابق من ان ما يجري لايخرج عن إطار الأذرع السوفيتية» ـ مستغلين تعبير الناس عن سخطهم ويأسهم من الوضع القائم آنذاك واخطائه المتراكمة. بدت «التضامن» ساعية منذ البداية للتلاعب بأمزجة الناس، ولوحت بشعارات رنانة، وتحولت الى تنظيم سياسي معادٍ للتطبيق الاشتراكي السائد آنذاك مطالبة بالاصلاحات، وبالتعددية السياسية. ان الفوضى الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي رافقت الفترة الذهبية الأولى للتضامن في بداية الثمانينات بدت وكأنها قد وضعت بولندا على حافة الكارثة الحقيقية التي تهدد بعواقب يصعب التنبؤ بها، مماساعد السلطات آنذاك على تبرير لجوئها الى اتخاذ بعض التدابير التي لايمكن الا بواسطتها ـ حسب وجهة النظر الرسمية آنذاك ـ وقف التطور المأساوي للاحداث. في مثل ذلك الظرف :١ ـ ايدت «التضامن» عقوبات الولايات المتحدة الامريكية والدول الغربية ضد بولندا، ٢ ـ ودعت الى خفض وتيرة العمل ومقاطعة النشاط الاجتماعي ٣ ـ واتخاذ موقف اساسه «كلما كان الوضع اسوأ كان الأمر افضل» ٤ ـ فرغت المتاجر فجأة واصبح الحصول على المواد الغذائية الرئيسية بشكل منتظم نوعاً من الأحلام. وهنا نسأل: ان الفقرات (١)، (٢)، (٣)، تناغمت مع ما فعلته السلطات بافراغ المتاجر من المواد الغذائية، ولن نجزم ونقول ان ذلك جزء من مخطط مرسوم! ولكننا نذكر ان اول ما تقوم به الأجهزة الاستخبارية الدولية من توجيهات في الاوضاع المماثلة هو اعتماد التوجيهات ١، ٢، ٣، التي اعتمدتها نقابة التضامن، ثم تقوم هذه الاجهزة بالبحث عن رجال الاعمال، والتجار، والمرتزقة لخزن المواد الغذائية، وإحداث شحة في المواد لزعزعة الاستقرار الاقتصادي والاجتماعي... وهذه المهمة في بولندا قامت بها السلطات ،فكيف توافق فعل المعارضة مع فعل السلطة وتدابيرها الاحترازية لأحداث مثل هذه الاوضاع؟ مجرد سؤال حول ماجرى ويجري داخل البلد والمجموعة الأشتراكية!! اننا لن نقول ان سلة المعارضة البولندية هي من صناعة الـ «كي. جي. بي» بكاملها، ولكن الوقائع والاحداث تقول ان الـ «كي. جي.بي» واذرعها اجادت عملها وفاءً وتجسيداً لمبدأ اندروبوف في العمل الداعي الى حرف اقصى اليمين الى اقصى اليسار، والى مغادرة الاساليب المحنطة في العمل السياسي والاقتصادي والاجتماعي ضماناً للمسيرة الاشتراكية ولنمو واقعي عقلاني عبر قسمات وديكورات وواجهات أخرى.

فالاجهزة السرية المحسوبة تحت لواء «طلائع الاشتراكيين الاوفياء» ترى الامور بمجهر كبير وترى ماينمو، وما يمكنه ان يكبر وينمو من توجهات معارضة ، ومضادة للاشتراكية بفعل الآلية الجامدة للتطبيقات الجارية قبل التغييرات ،وبفعل الصراع السياسي والايديولوجي مع امريكا والغرب وأذرعها المتدة دوماً للبحث عن منافذ في الجدار الاشتراكي.. لذا كان لابد من خلق واجهات، واختلاق حوادث وأحداث .

كما ان من السذاجة والبساطة القول: أن الأرض الاشتراكية لم ينمُ فيها معارضون ومطالبون بالتغيير من الناس غير المرتبطين بالأحزاب الشيوعية، ومن الشيوعيين ذاتهم... واليوم وبعد اربعين عاماً من الانفرادية في قيادة البلاد صعدت نقابة التضامن كبديل سياسي وعبر طريق ديمقراطي مُورست فيه انتخابات حرة!! فلاول مرة منذ عام ١٩٤٧ ادلى ٢٦ مليون بولوني باصواتهم في انتخابات عامة لمْ مئة مقعد في مجلس الشيوخ، و١٦١ من مجموع ٤٦٠ مقعداً في مجلس النواب وكانت النتيجة ان مرشحي «التضامن» فازوا بـ ٩٢ مقعداً في مجلس الشيوخ و١٦٠ مقعداً في مجلس النواب، اما المقاعد الأخرى فخصصت للحزب الشيوعي وحلفائه السابقين في حزب العمال البولندي الموحد، واصبح تاديوش مازوفسكي المعارض المسيحي رئيساً لوزراء بولندا عن مجموعة التضامن البرلمانية واستقال راكوفسكي رئيس الوزراء السابق..! واعلن رئيس الوزراء الجديد «ان حكومتي ستواصل الالتزام بجميع المعاهدات والمواثيق التي تربطها بموسكو، ولن تخرج من حلف وارشو ولا من الكوميكون وقد تفاهمت مع يارزولسكي رئيس الدولة على بقاء حقيبتي الداخلية والدفاع بأيدي الشيوعيين». والتقى رئيس

الوزراء الجديد في أيامه الاولى مع رئيس جهاز المخابرات السوفياتية الكي. جي.بي. في أول لقاء معلن لضيف من هذا النوع..!! فهل هو لقاء تعارف؟ أم لقاء رفاق المهام المختلفة في ظاهرها، الموحدة في استراتيجيتها؟ انها مجرد اسئلة.

ثالثاً: الكنيسة الكاثوليكية: لم يكن سهلاً أمام الشيوعيين البولونيين محو «القوة الكاثوليكية» العميقة الجذور في نفس الشعب البولوني. فالدين المسيحي، والكنيسة الكاثوليكية تضطلع تاريخياً بدور كبير في حياة المجتمع البولندي، وتمتلك الكنيسة جهازاً متشعباً وقوياً متكوناً من (١٥) الف كنيسة، (٢١) الف قس، (٤٤) الف راهب وراهبة، وهذه الأمكانية كانت تفوق في بعض الحالات امكانات حزب العمال البولندي الحاكم أيام حكمه حيث كان يبلغ عدد كادره الحزبي ١١ الف عضو، في حين ان ٧٠٪ من اعضائه كانوا ومازالوا يرتادون الكنائس الكاثوليكية ويؤدون الشعائر الدينية. ويخلق مثل هذا الوضع انطباعاً بأن قسماً من رجال الكنيسة كان يسعى الى وضع جماهير الكاثوليك في وجه السلطات. ان الكنيسة الكاثوليكية تمتلك اليوم قاعدة وطيدة وكبيرة ليست سياسية ١٠٠٪ بقدر ماهي روحية ،فكرية، عاطفية قادرة على التأثير في مواقف الناس وامزجتهم وقابلة للاستثمار السياسي وقت الحاجة. لقد تنامت امكانيات الكنيسة البولندية بعد انتخاب «يوحنا بولص الثاني» البولندي الجنسية، واسقف ابرشية كراكوف السابق الى الكرسي البابوي، يضاف الى ذلك ان تاريخ الكنيسة في فترة من الفترات ترك نتائج معينة في المرحلة المعاصرة ، ويكفي ان نذكر انها اتخذت في فترة إحتلال بولندا مواقف وطنية مشهودة سقط فيها آلاف القساوسة ضحايا لجرائم النازية، وقد عزز ذلك من هيبة الكنيسة المعنوية في المجتمع البولندي. كما ان الخصائص التاريخية والقومية لتطور بولندا جعلت الكنيسة قوة اجتماعية وسياسية نافذة ومؤثرة ، وان قوتها ستزداد مستقبلاً بعد إعلان الفاتيكان اعادة العلاقات المقطوعة مع بولندا منذ عقود عديدة. وهذا التغيير اعاد الاعتبار لها بعد ان وقعت اتفاقاً مع السلطات البولونية في حزيران ١٩٨٩ اعترفت فيه الدولة البولونية «بالشخصية والوجود القانوني لهذه الكنيسة»، وما سيدعم الوضع الجديد اكثر هو صعود رئيس وزراء بولوني مسيحي غير شيوعي، وصعود وجوه للبرلمان من خارج الحزب الشيوعي الذين وصلت القوة ببعضهم الى التصريح امام الصحفيين في ٢٦ آب الماضي بالقول «لست اشتراكياً ديمقراطياً بل انا مسيحي».

لم تقتصر سياسة الشيوعيين في البلدان الاشتراكية مع الأديان على مرونتها مع المسيحية فقط، بل دخلت الساحة الاشتراكية لغة مرنة ذات اساليب واهداف جديدة مثلما دخلت اديان جديدة لهذه الساحات. فالتشكيلة الدينية في بولندا هي كالآتي:

١ ـ المسيحيون الكاثوليك: ويشكلون ما نسبته ٩٠٪ من الشعب البولوني، وبولندا تُعتبر البلد الأكثر عدداً في كنائسه في اوربا.

٢ ـ البروتستانت :ويشكلون ماعدده ٣٠٠,٠٠٠ الف شخص.

٣ ـ المسلمون: ويبلغ عددهم نحو (٥٠) الف شخص بولوني استناداً الى مصدر دبلوماسي بولوني يعمل في الخليج ويتمركزون في منطقة بياوستوك. وقد اشار الدبلوماسي البولوني الى ان هُناك مشروعاً لبناء مسجدين الأول في وارشو في منطقة (سكاكامبا) حيث تبرعت السلطات البولونية بالأرض مجاناً، ومسجد آخر في (كدانسك) ونود توضيح نقطة مهمة وهي ان موضوع تشييد جامع في مدينة كدانسك البحرية بقي لمدة طويلة مدفوناً في مكاتبات ومخاطبات وقرارات مجلس السفراء العرب قبل ان يتم البدء بالاتكال على نظرية اندروبوف في العمل السياسي والاجتماعي والاقتصادي وسيتوضح الأمر بتفصيل اكثر لاحقاً.

٤ ـ اليهود: ولا يتجاوز عددهم الآن حسب الاحصاءات الرسمية الحديثة للمنظمات الاجتماعية والثقافية اليهودية في بولندا العشرة الاف يهودي بولوني، ولكنهم اكثر من هذا العدد بكثير في قوة تأثيرهم السياسي والاعلامي والاقتصادي.

٥ ـ الديانة الهندوسية: ولايتجاوز عدد معتنقيها العشرة آلاف شخص، وتشترك مع البوذية كديانات طرية على الارض البولونية ولها مقرات للدعوة وممارسة الطقوس والشعائر الدينية في جو من العلنية القائمة القريبة للسرية ،ولكنها ليست بعيدة عن مرأى وموافقة السلطات. بيد ان الامر المثير للانتباه هو الهجرة المتنامية للشباب المسيحي وبالذات الشباب والشابات صغار السن الى هذه الديانات والالتزام بالشعائر والعادات والضوابط الدينية الجديدة!! والأمر الاخر هو السرية التي يحاول الشباب البولونيون الكاثوليك المهاجرون الى الهندوسية والبوذية التمسك بها في علاقتهم مع الآخرين، وكذلك السعي الى اقناع الآخرين من اجل توسيع دائرة الديانات الجديدة وهذا مالمسه كاتب الدراسة بنفسه عند لقاءاته بعدد من هؤلاء، وزياراته لمقر هذه الديانات في فجر صباحات قاسية في شتاء أوربا القارس بحثاً عن الحقيقة!!

ان الذي يلاحظ التعددية الدينية الجديدة، يمكن ان تقفز امامه ملاحظات مهمة اولها: ان التعددية الدينية مثل التعددية السياسية لم يأت بها الا الشيوعيون في هذا البلد. فالتعددية الدينية ظهرت واخذت اطارها الرسمي ابان حكم حزب العمال البولندي الموحد، فبدأ الربيع

اليهودي واضحاً. وبدت بولندا وكانها في ايام ما قبل الحرب العالمية الثانية يوم كان عدد اليهود يتجاوز الثلاثة ملايين يهودي في بولندا ،وكذلك الربيع الديني للاديان الأخرى، وامام هذه الملاحظات المهمة الخارجة من السلة الاشتراكية يطرح سؤال مهم في هذا السياق هو : إذا كانت الفلسفة

الماركسية اللينينية لايمكن ان تلتقي او تتنازل للفلسفة الروحية الدينية ولأي من الاديان فلماذا هذا التعايش «الربيعي» وهذه الصحوة الاعترافية بالأديان؟ ...وإجابة عن هذا السؤال نقول استناداً الى حقيقة القوى الاساسية الضاغطة في بولندا،ان الصراع بين الكنيسة الكاثوليكية كقوة روحية وسياسية وفكرية كبيرة وبين الحزب الشيوعي البولوني كان لعقود طويلة ضارياً، وشرساً عبر مختلف الجبهات السياسية والفكرية والعقائدية، وكان كل منها ينظر للآخر كعدو استراتيجي لابد من القضاء

عليه طال الزمن او قصر، لذا فانه من المحتمل جداً ان تكون بصمات اندروبوف وتجسيداتها الغروباتشوفية هي التي تقود هذه التطورات في العلاقات الحاصلة ما بين الشيوعيين والديانة الكاثوليكية في بولندا، فما دام الشيوعيون بالوسائل الاعتيادية، وبالصراع المباشر وجهاً لوجه عبر حلبة صراع تضم خصمين فأن النزال سيطول، وسيحتاج الى مستلزمات وجهد وخسائر قد تكون كبيرة، لذا فأن الشيوعيين استناداً الى نظرية اندروبوف في العمل السياسي السري والعلني، توجهوا نحو الكاثوليكية كدين وكقوة مؤثرة وقوية في بولندا في اتجاهين لتقويض هيبتها وتقليص مساحة تواجدها الروحي والفكري من خلال السماح لأديان جديدة تمارس دعواتها وطقوسها وسط مجتمع ٩٠٪ منه من الكاثوليك، وان الشيوعيين يدركون ان أي كسب من الناس لهذه الاديان سيكون من السلة الكاثوليكية.

وعلى هذا المنوال ولسنوات عديدة ستتقلص السلة الكاثوليكية في بولندا في حين يبدو ان الشيوعيين الاوربيين سائرون في اعادة ترتيب وتنظيم البيت الداخلي تحت اسماء وواجهات عديدة. ان الكنيسة في وضعها المتصور للمستقبل وفي قتالها وصراعها الجديد مع الديانات الجديدة التي اصبحت أشبه بجبهات عديدة فتحت لها في بولندا سوف تسحب جزءاً من قطعاتها التي كانت تحارب بها الشيوعيين .

اما الاسلوب الثاني فهو ان الشيوعيين رفعوا شعاراً بانه من ليس معنا فهو ليس ضدنا، ورفعوا لافتة التعاون مع المؤمنين من اجل البيئة والسلام، والحضارة ومنتجاتها الانسانية، وبذلك يحاولون إذابة الجليد الكثيف الذي يغطي العلاقة بين الشيوعيين والأديان الاخرى وبالذات الكاثوليكية وهو ما اعطى نتائج ايجابية. فكم نسمع عن الكثير من القساوسة الاشتراكيين على شلكلة قساوسة نيكاراكوا، وهو ما يسمح بوجود وتواجد الاشتراكيين وعناصرهم في داخل الكنائس ومراكز العبادة. ان نتائج هذه السياسات بدت على السطح واضحة وان لم تكن بشكل كبير. فالديانات الصغيرة تكبر ويزداد عددها، والصراع بدأ بينهم. وكثر القساوسة والرهبان المؤيدون للبيروسترويكا واعادة البناء وقل النقد للسوفيات كزعيم وأخ اكبر للبلدان الأوربية الشرقية. ان نظرية اندروبوف خرقت وتحاول الاستمرار في خرق جدار المؤمنين من اجل كسر الحاجز النفسي وايجاد قنوات جديدة للعمل المشترك. فالشيوعيون يقولون اليوم:- ان المؤمنين وغير المؤمنين سيظلون لفترة طويلة جداً جنباً الى جنب، وهذا يعني ان مامن طريق سوى التعايش والتعاون البناء فيما بينهما،فالخلافات الايديولوجية ستبقى ،وينبغي ان لاتتحول الى نزاع سياسي بين الدولة الاشتراكية والكنيسة،

وبصورة خاصة ان لاتؤدي الى تناحر سياسي بين المؤمنين وغير المؤمنين.. ان الصراع بين المذهب الفلسفي العقائدي للكنيسة والشيوعية هو صراع ضار ، ويلاحظ زيادته على الرغم من المحاولات التي تحاول اظهار الوضع بطابع وفاقي.

ان افتراض الصورة التفاؤلية في المستقبل للعلاقة الجديدة بين القوى المتصارعة والديكور الجديد التي تحاول قوى ذات خبرة متراكمة، وتاريخ طويل تثبيته ممكن فيما اذا تم تمزيق جدار الصمت والخوف ،واللا مبالاة،وتعلم فن الاستماع الى الناس ومغادرة اسلوب اصدار الاوامر من فوق من اجل تلمس انعكاس ما يجري على ارض الواقع بشكل مباشر. فالجميع يريد دعم الناس لسياسته وأهدافه، ولكن على الجميع ان يدركوا أن ٣٨ مليون بولوني الذين شهدوا التغييرات التي جرت وتجري في بلدهم مشبعون بأمل جديد ولكنهم غير واثقين من تحققه نتيجة آلام ومعاناة الماضي.

المصادر

١ ـ صحيفة الانباء الكويتية الصادرة في ١٩٨٩/٧/٢٠.

٢ ـ بيان للبابا يوحنا بولص الثاني، حزيران ١٩٨٩.

٣ـ وكالة رويتر للانباء ١٩٨٩/٧/١، نقلاً عن راديو وارشو.

٤ ـ لشك ملير، عضو اللجنة المركزية لحزب العمال البولندي الموحد.

٥ ـ فويجنخ يارزولسكي: الاشتراكية ليست هبة التاريخ للشغيلة. (لقاء صحفي)

٦ ـ صحيفة الوطن الكويتية في عدد ١٣ سبتمبر ١٩٨٩ (تصريح لمازوفسكي) رئيس وزراء بولندا الحالي.

٧ ـ مصدر دبلوماسي بولندي في الخليج

٨ ـ ابراهيم سلامة، نهاية الحلم الماركسي ام تشيلي اوربية، مجلة كل العرب ١٩٨٩.

* تقارير

الهجرة اليهودية السوفيتية

هل تعني انتقال النفوذ الصهيوني الى أوروبا الشرقية والاتحاد السوفيتي؟

تعتبر قضية هجرة اليهود الى «اسرائيل» من أخطر القضايا التي تمس جوهر الصراع العربي ـ الصهيوني باعتبارها تمثل مستقبل الكيان الصهيوني، إذ إن هذه الهجرة يراد بها حل المشكلة الديموغرافية التي يعاني منها الكيان الصهيوني، وهي خطة مدبرة لتغيير التركيبة السكانية في الاراضي المحتلة.

فقد ظل موضوع الهجرة الى «اسرائيل» والهجرة المعاكسة منها احد المحددات الرئيسية التي ينظر من خلالها الى مستقبل الوجود الصهيوني في المنطقة العربية، خاصة بعد ان سجلت السنوات الاخيرة تناقصاً في الهجرة الى الكيان الصهيوني في الوقت الذي أبرزت فيه تزايد الهجرة المعاكسة، تؤكد الاحصاءات الرسمية «الاسرائيلية» على ان اكثر من عشرة الاف شخص هاجروا من «اسرائيل» عام ١٩٨٤ فقط، وقد سبق للكاتب الصهيوني (اموس كينان) ان أكد في دراسة إستطلاعية أجريت في عام ١٩٨٥ «ان ٦،١٪ من الإسرائيليين يرغبون في الهجرة و٣٪ يفكرون فعلاً في هذا الموضوع وإن هنالك ٧٥ الف اسرائيلي يعيشون في خارج «اسرائيل» لاينوون العودة اليها» ويصل في ختام دراسته الى القول «بان اسرائيل في طريقها للانفراط». ومما زاد في «مشكلة» الهجرة والهجرة المعاكسة بالنسبة للكيان الصهيوني الحقيقة المتعلقة بزيادة نسبة المواليد العرب في «اسرائيل» والمناطق المحتلة على اليهود حيث بلغ متوسط نسبة المواليد يومياً ٤٥٠ مولوداً منهم ٢٤٠ عربياً مقابل ٢١٠ يهودياً، وكان عدد اليهود المواليد خلال الفترة من ١٩٨٠ الى ١٩٨٦ حوالي ٥١٤،٦٥٧ مولوداً بينما بلغ عدد المواليد خلال نفس الفترة ٥٥٠،٠١٦، ونتيجة زيادة نسبة المواليد العرب فمن المتوقع ان تصل نسبة العرب في الاراضي المحتلة باسرها (اي في الكيان الصهيوني والضفة الغربية وقطاع غزة) الى حوالي ٤٧٪ وذلك في عام ٢٠٠٠، حتى إن بعض العرب، اعتماداً على هذا العامل، دعوا الى سياسة الانتظار الى ان يتفوق عدد السكان العرب في «اسرائيل» بحسابات الضفة الغربية وقطاع غزة وآنذاك ستحل مشكلة الوجود الصهيوني من تلقاء نفسها.

وكما يبدو، ان الهجرة اليهودية السوفيتية الى الاراضي المحتلة جاءت بمثابة حبل الانقاذ بالنسبة للكيان الصهيوني خاصة في ظل تصاعد واستمرار الانتفاضة الفلسطينية ونتائجها لامن حيث تفاقم مشكلة الهجرة المعاكسة من «اسرائيل» ولكن ايضاً من حيث نتائجها على علاقة «اسرائيل» بيهود الدياسبورا في أوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية التي ضعفت نتيجة سياسة القمع الوحشية التي ترتكبها السلطات الصهيونية بحق السكان العرب. فاحد التقارير اليهودية في فرنسا يشير الى «ان السائد لدى الراي العام الغربي ان ضحايا الهولوكوست (المذبحة النازية) هم ذاتهم الذين يرتكبون مجازر تفوق ماقام به هتلر، وان أصوات المدافعين عن «اسرائيل» وهي تقتل خفتت امام الاصوات العالية المنددة «باسرائيل» ومايحدث فيها من انتهاك صارخ لكل



■ عصام فاهم

القيم».

الصورة الحقيقية التي اتضحت «لاسرائيل» في مواجهة الانتفاضة الفلسطينية جعلت العديد من يهود الغرب (اوربا الغربية والولايات المتحدة الاميركية) ينتقد «اسرائيل» بل ويهاجمها اعلامياً، فهذا البروفيسور اليهودي ستيفن شفارترز تشايلد استاذ الفلسفة والدراسات اليهودية بجامعة واشنطن سانت لويس يكتب في مجلة «نيويورك ريفيو» ليقول «القناعة السائدة لدى الاوربيين والامريكيين بشكل عام ان المساعدة التي تاخذها «إسرائيل» من حكوماتهم لاتستحقها، وكثيراً مايبدي اصدقاء «اسرائيل» حتى الأمس القريب مقارنة بين المانيا النازية و«اسرائيل» الحالية حتى صار البعض منهم يدعو الى تحويل المساعدات التي كانت او تلك التي لاتزال تقدم «لاسرائيل» الى الفلسطينيين إذا مااستمرت حكومة «اسرائيل» بتبني سياسة القمع بمختلف أشكالها ولم تتردد أصوات اوربية معروفة بتأثيرها على الرأي العام محسوبة على اليمين او على اليسار في ان ترتفع لتقول بأن الفلسطينيين إنتظروا بما فيه الكفاية فلماذا لاتمارس الدول الاوربية دورها وتتحمل مسؤولياتها في اجبار «اسرائيل» على التفاوض مع منظمة التحرير الفلسطينية كرمز يمثل التطلعات الوطنية للفلسطينيين؟ بالاضافة الى ذلك، فان هناك صفوة كبيرة من الكتاب والمثقفين اليهود البريطانيين من بينهم: هارولد بنتر، وانيتا بروكنر، وارنولد ويسكر، ودان ماكويسن، وغابريل جاسوبيشي وغيرهم، نشروا أكثر من بيان في الصحف البريطانية طالبوا «اسرائيل» بالانسحاب من الضفة الغربية وقطاع غزة والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومطالبه العادلة، ولعل متابعة زوايا آراء القراء لصحيفة «الجويش كرونيل» تعطي فكرة جيدة عن حجم اليهود البريطانيين الذين ينتقدون بشدة سياسات «اسرائيل» تجاه سكان الاراضي المحتلة. وهذا جاك آتالي وهو واحد من ابرز الحاخامات السياسيين في فرنسا لايتردد في ان يطلب من الرئيس فرانسوا ميتران التدخل شخصياً لانقاذ مايمكن إنقاذه، وهو يقول لابناء جلدته من يهود فرنسا: «إن إنتقاد السياسات السيئة لحكومة اسرائيل الخرقاء هو مؤشر على التزامنا وليس على عدم ارتباطنا بها». ونفس الكلام ينطبق على اليهود في الولايات المتحدة الامريكية، فقبل أشهر قليلة وجه فريق من شخصيات يهودية لها نفوذها ومواقعها المهمة في الحياة الامريكية خطاباً تناقلته حتى وكالات الانباء الى موريس ابرامز رئيس المنظمات العشر الرئيسية التي تمثل التيارات اليهودية الرئيسية جاء فيه «ان الزعامات الصهيونية لم تعد تمثل راي الغالبية اليهودية، وان اسرائيل لم تعد تمثل شيئاً يؤمنون به، وان الوقت قد حان لأن ننتزع أنفسنا بعيداً عن اسرائيل وسياستها» واضاف الخطاب «دعنا نبحث معاً عمن يمثل الآراء اليهودية بصدق أكبر ومـاالذي يفكر فيه اليهود تجاه سياسات إسرائيل، والتفاوض مع منظمة التحرير والحاجة الى دولة فلسطينية مع ضمان امن اسرائيل في الوقت نفسه».

قامت صحيفة «النيوزويك» في احد اعدادها في عام ١٩٨٨ بتحقيق موسع عن تبلور نوع من الاشمئزاز لدى الكثير من اليهود الامريكيين في السياسة الاسرائيلية الراهنة واشارت فيه الى إنه في بعض الاحياء الخاصة باليهود في مدن امريكية بعينها يُعَنف اليهود والصهاينة المتعصبون لاسرائيل»: ويذكر الكاتب الشاب مارك برونسكي بدوره ان الاحصاءات الاخيرة تدل على ان غالبية اليهود الامريكيين ينادون بالتفاوض المباشر بين اسرائيل وممثلي الشعب الفلسطيني الشرعيين وهم قادة منظمة التحرير الفلسطينية ويشير الى بعض هذه الاحصاءات:

٥٩٪ من اليهود الامريكيين يحبذون التفاوض مع منظمة التحرير.

٤٣٪ يشعرون ان تفكير الاسرائيليين تجاه العرب يتسم بالعنصرية.

٣٩٪ من اليهود اقل من ٤٠ سنة يشعرون بنفس العطف على الفلسطينيين الذين يشعرون به تجاه الاسرائيليين.

٦٩٪ من يهود اميركا لم يتبرعوا بشئ لاسرائيل في عام ١٩٨٨.

٥١٪ منهم يحبذون قطع المعونة عن اسرائيل او تخفيضها.

كل هذه الوقائع تبين تدهور العلاقة بين يهود اوربا الغربية و اميركا و"اسرائيل". رغم ان هناك رأيا يقول: إن اليهود هم سماسرة التاريخ، ولايتوانون عن التعامل مع كل الحقائق والمفردات بأسلوب الصفقة وبالتالي فان المبالغة التي يبديها يهود الغرب في التعاطف مع الانتفاضة هدفها وضع ستار يسمح لهم بممارسة دور آخر خفي لصالح السياسة الاسرائيلية الراهنة.

ولكن هذا الراي يبقى غير معول عليه، إذا ما اخذنا بنظر الاعتبار التدهور

المستمر في العلاقة بين يهود الغرب و "اسرائيل"، وانخفاض حدة الضغط العنصري على اليهود في المجتمعات الغربية من جانب، ومن جانب آخر تقلص عنصر الدين والشعور بالانتماء الديني على الأقل في صورته المتعصبة التقليدية لدى اليهود في المجتمعات الغربية، والتمسك بقيم وثقافة المجتمعات الغربية من جانب ثالث، وجميعها قادت الى مجموعة من النتائج اهمها على الأطلاق التبلور الجديد لمفهوم «القومية اليهودية»، فاليهود لايمثلون مجتمعاً قومياً واحداً كما كان يدعي ذلك الاباء الاوائل للصهيونية وانما هم انفسهم صاروا يعتبرون انفسهم ينتمون الى قوميات متعددة، فهناك اليوم قوميات يهودية متعددة: «قومية يهودية اميركية» و «قومية يهودية فرنسية» واخرى بريطانية.. وهكذا. والنتيجة الثانية هي بروز ظاهرة الزواج المختلط، والاحصاءات التي توردها "اسرائيل" نفسها بهذا الخصوص وتشير الى ان ثلث اليهود على الأقل في مجتمعات خارج "اسرائيل" يتزوجون من غير اليهود، والأكثر من ذلك ان معظم الاطفال الاتين من هذه الزيجات عند بلوغهم سن السدسة عشرة يتخلون عن انتمائهم اليهودي، إذ نادراً مايتحول شريك غير يهودي الى الديانة اليهودية في ازيجات المختلطة. والنتيجة الثالثة هي غياب الثقافة اليهودية او ضعفها نتيجة انهيار «الجيتو» بمعناه الروحي والثقافي والقومي في المجتمعات الأوربية والغربية عموماً. كل هذه النتائج كان لابد ان تقود الى بروز نزعة التاقلم لدى اليهود والاندماج في المجتمعات التي يعيشون فيها. ومن الطبيعي ان يؤدي ذلك كله الى هبوط المعاني الصوفية والايديولوجية والمثالية لعبارة «ارض الميعاد» في اذهان اليهود في المجتمعات الغربية وبالتالي جعل العلاقة بين يهود هذه البلدان و "اسرائيل" تضعف: النقص الكبير في الهجرة من هذه الدول الى "اسرائيل" وانخفاض حجم الاستثمارات اليهودية في "اسرائيل" من مليار دولار عام ١٩٧٢ الى ٢٠٠ مليون دولار عام ١٩٨٨، وانخفاض المعونة اليهودية الى "اسرائيل" من مليار ونصف عام ١٩٧٣ الى ١٥٠ مليون دولار عام ١٩٨٧، كلها مؤشرات تبين بوضوح لايرقى اليه الشك التدهور الكبير في العلاقة بين الجاليات اليهودية في العالم الغربي و "اسرائيل". فبعد ان كانت العلاقة بين الجانبين قائمة على الدعم المطلق الى حد الاستعداد للهجرة باتت قائمة على الدعم العاطفي المشروط، في الوقت الذي تتزايد فيه الهجرة اليهودية من اوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي الى "اسرائيل" والأكثر من ذلك تعمل هذه البلدان على الانفتاح على تل ابيب من خلال الحملة السريعة لاستئناف علاقاتها الدبلوماسية المقطوعة معها، فهل يعني هذا ان نفوذ الحركة الصهيونية الذي بدا يتقلص ويتدهور في أوربا الغربية والولايات المتحدة الامريكية كان بسبب انتقال نشاط الحركة الصهيونية ومراكزها الاساسية الى أوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي؟

ليس هناك دلائل حقيقية حول هذه المسألة وكل مانعلمه إن رئيس وزراء رومانيا بيتر رومان يهودي والامين العام للحزب الشيوعي في المانيا الشرقية جورج غريغور جيزي يهودي والكسندر ياكوفليف الذي يعد الرجل الثاني بعد غورباتشوف من زعماء الكرملين يهودي ايضاً وابنة غورباتشوف ايرينا متزوجة من طبيب يهودي وهو ابن قيادي سابق في الحزب الشيوعي يدعى مورا خوفسكي، وان جيورجي ارباتوف مدير معهد الولايات المتحدة وكندا هو يهودي ومقرب جداً من الزعيم غورباتشوف، مثله مثل اكاديمي يهودي آخر هو بفغيني بريماكوف. ويحيط الزعيم غورباتشوف ثلاثة من المستشارين اليهود هم فيتنالي كاروتيتنس وفيتالي ايغناتينكا وفلاديمير صمداي، البعض يقول ان نفوذ اليهود داخل المؤسسة السوفيتية الحاكمة سيكون أكبر من تأثيرهم في داخل المؤسسة الامريكية في السنوات القليلة القادمة.

ومهما يكن من امر، فالملاحظ إن الهجرة اليهودية السوفيتية استمرت الى "اسرائيل" ولم تتوقف عندما قطعت العلاقات الديبلوماسية بين موسكو وتل ابيب. ومتابعة للاحصاءات بهذا الخصوص تشير الى ان الهجرة اليهودية من عام ١٩٦٨ ـ ١٩٨٥ بلغت حوالي ٢٦٥ الف يهودي سوفيتي وقد توزعت خلال تلك الفترة كالاتي:

١٩٦٨: ٢٢٩	١٩٧٧: ١٦٧٠٠
١٩٦٩: ٢٩٧٩	١٩٧٨: ٢٨٨٠٠
١٩٧٠: ١٠٢٧	١٩٧٩: ٥١٣٠٠
١٩٧١: ١٣٠٠٠	١٩٨٠: ٢١٤٠٠
١٩٧٢: ٣١٦٠٠	١٩٨١: ٩٤٠٠
١٩٧٣: ٣٤٧٠٠	١٩٨٢: ٢٦٠٠
١٩٧٤: ٢٠٦٠٠	١٩٨٣: ١٣٠٠
١٩٧٥: ١٣٢٠٠	١٩٨٤: ٨٨٦
١٩٧٦: ١٤٢٠٠	١٩٨٥: ١١٤٠

ويلاحظ ان ارقام الهجرة تصاعدت خلال عقد السبعينات في ضوء تحسن العلاقات الامريكية السوفيتية، ويبدو ان عامي ١٩٧٢ و ١٩٧٣ قد شكلا تصاعداً مبالغاً فيه في اعداد المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتي الى «اسرائيل» بسبب عقد إتفاقية (سالت ـ ١). وكذلك الحال في عامي ١٩٧٨ و ١٩٧٩ حيث بلغت هذه الاعداد ارقاماً قياسية باعتبار هذين العامين هما عاما التفاوض والتوقيع على

اتفاقية (سالت ـ ٢) بين موسكو وواشنطن.. بينما يلاحظ ان هذه الارقام عادت لتنخفض خلال النصف الأول من الثمانينات بسبب توتر الوضع الدولي وبشكل خاص بين الدولتين العظميين: الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الامريكية.

ومن المعروف ان تلك الفترة شهدت اتصالات بين المسؤولين السوفييت والاسرائيليين، فاللقاءات استمرت بين وزيري خارجية كل من موسكو وتل ابيب بين الحين والأخر في الأمم المتحدة، كما ان اللقاءات بين ممثلي حكومتي تل ابيب وموسكو استمرت في عدة عواصم.

وما ان وصل غورباتشوف إلى قمة السلطة في الكرملين عام ١٩٨٥ حتى تعددت اللقاءات بين مسؤولين اسرائيليين وسوفييت من مستويات مختلفة كان اشهرها اجتماع هلسنكي في اب ١٩٨٦. ورغم انهيار مباحثات هلسنكي فقد اقر ناطق رسمي اسرائيلي بأن محادثات حول قضية الهجرة قد جرت في منتصف كانون الثاني ١٩٨٧ في واشنطن بين السفير السوفيتي يوري دوربنين والسفير الأسرائيلي مايير روزين. وتشير الاحصاءات الى ان سنوات غورباتشوف التي قضاها في الكرملين قد شهدت مرة اخرى تصاعداً لاعداد المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتي وكانت هذه الارقام تتصاعد تبعاً لتطور العلاقات بين موسكو وواشنطن وان سنوات الوفاق القادمة ستشهد مزيداً من الهجرة اليهودية السوفيتية "لاسرائيل". فقد هاجر عام ١٩٨٦ (٩١٤) يهودياً من الاتحاد السوفيتي في حين بلغ هذا العدد عام ١٩٨٧ (٨١٥٥)، وفي عام ١٩٨٨ (١٨٩٦٥). اما في عام ١٩٨٩ فقد حصل ٢٠٠ الف يهودي على تأشيرة هجرة وصل منهم الى فينا في نهاية ١٩٨٩ حوالي ٦٠٤٨٩ يهودياً معظمهم من جمهوريات البلطيق السوفيتية؛ وتختلف التوقعات حول هجرة اليهود السوفيت في الأعوام المقبلة حيث تشير التقديرات الى ان عدد من سيهاجر خلال الثلاث سنوات المقبلة مابين ٢٠٠ و ٣٠٠ الف يهودي إلا ان اسحق شامير اعلن في تصريح له انه يتوقع ان يغادر الاتحاد السوفيتي خلال الاعوام الخمسة المقبلة حوالي مليون يهودي وان معظمهم سيصل رأساً الى "اسرائيل" ومن ثم فانه يعتبر ان "اسرائيل" على اعتاب مرحلة تاريخية لهجرة من الاتحاد السوفيتي واثيوبيا، وان هذه الهجرة ستغير كل شئ في "اسرائيل".

وفي هذا الأطار علينا ان نتذكر ان نسبة تساقط هجرة اليهود السوفيت وتحولهم للهجرة الى خارج اسرائيل كانت تبلغ حوالي ٩٠٪ ولكن رفض الولايات المتحدة منحهم حق الاقامة في الاراضي الامريكية واتخاذ عدد من دول اوربا الغربية ذات الاجراء جعل هذه النسبة تتناقص بشكل كبير.

ويبدو ان وصول عدد كبير من المهاجرين اليهود السوفيت الى الاراضي المحتلة في وهو ما يزيد الغبطة لدى العديد من الصهاينة المتعصبين الا انه في الوقت ذاته يثير العديد من الصهاينة وخاصة بالنسبة لاولئك الذين يعيشون في فقر مدقع لان عملية إستيعاب المهاجرين الجدد تبلغ تكاليفها بحدود ملياري دولار لكل ١٠٠ الف مهاجر. ومن المعروف ان السلطات «الاسرائيلية» تتكفل بثلاثة ارباع هذا المبلغ والربع الباقي من تبرعات اليهود في الخارج، ومعنى تكفل السلطات الاسرائيلية بهذا المبلغ الكبير ان هناك مزيداً من المعاناة للطبقات الفقيرة في الكيان الصهيوني. البعض يقول «يدعون انه لايوجد المال الكافي لتسوية مشكلة ١٠٠ الف عاطل من ابنائنا في حين انهم ينفقون مليارات الدولارات من اجل المهاجرين السوفيت».

ومع ان السوفيت يقولون ان هجرة اليهود السوفيت لصالح العرب في النهاية لاسباب ثلاثة:

١ ـ ان المهاجرين يشكلون عبئاً اضافياً على الحكومة الاسرائيلية التي تواجه صعوبات كبيرة في استيعابهم، خاصة وان معظمهم من الطاعنين في السن والاطفال الذين لايشكلون قوة عمل منتجة.

٢ ـ ان التجاوب مع الولايات المتحدة في صدد تسهيل هذه الهجرة يؤدي الى تعزيز الموقف السوفيتي المتعاطف مع المواقف العربية كما انه يشكل عامل ضغط على "اسرائيل" للاستجابة لدواعي السلام.

٣ ـ انخفاض عدد افراد الجالية اليهودية في الاتحاد السوفيتي لابد ان يؤدي الى الحد من الضغط اليهودي هناك !

لكن الواقع غير ذلك. "فاسرائيل" بمجرد وصول دفعات جديدة من الهجرة اليهودية السوفيتية اليها اعلنت انهم جنود جدد جاؤا لمواجهة الانتفاضة!

والحقيقة ان هذه الدفعات الجديدة من المهاجرين السوفيت الى الكيان الصهيوني هدفها بالاساس تغيير البنية السكانية في الضفة الغربية وقطاع غزة واقامة المزيد من المستوطنات مقابل إستئصال واقتلاع العرب من هذه الاراضي، وهذا يعني بالتالي تعزيز وتوسيع الوجود الصهيوني في الاراضي العربية وهو يعني موقفاً سوفيتياً جديداً تجاه "اسرائيل" والقضية الفلسطينية.

فماهي الاثار غير المنظورة لهذه الصفقة .. نتاج الوفاق الدولي الجديد؟

هذا السؤال واسئلة اخرى كثيرة ستجيب عليها التطورات الدولية خلال الاشهر القليلة القادمة.

البانيا..
أربعون عاماً من العزلة!

■ حمزة مصطفى

لم يكن طوق العزلة الذي فرضته البانيا على نفسها منذ أربعين عاماً، ليثير قبل بضعة شهور احداً. لكن، ما ان بدأ ينهمر مطر التغيير في الاتحاد السوفيتي واوربا الشرقية. واخذت عروش الايديولوجيات الجاهزة تتساقط في دول البلقان حتى اخذت الانظار تتجه صوب هذا البلد الذي أوصد على نفسه كل الابواب التي يمكن ان تاتي منها «الريح». واكتفى باستيراد ايديولوجيته «الشيوعية» وتعليبها لتتحول فيما بعد الى سياسة عزلة خاصة من خلال اتباع طريق «عجيب» للاكتفاء الذاتي والتنمية الوطنية. وفوق هذا وذاك عدت نفسها على يد مؤسس هذه التجربة «انور خوجه» الذي توفي عام ١٩٨٥ حارسة المنهج الماركسي ـ اللينيني الأصيل!.

لقد لفتت التغييرات الحاسمة في اوربا الشرقية وفي دول البلقان الانظار الى مايجري داخل سياج العزلة الذي احاطت البانيا نفسها به.. وراحت تطرح ومازالت تساؤلات عديدة حول ما اذا كان الدور القادم في التغيير سيكون على البانيا ذاتها خاصة وان رامز عاليا خليفة انور خوجه حافظ على نهج سلفه بشكل يكاد يكون شبه تام.. ومن الاسئلة التي فرضت نفسها بقوة وانسياقاً وراء مجرى التغيير في اوربا الشرقية ذلك السؤال الحاسم والذي لا يزال مطروحاً هو: الى اي مدى تتمكن فيه «تيرانا» من ركوب موجة العزلة؟

ان من يطرح هذا السؤال يملك الكثير من المبررات، لعل أهم هذه المبررات ان التغييرات في أوربا الشرقية اخذت تربك الالبان. علماً ان البانيا مازالت..


الملك احمد زوغو مع شقيقاته بالزي العسكري



احمد زوغو، بعد اعلان نفسه ملكاً على البلاد في عام ١٩٢٨



الامير الالماني غليوم الذي تولى حكم البانيا في عام ١٩١٤ بناء على قرار الحماية الدولية



تلتزم النهج الستاليني الذي بات ينتمي الى عالم آخر مندثر يتناقض جوهرياً مع عالم اليوم وبخاصة الاشتراكي الماركسي منه الذي باتت تتحكم في آليته سياسة «البيروسترويكا» التي انتهجها الزعيم السوفيتي ميخائيل غورباتشوف منذ عام ١٩٨٥. وهو العام الذي مات فيه انور خوجه بعد ان قاد البانيا لمدة ٤٠ سنة ظلت خلالها «لادائنة ولا مدينة» وتطبيقاً لنهجه الصارم هذا قال ذات مرة «انه يفضل ان يقتات شعبه على الاعشاب البرية على ان يطلب المساعدة من الخارج». ومن المعروف ان البانيا تنتج ٩٠٪ من استهلاكها الصناعي وجميع المواد الغذائية، واستطاعت المحافظة على نوع من الكبرياء استطاعت بموجبه صيانة سيادتها الوطنية. وهي توصف بانها «الفار الذي يزار» لانها لا تتردد عن مصادمة اي من الدول العظمى بما فيها الاتحاد السوفيتي.

البانيا أصغر دولة في أوربا مساحتها الف كيلومتر مربع، عدد سكانها ثلاثة ملايين نسمة. ويبلغ عدد الالبانيين في يوغسلافيا اكثر من مليوني نسمة، يعيشون في اقليم «كوسوفو» الذي يشكل امتداداً طبيعياً لالبانيا. يتالف الالبانيون من إختلاط أصول وعروق أوربية وهندية وتركية. ومن الناحية الدينية يشكل المسلمون نسبة ٧٠٪ منهم والارثوذكس ٢٠٪ والكاثوليك ١٠٪ كانت البانيا جزءاً من الدولة العثمانية. وعندما استقلت ونشأت دول البلقان قامت المملكة الالبانية المستقلة. وفي ٧ نيسان ١٩٣٩ احتلتها القوات الايطالية.

لعب اليوغسلاف دوراً في تشكيل الحزب الشيوعي الالباني منذ عام ١٩٤١. ويعود الفضل لليوغسلاف ايضاً في تمكين الشيوعيين من استلام الحكم بعد انتهاء الحرب، وفي اكتشاف وتربية انور خوجه وتنصيبه بالقوة زعيماً للحزب ثم رئيساً للدولة. واستمرت علاقة التحالف الوثيق بين خوجه وتيتو الى ان اتخذ الاخير قرار الخروج من المنظومة السوفيتية وقرر انتهاج سياسة شبه مستقلة، ومحايدة بين الشرق والغرب، حيث قطع خوجه علاقته الوثيقة بيوغسلافيا، وذهب الى ستالين، ونتيجة لذلك اقصى خوجه آلافاً من رفاقه واعوانه لمجرد الشك في انهم موالون ليوغسلافيا، ثم ذبحهم جميعاً!، وعندما مات ستالين وجاء خروتشوف واجرى مراجعته للستالينية لم يرق الامر لخوجه. فوجد فرصته في الانشقاق الصيني ـ السوفيتي فقطع علاقته مع موسكو وانحاز الى بكين. واستمرت علاقته ببكين بصورة وثيقة حتى عام ١٩٧٢ حين زار الرئيس الامريكي الاسبق نيكسون الصين فقطع خوجه علاقاته مع رفاق الامس، وبذلك يكون قد اغلق آخر باب لبلاده، على العالم. وقد بررت البانيا ذلك عندما اكّدت ان خلافها مع الاتحاد السوفيتي كان حول مبدأ التعايش السلمي، فانسحبت عام ١٩٦١ من حلف وارشو واطلقت لقب «الامبرياليين الاجتماعيين» على الروس، واختلفت مع الصين حول فكرة العوالم الثلاثة، ففي عرف البانيا هناك عالمان.. احدهما اشتراكي والآخر راسمالي ولا يوجد عالم ثالث ـ فاطلقت على الصينيين لقب «الامبرياليين التحريضيين». اما امريكا فتظل بنظرها الامبريالية

الرأسمالية.

ابـانيـا هي الدولة الوحيـدة في العالم ملحدة الحاداً تاماً. اذ ليس فيها شعائر وطقوس دينية حتى بمعناهـا الفردي، اذ اغلق انور خوجـه ٢٠٦٩ مركزاً دينياً وحولهـا الى قصور ثقـافية ونـواد ومتاحف وملاعب رياضيـة. اما رجال الدين فقد امر بتحويلهم الى عمـال تنظيفات. يبلغ متوسط الرواتب والاجور فيها حوالي ٥٠ دولاراً امريكياً في الشهر. يعتمد اقتصادهـا على الزراعـة بصورة رئيسية، والصناعات فيها قليلة ومتخلفة تقتصر عـلى اللوازم الرئيسيـة لانجـاح سياسة الانغلاق، مثل صناعة الاقمشـة والالبسة وصناعة الحديد ومواد البناء والمـواد الغذائيـة خصـوصـاً السكر. الدولة تهيمن على كل شئ ولا توجد ملكية خاصة حتى لو كانت مساحة شبر واحد من الارض.

نعود الى السؤال الذي قلنا انه يطرح نفسه بقوة: هل تظل البانيا قادرة على مقاومة رياح التغيير؟ هل باتت العزلة ممكنـة في عالم اليـوم؟ لاشك ان امـوراً كثيرة حصلت في غضون الأشهر القليلة الفـائتة بخصـوص مـاحصـل في اوربـا الشرقية وتاثيراته المحتملة على البانيا. وسناتي في السطور القادمة الى عرض كل التـوقعات والاحتمـالات الخاصـة بذلك ومن خـلال وقائـع محـددة سنـوردهـا تفصيلاً. لكن السؤال الادق الذي ينبغي طرحه والاجابـة عليه هـو: اي نوع من التغيير هذا الذي ستستجيب له البانيا، او لا تستطيع مقاومته؟ هل هو التغييـر المباشر في دول البلقان؟ ام هو نتائج هذا التغيير؟ هل هو الوضع السياسي المباشر الذي راح يعبر عن نفسه في اقطار أوربا الشـرقيـة سـواء من خـلال المـطالبـة بالديمقراطية والتعددية الحزبية، ام هو الوضع الاقتصادي؟ اننـا لو نظرنـا الى الامـر من الناحيـة الجغرافيـة المجـردة فسنجد البانيـا بمنأى عن الاثـر المباشر للتغيير، اذ تحدها يوغسلافيا شمالاً ولها نهجها المستقل فضلاً عن وجود مشـاكل كثيرة في الداخل، بل ان البانيا تستطيع التاثير على الوضع اليوغسلافي من خلال اقليم كوسوفو الذي يقطنه مايقـارب من مليون الباني. وتحدها جنـوباً اليـونان وهي عضو في حلف شمال الاطلسي، امـا غرباً فيحدها بحر الادرياتيك. ولعل الاهم من هذا ان البانيا ظلت بعيدة عن مصادر النفـوذ الغـربي والشـرقي، لذلك فـان ماسيجري فيها - ان جرى - انما يتوقف تحديداً على إرادة الداخل.

لقد امتدحت البانيا قبل مدة حركة التغييرات في اوربا الشرقية لكنها عادت وصمتت عندما رات جدار برلين يتهاوى - وبعـد ان عصف هـذا التيـار المحتـدم بـرومانيـا الشقيقة الاخيـرة لالبانيـا في التمسك بالستالينية وجدت قيادة الحزب الشيوعي في «تيرانا» نفسها معزولة تماماً ومطوقة من كـل حدب وصـوب بريـاح التغييـر العاصفـة. وقد كتبت صحيفـة الحزب المركزية «زيرت بوبيوليت» حول الاوضاع في رومانيا قائلة «ان هذه الدول ليست اشتراكية بالمعنى الحقيقي بل هي دول رأسمالية لا نوافق على التغيير الذي طرأ عليهـا. وسنتـابـع طريقنـا الذي اخترناه لنفسنا لان ميزة نظامنا انه وفر للمواطنين سبل النجاح والازدهار.

وحتى لو افترضنا ذلك صحيحاً في الماضي فان البانيا تواجه اليوم شانها في ذلك شان جاراتها من دول البلقان مشكلة التفجير السكاني، فرغم ان عدد نفوسها ثـلاثـة مـلايـين نسمـة الا ان ثلثهم من الشباب دون سن الثلاثين عاماً، ويواجه النظام الان عدم القدرة على تقديم الغذاء الضـروري والمتطلبـات الحيـاتيـة لهم بسبب المشاكل الاقتصادية الجدية التي يـواجهها. ولعـل من الامور التي تثـير الانتباه ان البانيا التي ظلت مكتفية ذاتياً اضطرت عام ١٩٨٨ الى استيراد الغذاء، وهـو اخطر تحـول من شانـه ان يغلب العامل الاقتصادي على العوامل الاخرى.. اي ان «الاقتصـاد» هـو الذي سيجبـر البانيا على التعامل «السياسي» مع العالم الخـارجي. وعنـدمـا يحصـل ذلك تحت ضغـط الحاجـة فان من الصعب التكهن بالنتائج.

● الفعل ورد الفعل

ادت الاوضاع التي تفجرت في اوربا الشرقية في النصف الثاني من عام ١٩٨٩ الى احداث فصل جـوهري عـلى مستوى الاحـداث الدولية، ومـاقد يتـرتب عليها مستقبلاً من نتائج، ولم تكن البانيا بمعزل عما يجري خاصة في اطار مايربـطها من علاقات بين جارتيها يوغسلافيا واليونان بسبب وجود اقليات من هذه الاقطار فيها، اضافة الى اقلية تركية. ولا شك ان معظم الاخبار المتسربة من البانيا انما تتحدث عن محـاولات تفجيـر عـرقي فضـلاً عن ازدياد الغليان الشعبي. ومـع التغيرات التي طرات عـلى البلدان الشيوعيـة بدأ الشـبـان الالبـان يعبـرون عن عـدم تـوافقهم مع النـظام ورفضهم للروتـين المفـروض عليهم في كـل شئ ورغـبتـهم الزائـدة الى معرفـة المزيـد عن الانظمـة والايديولوجيات الاخرى، في وقت وصف فيه السفير الالباني في باريس كزينوفون نوس لوكالة «فرانس برس» ان ماسقط في اوربا الشرقية كان «التحـريفية» وليس الاشتـراكية وان البـانيا ليست معنيـة

اطلاقاً بازمة كتلة اشتراكية لا تنتمي اليها. (الشرق الاوسط ٤/١/١٩٩٠م).

غير ان وكالات الانباء، وبخاصة اليوغسلافية، اخذت تتحدث عن اضطراب الاوضاع هناك، مشيرة الى اعلان حالة الطوارئ، في وقت التزمت فيه الصحف الالبانية ووكالة الانباء الرسمية الصمت ازاء ذلك في بداية الأمر. الا انها اضطرت فيما بعد الى الرد على مصادر الاخبار بهدف اسكاتها. وفي الوقت الذي اشارت فيه وكالة «تانيوغ» اليوغسلافية الى ان «شيئاً ما يجري في البانيا» (الشرق الاوسط ١٣/١/١٩٩٠) فان الراديو الهنغاري ذكر في الوقت نفسه في تقرير لأحد المراسلين من العاصمة الالبانية انه سمع صوت اطلاق نار من مكان ما في جنوب المدينة. وقال ان اطلاق النار استمر عدة دقائق، لكنه استدرك قائلاً ان اطلاق النار هذا ربما كان تدريباً عسكرياً. وقال احد الدبلوماسيين انه امر غير معتاد ان يجري اطلاق النار في البانيا، لكن جنوداً كانوا يحرسون مقبرة الابطال لم يظهروا اي رد فعل، فيما اشار دبلوماسيون غربيون من «تيرانا» ان الحياة تسير بصورة طبيعية وليس هناك علامات على اتخاذ اجراءات عادية. السفير الالباني في روما نفى ما اشيع حول اعلان حالة الطوارئ بيد انه رفض عرضاً تقدم به جمع من الصحفيين لزيارة البانيا في مهمة تبدو كما لو كانت تقصي حقائق قائلاً انه لا يوجد سبب يبرر هذه الرحلة. وفي اليوم التالي لتصريح السفير الالباني نفى رامز عاليا - الزعيم الالباني - ماتردد بشأن حالة الطوارئ، واتهم بلغراد بانها تقف وراء هذه الاختلاقات. غير ان امر الاختلاقات هذا تجاوز الحدود اليوغسلافية والهنغارية ليمتد الى اليونان حيث قالت صحيفة «تيبوس» ان حمامات الدماء قد بدأت في البانيا على غرار ثورة رومانيا وبخاصة في مدينة شكودرو تورك.

في الوقت الذي تتبادل فيه البانيا الاتهامات مع جاراتها ومع سواها من مصادر الاخبار حول اوضاعها الداخلية وعزلتها الفريدة تمكن جندي الباني من اللجوء الى اليونان ليعلن من هناك ان الشرطة السرية سحقت محاولات الانتفاضة الشعبية بشكل دموي وقال ان الشعب الالباني نزل الى الشوارع في مدينة شخودرو، وان الشرطة السرية قتلت الكثيرين.

● ماذا يؤشر ذلك كله؟

لعل الاجابة المباشرة على سؤال كهذا صعبة. ان العزلة الخانقة التي تعيشها البانيا لم تعد تنسجم مع ماجرى في اقطار اوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي ومع ماسيجري. واذا كان الزلزال الايديولوجي قد ضرب بقوة بعض اقطار اوربا الشرقية فإن وضع البانيا قد يجنبها لمدة اخرى من الزمن تاثير الزلازل. واذا كان الامر الآن يتوقف على طبيعة النتائج المتوقعة لزلزال اوربا الشرقية والاتحاد السوفيتي فان المستقبل لا يمكن التحكم بنتائجه. ان الرهان في البانيا قائم على التحكم بالوقت.. فاذا كانت نتائج الزلزال ايجابية لصالح هذه الشعوب فان البانيا لن تستطيع المقاومة الى امد بعيد لا سيما بعد حدوث بعض التململ الذي لا يمكن تجاهله. اما اذا استقرت الاوضاع في اقطار اوربا الشرقية بحيث تكتشف شعوب هذه الاقطار ان الفردوس الذي وعدت به لن يتحقق فان النظام الالباني سيجد نفسه محاطاً بسياج من الطمانينة ولكن لمدة من الزمن، لان حالة العزلة في ضوء حركة التغيير العالمية الهائلة وثورة الاتصالات سيُحكم عليها بالفشل التام.

● اعتراف متاخر

لقد اعلن رامز عاليا انه لا يعتبر البانيا فردوساً، واكد انه احدث تغييرات طفيفة منها تقديم الحوافز للعمال في محاولة لتحسين الوضع الاقتصادي. اما على الصعيد الخارجي فقد تم تطبيع العلاقات مع اليونان وانهاء حالة الحرب معها. وتمت الموافقة على مد خط سكة حديد يربط البانيا بيوغسلافيا، واقامة نقاط عبور واتصالات بحرية مع اليونان، كما دعا عاليا الى اقامة علاقات سلمية مع دول السواحل الاوربية المشتركة، والى استقبال السياح مع «ادلاء» والى الموافقة على اطلاق اللحى بعد ان كان ذلك ممنوعاً على عهد الزعيم السابق انور خوجه. ومع ذلك فان النظام مازال مركزياً صارماً ولا توجد فيه مؤسسات منتجة. ولم يسمح للصحفيين بالدخول سوى مرة واحدة اثناء لعبة كرة قدم بين بريطانيا والبانيا انتهت بهزيمتها طبعاً.

لقد ظلت البانيا بعيدة عن مصادر النفوذ شرقاً وغرباً وهو امر وفر لها حماية اكبر، الا ان صحيفة الازفستيا السوفيتية طالبت بعودة العلاقات الالبانية مع موسكو، فيما تدعو اميركا الى اسقاط النظام الحالي. هل يعني ذلك ان البانيا دخلت منطقة النفوذ؟ وهل ستتحرك نحوها رياح الوفاق؟ كل شئ ممكن، بيد ان اخطر مايمكن توقعه هو العامل الاقتصادي. فالبانيا لن تستطيع الصمود بالستالينية تحت وطاة الضرورة الاقتصادية. وهذا هو العامل الوحيد الذي ينذر بالخطر في المدى المنظور.

جدار كشمير.. هل ينسف العلاقات الهندية الباكستانية؟

■ صباح اللامي

لعل اهم سمات عقد التسعينات تململ «الامبراطوريات الجغرافية».. إما باتجاه يشير الى مطالبة بعض اجزائها بالانفصال، كما يجري في الاتحاد السوفياتي وعدد من دول اوربا الشرقية والهند. واما بالاتجاه الذي يدعو الى (عودة اتحاد) أجزاء فصلتها ظروف الحروب الكونية، كما يجري بين الالمانيتين والاتحاد السوفياتي والهند نفسهما، وكذلك في الوطن العربي.

المهم هناك أجزاء تريد الانفصال عن (حاميتها) الدولة الكبيرة وإعلان استقلالها، بينما هناك أجزاء تريد الانفصال والالتحام بجزئها السابق، فضلاً عن دول مستقلة او اقاليم او مقاطعات تسعى (بالتظاهرات السلمية وباعمال العنف) الى عودة وحدتها في الارض والسيادة.

وإذا كانت رياح التغيير في اوربا الشرقية قد اسقطت جدار برلين، لتتحول حجارته الى نثار من ذكريات ماضي الحرب العالمية الثانية التي قسمت نتائجها المانيا الى شطريها الشرقي والغربي فان هناك عدداً من الدول والاقاليم في العالم، يسعى ايضاً الى هدم جدران او (حدود قسرية) فرضتها ظروف مابعد الحرب.

وشبه القارة الهندية منذ ان قُسِّمت عام ١٩٤٧، لتتكون الباكستان التي انفصل عنها جزؤها الشرقي فيما بعد مكوِّناً بنغلاديش، تعاني من تململ اقليمي البنجاب، وجامو وكشمير، اللذين اقتسمتهما مع الباكستان، وظلا على مدى ثلاثة واربعين عاماً مصدر عدد من الحروب الطاحنة بينهما، دون ان تسفر كل المباحثات والاتفاقيات التي جرت وابرمت بينهما لما يؤول الى حل نهائي يوقف نزيف الاضطرابات وأعمال العنف والارهاب في كل من البنجاب (بنج ـ آب) اي الانهار الخمسة التي تنبع من جبال همالايا. والتي قسمت عام ١٩٤٧ الى (البنجاب الشرقية) وعاصمتها (امرتسار) ضُمّت الى الهند. و (البنجاب الغربية) وعاصمتها لاهور ضُمّت الى الباكستان. اما (كشمير وجامو) هذا الاقليم الجميل الواقع عند ملتقى جبال (كاراكورام) مع جبال (الهيمالايا) فتسيطر باكستان حالياً على ثلثه، فيما تسيطر الهند على الباقي. وكشمير هي المنطقة الوحيدة في الهند التي تضم اغلبية مسلمة (اكثر من ١٢ مليون مسلم) يسعون الى الاستقلال او الانضمام الى الباكستان في اجواء صراع دموي لم يهدأ منذ عام ١٩٤٧: السنة التي بدأ فيها تفتت الامبراطورية الهندية القديمة.

ولقد شهد مطلع العام الجديد احداث عنف خطيرة في هذه الولاية التي تنتشر فيها القوات الهندية فارضة سيطرتها بقوة السلاح ضد التظاهرات الشعبية وملاحقة قوى المعارضة المطالبة بالانفصال وبوحدة كشمير واستقلالها.. هذه الأحداث التي تنذر كما يؤكد المراقبون بنسف علاقات الهند وباكستان وربما باندلاع حرب رابعةضروس، بعد ثلاث حروب كبيرة بينهما لم تتح لهما فرصة حل هذا الخلاف.

وتدفع نيودلهي الآن ثمن إهمالها لهذه المنطقة فترةً طويلة من الزمن، إذ يعتبر سكان كشمير انهم يعاملون



...ره في الهند
...عب كشمير

...نازير بوتو
... الداخلية
...يار الحرب

كمواطنين من الدرجة الثانية. وهم يحظون بتعاطف سكان كشمير الباكستانية والقوى الباكستانية المعارضة لحكومة بنازير بوتو التي لم تستطع تجاهل مايجري في الجانب الآخر من كشمير رغم أن الخوف الهندي ـ الباكستاني من نشوب حرب بينهما هو وحده الذي يدرأ التجاوزات من كلا الجانبين.

ويبدو ان رياح العنف قد أطاحت بمعاهدة «سيملا» التي أبرمت عام ١٩٧٢ بين علي بوتو «والد بنازير» وانديرا غاندي والدة راجيف «رئيس وزراء الهند السابق وزعيم المعارضة حالياً» والتي ـ اي المعاهدة ـ تدعو الى حل جميع المشاكل القائمة من خلال الحوار وبالطرق السلمية.

ان بنازير بوتو التي حرصت على إقامة علاقات حسن جوار مع الهند، اضطرت تحت ضغط المعارضة الى تاكيد التراجع عن الالتزام (بمعاهدة سيملا)، مشيرة الى ان اي حل وسط لا يمكن تصوره بشأن «حق تقرير المصير» لكشمير. وتردُّ نيودلهي على ذلك بقولها إن الانفصاليين المسلمين يحصلون على دعم من باكستان. فيما يرى المحللون السياسيون الدوليون ان احداث كشمير تشكل التحدي الأكثر خطورة الذي يواجهه رئيس الوزراء الهندي الذي لم يرس بعد دعائم سلطته.

لقد حاولت الهند ضم كشمير وجامو عام ١٩٥٧ لكن الامم المتحدة طلبت منها التراجع عن جزئها الباكستاني طبقاً لقرار التقسيم الذي اصدرته الامم المتحدة عام ١٩٤٩.. ويقوم الموقف الهندي الآن على اساس ان الولاية جزء لا يتجزا من الهند وان (حركة التمرد) التي قامت خلال الشهور الماضية تمت بايعاز من باكستان.. وهي تقوم بحملة (دبلوماسية) لاقناع القوتين العظميين والدول الاسلامية بأن باكستان تحرّض على الاضطرابات في الولاية.. بينما تنفي باكستان هذا الاتهام قائلة إن الاضطرابات تعود الى رفض الحكومة الهندية إجراء استفتاء على جامو وكشمير.

الاتحاد السوفياتي اعلن في اواخر شهر كانون الثاني الماضي دعمه للهند في نزاعها مع باكستان حول مشكلة (جامو وكشمير) المتنازع عليها.. جرى ذلك في اجتماع بين وزير الخارجية السوفياتي ادوارد شيفرنادزه ونظيره الهندي شايلندر اكومار سنغ.. وقد لا يكون خافياً ان الموقف السوفيتي مرتبط بقضية افغانستان ودور باكستان في دعم قوات المعارضة الافغانية وفتح ابوابها لوصول الدعم الامريكي لها.

اما باكستان فقد اولت القضية اهتماماً متزايداً ـ غير عابئة باحتمالات المواجهة العسكرية المباشرة مع الهند ـ فقد اكد وزير الخارجية الباكستاني صاحب زاده يعقوب خان ان بلاده تعتبر ولاية كشمير منطقة متنازعاً عليها ويجب تقرير مصيرها. وقال في بيان تلاه بنفسه من التلفزيون الباكستاني في مطلع شباط الماضي إن مستقبل كشمير يجب أن يتقرر من خلال استفتاء شعبي يتم باشراف الأمم المتحدة.

وتنشط الدبلوماسية الباكستانية

لاستثمار التعاطف الدولي لا سيما على صعيد العالم الاسلامي. بتأكيدها على ان قضية جامو وكشمير يجب ان تحل باجراء الاستفتاء وفقاً لقرارات مجلس الأمن الدولي، منبهة الى ان الموقف في كشمير - التي وصفها السفير الباكستاني في القاهرة بالمحتلة - قد اثار موجة من الاستياء العميق في كل انحاء باكستان وان نضال اهالي كشمير اتخذ اتجاهاً جديداً مغايراً تماماً لما كان عليه في العقود الماضية.

من جانب آخر اخذ الكشميريون الذين يتخذون من باكستان مقراً لهم يطوفون في العالم بحثاً عن التأييد لهم بعد ان شعروا بوجود فرصة لاعادة بعث الاهتمام الدولي بقضيتهم.. في الوقت نفسه تتعرض الحكومة الهندية لضغط خفي هو الأول من نوعه فيما يخص تدهور الاوضاع في كشمير. يشير اليه تصريح زعيم المعارضة الهندية راجيف غاندي بقوله في لقاء اواخر شهر كانون الثاني الماضي: إن كشمير الآن اقرب الى الانفصال، والى ان تفلت من اي وقت مضى.. ويضيف: إن الشرطة الهندية وكذلك ادارة الولاية قد ضعفت معنوياتها، وان القوات الهندية التي كانت في السابق تلاحق (الأرهابيين والوكلاء الأجانب!!) هي الآن تقع في المصيدة وتُلاحق من قبل القوات الحكومية المركزية في الولاية.

يحدث هذا في ظل قناعة هندية رسمية ثابتة بان اية حكومة تقبل بمطلب الميليشيات باعتبار كشمير منطقة متنازعاً عليها مع حقها بتقرير المصير، فان ذلك سيكون بمثابة حكم بالموت على تلك الحكومة او على الاقل اشارة تحذير بقرب اجلها.. ولعل تصريح راجيف غاندي يرتبط مباشرة بهذه الغاية (كسباً للتأييد) فهو يتحدث وكأنه مستعد (للتضحية) بكشمير حيال سقوط حكومة سينغ رئيس الوزراء الحالي وخصم راجيف.. بل عدوه اللدود!

إن المراقبين الدوليين المهتمين باحداث شبه القارة الهندية يعدّون مايجري في جامو وكشمير، مرحلة اللاعودة في الحوار الهندي - الباكستاني سلمياً على مصير اثني عشر مليون مسلم، ينقسمون الى تيارين احدهما يطالب بالانفصال عن الهند وباكستان وإعلان الاستقلال كدولة بكامل سيادتها وآخر يدعو الى الاندماج مع الباكستان وهذا هو التيار الذي يقوده (محمد عبد القيوم خان) رئيس كشمير الباكستانية المسماة (الحرّة) الذي يؤكد انها تتمتع بحكم ذاتي اكبر كثيراً من ذلك الذي تتمتع به كشمير الهندية.

وقد عمد كشميريو الباكستان الى وضع خطط لاقامة مخيمات للمواطنين على طول الحدود مع الهند لأظهار التضامن مع كشمير الهندية كما فعلوا ذلك سنة ١٩٥٨.. وهم يستعدون ايضاً لتحطيم الجدار الحدودي الذي يفصل كشمير الى جزءين بالعبور الى الشطر الهندي من الولاية حيث يتهيأ ما لا يقل عن عشرة آلاف مقاتل كشميري باكستاني لقيادة وتنفيذ عملية العبور.

إن كل الجهود التي بذلت عام ١٩٨٨ من جانب بنازير بوتو رئيسة وزراء باكستان، وراجيف غاندي رئيس وزراء الهند، لتحسين العلاقات بينهما تنفيذاً لاتفاقية «سيملا» التي وقعها علي بوتو وانديرا غاندي، قد منيت بانتكاسة كبيرة مع تصاعد احداث العنف والمواجهة التي اسفرت عن الوف القتلى والجرحى والمعتقلين كنتيجة لتصدي القوات الهندية لتظاهرات الكشميريين وبحملات القمع والتفتيش.

ولقد ابلغت الهند باكستان انها لن تسمح الا بان تبقى جامو وكشمير جزءاً لا يتجزأ من الهند مهما بلغ الثمن وانه سيكون خطأ كبيراً من جانب باكستان فيما لو اعتبرت مايحدث في كشمير انتفاضة ضد وضع غير عادل.

وحيال هذا الموقف الهندي المنطوي على احتمال وقوع الحرب، أكدت باكستان انها لن تتخلى عن موقفها تجاه كشمير وانها لن تقدم اية تنازلات فيما يتعلق بالحقوق الاساسية لاهالي كشمير وخاصة حقهم في تقرير المصير.. وانها لن تخضع لاية ضغوط او تهديدات من اي جانب.

ويبدو جلياً للمراقبين الدوليين ان الخيارات محدودة امام حكومة بوتو التي تجد نفسها (مضطرة) لتاييد الانفصاليين الكشميريين تحت تهديد تنامي حركة المتشددين الاسلاميين او مواجهة اتهامات (بالضعف) من قبل خصومها.. ازاء ذلك فان إدارة سينغ رئيس وزراء الهند واقعة تحت ضغط منطقة، ربما لا تستطيع نزع فتيل التوترات منها لا سيما بعد ان تورطت قواتها الهندوسية المسيطرة على كشمير بفتح النار على آلاف المسلمين الذين سقطوا ضحايا لحملات المواجهة معها خلال الشهور الماضية.

كلا الدولتين: الهند وباكستان ستدفعان الثمن باهظاً بحرب جديدة طاحنة، اذا لم تتوصلا الى حل سلمي سريع يترك لشعب كشمير حق تقرير مصيره بنفسه سواء بالانضمام الى الهند او باكستان او الانفصال والاستقلال نهائياً.. ويبدو الخيار الأخير مفضلاً للراي العام الكشميري الذي دفعته المصادمات العنيفة الاخيرة الى المطالبة بالاستقلال الكامل.

البحر الأبيض المتوسط



الصراع والتكامل

ترجمة: الطائع الحداوي - الدار البيضاء

انعقدت بمؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بمدينة الدار البيضاء مناظرة دولية في موضوع «ضفتا البحر الأبيض المتوسط: الصراع والتكامل» مابين ٧ - ٩ كانون اول ١٩٨٨. شارك فيها باحثون عرب وأجانب من مختلف التخصصات العلمية والمعرفية. ونظراً لأهمية هذه المناظرة والعروض التي تخللتها نقدم، فيما يلي، جرداً لأهم محتوياتها في إطار ترجمة عروضها.

في بداية هذه المناظرة التي ترأس جلستها السيد إدغار بيزاني رئيس معهد العالم العربي بباريس، تحدث الحبيب المالكي، الأستاذ بكلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية بالرباط. وكانت كلمته عبارة عن عرض تقديمي حدّد فيه طبيعة هذه المناظرة والمحاور التي ستتناولها بالنقاش.

فإشكال البحر الابيض المتوسط، كما يقول الحبيب المالكي، إشكال متعدد الأبعاد: استراتيجي واقتصادي وسياسي وسوسيو - ثقافي. إنه اكثر تعقيداً مادام يشير إلى أنّ الانقلابات التي عرفها ويعرفها هذا المجموع ستكون حاسمة في نهاية هذا القرن.

والبحر الأبيض المتوسط من المناطق القليلة التي لم تعبرها الصّراعات المتعددة: صراعات شرق - غرب، وشمال - جنوب، وجنوب - جنوب. وهذا مايؤكد لماذا تستقرّ نصف القوى البحرية تقريباً في هذه المنطقة التي تعتبر أساساً منطقة «التوازن العالمي».

والبحر الأبيض المتوسط إلى جانب هذا، فضاء اقتصادي يعرف أزمة تحوّلات عميقة بين المحيط الأطلسي (كبؤرة للثورات الصّناعية التقليدية) والمحيط الهادي (كمركز للاقتصاد الدّولي). وتسمح لنا هذه الوضعية الاقتصادية بالقول: إن (ب.ا.م) أصبح محكوما عليه أن يعيش في الهامش. فالمراكز الصّناعية في هذا البحر تنتمي إلى الجيل القديم (صناعة الصّلب والمعادن، أوراش السفن، النّسيج، الكيمياء، البيتروكيمياء الخ.) وهي من حيث التخصص متخلفة وتتّجه في بعض الحالات «نحو اللا - تصنيع (إيطاليا، فرنسا، اسبانيا).

وعلى الصعيد الغذائي هناك عجز كبير وصل إلى ٥٠ مليون طن سنة ١٩٨٠ مقابل ٢٠ - ٢٥ مليون طن سنة ١٩٧٥. ويمسّ هذا العجز، بصفة خاصة، الضفة الجنوبية لهذا البحر والتي يمكن ان تؤدي فيها هذه الحالة إلى نوع من «الفقر البنائي».

وفي الميدان المالي، نلاحظ أنّ أغلب الدّول المتوسطية تعيش أزمة الدّيون التي تقدر بـ ١٦٨ مليار دولار سنة ١٩٨٥ أي بمعدل ١٨٪ من مجموع ديون العالم الثالث. وتتصف هذه الوضعية المالية باللاّ استقرار وتحمل في طياتها كلّ مواصفات التحققات اليائسة. ولكي تواجه حكومات هذه البلدان هذا الوضع عليها ان تحاول إعادة تحديد دورها بواسطة تطوير وتنمية وظيفة إدماجها على المستوى المحلّي والجهوي والعالمي والبحث عن مصادر جديدة للمشروعية.

أمّا في الميدان الثقافي، فإن ثقافات البلدان المتوسطية في طريقها إلى أن تصبح ثقافات فرعية نتيجة لتدويل

الفضاء الثقافي الذي يجدُ مُؤشّره الرئيس في الثقافة المهيمنة التي تحدد نفسها كثقافة ذات اهداف كونية وشاملة مع السّعي إلى توحيد المعايير والقيم وتوسيمها بطابع التّداول اليومي.

يُضاف إلى هذه المؤشرات خطورة الفجوات التي تتعمق بين (ب.ا.م) في ضفته العربية و (ب.ا.م) في ضفّته الأوربية. فهناك بحر أبيض متوسط يمتلك مركزاً وهوامش متعددة هو في طريق التكوين. وتزيد بلدان السّوق الأوربية المشتركة من وتيرة هذه السّيرورة التي ستتطور أكثر في افق سنة ١٩٩٣ عندما يقع تحقيق أوربا الموحدة.

ولاشك أنّ هذه الدينامية تحمل معها صراعات وتوترات وهو ما يجعل السّوق الأوربية المشتركة مدعوة إلى الوعي بالرّهانات الجديدة لـ «حدودها الجديدة» اي البحر الأبيض المتوسط.

انطلاقاً من هذه القاعدة، يتطلب العمل على خلق رؤية جديدة للتعاون المستقبلي. وينبغي ان تكون هذه الرؤية في التفكير الشّامل للبدائل بالفاظ المنطقة نفسها. فاقتصاد القرن الواحد والعشرين سيكون مؤسساً على الجهة والأقطاب الكبرى للتنمية الجهوية. فالجهة كرهينة للتصور والتّنسيق والقرار مدعوة، اكثر من أي وقت مضى، لأن تلعب دورها المحرك في إعادة البَنْيَنَة العالمية في المستقبل. فـ (ب.ا.م) يحتوي على الشروط الاساسية التكوينية لوحدة عُضوية (تاريخ، جغرافية، ثقافة، مصادر، تبادلات متعددة)، ومن هذه الزاوية يمتلك القدرة الكافية على التحرك بطريقة مستقلة ناسجاً بين مكوّناته المختلفة تلك كلّ روابط التكامل الفعلي.

وكما أشرنا إلى ذلك، يستدعي كلّ هذا التفكير في مشروع شامل لنظام متوسطي جديد مؤسّس على الاعتقاد العميق في أنّ مصير وقدر (ب.ا.م) لايمكن النّظر إليه إلّا بكيفية تضامنية وليس بطريقة معزولة.

وبدءا مما سبق، نقترح محاور للتفكير:

١ - البحر الأبيض المتوسط: فضاء استراتيجي لهندسة متغيرة.

٢ - البحر الأبيض المتوسط: فضاء سوسيو - ثقافي متفجّر.

٣ - منظورات لتعاون قوي ومدعّم بين الضّفتين: نحو نظام جديد للبحر الأبيض المتوسط.

• «البحر الأبيض المتوسط الأمريكي والبحر المتوسط للعالم القديم»

أشار الاستاذ إبراهيم بوطالب إلى أهمية بعض المعطيات التي ساهمت في تشكل بلدان البحر الأبيض المتوسط ومنها مثلا بعض الصّناعات الخفيفة والانتاجات التواصلية إلى جانب ماعرفته هذه المنطقة من اختراعات على راسها الكتابة والعدد.

وإذا كان (ب.ا.م) قد عرف تطوراً ملحوظاً وتحوّل إلى مركز أساسي، فانه بدأ يعرف مقابل ذلك، تهميشاً بين سنة ١٥٨٨ و١٧٥٦ الى حدود سنة ١٩٤٧ حيث بدأ يظهر شعور معين بهذه الوضعية ليفسح المجال لانبثاق الوعي المتوسطي.

فالوحدة والتعدد في البنيات التاريخية المتوسطية واضحة في التكوّن الاجتماعي كما في تكوّن الذهنيات: في الأسس الاقتصادية كما في التصور السياسي. وما نشاهده من اختلاف بين ضفّتي (ب.ا.م) ليس شيئاً آخر إلّا الاختلاف الذي يفصل بين الجذع وأغصانه او الجنس وانواعه. فتعددية الطفرات تنتهي دائماً إلى الذوبان في المصير الواحد.

بدأ إدغار موران عرضه باستعارة ترى أنّ الماء السائل لهذا البحر يوحّد ويفرق. وعلى غرار إبراهيم بوطالب، ذكرنا بأنّ (ب.ا.م) كان فضاء للكتابة والعدد والفلسفة والنّقاشات التي كانت تدور في السّاحات العامة (الأغورا مثلاً): فهناك طبيعة تواصلية يتميز بها هذا البحر. والفكرة التوحيدية (محمد، موسى..) هي فكرة متوسطية اصلاً. لكنّ هذا البحر عرف مراكز متعددة وليس مركزاً واحداً ولذلك، يقول موران، «أعتقد أنّ ارسطو قد مرّ بفاس قبل أنْ يصل إلى السوربون». فالعالم الغربي الحديث قد وُلد من استيقاظ البحر الأبيض المتوسط. لكنّ هذا البحر هو بحر الالتباسات: هناك شروخ وتصدّعات تتجلّى في الصّراعات وازمة الهوية. وبفعل طبيعة هذه الالتباسات فإنّ (ب.ا.م) «يطرح علينا اقتراحات كونفدرالية» وتحضّر الصراعات (فلسطين، لبنان الخ). ويقول إدغار موران في ختام عرضه: «هناك مشاكل مشتركة تقريباً من حلول مشتركة مادام هذا البحر يشكل مركزاً للتواصل بين الأراضي التي تحيط به».

امّا إيف لاكوست فاقام مداخلته على المقارنة بين الخصّيصة الجغرافية والبشرية والثقافية لنوعين من البحرالابيض المتوسط: البحر الابيض المتوسط للعالم القديم: عربي - أوربي، والبحر الأبيض المتوسط للعالم الجديد: امريكي، وذلك لفهم خصوصية وتعقد مشاكل علاقات شمال - جنوب (الصراعات والتكامل) في أطار البحر الأبيض المتوسط الممتدّ بين أوربا وإفريقيا والبحر الأمريكي أي جنوب الولايات المتحدة والمكسيك وأمريكا وجزر



الجلسة الأولى من المناظرة الدولية، ويبدو من اليمين الى اليسار: محمد بناني، محمد بنونه (المغرب)، ادغار بيزاني (فرنسا)، ابراهيم بو طالب (المغرب)، إيف لاكوست (فرنسا)، الحبيب المالكي (المغرب).

الانتيل والجزء الشمالي لأمريكا الجنوبية (كولومبيا، فنزويلا).

فالولايات المكوّنة للبحر الابيض المتوسط الأمريكي تحيط بمجموع بحري تصل أبعاده إلى ٤٠٠ كلم من الشرق إلى الغرب ولها نفس الحجم في البحر الأبيض المتوسط للعالم القديم. وتضمّ هاتان المجموعتان الجيو ـ سياسيتان ٣٠٠ مليون نسمة تقريباً وعشرين ولاية ويوجد كلّ واحدٍ من هذين البحرين ضمن خط الاتصال الذي يربط بين ما أصبح يسمّى بالشمال والجنوب. ونلاحظ في هذين القطاعين أنّ الظواهر العلائقية بين «الدّول المتقدمة» ودول العالم الثالث أكثر تعقيداً واتساعاً ومباشرة.

ويمكن أن نلحظ عدة اختلافات مهمة بين هاتين المجموعتين الجغرافيتين: فالبحر الأبيض المتوسط الأمريكي يتصف بالتعارض بين دولة قوية (الولايات المتحدة) ومجموعة من الدول الصغيرة. أمّا في البحر الأبيض المتوسط العربي ـ الأوربي فإنّ عدم التوازن بين الدّول المحيطة به أقلّ حدّة. والغزوات الاستعمارية في البحر المتوسط الأمريكي ترجع الى قرنين من الزّمن في حين إنّها كانت متأخرة في البحر الأبيض المتوسط العربي ـ الاوربي.

وعلى الصعيد اللّغوي والديني، هناك في البحر الأمريكي لغتين أساسيتان هما الأنكليزية والأسبانية: ومذهبان هما: الكاثوليكيةوالبروتستانية. أمّا في البحر العربي ـ الأوربي فنجد العكس: هناك لغات متعددة وتنوع كبير في الاتجاهات الدينية.

وشئ طبيعي ،كما يقول إيف لاكوست، انّ هذه العوامل تساهم في تعقّد المشاكل الجيو ـ سياسية للبحرين. لكنّ الاختلاف الأساسي بين المجموعتين ليتحدّد في كوْن البحر الأبيض المتوسط للعالم القديم، كقطاع لمنطقة الاتصال بين شمال ـ جنوب، يتطابق وحدود شمال ـ غرب العالم العربي لىمتدّ على طول الرقعة الشاسعة للعالم الأسلامي. فالتعارضات الاقتصادية تتراكب، إذن، مع الاختلافات الثقافية الكبيرة، في حين اننا نجد مثل هذه المشاكل أقلّ تعقيداً داخل البحر الأبيض المتوسط الأمريكي.

● رهانات الأمن في البحر الأبيض المتوسط

يمكن القول إنّ أغلب الأفكار التي طرحت في هذه المناظرة الدّولية لم تخرج عن إطار الطروحات اتي تناولتها الجلسات السابقة. فالباحث الفرنسي كلود نيعول طرح أربعة أنواع من المشاكل تتعلق بـ:

١ ـ مشاكل التنمية: أشار فيها إلى الفضاء الاقتصادي المتباين لدّول البحر الأبيض وإلى التبعية الغذائية التجارية والدّيون الخارجية.

٢ ـ مشاكل السكان: وأكدّ بصفة خاصة ،على التحول الديمغرافي لهذه البلدان وعلى حركات الهجرة.

٣ ـ التحولات الثقافية: وشدد في هذه التحولات على العوامل اللّسانية والعوامل الدينية.

٤ ـ إطارات المعالجة : طرح في هذه النقطة الأخيرة تصوّراً للإطار الذي يمكن ان تحلّ فيه القضايا والمشاكل فركز على التعاون الجهوي وعلى تعاون شمال/جنوب.

امّا الاسباني فيرناندو رُودْ ريغو فتناول فكرة محددة هي علاقة اسبانيا بالمغرب العربي موضحاً كيف تمّ الانتقال من الصراع إلى التعاون في الميدان العسكري، مبرزاً السياسة العسكرية الاسبانية تجاه المغرب العربي في الثمانينات وتأثير اندماج اسبانيا في

الحلف الأطلسي والسوق الأوربية في المستقبل.

وفي نفس الاتجاه لم يفت الاستاذ محمد بنونة ان يشير إلى التصورات المتعددة لأمن البحر الأبيض المتوسط والمطابقة للمقاربات المختلفة في هذه المنطقة وإطاراتها السياسية والجغرافية المتنوعة. ويرى الأستاذ محمد بنونة انّ هذا التّنوع تهيمن عليه القوتان العظميان والتنافس بين الشرق والغرب، في تعارض مع علاقة شمال - جنوب التي تظل ثانوية. ومع ذلك، فالحوار وحده بين بلدان شمال وجنوب البحر الأبيض المتوسط يمكن ان يضمن أمن الضّفتين والابحار عبر تعاون قائم على التجمعات الجمعوية وحق البحر.

● البحر الابيض المتوسط: فضاء سوسيو - ثقافي متفجرّ

عالجت مداخلة جورج قرم (لبنان) صعوبات الانتقال من بنيات الأمبراطورية المتعددة الإثنيات والدّيانات (الأمبراطورية العثمانية، الأمبراطورية النّمساوية - الهنغارية) إلى انبثاق البنيات الدُّولاتية على نموذج الدّولة - الوطن (الأمة) الباعث على التجانس. فسواء تعلق الأمر بالمجتمعات البلقانية المتوسطية او تركيا او المجتمعات العربية في المشرق، فإنّ ظهور وتقوية بنيات جديدة سيؤدي إلى اضطرابات اجتماعية وسياسية لازالت فعالة. إنّها تحافظ على عدم الاستقرار العام لهذه المجتمعات كما تكوّن طعما للصراعات الكبرى التي تعرقل النمو الاجتماعي - الاقتصادي.

ويضيف جورج قرم: أن أوربا ترفض ان تلعب دورها في استقرار هذه المناطق وسلامها مع أنّ تاريخها يرتبط بشكل حميمي بالمشاكل المتفجرة لهذا الانتقال بين بنيات الامبراطورية وبنيات الدّولة - الوطن (الأمة). فالصّراعات التي تعرفها هذه المنطقة من العالم منذ القرن التاسع عشر ترتبط بتصدير التوترات والصراعات الدّاخلية في اوربا نفسها من جهة، ومن جهة أخرى، بالتطورات السّوسيو - اقتصادية المحلية الناجمة عنها.

ضمن هذا السياق ،استحضر جورج قرم بعض الفترات التاريخية المحيطة بشرق وجنوب البحر الابيض المتوسط، ومنها:

- ردّ الاعتبار للمدن التاريخية التي لعبت دوراً في هذه المنطقة : اسطنبول، الإسكندرية، بيروت ، حلب، طنجة الخ.
- إنّ التعدد الإثني والثقافي لم يكن ابداً يشكل حاجزاً أمام التطور والتقدم.
- أهمية الثقافة المتوسطية ودورها في النسيج الحضاري للمنطقة (مثلاً:النهضة العربية ومرتكزاتها الفكرية والمفاهيمية).
- تاثير الثورة الفرنسية وتصديرها لمفاهيمها
- خلق اوربا لمناطق التوتر بهذه المنطقة (فلسطين، لبنان)
- دور وسائل الأعلام في الترويج لاطروحات غالبا ماتحدث تشويشاً على بلدان هذه المنطقة.

فحوض البحر الأبيض المتوسط لايمكن ان يتحوّل إلى بحيرة للسلام والتقدم بدون اعتراف أوربا بمسؤولياتها التاريخية في هذه المنطقة وبالتالي ممارسة تصرفات سياسية واقتصادية تساهم في تخفيض الصّراعات السوسيو - اقتصادية.

وتميزت مداخلة الإيطالي بيير انجيلو كاطلانو (مدير معهد الدراسات والبرمجة في البحر الأبيض المتوسط) بطابعها القانوني المحض والبحث عن المفاهيم الحقوقية والاجتماعية . فانطلاقاً من اعمال مؤرخي القانون والمقارنين يمكن الوصول كما يقول كاطلانو، إلى تحديد أربع منظومات قانونية ذات أهمية دولية: المنظومة الرومانية او الرومانية - الجرمانية (وما المنظومة الأمريكو - لاتينية إلاّ منظومة مصغرة لها). المنظومة الانكلو - ساكسونية (حيث تكون منظومة امريكا الشمالية منظومة مصغرة لها) والمنظومة الاشتراكية والمنظومة الإسلامية.

فالثقافة العربية، مثلاً، لايمكن التعرف عليها إذا لم ناخذ بعين الاعتبار مكوّناتها وفي المقام الأول التشريع الإسلامي في مجموعة هذا من جهة، ومن جهة اخرى، فانّ هذا التشريع الإسلامي وإن كان لايتحكم ويُقعّد كلّ تصرفات العرب - وسلوكهم، فإنه يمتد إلى ما بعد الثقافة العربية ليشكل «سلسلة ممتدة» من المغرب إلى اندونيسيا.

وبديهي أن يكون البحر الأبيض المتوسط فضاء مُفضّلاً ، من الناحية التاريخية، لمجابهة هذه المنظومات الحقوقية: الرومانية - الجرمانية والإسلامية والاشتراكية. وينبغي لهذه المجابهة الاّ تفضي بالضرورة إلى الصّراع وايضاً إلى ضياع هوية كلّ منظومة على حدة. ولهذا السبب عينه، ينبغي تصوّر اللّقاء الثقافي في البحر الأبيض المتوسط كلقاء مؤسس على مقاومة ثقافية. أضف إلى هذا انه ينبغي التفكير في مفاهيم مثل : شعب، مدينة، امبراطورية ..الخ. كمفاهيم خاصة بالبحر الأبيض المتوسط

العلاقات الثقافية بين العراق ومصر والآفاق المستقبلية

د. سيّار الجميل
كلية الآداب - جامعة الموصل

ابراهيم ابو ناعمة

● مقدمة:

يتناول هذا الموضوع دراسة العلاقات الثقافية العراقية/ المصرية، ومعرفة جوانبها التاريخية، وتحليل ابرز عناصرها المؤثرة في التكوين النهضوي العربي الحديث. انه موضوع واسع الابعاد، وراسخ المضامين.. ويتطلب المزيد من الدراسات والابحاث المعمّقة. وتعتبر العلاقات الثقافية بين هذين البلدين، بمثابة شراكة تاريخية من ثنائيات الأصلاحية والتحديث في سيرورة النهضة العربية باتجاه ما افرزت من وعي سياسي، وما انتجت من ادلجة قومية خلال القرن العشرين.. وقد تفاعلت النخب المثقفة بين البلدين، تفاعلا خلاقا، عبر وسائل وادوات ومجالات شتّى تأثر بالعطاء الثقافي حتى الشارع السياسي..

ان الابداع في علاقات الطرفين قد انبثق منذ القدم، وغدا عريقا اصيلا على امتداد تواريخ متنوعة سواء كان ذلك في العصور الكلاسيكية، ام في الاحقاب العربية/ الاسلامية، ام في مراحل التاريخ الحديث.. وقد ضعفت «العلاقات» قليلا خلال القرن التاسع عشر بفعل السياسة المركزية العثمانية للعراق، ولكن ما لبثت ان عادت بكل قوّة عند مطلع القرن العشرين، وتبلورت كثيرا خلال النصف الاول من القرن العشرين، وذلك اثر اشتراك عناصر متعّددة في سياق عربي متميّز له خصوصيته المعاصرة.



لتجاوز بعض العوائق التي طرحها مفهوم: الدول الوطنية.

كانت آخر مداخلة في هذه الجلسة تحت عنوان «فرنسا والاسطورة المتوسطية». ويعتبر البحر الابيض المتوسط، من هذه الزاوية، فضاء* لانتاج متخيل اسطوري يؤشر على التصرفات والأعمال. ضمن هذا الفضاء تنتشر بعض التعابير مثل: الروح المتوسطية والمعجزة الإغريقية، التي تعين كوناً ذهبياً خاصاً. وهناك دائماً شحنة عاطفية تَسِمُ هذا الكون وتؤدي إلى تاسيس توصيفات معجمية ودلالية محددة مثل: الجنة المفقودة، الفردوس، الفردوس المفقود الخ.

ويرى الباحث أنّه انطلاقاً من القرن الثامن عشر يمكن إحداث توازٍ بين فكرة المتوسطية وفكرة العربية (L'Arabite) كفكرتين دالتين عن الأصول بالمعنى المحَدد اعلاه.

وقد حاول بعض الكتاب والشعراء في الثقافة الفرنسية خلق تصوّر معين لفكرة الشرقية اي البحث عن القيم الشرقية التي نجد تجسيدها بوفرة عند لامرتين وفلوبير ونرفال، كما أنّ فاليري وجيد أكدا على فكرة المتوسطية. باختصار هناك تكوُّن (genese). البحر الأبيض المتوسط يتمّ التعبير عنه بأسطورة المتوسط نفسها (وللتذكير فإنّ التصوّر الفرعوني كان سائداً في فرنسا لفترةٍ ما)

فاسطورة المتوسط تقوم على عودة مستمرة للأساطير المرتبطة بالأصل، والبحث أحياناً، عن اسطورة واحدة لجميع البلدان المتوسطية رغم الطبيعة الانثربولوجية والاجتماعية المختلفة لهذه البلدان. إن استعمال الأسطورية (mythologie) يُنجز بطريقتين:

١ ـ طريقة غازية

٢ ـ طريقة كونية

هناك تشابك بين الإحساس المتوسطي وفكرة الكونية، ونكتشف في الثقافة الفرنسية، عند بعض العلماء والمثقفين، ومنهم جاك بيرك وكلوديل، محاولة إدماج العنصر العربي ـ الإسلامي في اليعقوبية الفرنسية.

بحكم هذا الوضع، يقول الباحث، نجد كلّ مجتمع يكوّن تركيبته الخاصة عن المفارقة المتوسطية، مما يمنح متغيرات عدّة حول موضوعة المتوسط في شكلها الأسطوري الذي بيّنا محتواه وطريقة تعبيره.

● نحو نظام جديد للبحر الأبيض المتوسط

تمشياً مع محور الجلسة، انطلق الأستاذ محمد بناني (المغرب) في مناقشة الربط القارّي بين أوربا وافريقيا انطلاقاً من جبل طارق ومدى تأثير هذا على الفضاء المتوسطي. فإذا كانت العلاقة بين المغرب واسبانيا قد عرفت سيرورة من التعاون بدءاً من عام ١٩٧٦، فإنّ هذا المشروع ياخذ مكانةً اساسية في هذه السّيرورة. وستطرح هذه المقاربة الجديدة للتعاون مشاكل على المستوى القانوني والاقتصادي والتعاوني والاجتماعي. كما ستؤثر على علاقات الكيانات المختلفة (المغرب ـ العربي، السّوق المشتركة، الكاميكون الخ) ولهذا يطرح استشراف الآفاق المستقبلية لهذه الكيانات في حدود سنة ٢٠٠٠: ومحاولة الجواب عن الاسئلة المطروحة مثل: سيرورات الإدماج: مشاكل من نظام اقتصادي ومالي: تهيئة البنايات والميكانيزكات (اوّليات) التعاون الجمعوي حول حوض البحر الأبيض المتوسط.

والجواب على مثل هذا النّوع من الاسئلة وغيرها ينبغي ان يتم في حدود المقاربة المستقبلية.

وإذا كان محمد بناني قد طرح قضايا البحر الأبيض المتوسط المرتبطة بالربْط بين أوربا وإفريقيا (شمال وجنوب البحر)، فإن إمانويل فاليرشتاين من نيويورك، اثار قضية فضاء البحر الأبيض المتوسط ضمن العالم الجيو ـ سياسي الموجود في حالة إعادة بناء. وتقوم هذه الوضعية الجيو ـ سياسية الجديدة للعالم، والتي ينبغي في ضوئها وضع قضايا البحر الأبيض، على:

ـ تاثير وهيمنة التقدم الياباني

ـ التحالفات والروابط اليابانية ـ الأمريكية الممكنة

ـ الجواب الممكن لاوربا سنة ١٩٩٢

ـ التطور الممكن للمعسكر الاشتراكي

وفي آخر مداخلة في هذه المناظرة الدّولية، لم يفتْ السيد إدغار بيزاني رئيس معهد العالم العربي بباريس، ان يشير إلى بعض الخصائص التي تحدّد في رأيه فضاء البحر الابيض المتوسط. ومنها:

ـ عبارة عن بحيرة سكانها ليسوا سادتها.

ـ الاختلاف الثقافي والتاريخي ومستوى التنمية بين بلدان هذه البحيرة

ـ هناك تصوّران للعالم في هذه البحيرة: تصَور مبنى على الوحي المقدّس وتصور قائم على الفكر النقدي والحرية.

ـ الاختلاف الديمغرافي بين الضّفتين، وكذا الثّرواتي.

ـ رهان استراتيجي جيو ـ سياسي.



الزهاوي

استقطبت مصر، مركزية الثقافة العربية الحديثة، وكان **للصحافة وحركة المثقفين والمفكرين المصريين الاوائل**، الدور المؤثر في تفكير العدد الكبير من المثقفين العراقيين الاوائل الذين وجدوا في القاهرة ملاذاً لهم، ومعقداً لآمالهم وطموحاتهم.. وقد اشتعلت معارك ادبية وفكرية بين الطرفين كالذي حدث بين الزهاوي والعقاد وغيرهما، فكانت اختلافات فكرية رصينة، تعتبر ظاهرة صحّية في مسيرة النهضة، **فالاختلافات هي غير الخلافات.. اذ يكمن فيها التصويب والجراة والتحرر والاستنارة**. وقد برزت اسماء عديدة في خضم بناء العلاقات الثقافية بين البلدين.

وبدأت بعد ذلك، الثقافة الاعلامية التي نقلت «العلاقات» **من حالة التواصل الى طور التفاعل. فالى جانب الصحافة والمطبوعات، ظهرت السينما والراديو، ثم ظهر التلفزيون في العقود الاخيرة، كوسائل كان لها دورها في نقل «العلاقات» الى** نوع جديد، برز فيه خصوصا: تعميق آثار الانتاج الفني المصري في الذاكرة العراقية كنمط من أنماط التفكير الاجتماعي/ العربي خلال النصف الثاني من هذا القرن.

لقد كان لكل من مصر والعراق دورهما القومي المؤثر في الساحة العربية بانجاز مهام كبرى، وتنشيط مهام مساعدة، وولدت حالة طافحة بالمشاعر القومية المشتركة. لقد كان العمل الثقافي العربي متقدّما جدّا على العمل السياسي العربي في كافة الظروف.. سواء تلك التي عاشت حالات خلل واضطراب في العلاقات، أم تلك التي عكست حالات التضامن والوفاق. هكذا، ستبقى العلاقات الثقافية بين العراق ومصر، تفتح الآفاق الجديدة للوصول الى مستوى نوعي موّحد يناغي الآمال القومية المشتركة.

ان الحصيلة من المكتسبات النهائية، **هي اجمالية العلاقات الثقافية المتمثّلة بالاساليب والوعي والمناهج والمفاهيم.. تسعى** جميعها الى بناء مستقبل زاهر، له مركزيته القوية، وشخصيته الريادية، وعطاءاته المتميّزة في اغناء التطورات الانسانية. اننا كعراقيين ومصريين، **نمتلك تاريخا ثقافيا مشتركا عمره اليوم قرابة قرن كامل من الحياة المعاصرة، ساهمت في بنائه ثلاثة اجيال** بعد الرعيل الاول خلال القرن ١٩م.. شغل الجيل الاول العقود الثلاثة الاولى منه، واتسم **بالنضال ضد الاستعمار لتحقيق الاستقلالية الوطنية، وكانت وسائله: الجمعيات والمطبوعات والصحافة. اما الجيل الثاني، فقد شغل العقود الثلاثة التالية، وامتاز بنضاله من اجل التحرر القومي**، وكانت وسائله: المجلات والراديو، في حين يمتاز الجيل الاخير خلال العقدين الاخيرين **بالبناء من اجل التضامن والتعاون الوحدوي** من خلال الفهم المشترك والمؤتمرات والوسائل الاعلامية الحديثة.

ان معاصرتنا اليوم هي باشّس الحاجة الى **جدلية تفاعل خلاق** لترسيخ العلاقات الثقافية بين بلدينا، لرسم الآفاق المستقبلية للاجيال القادمة.. ان هذه «**الورقة**» تطرح بعض الافكار والمعالجات من اجل الارتفاع بمستوى تلك العلاقات، وفسح المجال امام المثقفين في كل من البلدين الشقيقين للاستفادة وتعزيز وجهات النظر، والتقييم، والابداع.. الخ. وتنحصر مقترحات هذه «**الورقة**» بالنقاط التالية:

١ . **البرامج الثقافية والاعلامية.**

٢ . **التعاون الاكاديمي والمجمعي والثقافي والاعلامي..**

٣ . **الكفاءات والخبرات والمؤهلات.**

٤ . **النشر والنشر المشترك.**

٥ . **الاتفاقيات الثقافية.**

٦ . **الاعمال النخبوية والجماعية المشتركة (المؤتمرات/ الندوات/ الملتقيات).**

٧ . **الاشراف الاكاديمي المشترك.**

٨ . **معالجات مشتركة لمشاكل المراة ووظائفها الثقافية.**

٩ . **التواصل الطلابي وتثقيف الشباب.**

١٠ . الدراسات المستقبلية ـ العربية المشتركة.

١١ . **تاسيس شبكة استراتيجية للمعلومات المصرية/ العراقية.**

● ايضاحات منهجية:

يوضح هذا الموضوع طبيعة العلاقات الثقافية، وتداخل عناصرها، وتحليل بعض جوانبها الغنيّة والمعقدة معا بين مصر والعراق، ودورهما في التكوين العربي المعاصر. وستبقى هذه المعالجة النظرية غير مكتملة الابعاد اذا ما عرضت بمثل الاختزال ادناه.. ولكننا، سنركّز موضوعيا على العلامات الفارقة تاريخيا من خلال الاساسيات المتاحة، دون تفصيلات او مقابلات بين الآني والتاريخي. فالموضوع واسع الابعاد، وراسخ المضامين.. وستفتح ايّة دراسة من هذا النوع، الباب على مصراعيه، لانضواء العديد من المواضيع ضمن سياق هذه «العلاقات»، ويتجرد اكثر من باحث ودارس لها، وضمن اكثر من منهج واحد او حقل تخصصي واحد.

اما الاستنتاجات، فهي حصيلة من الرؤى المستقبلية للعلاقات الثقافية بين البلدين، متّخذة من الاساسيات التاريخية والمضامين الآنية، مجال انطلاق في التكوين المصيري/ العربي لاكبر عاصمتين تاريخيتين عربيتين لعبتا دورا رياديا مشتركا في الحضارة العربية، وفي رفد الانسانية.. كما وكان لهما الدور المؤثر في بلورة النهضة العربية الحديثة.

تعتبر العلاقات الثقافية بين الجانبين، قضيّة نوعية في بلورة عناصر مشتركة في الاصلاح والتحديث والنهضة، باشتراك ثنائيات من العوامل والرجالات والامكانيات التراثية والتحديثية معا في السيرورة والبناء.. ومدى اسهام الوسائط الحديثة لدى كلّ من الطرفين في تعميق الوعي السياسي والادلجة القومية خلال القرن العشرين، اذ برزت، ولاول مرّة، قيم معيّنة نتيجة لتبنّي سياسات اجتماعية/ اقتصادية بعينها، اضافة الى شراكتهما التاريخية في المشاريع القومية والسياسية، ونضالهما المشترك ضد القوى الامبريالية.. وما قاد اليه الفهم القومي في التطبيق على ارض الواقع من معالجات وطروحات وافكار وادبيات وممارسات ومجادلات.. وما افرزته الحوادث التاريخية/ الوطنية لكليهما من نتاجات ادبية، ومعطيات فنّية، وميول اجتماعية، وعواطف سايكولوجية مشتركة.. اثّرت جميعها تأثيرا بالغا في التفكير القيادي المعاصر وذهنية الجيل الجديد باتجاه الوعي المشترك، واقترابات الثقافة، وسيرورة التقدم.

لعلّ ما تقدّم من تنظير، ستشير براهينه ادناه، وبوضوح الى متانة الجسور من الروابط والعلاقات بين الطرفين/ القطبين، وسيفصح بامثلته ومقارباته ومقارناته عن تناغم المعادلة في المنطق القومي الموّحد، ليس الذي تلتزمه النخب المثقفة فحسب، بل ذلك الذي اعلنه الشارع السياسي، والمشرع النهضوي، والبيوت الشعبية.. فكل من اسميهما (مصر + بغداد) رددتهما الحناجر


العقاد

هنا وهناك على مدى عقود طويلة من الزمن المعاصر، بل وتغّنى بهما الكبار والصغار: ما كتبته الصحافة/ ما انتجته المطابع/ ما اذاعته الخطب والاذاعات/ ما اطلقته المظاهرات في الشوارع/ ما تحدّثت به الناس في المقاهي والبيوت/ ما تغنّى به الشعراء والكبار من الفنانين والمطربين/ ما تربّى عليه الطلبة من الاناشيد.. الخ.

وتأسيسا على هذا الطرح، فاننا لانقبل بالتنظير الضيق الذي ينأى عن المصالح القومية المشتركة، كي يربط ذلك بـ «الاقليمية» او «الماضوية» او بـ «الطبقية» فقد كان الابداع في العلاقات الثقافية بين الطرفين قد انبثق قديما وعريقا، اصيلا ونبيلا، بمنأى عمّا تقدم حتى في «المعارك الادبية» التي نمّت عن روح علمية وامينة واحترام متبادل. لقد كان «الابداع» المشترك ولم يزل، يعبر عن الآمال والاحلام القومية، وحظي بالمقبولية في الاوساط العديدة، وغدا علامة بارزة في تاريخية الثقافة العربية الحديثة ومجالاتها المتنوعة. وقد استمرت افرازات ذلك حتى في الحالات التي تباعدت فيها الحكومات خلال الخمسينيات والستينيات عن روح التضامن العربي.. لقد استمر التمازج الثقافي والفهم القومي من خلال الوسائل الاعلامية والصحافة والهجرة الادبية والسياسية..

ان جيل اليوم من الشباب الساعي لافتتاح مرحلة جديدة وهو على ابواب القرن الحادي والعشرين، عليه ان يفهم طبيعة تلك «العلاقات الثقافية» وعلى جانب من ترسيخ الرؤية، وتحليل المضامين، واستكناه الابعاد، وتحقيق ماغاب ذكره ومعرفته من

الادوار والعناصر والعوامل والحركات ومختلف الاشكاليات.. اذ ان العلاقات الثقافية بين مصر والعراق، ليست بآنية، بل هي انعكاس حقيقي مرئي لتاريخ مشترك طويل، وغنيّ عريق بينهما، رغم بعض «الاختلافات» التي بلورتها عوامل جغرافية وبيئية، وظرفية سياسية.. علما بأن «المتشابهات» هي كبيرة في سيرورة تكوين كل من البلدين خلال النصف الاول من القرن العشرين، اذ يحيلنا ذلك الى: التحديثة والاصلاحية/ الوطنية والقومية/ الاحداث التاريخية/ الاحزاب السياسية/ النخب المثقفة/ الصحافة والمساجلات/ التربية والتعليم.. الخ.

ان التراتبية في السياق التاريخي لتطور كل من البلدين سياسيا، قد انعكس بفعالية وحركة سريعة على واقع العلاقات الثقافية بينهما. وبالرغم من الفوارق الثقافية والاجتماعية التي تميّزا بها خلال القرن التاسع عشر، الا ان الاقتراب بين الاثنين، قد وفّره المناخ السياسي (الوطني/ القومي) للقرن العشرين، سواء ابّان سنوات التخضرم الاستعماري، او بعد خروج مصر والعراق من ازمة الاستعمار البريطاني، ثم بناء الدولة والمشروع القومي (محاولات التحرّر الوطني)، ثم قيام الثورة في البلدين وبناء الدولة القومية (التغيير الاجتماعي والمنحى الاشتراكي والتحرر السياسي)، ثم التأسيس المعاصر وسياسة التعاون القومي المشترك (بناء الوحدة العربية).

دعونا اذن، نحلّل بعض الجوانب الاساسية من طبيعة العلاقات الثقافية التي ربطت كلاً من البلدين:

● المكتسبات التاريخية:

في الارث الثنائي لتاريخية مصر والعراق، يمكننا تحديد **«المكتسبات التاريخية»** لهما، والتي كان لها الدور المؤثر والفعال في ترابط العلاقات الثقافية ومعطياتها الحديثة، وانتاجيتها الرصينة:

١ - يتوضّح من خلال الاطلاع على العشرات من التحقيقات الارثية الاصيلة، والاعمال التاريخية المختصة في كلاسيكيات مصر والعراق، سواء عند العلماء والمؤرخين من عرب ومستشرقين: ان مقارنات تاريخية كثيرة قد اجرتها الدراسات المختصة في التواريخ السياسية والحضارية/ القديمة والوسيطة بين مصر والعراق، وفي حقول متعددة سواء كان ذلك في اساليب الحكم، ام اعمار الدول، ام الحضارات، ام الفنون والعمارة، ام الاساليب الثقافية والانظمة الاجتماعية.. ام العمق الجغرافي/ الاستراتيجي ام الانتشار الديني، ام التأثير الاقتصادي، ام في تعاقب الاحداث وتسلسلها بدقة، ثم مؤثرات كل ذلك في تكوين **الامة العربية وعلى امتداد شراكة التاريخ بين القطبين.**

٢ - **يكاد يكون القرن التاسع عشر، هو اضعف مرحلة تاريخية**، ابتعدت خلالها العلاقات بين الجانبين، بل وغدت واهية لم تشهد مثلها بقية العصور التاريخية، نظرا لعزلة العراق بولاياته الثلاث، وارتباطها بعمليات الاصلاحية العثمانية.. في حين كانت مصر قد بدأت على يد واليها محمد علي باشا سياسة تحديثية في جميع مرافقها وميادينها، فاقتربت منها بلاد الشام من جانب، وبلاد المغرب العربي من جانب آخر.. في حين ابتعد العراق عنها قرابة قرن كامل تاريخياً ونهضويا، ولكن اللقاء بين الاثنين، سيتجدّد وعلى درجة كبيرة من التلاقح والفاعلية عند مطلع القرن العشرين وعلى امتداد عقوده الخصبة[1].

٣ - كان للاحداث التاريخية البارزة في اي طرف، مؤثرات بالغة لدى الطرف الآخر، فلقد اثر - مثلا - فتح قناة السويس عام ١٨٦٩م كثيرا على اقتصاديات العراق الذي كان يربط شرق العالم بغربه، فضعفت ادوار التجارة باسواقها ومسالكها في العراق خلال القرن التاسع عشر. وبالرغم من ضعف العلاقات الثقافية بين ابناء البلدين، الا انّها لم تنته، نظراً للظروف القاسية التي عاشوها تحت وطأة مستعمر مشترك واحد، مارس اكثر من سياسة في التعامل مع سكان بيئتين اساسيتين في مجتمع عربي واحد، لكنه تعامل بنفس العقلية الاستعمارية مع مثقفي البلدين ونخبته السياسية الوطنية المشتركة في همومها وقضاياها القومية. علما بأن الوطأة العثمانية القديمة كانت مشتركة هي الاخرى في عملياتها وترسباتها، التي كرّست شبه قطيعة بين الطرفين، وجعلت السكان لايعرفون ما كان يدور في حواضرهم.. **انها مرحلة الانقطاع والتخلخل الثقافي.**

٤ - **اما حضاريا، فان العلاقات التاريخية بين الاثنين لم تقتصر على جوانب سياسية ودولية، بل كانت ذات طابع حضاري له عراقته واصالته معا. وتكاد تكون اقدم علاقات حضارية وثقى في تاريخ البشرية القديم، ومنذ فجر الحضارة الانسانية حتى يومنا هذا. وابرزها: انتقال عناصر حضارية من العراق نحو مصر في بداية الالف الثالث ق.م.. وفي القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م. توثقت العلاقات السياسية/ الاقليمية. ثم ترسخت في القرنين السابع والسادس ق.م. وفي النصف الاول من**



الكاظمي

القرن السابع الميلادي، تبدأ مرحلة جديدة مثلتها الوحدة العربية ـ الاسلامية التي ازدهر فيها المجتمع العربي، واتصلت صفاته، وقويت روابطه الحضارية، وتقاربت عاداته وتقاليده وفي اطار ثقافة موحدة في الصيرورة والتكوين[٣].

٥ ـ وكان ان غدت كل من بغداد والقاهرة من ابرز المراكز الحضارية، وعاصمتين للخلافة العربية ـ الاسلامية على مدى قرون عديدة. لقد استطاعت القاهرة ان تحتضن الخلافة العباسية في ظل المماليك بعد سقوط بغداد بيد المغول عام ١٢٥٨م، اثر كسر الشوكة المغولية/ التتارية في معركة عين جالوت، فاحتفظت مصر التوام التاريخي لبغداد بالارث العربي الاسلامي سواء ما اختص بشرعية المُلك العربي وثقافة المجتمع العربي، وامتلكت مركزيتها الثقافية.. علما بان كلا من العراق ومصر قد امتلكا على امتداد التاريخية العربية اكبر الدول، وابرز النظم، واثمن العناصر اجتمع فيهما وحولهما، خلاصات العصور.

يبيّن لنا كل ما تقدّم، ان الشخصية الثقافية المشتركة بين المصريين والعراقيين، كان لها من الوجود التاريخي المؤثر، ما جعلها تتمكن طوال احقاب طويلة، من التميّز والخصوصية.. ورفض اي شكل من اشكال الاندماج المفروض او الهيمنة المسيطرة من لدن أيّة قوى خارجية وطارئة تحاول السيطرة على المنطقة العربية بالكامل. انّه نوع من الدفاع الثنائي المتمكن عن الهوية الثقافية المشتركة، والتي وصلت في اوقات وتواريخ معينة ومتعدّدة الى درجة من القوة ما جعلها ترتفع الى مستوى الانتاج والابداع والاشعاع.. وتخطّي الحدود الاقليمية والعربية الى الآفاق الانسانية.. هكذا، فرض كل من العراق ومصر وجودهما كنموذج نوعي ثقافي/ حضاري في العصور القديمة والوسيطة والحديثة.

● العلاقات الثقافية: جذور الماضي

لقد طرات تغيّرات مهمة في طبيعة العلاقات الثقافية المصرية ـ العراقية، اذ كان ذلك نتيجة واضحة لما حدث من تبدّلات واسعة النطاق في الوضعية السياسية والبنى الثقافية لكل من البلدين. اي باختصار: منتجات كل من «التحديث» الذي طبّق بمصر، و «الاصلاحية» التي مورست في العراق خلال القرن التاسع عشر. فقد شهدت مصر تحوّلات مهمة في الاجهزة التعليمية التي استحدثها محمد علي باشا (١٨٠٥ـ١٨٤٨م)، وتوّسع فيه من بعد الخديوي اسماعيل (١٨٦٣ـ١٨٧٩م) اذ تجدّد التعليم المدني واخفق التعليم

الديني ـ التقليدي الذي كان سائدا من قبل، وحلول مؤسسات جديدة على النسق الاوربي[٤].. اضافة الى ولادة المطابع (بولاق مثلا) وانتشار الصحافة والكتب، وازدياد البعثات، وحدوث تغييرات اجتماعية واسعة النطاق.

اما **العراق**، فلم يكن مستقلا، بل زاد ارتباطه بالباب العالي اثر تطبيق نظام الادارة المركزية، ولكنه بدأ يعيش الحياة «الاصلاحية» خلال النصف الثاني من القرن الماضي، ليس من خلال الانفتاح على الغرب والاخذ بمقوماته، بل من خلال التقارب الثقافي مع بيئات عربية احتلت مكانتها في **مركزية الثقافة العربية التي استقطبتها القاهرة**[٥] وكان على رأس المصلحين في العراق، واليه مدحت باشا (١٨٦٩ـ١٨٧٢م) وغيره، واستتبع ذلك، تغير في طبيعة العلاقات الثقافية بين البلدين. ولمّا كانت مصر اسبق في بناء جهازها التعليمي ومؤسساتها التحديثية، فقد كان من الطبيعي ان تتوثق المزيد من الروابط الجديدة، وخصوصا في «العلاقات الثقافية» المختلفة وباكثر من حقل معيّن، كان ابرزها، **الصحافة وعمليات النشر** بالعربية. ومن المفارقات التي يمكننا التأمل فيها: ارتباط العراق حتى تأسيس كيانه الملكي عام ١٩٢١م بالعاصمة العثمانية اسطنبول التي تخرّج في مدارسها وكلياتها العشرات من المثقفين والعسكريين العراقيين الذين **توشجّت علاقات العديد منهم وبصورة راسخة بالمثقفين والرجالات المصريين** من خلال عملهم القومي او الثقافي او الطلابي المشترك.

هناك ظاهرة ثقافية اخرى بحاجة الى **تحقيق ودراسة وتوصيف**، ذلك ان عديدا من ادباء العراق ومثقفيه (الرعيل الاول) قد نجح بنشر كتبه بالعربية في القاهرة خلال القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين. ولو احصينا عدد الكتب والدواوين التي الفّها عراقيون ونشرت في القاهرة، لوجدنا ان ذلك يشكل بحد ذاته **ظاهرة ثقافية** ملفتة للنظر والدراسة في طبيعة العلاقة والترابط بين البلدين[٦].. ناهيك عن حجم **المراسلات والمساجلات** بين الادباء العراقيين والمصريين، اضافة الى ما كان يصل العراق وحواضره الثقافية من اعداد كبيرة لايستهان بها من الصحف والمجلات والمنشورات المصرية.. وقد وصلت هذه العلاقات الى اعلى درجاتها في العقود الاولى من هذا القرن، والتي سجلت فيها ايضا جوانب فكرية ثمينة من تبادل الآراء المختلفة، وشن معارك ادبية وثقافية كان لها دورها في تعزيز اواصر العلاقات بين الجانبين.

فكيف كان ذلك؟ دعونا نتساءل:

١) وجود **الجامع الازهر** في القاهرة، والذي اعتبر ابرز مدرسة عربية/ اسلامية كان لها دورها الثقافي في التعليم والتثقيف الديني وفي حفظ التراث الديني.

٢) لقد قصد **القاهرة** العشرات من العلماء والادباء وطلبة العلم، وتأثروا باحوالها، واخبارها، ونشاطات اجهزتها، ودور المثقفين فيها.

٣) المتانة والرصانة الفكرية التي تحلّت بها **المجلات المصرية** كمنافذ ثقافية كان لها دورها المؤثر في الثقافة العربية الحديثة عموما، ومن اشهرها: المقتطف والهلال والسياسة والمقطّم والعصور والدهور وروز اليوسف.. وغيرها.

٤) دور **النخبة المستنيرة** من المثقفين المصريين واللبنانيين، وعودة العديد من المثقفين العرب الذين تلقوا علومهم ومعارفهم في اوروبا (فرنسا على الاخص)[٧].

● الثقافة المشتركة: من التوطيد نحو الترسيخ

بقيت العلاقات الثقافية بين مصر والعراق تقوى وتترسّخ يوما بعد يوم على امتداد القرن العشرين، وقد شكلّت ركنا اساسيا من اركان الصلات بينهما، وخصوصا بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وتأسيس كيان العراق المعاصر، وبناء دولته الحديثة.. وشهد البلدان حركة انتقال في العلاقات الثقافية وتطوّرها، منها حركة العلماء والادباء والمثقفين والاساتذة والفنانين عبر مصر والعراق.. وان شخصّيات عديدة قد شغلت الرأي العام لكل من الطرفين[٨]. ويمكننا القول بان «**العلاقات**» ارتدت ثوبا جديدا خلال النصف الاول من القرن العشرين، اذ تخرج في الجامعة المصرية العديد من شباب العراق ومثقّفيه؛ اولئك الذين تلقوّا علومهم ومعارفهم في اروقتها، وعلى ايدي ابرز اساتذتها ومفكرّيها.. ولم تشهد العلاقات ركودا مطلقا او نسبيا خلال النصف الثاني من هذا القرن، وحتى بعد ان بدأ العراق بالانفتاح على الغرب ومؤسساته التعليمية خلال العهدين الملكي والجمهوري.

لقد اشتهر العديد من الاساتذة المصريين الكبار الذين وفدوا الى العراق، واستطاعوا ان يدرسوا في كلياته ومعاهده وساقتصر على ذكر: د. عبد الرزاق السنهوري العالم المتضلّع في القوانين وصاحب «**الوسيط**» والذي ساهم في صياغة القانون المدني العراقي[٩]، وهناك د.مصطفى كامل حسين الذي يعتبر شرحه لـ «**القانون الاساسي العراقي**» مرجعا اساسيا في الحياة الدستورية للعراق[١٠] وهناك د.زكي مبارك الكاتب والناقد الشهير[١١] الذي صاحبته ذكريات ادبية رومانسية عن العراق وكتب الكثير عن «ليلى العراقية» التي انتجها خياله المرهف. وهكذا بالنسبة الى اسماء اخرى زخر العراق بهم، واستطاعوا ان يقدّموا لابنائه عطاءً تذكره الاجيال، ورفدوا ايضا، الحياة العلمية والادبية بالمزيد من الاعمال والنتاجات.

وفي الوقت نفسه، كان ادباء العراق ورجالاته يجدون في مصر ملاذاً حسناً لهم وفي ميادينها الثقافية، حلبات عمل نشيط لامكانياتهم وابداعاتهم، فمنهم من استقر فيها، ومنهم من قضّى في ربوعها ردحاً من الزمن، وساقتصر على ذكر ثلاثة أسماء من هـؤلاء فقط. فقد استطاع الموسيقار المبدع **الملا عثمان الموصلي** ان يصـل مصر، فيتصل به العديد من ادبائها وفنانيها منذ مطلع هذا القرن، وتتأثر الموسيقى هناك بابداعاته اذ يتتلمذ على يديه البعض من الموسيقيين الكبار.. كما ويصدر صحيفة اسبوعية بمصر، ويعود الى العراق بعد رحلته تلك[١٢]. وهناك الشـاعر **عبـد المحسن الكاظمي** الذي هجـر العراق واستقر بمصر، ويعدونه فيها من الشعراء العرب الكبار. وقد استفاد فائدة كبيرة من وجوده بمصر، واطلّع على حركتها الفكرية ومعالم نهضتها. يقول:

أأتـرك مصر ام اقيم بجـوهـا ... ومـا جوهـا الا جوى يتـدفـع

تعدّت صروف الدهر مصر واهلها ... ولا زال في ارجائها البشر يسطع

نعم اهـل مصر انتم خير أمـة ... وما الخير الاّ منكم يتفـرّغ[١٣]

اما الشاعر **جميل صدقي الزهاوي** الذي زار مصر، وكانت شهرته قد طارت فيها، اذ لقّبه المصريون بـ «الشاعر الفيلسوف»، فقد احتفوا به احتفاء كبيرا، كما واثار جملة من افكاره وآرائه في الاوساط المثقفة هناك، وخصوصا في المجالس التي كـانت تعقدهـا الكاتبة الشهيـرة مي... كما وفتحت الصحف والمجـلات المصريـة صفحاتها امامه[١٤].

لم يكن الجانب المصري اقل حماسا من العراق في استقبال البعوث والمثقفين العراقيين[١٥]، فقد احتضنت على مدى زمني طويل نخب عديدة من **الانتلجينسيا العربيـة** تلك النخب التي شاركت بفعالية في البناء النهضوي العربي الحديث. وحدث العديـد من السجالات الفكرية والادبية قادها كبار المثقفين العراقيين والمصريين، التي ادت الى ترسيـخ العلاقـة بين الطرفـين. ان **المعارك الادبيـة والاختـلافات الفكريـة ظاهـرة صحيّـة في مسيـرة النهضـة، فالاختلافات هي غير الخلافات، وفي ذلك تصويب وجراة وتحرر وتنوير**.. ومن الاسماء التي يمكن ذكرها: جميل صدقي الزهاوي وعباس محمود العقاد وشبلي الشميـل وانستاس مـاري الكرمـلي واسماعيل صبـري ومحمد فـريد وجـدي واحمد الصـاوي محمد وغيرهم.

ومن يتتبع الصحف والمجلات المصرية الرصينة، سيجد مادة علمية وادبية وفكرية، كتبها العشرات من الكتاب والشعراء العراقيين عـلى مدى عقـود طويلة من السنين، ومن تلك المجـلات: **المقتطف والمقطم والسياسة والرسالة** وغيرها.. اما من الاسماء، فيمكنني التوقف عند ابرزها، ومنها: جميل صـدقي الزهاوي ورزوق عيسى وعـلي الجميل وسيـد احمد الصـافي النجفي وانور شـاؤل وكاظم الدجيلي وعبد المحسن الكاظمي ومحمد بهجة الاثري ومهدي القزاز وجواد علي ومنيبة الكيلاني وابراهيم الوائلي وبدر شاكـر السياب وغيرهم[١٦].

● الثقافة الاعلامية: من التواصل نحو التفاعل

لعبت الوسائل الاعلامية والفنيّة دورها البالغ في تزويد البلدين بالتقارب الحقيقي والتفاعل الحيـوي رغم تباعـد الديار. وتـوالت البعثات الفنّية بين البلدين، وساهمت **السينما المصرية** على امتداد تاريخها الحـافل، ومن ثم **الافلام التلفزيونية** في تـركيب علاقـات جديدة ومن نوع خاص، **وانشـداد عراقي ـ مستحـدث للتفكير الاجتماعي المصري** بعد دخوله الشارع والبيت العراقيين.. ناهيك عن دور **الاغنية العراقية** وتأثيرها الوجداني والقومي في ضمـير الشعب العراقي.. ولم يزل العديد من الشيـوخ الكبار يحتفـظون بمأثورات غنائية ـ مصرية لاساطين الغناء المصري الحديث، وهي تسجيلات او اسطوانات فريـدة من نوعهـا ونادرة في وجـودها لم تتواجد حتى في مصر نفسها. ولقد زار العراق العديد من الفنانين المصريين الكبار، ومنهم ام كلثوم.

ان وسائل الاتصال القوية قد اثّـرت بفعاليـة في تنشيط حركة التعاون والتبادل والترابط والتعاطف في الميادين الثقافية والقومية.. وربما كانت هذه الظاهرة، لها عنايتهـا، قبل كـل شئ، بالمجتمع الثقافي من خلال النخبة المثقفة (رعيـل الانتلجينسيا) في مطلع القرن، ومن ثمّ عند الفئات المثقفة والواعية في العقود التالية منه، فاثّرت تأثيرها البالغ الذي انعكس على المجتمع باكمله. وقد تجلّى ذلك باربعة وسائل اعلامية مؤثرة، وهي:ـ

١ ـ **الصحـافـة والادبيـات**: (الاخبـار/ المطالعـات/ التقارير/ الاشعار/ القصص..).

٢ ـ **السينما والروايات**: (الروايات الادبية والتاريخية والواقعية/ تراجيدي/ كوميدي).

٣ ـ **الراديو والكاسيت**: (الغناء/ الخطب السيـاسية/ الاحاديث/ التعليقات..).

٤ ـ **التلفـزيون والفيـديـو**: (المسلسـلات/ الافـلام/ الغناء/ المسرحيات الكوميدية..).

كان للوسائل اعلاه دورها المؤثر في ترسيخ علاقات ثقافية من نوع جديد، فقد **عمقت آثـار الانتاج الفنّي المصـري في الذاكرة العراقية**، والاحتفاظ باسـاليب جديـدة حفرت بعض تـراكيبها في

المشاعر، وترددت بعض الاغنيات في الشوارع، ولاكتها الالسنة على مدى سنين طويلة. ان الموازنة الثقافية بين البلدين، لم تنشأ مؤخرا فهي ليست طارئة، وانمّا عاشت في الضمائر المشتركة عند الطرفين: طرف كان ولم يزل يغنّي لـ «بلد الرشيد»، وطرف حفرت حياة «وادي النيل» ذاكرته.. ولم تكن هذه «الرؤية» منسّقة او مراقبة.. انّما تفصح دوما عن تلقائية يؤديها تكوين ثقافي متوازن وموحد في التعبير رغم وجود ثمّة اختلافات في التقاليد وانماط التفكير، واثر المصادر والمناهج نتيجة لاختلاف البيئة والبناء الثقافي والسياسي والاقتصادي.. اضافة الى اختلاف البناء التاريخي (النظم والتحديث). وقد يشترك «المجتمع» هنا وهناك في بعض اعرافه ومظاهره دون ان يكون هناك بالضرورة، سابق معرفة واتصال، نظرا لمعلولات مشتركة عند كلّ من الطرفين.. فلقد دخلت – مثلا – بعض المفردات والتراكيب اللهجوية المصرية في اللسان العراقي عن لاوعي نتيجة لما افصحنا عنه اعلاه.

● الذاكرة التاريخية المؤثرة

ان نظرة تحليلية لتاريخية مصر والعراق المعاصرة تبيّن لنا، الاقتراب بينهما قد يصلّ الى حدّ التماس في مسائل عديدة، منها التركيب السياسي والخطاب السياسي وهما المعبّران عن الواقع الاجتماعي والانتماء التاريخي لكليهما، دون ان نجد اتجاهات متعاكسة في السيرورة التاريخية الا قليلا.. انتهت الحرب الاولى، وبرزت على العالم خارطة سياسية عربية جديدة في ظل الهيمنة الاستعمارية. وكانت مصر قد وقعت تحت حكم السيطرة البريطانية قبل العراق، ولكن مصيره «الملكي» يتحددّ في مؤتمر القاهرة الذي انعقد يوم ٩ آذار/ مارس ١٩٢١ برئاسة السير ونستون تشرشل وزير المستعمرات البريطانية.

تكاد الانتفاضات الوطنيّة في البلدين، تلتقيان وتبتعدان زمانيا، نتيجة مؤثرات سياسية مشتركة، وروح ثقافية ووطنية موّحدة، بحيث ان الشراكة التاريخية كانت مكسبا قائما بذاته لديهما منذ عدة قرون، كتلك التي برزت بشكل ناصع على عهد صلاح الدين وريادته الحربية ضدّ الهيمنة الاوربية. وكم وجدنا ايضا من تقارب او تشابه النمط الليبرالي الذي استخدمه كلّ من مثقفي البلدين وساستهما، سواء كان ذلك في الحياة الحزبية او النيابية والتي انتهت، بفعل عدم تحقيقها للآمال القومية. ولئن جاز لنا القول ان ننبه الى بعض الاسباب التي كانت تؤدي الى خلافات وتباعدات غير معقولة سياسيا، ومشاحنات تضرّ بالمصالح القومية، فان ذلك يبقى محصورا عند فئات معيّنة لاتعبّر ابدا عن الراي العام وعن الواقع الثقافي، والذاكرة المشتركة، والعاطفة القومية.

ان كلّ الاجتهادات التي برزت في جوّ وطني له شراكته التاريخية في الكفاح والنضال ضد المستعمر، ومعارضة الساسة الذين تعاونوا مع الانكليز.. ادّت الى ولادة ثقافة جديدة عند الاثنين، كان طابعها هو «الرفض». كان البلدان يستبقان الاحداث التاريخية التي كان يعبر عنها الشارع السياسي تعبيرا حقيقيا حتى بعد انتصار «الثورة» على النظامين الملكيين فيهما. لقد اثّرت حركة عام ١٩٤١م القومية التحرريّة في العراق في افكار الضباط الشباب بمصر، فكان انبثاق ثورة ١٩٥٢ بمثابة تواصل ثوري/ حركي للتجربة الاولى، وقد تأثّر العراقيون بثورة ١٩٥٢، فكان اندلاع ثورة ١٩٥٨ ببغداد. وكانت تلك المرحلة ساخنة بالاحداث السياسية/ الدراماتيكية.

دعونا نتوقّف قليلا عند جانب عملي من بناء «العلاقات» العراقية – المصرية. ففي سنة ١٩٤٢م، وقبل تأسيس جامعة الدول العربية، قام لفيف من سياسيّي القاهرة ومثقفيها بتأسيس ناد لتنمية العلاقات، وتقوية الروابط بين الاقطار العربية.. اسموه «نادي الاتحاد العربي» بالقاهرة. ولمّا نقل تحسين العسكري وزير العراق المفوّض بالقاهرة الى وزارة الداخلية ببغداد، جمع لفيفا من رجالات العراق ومثقفيه، واسسّوا فرعا لنادي الاتحاد العربي بالقاهرة سنة ١٩٤٣. وانعقد الاجتماع السنوي للنادي الام في ٢٦/٢/١٩٤٣ بالقاهرة، وترأس الهيئة العامة فؤاد اباظة باشا، وشارك العراق بوفد ترأسه ابراهيم الواعظ[١٧].. وقد احتفى المصريون بالوفد العراقي احتفاء وكان منهم كبار المثقفين: د. عبد الوهاب عزّام ونظلي الحكيم، ود. حسني احمد، ونجيب براده، وعبد الستار الباسل، واسعد داغر وغيرهم[١٨] وقد قُدّم رئيس الوفد العراقي الى الملك فاروق وتحدثّ معه عن العراق، ويقول الاستاذ ابراهيم الواعظ في مذكراته: «وقد وجدت جلالة الفاروق يعرف العراق وشؤون العراق اكثر من العراقيين». ويقول في مكان آخر: «عندما غادرت الاراضي المصرية شكرت المصريين على الحفاوة التي لقيتها من جميع الطبقات»[١٩].

● مصر والعراق: الدور القومي

اتخذت النهضة القومية الثانية في تاريخ العرب المعاصر خلال الثلاثينيات والاربعينيات من هذا القرن، ابعادا ثقافية مستحدثة، وواجهات سياسية جديدة، اخذت على عاتقها، انجاز مهام قومية، وتخفيف الحواجز الاقليمية التي وقفت حجر عثرة في انتقال

الافكار والثقافة والانشطة المعرفية والنتاجات الادبية بين الاقطار العربية، وخصوصا بلدان المشرق العربي، التي كانت تنوء من ضغوطات واسعة النطاق في شتىّ المرافق.. وصلت الى اوجها خلال مداخلات الحرب العالمية الثانية، فنتج اثر ذلك عمل قومي لافت للنظر، وولدت حالة طافحة من المشاعر القومية، اذ تادلجت الثقافة قوميا في كلّ من البلدين من اجل تحقيق الاماني العربية.

لقد كانت **جامعة الدول العربية** هي المحصلة النهائية التي برزت اثر جهود قومية في قلب القاهرة عام ١٩٤٥م، ومنذ قيامها وطوال مرحلة النهوض القومي المؤدلج التي تلت الحرب الثانية، عملت «الجامعة» بوصفها اداة ميدانية للتعاون الثقافي العربي وصولا الى صيغة وحدوية - ثقافية عربية، باستطاعتها تجاوز الابعاد السياسية ذات التقاطعات والتناقضات. وقد حقّقت جامعة الدول العربية نجاحا متميّزا على الصعيد الثقافي. وكان لبغداد والقاهرة، الدور المؤثر في عقد اتفاقية التعاون الثقافي العربي سنة ١٩٤٥م، وعقد المؤتمرات الثقافية: الاول والثاني والثالث للفترة ١٩٤٧-١٩٥٧م، فضلا عن المؤتمر الاول لوزراء المعارف العرب سنة ١٩٥٢، والمعاهدات الثقافية الثنائية التي استمدت غاياتها ومناهجها من روح **ميثاق جامعة الدول العربية**[٦]

نستنتج، **بان العمل الثقافي العربي كان متقدما جدّا على العمل السياسي العربي في كافة الظروف**، سواء تلك التي تعكس حالات التضامن والوفاق او تلك التي تعكس حالات الخلل والاضطراب في العلاقات العربية. وستبقى «العلاقات الثقافية» مظلة حقيقية للعمل الثنائي او الرباعي او الجماعي العربي، كونها تخفّف من حدّة التوترات السياسية، وانها ابرز وسيلة لتحقيق الفهم المشترك والتخطيط لصياغة مستقبل **الاجيال العربية القادمة..** **فالعلاقات الثقافية، تفتح الآفاق الجديدة على رحبها للوصول الى مستوى نوعي موّحد يناغي الاماني القومية الاصيلة واهداف العرب وتطلعاتهم.. انها ترّسخ الوعي العربي الذي يعدّ قاعدة اساسية للعمل السياسي المنظم والمبرمج، دون ان تكون تلك «القاعدة» حكرا على طرف واحد دون آخر، بل تشارك في بنائها والاستفادة منها مختلف الاجهزة الثقافية والبيئات العربية المشتركة: اكاديميا واعلاميا وفنيّا وصحافيا.. واتخّاذ مواقف صميمية ازاء قضايا آنية ومستقبلية تخدم المصالح العربية في حاضرنا وعند اجيالنا القادمة. ان هذا كلّه ينقلنا الى طرح بعض الرؤى من اجل بناء آفاق مستقبلية مشتركة في العلاقات الثقافية المتاصلة بين مصر والعراق.. واتخّاذ تاريخيتها الزاخرة بالروابط وسبل التعاون، مجال تجربة حقيقية، في ضوء ما استجدّ في عالم اليوم من الوسائل والادوات المتطوّرة التي تخدم طبيعة العلاقات في اكثر من جانب حيوي له عملياته المكثفة من المناهج والعناصر والآليات..**

حصيلة العلاقات: المكتسبات واستشراف المستقبل

نجد من وراء ذلك كلّه، ان «**العلاقات الثقافية**» بين مصر والعراق، هي قضّية ذات خصوصية مكتسبة، وانها تساعد اكثر من طرف عربي في بناء علاقات مثلها، كونها غنيّة العناصر، وبارزة الشخصية.. ولم يزل الاعداء حتى يومنا هذا يقيمون الحواجز، ويكرّسون التجزئة من خلال وسائلهم وادواتهم الثقافية.. اذ كمنت ابرز منطلقاتهم في «فصل» وتشديد «**الفصل**» بين وادي النيل ووادي الرافدين حتى في تسمياتهم، واطلاق الاحكام والنتائج من خلال فهم سطحي غير عميق الجذور، ودون فحص لمقوّمات التلاقي والهوية المشتركة للمركزية التاريخية/ الحضارية في تاريخنا العربي الموّحد على امتداد احقاب طويلة من السنين.

ان الحصيلة من المكتسبات النهائية، هي اجمالية العلاقات الثقافية المتمثلة **بالاساليب والوعي والمناهج والمفاهيم** التي يعتبر تقاربها وتواصلها، **حالة من الاستمرار حتى يومنا هذا**.. بالرغم من اختلاف بعض المواصفات البيئوية والجغرافية والاقتصادية والسلوكية التي طبعت كل من المجتمعين، والتي افرزت بعض المتغيرات الذاتية لا محالة بفعل استخدام الوسائل الحديثة المشتركة في الاتصالات الثقافية، وتفاعل الانماط العربية المستحدثة **في التعايش والتفكير والتعاون**[٧].. سيكون الغد المأمول للاجيال العربية القادمة وثيق العلاقات والصلات، وسيرتهن كل ذلك باستمرار سياسة التعاون وترسيخ الوعي بالتضامن.. وسيحتاج ذلك كله الى ممارسات وتطبيقات مشتركة على مستوى **العلاقات الثقافية، فهي التي تسعى الى بناء مستقبل عربي منشود له مركزيته القوية، وشخصيته الريادية، وعطاءاته المتميّزة في اغناء التطورات الانسانية.**

ان الآفاق المستقبلية، تنطلق اذن، من طبيعة «**العلاقات الثقافية**» ومحصلتها المشروعة المدّعمة بالمنجزات والابداعات والمكتسبات الجديدة ونحن على اعتاب القرن الحادي والعشرين. فما هي رؤيتنا التاريخية لذلك في ضوء رسم تلك الآفاق؟.

علينا باديّ ذي بدء، ان نحدّد اطار «العلاقات الثقافية» بين مصر والعراق من طرف، وبين مصر/ العراق وبقية البلدان العربية على ضوء المعطيات التاريخية من اجل رسم **رؤى وملامح مستقبلية**



زكي مبارك

جديدة تستقيم ومعرفة طبيعة الحاضر واشكالياته والتوقعات بصورة «المستقبل» ومشاكله وتعقيداته.. وهنا ينفع التعبير بواقعية وتجرّد وحياد تام عن الآمال والطموحات التي تعتبر ضمانات اساسية لتحقيق الاهداف الكبرى. ان الاخذ بمستلزمات تلك العلاقة، مطلوب ترسيخها، من أجل رفد حقول التعاون الاخرى. ثم هناك القواعد النقدية والمناهج العقلانية في بحث اية صيغة ثقافية منفردة ام مشتركة، وتوسيع مداها، كي تتفاعل ويتربى عليها الجميع. هناك ايضا، الاشتراك في مشاريع بحثية ومختبرية وسريرية وادبية مختلفة لاغراض البحث العلمي واللغوي والموسوعي، بغرض الاستفادة من الخبرات المتاحة.. كما لا ضير ان اشتركت اجهزة ومؤسسات اكاديمية او مكتبية او اعلامية او ثقافية باجراءات تعاونية في اطار العلاقات والكفاءات والعناصر والخدمات.. الخ.

والمعروف ان تركيز مصر والعراق خلال الفترات المتأخرة كان ضمن سياقات متباينة، ورغم متانة «العلاقات الثقافية» بينهما، الا ان التأكيد عليها حاجة ملّحة وضرورية، فهي لم تنقطع يوما حتى خلال الخمسينيات والستينيات التي شهدت الاوضاع السياسية حالة من عدم التوافق بين البلدين، الا ان الاتصال الثقافي لم يخضع او يفقد حرارته، وهو في قلب الازمة، بل ساهم قوميا في انتاج «حالة» قوية من التعاطف بين المصريين والعراقيين.. وفرته الاغاني الوطنية والاناشيد القومية، وكتابات الصحافة، والخطب السياسية... وهي معطيات انتجتها وابدعت فيها مواهب وقرائح وآليات كل من الطرفين.

تتوفر على ساحتينا (المصرية + العراقية) مؤشرات عديدة، توّضح طبيعة الاتجّاه نحو المستقبل[٢٢]. وسيعطى الثقل لدول منطقة الترابط الجغرافي المحوري (بغداد/ القاهرة)، وهي منطقة ذات تكوينات بشرية هائلة، ورصيد من التاريخية المشتركة.. وذلك هو جوهر العلاقات الثقافية بين الطرفين. ان سياسة التنسيق ومؤشراتها الايجابية، تعني عودة حقيقية الى التفاعل واستمراره، والتحّسس بالمسؤولية التاريخية تجاهها، سعياً وراء المزيد من الفهم المشترك والعقلاني للقضايا المثارة على ارض الواقع.. وهذا ما يطالب به الفكر هنا وهناك من تعميق الصلات القومية، وتطبيق الآراء والافكار والمقترحات تطبق تطبيقاً حيّا، والخروج بنتائج واستنتاجات، هي في الحقيقة، مجموعة الرؤى والمقترحات التي ترسم طريق المستقبل.

ان التقاء النخب المفكرة والفئات المثقفة في مصر والعراق وغيرهما من الاقطار العربية، من أجل قيادة عمليات ثقافية في التفاعل الميّسر والديمقراطي المؤثر، اضافة الى التبادل الثقافي الشامل ، انّما يساعد بتمكن ميسور من تشكيل نوع من المشاركة الحقيقية في بناء الشخصية العربية المقتدرة، وبلورة التصور الاستراتيجي الفاعل في رسم ابعاد العلاقات على المستوى الجماعي، وذلك بتجاوز النخبوية والفئوية. ان هذا كله، يمثّل ضرورة في التعاون والتواصل.. فيجب ان يحظى بعناية كل من القطرين، وكخطوة جادة نحو ترسيخ الارادة القومية، وسعيا مقدّسا لما يطرحه العقل المدّبر والمفكر معا في بناء المستقبل العربي المنشود.

● جدلية التفاعل والآفاق المستقبلية

لقد بقيت العلاقات الثقافية العربية ضعيفة جدا وخصوصا خلال العقود الاخيرة وهو أمر حدّ بطبيعة الحال، من امكانية الوحدة، وتجاوز الفجوات النفسية والاجتماعية بين العرب في وطنهم الكبير[٢٣]. وخبا التبادل الثقافي الذي كان ساري المفعول خلال النصف الاول من القرن العشرين خبوا كبيرا، وغلبت «الاعلاميات» على «الثقافيات» بفعل مأسسة الاجهزة الثقافية والاعلامية وقطريتها.. ناهيك عن اختلاف النظم التربوية والتعليمية العربية بين قطر وآخر. وقد زادت شكاوى المثقفين العرب اينما كانوا من جوانب عديدة. فالعزلة الثقافية التي تعيشها الاقطار العربية قد ادّت الى قوقعة وتقليدية وجمود، والاكتفاء بالسائد والمتوّفر دون تفاعل الثقافة العربية قوميا[٢٤].. ان احوال اليوم ستنعكس لا محالة على الاجيال الجديدة، وستكبر المسافات النفسية الاجتماعية يوما بعد آخر اذا لم تتوفر علاقات ثقافية جديدة لها تفاعلها الخلاق وتواصلها المتين.. علاقات ثلاثية او رباعية او جماعية توفر المستقبل المنشود.

ان تطوّرا هائلا تشهده اليوم وسائل الاتصالات الحديثة والمستخدمة لاغراض متنوعة ومجالات مختلفة في الاعلاميات والثقافيات والاكاديميات.. إنّ وسائل كهذه يجب ان ترقى الى الاستخدام الامثل بين البلدين، وباساليب متطورة، وآليات مباشرة وغير مباشرة، بهدف تلقّي الاجيال الجديدة كل الامور بطرق اسهل ممّا كانت عليه الاجيال السابقة[**] ويمكننا القول، **اننا كعراقيين ومصريين نمتلك تاريخا ثقافيا مشتركا عمره تسعة عقود زمنية**،

وعلى امتداد القرن العشرين، وشارك في صنع ذلك التاريخ وبناء حلقاته، ثلاثة اجيال، كان لكل جيل ادواته ووسائله، ومواصفاته وطابعه.. كما وشغل كل جيل ايضا ثلاثة عقود زمنية، وقد بنيت جميعها على الاسس النهضوية التي شادها الرعيل الاول من المثقفين خلال القرن التاسع عشر، ويمكننا ان نرسم ادناه **البنية التاريخية للعلاقات الثقافية** التي تواصلت بها الاجيال الثلاثة على مدى تسعين سنة من القرن العشرين:

الجيل	العقود الزمنية	السمات والمواصفات
الاول	١/٢/٣	نحو **الاستقلالية الوطنية**
الثاني	٤/٥/٦	نحو **التحرّر القومي**
الثالث	٧/٨/٩	نحو **التعاون الوحدوي**

يتبين لنا من خلال دراسة مختلف الادبيات المختصة والمباشرة بموضوع «**العلاقات الثقافية**»، وفرز طبيعتها البنيوية، ان هناك تطوّرا واضحا في السمات المبدئية التي اخذت يوما بعد آخر **تناشد العقل لا الوجدان لبلورة حياة الامة العربية باتجاه مستقبلها بعد معرفة واقعها وتناقضاتها**.. في حين ان ضعفا كبيرا لحق بجيل اليوم من الشباب والمثقفين نتيجة لضعف الوسائل والادوات وقلة التبادل الثقافي، **اذ كانت اجيال الامس اكثر رسوخا في علاقاتها الثقافية مما هي عليه اليوم**.. فكيف نعالج ذلك؟.

١ . **انتقال البرامج الثقافية والاعلامية** (صحفية/ اذاعية/ تلفزيونية..) بين مصر والعراق والاقطار العربية الاخرى، وبنسبة مرتفعة، وتفاعل اكثر، وتوطيد سبلها واساليبها في مختلف الجوانب.

٢ . **التعاون الاكاديمي** بين جامعات البلدين ومؤسساتها العلمية من خلال تقديم المنح الدراسية، وسنوات التفرغ العلمية/ البحثية، وفي جميع التخصّصات.. ثم التوّسع المشروط في دراسة الجوانب المشتركة في المناهج التعليمية والبحثية والميدانية من أجل اقامة توازن معرفي متطوّر ومتكافئ.

٣ . الاستفادة المشتركة من **الكفاءات والخبرات والمؤهلات** العلمية والادبية واللغوية في الميادين الاكاديمية والثقافية، من خلال تنظيم الاعارات والندوات العلمية والملتقيات الثقافية للاساتذة والمفكرين والمثقفين لكل من الجانبين.

٤ . **التعاون الثقافي (الرسمي والخاص)** في اطار والنشر المشترك لمعظم النتاجات العلمية والادبية واللغوية والفكرية . **ثم تيسير حركة تبادل المطبوعات** من كتب وجرائد ومجلات لكل من البلدين من اجل اغناء الحركة الفكرية والبناء الحضاري المشترك.

٥ . عقد **الاتفاقيات الثقافية** في المجالات المختصة بالبرامج **التربوية والفنية والاعلامية والمعلوماتية**.. وبناء نموذج ثنائي او اكثر من التعاون العربي المتوازن، وعلى اسس قومية ثابتة باتجاه التحديث والعصرنة.

٦ ـ **تعزيز الاعمال الثقافية** والفكرية والتراجمية النخبوية والجماعية المشتركة.. اي العمل الكبير المتفاعل كمشروعات موسوعية وانسكلوبيدية وفهرسية.. تسعى الى بناء نموذج علمي/ عربي مشترك له رصانته بالنسبة للثقافة العربية والعالمية، كأن يقدّم بلغات مختلفة.

٧ . **الاشراف الاكاديمي المشترك** على بعض الرسائل والاطروحات الجامعية، ومعادلة الشهادات، وتبادل الخبرات في المراكز البحثية، وتشجيع حركة التأليف والترجمة والنشر، وتحقيق المخطوطات ونشرها، وتبادل المعارض والمأثورات.

٨ . فسح المجال **ثقافيا للمراة**، لفهم اوضاعها الاجتماعية والنفسية وازماتها ومشاكلها **وابراز حقوق المراة** بشكل متجانس في كل من البلدين، من اجل تنشيط حركة التفاعل النسوي العربي، ومعالجة الاوضاع الاجتماعية المشتركة.

٩ . **تنشيط التواصل الطلابي، وتثقيف الشباب** باستخدام جميع الوسائل المتاحة، بتنظيم الرحلات واللقاءات، واجراء الفعاليات الثقافية والفنية والرياضية المشتركة.

١٠ . العناية **بالدراسات المستقبلية العربية** في كل من مصر والعراق، لمعالجة المشاكل الثقافية المختلفة، وتطوير

المفاهيم الاجتماعية، واستخدام الوسائل المتطورة في التطبيقات ، ورسم معالم المستقبل وآفاقه.

١١ . **تاسيس شبكة استراتيجية للمعلومات بين مصر** والعراق، كمصدر قومي مهم من مصادر التكامل الثقافي والمعلوماتي بين اكبر دولتين في مجلس التعاون العربي، واهم قوتين استراتيجيتين في الامة العربية.. انها حاجة ملحة في تطوير العلاقات الثقافية بينهما ورسم ابعاد الآفاق المستقبلية.

مرجعيات وملاحظات

(١) التفاصيل عن تكوين الثقافة العراقية الحديثة عند: سيّار الجميل، «انتلجينسيا العراق: التكوين.. الاستنارة والسلطة» بحث القي في ندوة مركز البحوث والدراسات الاقتصادية والاجتماعية بالجامعة التونسية للفترة ٤ـ٩/١٢/١٩٨٩. (محور: **النخبة والسلطة في العالم العربي خلال التاريخ الحديث والمعاصر**).

(٢) انظر: داود سلمان، **تاريخ العلاقات العراقية ـ المصرية من فجر الحضارة وحتى الحرب العالمية الاولى ٣٠٠٠ ق.م. ـ ١٩١٤**، م ط١، بغداد، ١٩٨٤، ص٤.

(٣) سيّار الجميل، **العثمانيون وتكوين العرب الحديث: من اجل بحث رؤيوي معاصر**، مؤسسة الابحاث العربية، ط١، بيروت، ١٩٨٩، ص٦٦.

(٤) للتوّسع في ذلك، انظر:

G. Baer, **Studies in the Social History of Modern Egypt** Chicago, 1069, P.191.

وقارن:

A.C.Crouchley, **the Economic Development of Mondern Egypt.** London, 1938.

(٥) د. يوسف عزالدين، **تطور الفكر الحديث في العراق**، بغداد، ١٩٧٦، ص١٨.

(٦) هم كثيرون، ويمكنني ان اقتصر على ذكر اسماء بعض المؤلفين: احمد عزّت باشا الفاروقي/ الملا حسن البزاز/ عبد الباقي العمري/ الملا عثمان الموصلي/ سليمان صايغ/ محمد امين زكي/ محمد عبد الحسين/ جميل صدقي الزهاوي/ معروف الرصافي/ محمد رضا الشبيبي/ محمد بهجة الاثري/ روفائيل بطّي/ متي عقراوي/ مصطفى علي وغيرهم.

(٧) انظر: لويس عوض: **تاريخ الفكر المصري الحديث** (جزءان)، القاهرة، ١٩٦٩.

(٨) يقول الاستاذ حسين جميل في مذكراته، وهو شخصيّة سياسية عراقية بارزة: «فاستهوتني شخصية زعيم الوفد سعد زغلول حتّى احببته حبّا ملك شغاف قلبي..». انظر: حسين جميل، **العراق: شهادة سياسية ١٩٠٨ ١٩٣٠**، ط١، لندن، ١٩٨٧، ص٣٠.

(٩) انظر عنه في: **الموسوعة العربية الميّسرة**، باشراف: محمد شفيق غربال، القاهرة، ١٩٦٥، ص١٠٢٤.

(١٠) عن: د. مصطفى كامل، **شرح القانون الدستوري**، ط٤، بغداد، ١٩٤٧..

(١١) التفاصيل عند: د.زكي مبارك، **ملامح المجتمع العراقي: كتاب يصوّر العراق في مذاهبه الادبية والقومية والاجتماعية**. القاهرة، ١٩٤٢م/١٣٦١هـ. (وفيه يعطي المؤلف انطباعات بارزة للمثقفين العراقيين عن مصر).

(١٢) د. عادل البكري، **الملا عثمان الموصلي: الموسيقار الشاعر المتصوّف**، بغدا، ١٩٦٦.

(١٣) روفائيل بطّي، **الادب المصري في العراق العربي**، جـ١، القاهرة، ١٩٢٣، ص١٠٣.

(١٤) المصدر نفسه، جـ١، س٣٢، وانظر: مجلة **العصور**، العدد ١٢، المجلد١، القاهرة، اغسطس ١٩٢٨.

(١٥) للتفاصيل: انظر نموذج رشيد عالي الكيلاني في مذكرات نجم الدين السهروردي: **التاريخ لم يبدا غدا**، ط٢، بغداد، ١٩٨٩.

(١٦) مراجعات معمّقة للعديد من الصحف والمجلات المصرية والعراقية. (١٧) راجع ما كتبه ابراهيم الواعظ في الملاحق التي ارفقها مع تحقيقه لكتاب والده: مصطفى الواعظ، **الروض الازهر في تراجم آل السيد جعفر**، الموصل، ١٩٤٨، ص٥٤١.

(١٨) المصدر نفسه، ص٥٤٢.

(١٩) المصدر نفسه، ص٥٤٤ـ٥٤٥.

(٢٠) التفاصيل عند: غانم وحيد، **التعاون الثقافي العربي في اطار جامعة الدول العربية ١٩٤٥ـ١٩٦٤**، (رسالة ماجستير غير منشورة ومقدمة الى قسم التاريخ بكليّة الآداب/ جامعة الموصل سنة ١٩٨٨م).

(٢١) انظر ما كتبه كلّ من:

Daniel Bates and Amal Rassam, **People and Cultures of the Middle East**, Englewood Cliffs, N.J.: prentic — Hall, 1983, P.71.

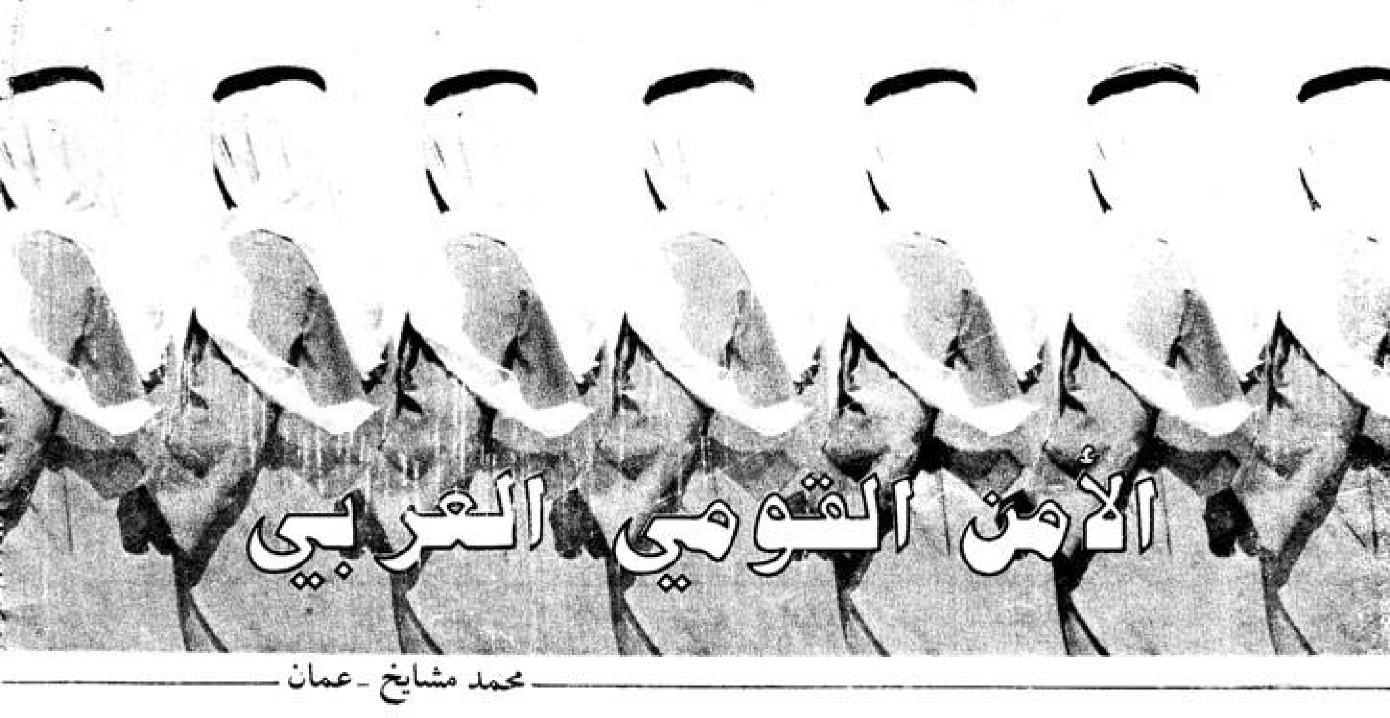
(٢٢) من المفيد جدّا مراجعة آراء جاك بيرك في كتابه «العرب: تاريخهم ومستقبلهم»:

Jacques Berque, **The Arabs: Their History and Future** Trans, by jean Stewart, Preface by Sir Hamilton Gibb, London, 1964.

(٢٣) انظر المقارنة التي كتبها: جابر عبد الحميد جابر عن: «الشخصية المصرية والشخصية العراقية: دراسة مقارنة»، **المجلة الاجتماعية القومية** (القاهرة)، السنة٥، العدد٣، ايلول/ سبتمبر ١٩٦٨ (مع اختلافي في العديد من ارائه).

(٢٤) ما ذكره د. حليم بركات في كتابه: **المجتمع العربي المعاصر: بحث استطلاعي اجتماعي**، مركز دراسات الوحدة العربية، ط٢، بيروت، ١٩٨٥، ص٥٤ ٥٥.

(٢٥) انظر مثلا كيف وصف الاستاذ محمود شاكر وهو من الجيل الماضي العراق: مقالته في مجلة «**الرسالة**» للزيات، العدد ٧٢٢، القاهرة يوم الاثنين ١٤يوليو/ تموز ١٩٤٧.



الأمن القومي العربي

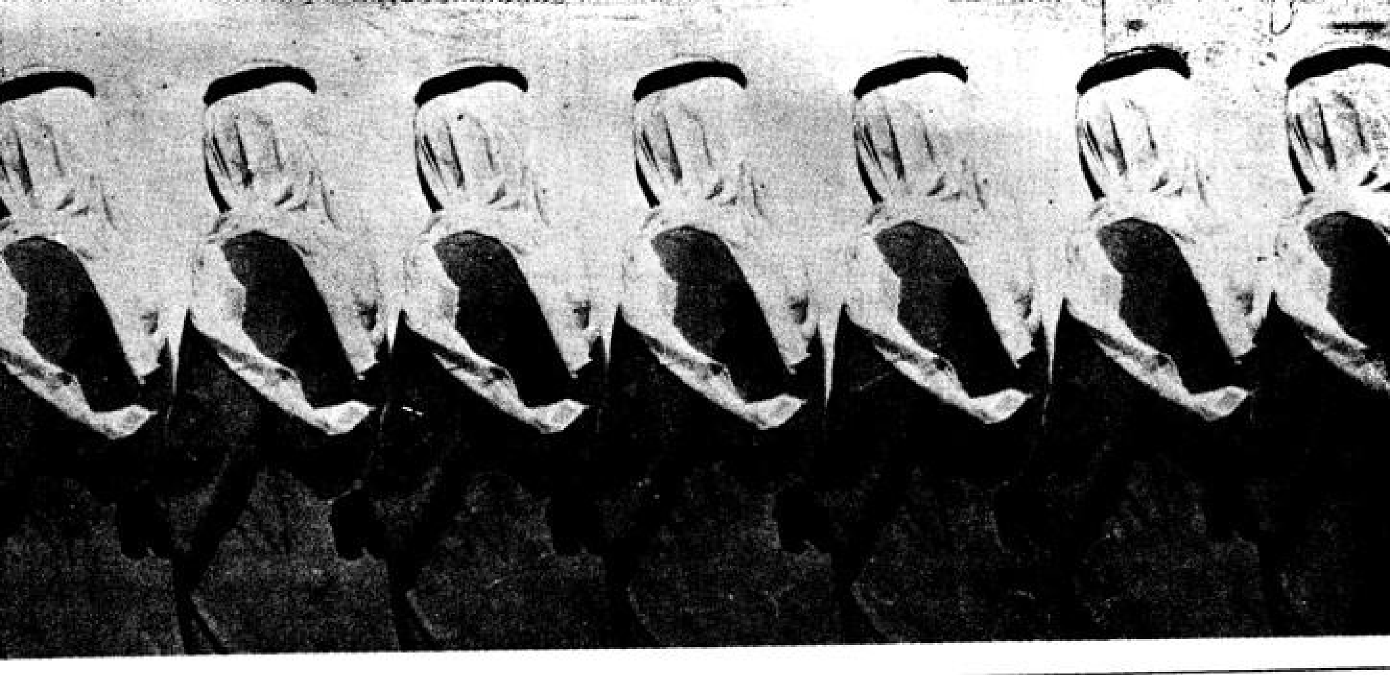
محمد مشايخ ـ عمان

ثمة ابحاث كثيرة سطرها عمالقة السياسة والفكر في الوطن العربي حول مصطلح (القومية) غير ان هذا المصطلح مازال قادرا على استيعاب المزيد من الدراسات وتوليد الكثير من المناقشات. وفي هذا البحث الموجز محاولة لاستقصاء ابعاد مفهوم الامن القومي العربي مشيرين منذ البداية، الى انه منذ سنوات طويلة كان الحديث عن الأمن القومي العربي ضربا من ضروب الخيال. أما الآن، وبعد ان حقق العراق نصره المؤزر على الجبهة الشرقية للوطن العربي، فقد بات الاعداء يحسبون الف حساب لأمننا القومي.

لعل من الصعوبة بمكان وضع تعريف جامع مانع وشامل لمفهوم الأمن، خاصة وان هذه الكلمة اصبحت تستخدم في كل مناحي الحياة على اختلافها وتنوعها. فهناك من يتحدث اليوم عن الامن الغذائي، وهناك من يتحدث عن الامن الصناعي، في حين نجد من يجعل الأمن يتمحور حول تأمين الكيان الذاتي للدولة، او تأمين الكيان القومي للامة. ورغم التطورات التاريخية المعاصرة، فلا زلنا نجد من يتحدث عن أمن الأفراد، وامن المعلومات، بل وأمن الأحزاب، ووصل الأمر ببعضهم الى الحديث عن أمن القبائل والطوائف.. لقد اصبح الامن بالنسبة للانسان والدولة كالدم الذي يجري في العروق، حتى ان الأمور وصلت الى درجة جعلت من الأمن عبارة عن اسطورة لتبرير السياسات وتحديد المواقف السياسية للدولة، ولعل خير مثال على ذلك السياسة الداخلية والخارجية الاسرائيلية التي تضع الأمن في مقدمة اعتباراتها.. فما هو المقصود بالأمن؟ انه حالة ادراك شعورية نابعة من اسس موضوعية، أساسها الاحساس بالطمأنينة وعدم التهديد المادي والمعنوي، او ان الامن هو التعبير عن الشعور الداخلي بالطمأنينة وان يكون الانسان خاليا من كل ما يضايقه بصورة تفقده الاطمئنان. والامن يمثل حالة من عدم الخوف والحماية.. وبالنسبة للمواطن العادي فان الأمن يرتكز على وضوح الحقوق والواجبات من جانب، وشرعية وجوده كمواطن من جانب آخر وما يترتب على ذلك من حق المشاركة في الحياة السياسية من جانب ثالث، وفي ضمان حد أدنى من الاكتفاء الاقتصادي والحماية الذاتية من جانب رابع، وبصورة عامة فان الأمن بالنسبة للفرد والمواطن العادي يرتكز على مفاهيم الأمن الحياتي والأمن السياسي والضمان الاجتماعي والاكتفاء الاقتصادي والطمأنينة.

■ انواع وأشكال الأمن

ثمة صعوبات كثيرة تعترض سبيل الباحث عن انواع الامن، لانه في الحياة التطبيقية والممارسة العلمية يأخذ عدة مسارات



ومظاهر. فالفرد العادي يتحدث عن الامن، ورجل الاستخبارات يتحدث عن الأمن، ورجل الشرطة يريد الحفاظ على الأمن والنظام. وفي الثورات نجد ان اجهزة الرصد الثوري تحاول رصد التحركات المعادية وغير المعادية والحفاظ على الأمن الذاتي لهياكل الثورات وتنظيماتها، في حين نجد الباحثين يتحدثون عن أمن التكنولوجيا وعدم السماح بالوصول الى أسرار المخترعات العلمية او منع نقلها دون ترخيص واذن رسمي، والطوائف نسمعها تطالب بتحقيق امن الطائفة، والقبائل لها مجال حيوي ومناطق نفوذ لابد من تأمينها، حتى ان العشيرة لها مفهوم امن خاص بها. واذا انتقلنا الى الدول نجد من يتحدث عن الأمن الوطني، في حين هناك من يتكلم عن الأمن الاقليمي، وكثيرا ما نسمع عن الامن والسلم الدوليين. وبالتالي فانه يمكن القول ونحن في غمار هذا التحليل الذي لازال في طور التأصيل والابداع النظري ان هناك انواعاً عديدة لمفهوم الأمن تختلف من حيث النطاق والضيق والشمول نذكر هنا أمثلة على سبيل التوضيح وليس بهدف الحصر:

ا ـ أمن الأفراد والمواطنين: وهو الشعور بالطمأنينة وعدم الخوف والتهديد في معناه الواسع، وفي الوقت نفسه الوضوح ومعرفة الحقوق والواجبات وضمان حق المشاركة السياسية، مع الضمان الاجتماعي وتحقيق الحد الأدنى اللازم من الاكتفاء الاقتصادي.

ب ـ الأمن الوطني: وهو يتمحور حول الدولة التي تحدد عناصر أمنها الوطني، ويتمركز هذا المفهوم حول قدرة الدولة على تحقيق الحماية الذاتية وعدم السماح للتعرض للمخاطر التي من شأنها ان تهدد كيان الدولة واستمرار بقائها ووجودها واستقلالها وعدم التعرض للتفسخ والتجزئة. ويهدف الامن الوطني للدولة الى تأمينها من الداخل، ودفع التهديدات الخارجية عنها، بما يكفل لشعبها حياة مستقرة توفر له استغلال أقصى طاقاته للنهوض والتقدم والازدهار.

ج ـ الأمن القومي: هذا المفهوم حديث وهو يتمحور حول الأمة وينطلق من ضرورة التصدي لأية محاولة من شأنها المس بالحد الأدنى اللازم من الحماية للأمة او المجتمع القومي، حتى لو تطلب ذلك اللجوء الى كافة الوسائل والأساليب بما فيها استعمال القوة للدفاع عن النفس. ان الأمن القومي مفهوم ينطلق من خلال النظر للأمة كوحدة واحدة ذات أمن واحد لايتجزأ.

د ـ الأمن الدولي: هذا المفهوم مطاط اخضعته الدول الكبرى للحرب الباردة الدائرة فيما بينها، وانطلقت كل منها في بث ونشر تصوراتها حول كيفية تحقيق ما يسمى بالأمن والسلم الدوليين، ولا زال الحديث عن السلم الدولي خاضعا لمصالح الدول الكبرى وتصوراتها، رغم ان هناك تصورات اخرى عن كيفية تحقيق الأمن الدولي سواء تلك التي تضمنها ميثاق الأمم المتحدة، او تصورات التجمعات والمنظمات الاقليمية او غيرها من المفاهيم التي ظل اغلبها حبرا على ورق. وتحاول الدول الكبرى وخاصة الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تحقيق حد من الأمن الدولي سواء من خلال اتفاقيات الحد من الأسلحة الاستراتيجية او خفض الاسلحة التقليدية او غيرها من الاتفاقيات، ولكن لابد من التأكيد انه لم يعد تصور واضح وواحد ومعترف به دوليا لمفهوم الأمن الدولي ،بل ان كل دولة لها مفهومها وتصوراتها للأمن بما يخدم مصالحها وتصوراتها للامن بما يخدم مصالحها الوطنية في المقام الأول.

وهناك انواع وتصورات اخرى للامن ليس هنا المجال حول بحثها ولكن نذكر منها:

١ ـ أمن المعلومات: ويدور هذا المفهوم حول ضمان سرية المعلومات وعدم السماح للعدو او من يتعامل معه للوصول الى معرفة المفاصل السرية سواء للدول او الافراد او الجماعات او التنظيمات او الاحزاب.. ورصد كل من يحاول اختراق حاجز السرية المحيط بتلك

المعلومات.

٢ ـ امن الطوائف والقبائل والأقليات العرقية: وهذه التصورات وغيرها من المفاهيم التي لامجال للخوض في تفاصيلها، تعبر عن العودة بالتاريخ الى الوراء رغم الفتن الطائفية التي رفعت رأسها هنا وهناك والتي غالبا ما تحركها مصالح دولية متضاربة، ولكن نذكرها هنا من قبيل التذكير ليس غير، وما يهمنا هنا هو التركيز على مفهوم الأمن القومي والتمييز بينه وبين مفهوم الأمن الوطني.

٣ ـ الأمن الغذائي: وهو مفهوم برز أخيرا بعد ان تحول القمح والغذاء الى سلاح للضغط الدولي وفرض السياسات وهو تعبيرعن اتساع مفهوم الأمن ليشمل جوانب عديدة من حياةالدول والافراد والجماعات.

■ تعريف الأمن القومي وعناصره

الأمن القومي هو عبارة عن الحد الادنى اللازم من الحماية للامة او المجتمع القومي والذي يقع على الادارة الحاكمة مسؤولية عدم السماح بانتهاكه حتى لو أدى ذلك لاستخدام كافة الوسائل والاساليب والادوات المتاحة بما فيها اللجوء لاستخدام القوة المسلحة ،لانه امن يتعلق بالحفاظ على الكيان والوجود والاستقلال وعدم التجزئة.. و هذا التعريف لمفهوم الأمن القومي يتكون من العناصر الأتية:

١ ـ الأمن القومي هو تعبير عن تحقيق الحد الادنى اللازم لحماية الكيان الذاتي للامة.

٢ ـ انه لايجوز السماح ـ بأي حال من الاحوال او شكل من الاشكال ـ بانتهاك هذا الحد الادنى اللازم لحماية الامة او المجتمع القومي.

٣ ـ من حق الأمة في اثناء الحفاظ على امنها القومي استعمال كافة الوسائل المشروعة دوليا بما فيها استعمال القوة المسلحة بالاضافة للادوات والوسائل والاساليب الاخرى مثل اثارة الرأي العام، الضغوطات الاقتصادية، الاساليب الدبلوماسية، اثارة القلاقل الداخلية في داخل الطرف المعتدي ، الحصار، الاستعراضات والمناورات الحربية، التهديد باستعمال القوة او استعمالها فعليا بصورة جزئية او شاملة..استعمال اساليب الدعاية او الشائعات والحرب النفسية..

٤ ـ انه يقع على القيادة والادارة الحاكمة مسؤولية عدم السماح بتهديد الامن القومي او تعريض الحد الادنى اللازم لحماية الكيان الذاتي للخطر.

٥ ـ ان من الواجب ايضا ترسيخ مفهوم الأمن القومي في الوعي الجماعي القيادي ..

ان الأمن القومي وفقا لذلك المفهوم، ومن حيث الممارسة والتطبيق ما هو الا عبارة عن مجموعة من المبادئ الثابتة والمتأصلة في الضمير والوعي الجماهيري والجماعي والوعي القيادي بحيث يتوجب على القيادات الحاكمة بغض النظر عن انتماءاتها الحزبية اوالسياسية او الطائفية ان تحترمها وتعي دلالاتها وتحافظ عليها..وهنا قد يتساءل بعضهم كيف تتم صياغة مبادئ وعناصر الأمن القومي؟ ان الاجابة على هذا التساؤل تتطلب التنويه الى ان النظرة القومية الشاملة والتشبع بالفكر القومي النابع من التربة الحضارية للأمة او المجتمع القومي، وخاصة من قبل القيادات الحاكمة، هي من اولى المتطلبات لصياغة مفهوم واضح للأمن القومي، ذلك ان الامن القومي في صياغته هو حصيلة تفاعل بين الفكر القومي والنظرة القومية من جانب والممارسة القيادية لهذا الفكر من جانب آخر، وليس هناك من سلطة من حيث الواقع تصوغ مبادئ الأمن القومي. فالتاريخ بخبراته وتقاليده المتتالية هو الذي يعلم الشعوب والأمم كيفية المحافظة على الذات، ثم يأتي ـ كما يقول المرحوم. الدكتور حامد ربيع: استاذ النظرية السياسية بجامعة القاهرة ورئيس قسم الدراسات السياسية والقومية في معهد البحوث والدراسات العربية في القاهرة وبغداد والخبير في الشؤون الاسرائيلية وقضايا الصراع العربي الصهيوني ـ الفكر والفقه السياسي القومي الخلاق يتزاوج مع التأمل العسكري والتنظير الاستراتيجي لتكملة الممارسة القيادية القومية، او ذات النظرة القومية. اذن الامن القومي هو من جانب حصيلة تجارب وخبرات تقليدية تاريخية مع نظرة وفكر قومي من جانب آخر، وفكر عسكري استراتيجي من جانب ثالث، ثم قيادة واعية تحيل كل ذلك الى قواعد ثابتة راسخة ومقدسة للتعامل مع مفهوم الأمن القومي وتعمل على نشره وتعميمه ليترسب في الوعي الجماعي للأمة او المجتمع القومي، كل هذا من جانب رابع.

■ الأمن القومي والأمن الوطني

لابد هنا من التنبيه الى ضرورة تقدم الخلط بين مفهوم الامن الوطني الذي يتمحورحول حماية الكيان الذاتي للدولة، وبين مفهوم الأمن القومي الذي يدور ويتمركز حول تحقيق الأمن للأمة او للمجتمع القومي، اذ يوجد نوع من الخلط في بعض اللغات بين المفهومين، ففي اللغة الانكليزية نجد ان اصطلاح او تسمية (Nation-al security) يمكن ترجمتها الى اللغة العربية تارة: "الامن الوطني" او "الأمن القومي" تارة اخرى. ولكن في لغتنا العربية نجد المجال مفتوحا على مصراعيه للتمييز بين المفهومين سواء مفهوم الأمن القومي او مفهوم الأمن الوطني. واذا كان الفقه السياسي قد اعتاد اليوم على الحديث عن الامن الوطني للدول، اي التركيز على المنطلقات القطرية، فان النظرة الشاملة تجعل المنطلق القطري اساسا للانتماء والنضال القومي. وهنا نتساءل : كيف يتم الحديث عن الامن القومي؟ وهل اصبح الخوض في هذا الغمار لكل من يريد معركة سهلة؟ طبعا الحديث عن تحديد ماهية العلاقة بين الامن الوطني والامن القومي يدفعنا الى الصدام مع سؤال آخر حول ماهية العلاقة بين "الدولة" التي يتمحور مفهوم الامن الوطني حولها، وبين

"الامة" او المجتمع القومي الذي يدور مفهوم الأمن القومي حوله ويلتف حول تأمين كيانه الذاتي وتماسكه.. وعند الاجابة على هذا التساؤل نقول ان هناك ثلاثة اشكال او انواع بين الدولة من جانب والامة من جانب آخر وهذه الانواع هي:

١ ـ علاقة تطابق: بمعنى انه في هذه الحالة توجد علاقة تتضمن التطابق بين الدولة والامة، اي ان حدود الدولة تكون هي نفس حدود الامة او المجتمع القومي، وهو مايمكن تسميته باسم الدولة القومية. وابرز مثال على هذا التطابق هو فرنسا حيث تشكل فرنسا دولة وامة في نفس الوقت وفي اطار الحدود نفسها.

٢ ـ علاقة شمول: بمعنى ان هناك دولة قد تشمل وتحتوي على عدة قوميات او امم وهي التي يمكن تسميتها بالدولة متعددة القوميات(Multi — National State) ولعل الاتحاد السوفياتي والهند ويوغسلافيا من النماذج البارزة على ذلك. فالاتحاد السوفياتي يشمل بداخله العديد من الامم والقوميات التي برزت أخيرا مع اشتداد النزعة القومية هناك سواء في جمهوريات بحر البلطيق استونيا وليتوانيا ولاتفيا، او في ارمينيا او جورجيا اوغيرها من جمهوريات الاتحاد.فالاتحاد السوفياتي كدولة تضم حدوده عدة امم او مجتمعات قومية.

٣ ـ علاقة تجزئة:وفي هذه الحالة تكون الدولة جزءا او كسرا في بنية الأمة او المجتمع القومي وذلك معناه وجود امة مجزأة الى عدة دول وخير مثال على ذلك الأمة العربية.

■ شروط الحديث عن الامن القومي

ان التقاليد الثابتة تدور حول حق الدول فقط في جعل مفهوم الأمن الوطني اساساً لسياساتها الخارجية الاقليمية والدولية، ومن ثم فانه ليس من حق الطوائف والجماعات الاثنية والعرقية او اي أقلية في داخل الدولة ان تثير هذا الموضوع وتتحدث عن أمن الطائفة او امن الأقلية سواء أكانت اقلية عرقية او دينية او غير ذلك، بل ان الفقه السياسي التقليدي يرى انه ليس من حق اي مجتمع لم يستطع ان ينصهر في ارادة دولية واحدة ان يطرح مفهوم الأمن القومي. ورغم ذلك فان السنوات الاخيرة بدأت تشهد تطورات حول مفهوم الامن اساسها التفريق والتمييز بين الأمن الوطني الذي يتعلق بالدولة وصيانة كيانها واستمرارية وجودها، وبين مفهوم الامن القومي الذي اساسه صيانة كيان الامة وحماية المجتمع القومي ووجوده ومقاومة كل محاولات التجزئة والتفسخ التي تستهدف وحدة الامة والعمل على اعادة وحدتها في حالة وجودها في حالة تجزئة وتمزق.

وهنا لابد من الاشارة الى انه منذ اوائل السبعينات حدث تطور في مفهوم الأمن بحيث لايقتصر على الأمن الوطني فقط، بل اصبح من حق المجتمع القومي او الذي يتجه به الى يكون كذلك ان يتحدث عن الامن القومي، وبرغم ما يكون عليه من وجود تعدد الدول التي تنتمي الى ذلك المجتمع القومي والامة ،وبذلك اصبح الحديث عن حق المجتمع القومي في الحديث عن الأمن القومي واضحا وشائعا ولكن القول ان هناك عدة شروط يجب ان تتوفر حتى يكون من حق المجتمع القومي الحديث عن الامن القومي. ومن هذه الشروط:

١ ـ ان تكون ملامح المجتمع القومي واضحة وليست موضع شك او مناقشة.

٢ ـ ان يملك المجتمع القومي اداته السياسية الدولية التي تضم الدول التي تنتمي الى المجتمع القومي اذا كان مجزءاً، بشكل او آخر في اطار تنظيم قومي.

٣ ـ ان يتم ترسيخ واضح للوعي القومي في الشعور الجماعي العام سواء على مستوى العناصر المكونة للمجتمع القومي او على مستوى القيادة التي تقف على رأس هذا المجتمع القومي.

٤ ـ ان تكون الاداة السياسية التي تقف على رأس المجتمع القومي ذات تأثير معترف به في الساحة الدولية، وحائزة على الاعتراف الدولي.

■ الأمن القومي والعدو الاقليمي

التقاليد الثابتة والحقيقية للامن القومي تجعل الحديث عن هذا المفهوم يتجه نحو العدو الاقليمي الذي له حدود مشتركة مع المجتمع القومي او الدولة المعنية. هذا العدو، او الاعداء الاقليميون يتجسد فيهم الخطر والتهديد والخوف الدائم من القيام بهجوم مباغت يعرض كيان الدولة او الامة او تكاملها ووحدتها للخطر. ولكن من الملاحظ ان الدول الكبرى في الفترة الاخيرة قد بدأت تتحدث عن مفهوم واسع للامن القومي يحفظ استمرار الابقاء على مصالحها الدولية. فالولايات المتحدة الامريكية عندما تتحدث عن الامن القومي الامريكي نجدها تجعل اسرائيل جزءا منه رغم ان بين اسرائيل والولايات المتحدة الامريكية مسافة تزيد على السبعة آلاف ميل. كما ان الولايات المتحدة ودول اوروبا الغربية لم تتردد في توسيع دائرة امنها القومي الى حد الاعلان عن ان استمرار تدفق النفط بلا انقطاع من منطقة الخليج العربي هو عنصر من عناصر امنها القومي ، بل امتد الحديث عن امن الدول الكبرى وغيرها من الدول الى الفضاء الخارجي،وبرنامج حرب النجوم او ما يسمى بمبادرة الدفاع الاستراتيجية الامريكية نموذج واضح لذلك.

والآن نعود للاجابة على التساؤل الآتي: من هو العدو او الاعداء الاقليميون الذين يجب ان يتجه ضدهم اهتمام الامن القومي العربي؟

الاجابة واضحة وهي ان من اولويات الامن العربي.يجب ان تتركز حول كيفية مواجهة اسرائيل وايران سواء برسم استراتيجية عربية سليمة شاملة او اي استراتيجية أخرى تقف امام التحدي الاسرائيلي والايراني للمنطقة العربية، مع ضرورة تأمين الأمة العربية بكل اقطارها بغض النظر عن حالة التمزق والتجزئة التي يجب العمل على ازالتها. وذلك يتطلب استئصال الحاجز الذي يفصل

بين مشرق الوطن العربي ومغربه واعادة التواصل البري بين اجزاء المنطقة العربية. كذلك تأمين كل اطراف الوطن العربي من الجنوب والشمال والشرق والغرب من القلب . اذن مفهوم الامن العربي مفهوم شامل واسع فهو في الوقت الذي يركز على الاهتمام بمنطقة القلب لايغفل الانتباه للتهديدات من الاعداء الاقليميين للامة العربية سواء ايران في الشرق او الحبشة (اثيوبيا) في الجنوب.

ان العدو الاقليمي المركزي للامن العربي هو اسرائيل مع عدم اغفال ما قد ينشأ من اعداء اقليميين في مناطق الاطراف وخاصة (ايران)..وهنا لابد من الاشارة الى ان قادة اسرائيل لا زالوا يعتبرون الامة العربية هي العدو الاول للدولة العبرية، فالعلاقة بين الامة العربية واسرائيل لازالت علاقة عداء، فالواضح ان لاسلام بدون فلسطين جنبا الى جنب مع سلام الآخرين بمن فيهم اسرائيل وهذا ما عبرت عنه بوضوح نتائج الدورة التاسعة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني التي انعقدت في الجزائر في شهر تشرين ثان من عام ١٩٨٨م.

■ مدرستان للأمن القومي:

لو تتبعنا موضوع الأمن القومي تاريخيا يمكن ان نميز بين مدرستين:

المدرسة الاولى: المفهوم العسكري للأمن القومي: ان قضية الأمن بالنسبة لهذه المدرسة هي مشكلة اقامة جيوش قوية تصون امن البلاد من العدوان الخارجي.

المدرسة الثانية: المفهوم الاجتماعي للأمن: ويفضله عدد كبير من الباحثين، حيث ان قضية الأمن ليست قضية بناء جيش قوي ولكنها تتخطى ذلك الى النظام الاجتماعي برمته شاملة الابعاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية. وانطلاقا من هذا كله يمكن ان نحدد التعريفات الاتية للأمن القومي حسب بعض التصورات:

١ ـ ان الدولة تكون آمنة حينما لاتضطر الى التضحية بمصالحها المشروعة لتجنب الحرب، وتكون قادرة عند التحدي على المحافظة على تلك المصالح بالحرب.

٢ ـ تعريف آخر «يهدف الأمن القومي للدولة الى تأمينها من الداخل ودفع التهديد الخارجي عنها، بما يكفل لشعبها حياة مستقرة توفر اقصى طاقاته للنهوض والتقدم والازدهار».

٣ ـ تعريف روبرت مكنمارا: (الأمن معناه التنمية. فالأمن هو التنمية وبدون تنمية لايمكن ان يكون هناك أمن) . نستخلص من هذه التعريفات النتائج الآتية:

١ ـ ان الهدف الاساسي لأمن الدولة هو الوحدة الاقليمية وحماية الكيان الذاتي لها.

٢ ـ ان هذا الأمن يواجه الاخطار الداخلية والخارجية القائمة والمحتملة.

٣ ـ شمولية مفهوم الامن القومي حيث انه لايقتصر على الجوانب العسكرية فقط بل يشمل الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية.

■ مرتكزات الأمن القومي العربي:

ونظرا لاهمية مرتكزات الأمن القومي العربي نعود من جديد لحصرها فيما يلي:

١ ـ ان البحر الابيض المتوسط يجب ان يظل بعيدا عن صراعات القوى الكبرى في الاسرة الدولية.

٢ ـ ان منطقة البحر الاحمر والخليج العربي يجب ان تظل تحت السيطرة العربية وان ينظر اليها على انها بحيرات عربية.

٣ ـ ان منطقة القلب العربية داخل المربع اذي يربط بين عدد من الاقطار العربية في مقدمتها بغداد والقاهرة والرياض التي يجب ان يسودها التجانس والتكامل والتماسك والمساندة.

٤ ـ منع قيام أي حزام معادٍ في المناطق البرية جنوب الصحراء العربية الكبرى

٥ ـ ضرورة مجابهة اسرائيل في قلب المنطقة العربية وتجسيد الدولة الفلسطينية على ارض الواقع

٦ ـ ضرورة مجابهة ايران ومنعها من تكرار اعتداءاتها على العراق واجبارها على اكمال ما ابتدأ به العراق لتنفيذ قرار مجلس الأمن .

٧ ـ ضرورة اقامة صناعة تسليحية ونووية عربية مستقلة.

ونتوقف الآن مع الأهمية الخاصة لبعض هذه العناصر والتي هناك ضرورة لاختيارها لتكون مرتكزات للأمن القومي العربي

١ ـ أهمية البحر المتوسط للأمن القومي العربي:

تبرز اهمية البحر المتوسط وضرورة ابعاد القوى الكبرى وصراعاتها عن البحر المتوسط وتفريغ هذا البحر من اي قوة قادرة على شل الأمن القومي العربي وخاصة القوى العظمى وذلك للاعتبارات التالية:

أ ـ ان هناك ثماني دول عربية ـ افريقية واسيوية ـ تقع على شاطئيه الجنوبي والشرقي على طول مسافة لاتقل عن ثلاثة آلاف ميل وتبلغ مساحة هذه الدول حوالي ٨٠٪ من مساحة الوطن العربي ككل ومن هذه الدول: لبنان؛ فلسطين، مصر، ليبيا، تونس، الجزائر، المغرب.

ب ـ ومما يضاعف من خطورة البحر المتوسط للأمن القومي العربي ان الحياة الجماعية في الوطن العربي تكاد تتركز على الشواطئ والمناطق الساحلية حيث الامتداد الداخلي يمثل اراضي صحراوية معدومة النشاط البشري او تكاد، ومن ثم فان نقطة الضعف الحقيقية في الدفاع العسكري عن الكيان العربي هي في وجوده المطل على البحر المتوسط.

ج ـ وكذلك ممايزيد من اهمية البحر المتوسط بالنسبة للبلاد العربية باعتباره بحرا مقفلا او شبه بحيرة هائلة مقفلة: ان هذه الدول تتحكم بمداخله ومخارجه، من ناحية الشرق عن طريق تحكمها في مضيق باب المندب الذي يتحكم في البحر الاحمر من تلك الناحية ومضيق هرمز الذي يتحكم بوسائل المواصلات بين الخليج العربي وخليج عمان ثم الى البحر الاحمر.

٤ ـ كما ان للبحر المتوسط اهميته البالغة بالنسبة للبلاد العربية التي لاتقع على شواطئه بطريقة مباشرة فمثل هذه الدول تكاد تعتبره شريان الحياة بالنسبة لها، والبلاد العربية البترولية ـ على سبيل المثال ـ تصدر نفطها من منابعه عن طريق خطوط الانابيب على الشاطئ الشرقي او الى مناطق متعددة من الشاطئ الجنوبي له. كما يعتبر البحر المتوسط "الجسر" الذي تمر عبره ناقلات البترول من الخليج العربي وشمال افريقيا الى مناطق الاستهلاك في الغرب الاوروبي عبر قناة السويس او عن طريق الانابيب "سوميد" الواصل بين البحر الاحمر الى البحر المتوسط مباشرة.

٥ ـ من ناحية اخرى فانه اذا اعتبرنا ان خط الجزر قبرص ـ كريت ـ صقلية ـ ومالطة ـ كورسيكا ـ وسردينيا ـ البليار يقسم البحر المتوسط بالعرض الى قسمين شمالي وجنوبي، فيمكننا القول بأن الدول العربية تتحكم او يمكنها ان تتحكم في الجزء الجنوبي للبحر المتوسط، الا انه من ناحية اخرى فان النظرة الى تضاريس وتكوينات الشواطئ العربية الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط تسمح باكتشاف ان تلك الشواطئ العربية الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط منبسطة واكثر استواء واقل تعاريج من الشواطئ الاوروبية ومن ثم فانها غير قابلة للدفاع عن نفسها الا بصعوبة خاصة اذا اخذنا في اعتبارنا انها لاتحميها سلسلة من الجبال كما هو حال الشواطئ الاوروبية التي تحميها سلسلة من الجبال تمتد من الغرب الى الشرق شاملة جبال سيرانفياد وجبال البرانس وجبال كنتيريان في شبه جزيرة ايبيريا ثم جبال الألب وابنين ونبرس في كل من ايطاليا واليونان وجبال البلقان حتى تكتمل السلسلة بجبال طوروس في تركيا في الشرق. هذا الحال على الشواطئ الاوروبية للبحر المتوسط غير موجود بالنسبة للاستمرارية الجبلية التي تتكون احدى حلقاتها في جبال الاطلس في المغرب العربي ثم تفتقد الاستمرارية على طوال الشواطئ الجنوبية والشرقية للبحر المتوسط هذا بخلاف الشواطئ الاوربية التي تجد نفسها في موقف أكثر صلابة وأكثر قدرة للحماية الذاتية.

٢ ـ أهمية منطقة البحر الاحمر والخليج العربي للأمن القومي العربي:

منطقة البحر الاحمر والخليج العربي يجب النظر اليها على انها مياه عربية ومنع اي وجود غير عربي في تلك المناطق بقوة وحزم. تزداد خطورة البحر الاحمر والخليج العربي بالنسبة للامن العربي اذا أخذنا في الاعتبار ما يلي:

ا ـ ان كلا من البحر الاحمر والخليج العربي يمثل حرية ممتدة في وسط الجسد العربي قابلة لأن تكون نقطة انطلاق لتفتيت الكيان السياسي والامتداد الاقليمي للقارة العربية.

ب ـ ان البحر الاحمر من خلال خليجي العقبة والسويس يسمح بشطر الوطن العربي الى قسمين خاصة اذا اخذنا في الاعتبار ان خليج العقبة يبلغ عرضه (١٢) الى (١٧) ميلا وطول سواحله (٢٣٠) ميلا يمتد (١٢٥) ميلا في مصر و(٩٥) ميلا في السعودية و(٤) أميال في الاراضي العربية التي تحتلها اسرائيل.

ج ـ ان الخليج العربي قادر على تهديد الجناح الشرقي للوطن العربي وبدرجات ليست اقل خطورة من البحر لاحمر.

د ـ كذلك اذا نظرنا الى طبيعة البحر الاحمر نجد انه عبارة عن منخفض يفصل بين كتلتين من القشرة الارضية تقعان داخل القارة العربية بشقيها الآسيوي والافريقي، ومن ثم فمن الضروري منع اي قوة من السيطرة عليه.

هـ ـ ان كلا من البحر الاحمر والخليج العربي يمثلان كماشة هائلة تضم بين فكيها منابع البترول العربي الرئيسة رمن ثم فان سيطرة اي قوة عليها تشكل تهديدا للأمن القومي العربي.

و ـ ومن ناحية اخرى فان تحقيق عروبة تاريخية للبحر الاحمر سوف يعود بميزات عسكرية واقتصادية وسياسية لصالح الطرف العربي في اطار الصراع العربي الصهيوني.

فمن الناحية العسكرية لايمكن ان ننسى الدور الهام الذي قام به اغلاق باب المندب في جنوب البحر الاحمر خلال حرب عام ١٩٧٣ مع اسرائيل.

ومن الناحية الاقتصادية: فان السيطرة العربية على باب المندب والبحر الاحمر وتحويله الى بحر عربي يقلل من اهمية (ايلات) وخاصة بعد التكاليف الباهظة التي تكلفتها اسرائيل في انشاء خط الانابيب من ايلات الى عسقلان، وكذلك في تمهيد الخط البري بين ايلات وشمال اسرائيل و ذلك يضعف السيطرة العربية على البحر الاحمر ودول جنوب آسيا والشرق الاقصى ودول المحيط الهادي.

ومن الناحية السياسية: فان السيطرة العربية على البحر الاحمر تجعل تكاتف الجهود العربية لانهاء النزاعات الدولية والصراعات في منطقة البحر الاحمر مسألة مهمة.

ز ـ واخيرا اذا نظرنا للبحر الاحمر كطريق نجد انه يتميز بموقعه الوسط بين البحار الشرقية والغربية بصفة عامة، والبحر المتوسط والمحيط الهادي بصفة خاصة، فالبحر الاحمر يمتد كما لو كان جسراً عائماً بين الخليج العربي والمحيط الهندي والبحر المتوسط*

* انظر مجلة البيادر المقدسية، العددان ٣٥٤، ٣٥٦ حزيران ١٩٨٩، زاوية دراسات، بقلم الدكتور كمال محمد: المحاضر في الجامعة الاسلامية في غزة

الملك فيصل الاول بين المطالب الوطنية والضغوط الانكليزية

لايزال البعض ممن لم يطلعوا على وثائق تاريخ العراق المعاصر، او ممن يندفعون وراء العواطف الوطنية، دون ان يأخذوا بنظر الاعتبار الظروف المحلية والدولية التي رافقت حكم الملك فيصل الاول، يرون ان هذا الملك لم يحقق شيئاً للعراق، بل كان منفذاً للسياسة البريطانية في العراق والوطن العربي.

هذه الاراء تتهافت امام الحقائق التي تقدمها الوثائق المتعلقة بفترة حكم الملك فيصل (١٩٢١ ـ ١٩٣٣) والتي تبين بشكل واضح انه كان ذا رأي تحسب بريطانيا حسابه، عند كل خطوة تخطوها في العراق، وانه كان رجل دولة له فلسفته الخاصة بالحكم، صاغها من خلال الظروف المحلية والدولية، ومما توفر عليه من تجارب اثناء حكمه في بلاد الشام (١٩١٨ ـ ١٩٢٠)، وتعامله مع القوى العظمى، كان سياسياً بارعاً، على إطلاع واسع بالتيارات السياسية فضلاً عن نظراته العميقة في القضايا الاقتصادية والاجتماعية، والاسس اللازمة لقيام دولة راسخة الاركان قادرة على استيعاب المبادئ والافكار الجديدة التي ترقى بها الى مصاف الدول المتطورة.

واذا كانت افكار الملك فيصل السياسية لم تعد خافية على القارئ العربي، بفضل الدراسات والوثائق التي نشرت في السنوات القليلة الماضية، فان الشئ الذي بحاجة الى تسليط الضوء عليه هو افكاره الاقتصادية وخططه ومشروعاته لمعالجة المشكلات الاقتصادية في العراق، والكفيلة ببناء العراق المزدهر، ورفع المستوى المعاشي للجماهير وتوفير الموارد المالية الدائمة الضرورية للدولة الناشئة، وخاصة في بلد مثل العراق، يملك طاقات وامكانات كثيرة لم تُستغل بعد الاستغلال الامثل.

شخّص الملك فيصل مشكلات العراق الاقتصادية منذ تنصيبه ملكاً في ٢٣ آب ١٩٢١. فقد قال في خطاب التتويج:

«كانت هذه البلاد في القرون الخالية، مهد المدنية والعمران ومركز العلم والعرفان. فاصبحت بما نالها من الخطوب والحوادث، خالية من اسباب الراحة والسعادة. فقد فيها الأمن وسادت الفوضى، وقل العمل، وتغلبت الطبيعة وغارت مياه الرافدين في بطون البحار. فاقفرت الارض بعد ان كانت يانعة نظرة، وطفت القفار على المعمور، واصبحت المدن التي قويت على مقارعة النائبات اشبه شئ بواحات واسعة. فنحن الان تجاه هذه الحقيقة المؤلمة، ولايجدر بشعب يريد النهوض، الا ان يعترف بهذه الحقائق»[١].



نوري عبد الحميد خليل

كلية التربية الاولى ـ جامعة بغداد

وراح بعد التتويج يعمل بجد على ايجاد الحلول لهذه المشكلات، ويحث الوزراء والمسؤولين اثناء زياراته التفقدية لمختلف مناطق البلاد، ومن خلال خطب العرش التي كان يفتتح بها مجلس الامة، بين ١٩٢٤ و ١٩٢٩ على السعي الحثيث الى وجوب:

١ ـ النهوض بالزراعة، واقامة مشاريع متطورة للري، ومحاربة الافات الطبيعية من فيضانات وجراد،وانشاء مصرف زراعي، وتنظيم شؤون الاوقاف.

٢ ـ اقامة صناعة وطنية والبدء باستثمار كنوز العراق وخاصة النفط.

٣ ـ ربط انحاء العراق بطرق مواصلات حديثة وخاصة سكك الحديد لزيادة تماسك الشعب، وتسهيل اتصال العراق بالخارج وتنشيط التجارة.

٤ ـ زيادة موارد الدولة وتنظيم الضرائب، والاقتصاد في النفقات ووضع عملة وطنية وانشاء المصارف.

٥ ـ الاهتمام بالمشروعات الخدمية والحضارية، من تنوير وماء صالح للشرب وتلفونات ومستشفيات ومدارس وغيرها.

وقد ظهرت هذه التوجيهات في كل مناهج الوزارات الاحدى عشرة التي تشكلت في تلك الفترة. واستعانت الحكومة بعدد من خبراء الاقتصاد والمال الانكليز للمساعدة في ايجاد الحلول لمشكلات العراق الاقتصادية، ودراسة المشاريع المقترحة" التي تم انجاز العديد منها في السنوات التسع الاولى من حكمه.

اما الفترة التالية (١٩٣٠ ـ ١٩٣٣) من حكمه فتعد انموذجاً للتدليل على عمق اراء الملك الاقتصادية. فلقد بلغ في تلك الفترة قمة مجده السياسي وحصل على خبرة واسعة في شؤون العراق، وكيفية التعامل مع الدولة المنتدبة، الساعية لتسخير امكانات العراق لخدمة مصالحها، وجعله سوقاً لتصريف بضائعها، ومصدراً للمواد الاولية لمصالحها. وعرف العراق في تلك الفترة تحولات سياسية واقتصادية خطيرة.

داخلياً، وعلى الرغم من رسوخ كيان العراق، فان القادة السياسيين كانوا يتصارعون على السلطة. وكانت الحركة الوطنية رغم تفككها وضعفها تشهد بداية تنظيمها على اسس جديدة وواضحة. كان القاسم المشترك الذي يجمعها ويوحدها هو شجب معاهدة ١٩٣٠ التي (استبدلت الانتداب الوقتي باحتلال دائم") كما عبّرت عنه في الصحافة وفي المجلس النيابي.

سارت خطوات عقد المعاهدة وابرامها جنباً الى جنب مع المفاوضات بين الحكومة وشركة نفط العراق لتعديل اتفاقية ١٩٢٥، ومع الخطوات المتخذة لادخال العراق عضواً في عصبة الامم باعتباره دولة مستقلة. وكانت القوى الوطنية والقومية تضغط على الملك فيصل

ليعمل على تحرير سوريا من الانتداب الفرنسي، وان يحقق لها ماسيناله العراق، تمهيداً لاقامة الاتحاد المنشود بين البلدين، ومع بقية الاقطار العربية. والتعجيل باستثمار النفط لتوفير المبالغ اللازمة لاقامة جيش قوي قادر على حماية هذه الثروة من تكالب القوى الاجنبية، وصيانة استقلال البلاد، وتحقيق الاماني القومية، وخاصة فيما يتعلق بقضية فلسطين، ومد السكك الحديد الى حيفا لربط العراق بالبحر المتوسط لتمتين الروابط القومية بين العراق والاردن وفلسطين، وتسهيل مهمة الاتصال بسوريا ومصر والحجاز، واتخاذ حيفا ميناءً حراً للعراق، لايجاد منافذ واسواق لمنتوجاته».

كانت الاخطار الخارجية هي الاخرى متعددة ومتشابكة فالانتداب الفرنسي الذي ظل جاثماً على سوريا، كان يثير الصعوبات امام العراق بتحريض العشائر ضده. يساعده في ذلك عدم تخطيط الحدود بين البلدين بشكل نهائي. وفي الشمال ظلت مشكلة الموصل ماثلة امام الاعيان، وتركيا تطالب بحصة من نفط الموصل، ويزيد من خطورة الوضع تحرك بعض العشائر الكردية في المنطقة بتحريض من بريطانيا لاشعار الملك فيصل بضرورة تواجدها في العراق.

وعلى الصعيد الاقتصادي عرف العراق ازمة خانقة، هي امتداد للازمة الاقتصادية العالمية. فتدهورت اسعار حاصلاته الزراعية، وازداد العجز في ميزانيته حتى اضطر مجلس الوزراء اواخر ١٩٣٠ الى اتخاذ قرار بتخفيض رواتب الموظفين والاستغناء عن عدد منهم وزيادة الضرائب والرسوم. وفي العام التالي باشرت الحكومة بوضع الخطط بصورة جدية لتطوير الزراعة مع اعطاء اولوية لمشاريع الري الكبرى، وذلك بصدور قانون ميزانية الاعمال العمرانية للسنوات الخمس (١٩٣١ - ١٩٣٥) بتوجيه من الملك فيصل والتي ركزت على مشروعي الحبانية والغراف اللذين اعارهما الملك اهتماماً خاصاً. وكذلك مباشرة الحكومة بايجاد عملة وطنية خاصة بالعراق.

وفي عام ١٩٣٠ حدد الملك فيصل الخطوط العامة لسياسته الاقتصادية والمالية الرامية الى انقاذ العراق من الازمة الاقتصادية والبدء بتطور امكاناته عبر خطوات مبرمجة ومدروسة. فشخّص اسباب المشكلة ووضع الحلول لها وفق تصوره، وبعد ان استطلع اراء عدد من خبراء الاقتصاد والمال الغربيين. صاغها في مذكرة طويلة (٢٥ صفحة) كتبها لتكون نبراساً تهتدي بها الحكومات المتعاقبة والمعنيون في الشؤون الاقتصادية.

وسواء اكانت هذه المذكرة قد كتبت من قبل الملك نفسه او كتبها له آخرون (بعض المطلعين يرى ان رستم حيدر هو الذي كان يكتب مثل هذه المذكرات الملك فيصل)، فانها تنم عن فهم عميق لمشاكل العراق الاقتصادية وعن تصور اقتصادي واضح وشامل تغلفه براعة سياسية. قال الملك فيصل في بداية مذكرته:

«فكرت اثناء سياحتي الاخيرة في اوربا في درس الوضع الاقتصادي العالمي، وتحادثت مع من سنحت الفرصة بمقابلته من كبار رجال الاقتصاد والمال في تلك الاقطار، من اجل الحصول على راي واضح مهما امكن لمعالجة الكارثة في بلادي المحبوبة. وفي هذه المحادثات، واثناء التدقيق الذي قمت به تبين لدي ان سياسة الدول الاقتصادية سائرة هناك على خطة واحدة، هي باختصار العمل المتواصل للاكتفاء بما ينتجه كل قطر من المنتجات، والسعي لسد الباب في وجه المنتوجات الاجنبية والاهتمام بغزو اسواق البلدان الاخرى بالبضائع.. بعد ان درست الحالة الاقتصادية هناك، وقستها مع حالتنا، رايت من المفيد ان ادونها واتلوها عليكم علّها تكون مفيدة لوطني المحبوب».

وبعد ان يستعرض الملك السياسة الدولية القائمة على التنافس بين الدول الكبرى، يشير الى انّ التوجه العام في المانيا وايطاليا لايجاد المستعمرات، يقوم منشأه على ايجاد اسواق لتصريف منتوجاتها. وان (الامم الغرلاء) وخاصة الامم الشرقية، ستقع ضحية لهذا التنافس، لان اسواقها تعتمد على البضائع الاجنبية لسد حاجة سكانها. وان الشركات الاحتكارية تدفع حكوماتها الى تلك السياسة، ويضرب لذلك مثلاً:

«غارة الامريكيين على سوق السيارات الاوربي وانتشار معامل فورد في القارتين الاوربية والاسيوية لصنع السيارات فيهما. فهذه المعامل الصناعية اشبه في غزوها الاسواق بالقواعد الحربية. وفي النتيجة لافرق بين قواعد الغزو الصناعية وبين القواعد العسكرية، التي تتخذها الامم عادة للاستيلاء على ممالك غيرها. اذ ان القصد من كلتا الحالتين هو السيطرة المالية سواء اكان ذلك بالاستيلاء العسكري ام التجاري».

تركز مذكرة الملك على نقطة جوهرية وهي ان الاستقلال السياسي لايكون تاماً اذا لم يصاحبه استقلال اقتصادي. وهذا لايتحقق الا بسياسة الاكتفاء الذاتي وان تعمل الامة على تنويع مصادر دخلها، وعدم الاقتصار على الزراعة وحدها.

«والبلاد التي تنتج المواد الزراعية

الابتدائية فقط ستحرم من الاسواق، لانها لاتتمكن من الحصول على اثمان توازي كلفة انتاجها (وسوقها) الى الاسواق، ورسوم الجمارك ، بينما هي في عين الوقت تستورد احتياجاتها من الخارج ومن المؤلم ان تكون بلادي من ضمن الممالك الزراعية التي اشرت اليها.»

لكن الملك يهون من هذه النظرة المتشائمة بقوله:

«ان للعراق املاً كبيراً في الحياة لوفرة كنوزه الارضية، وله مورد رزق يتمكن ان يعيش وتدوم حياته ، الى ان يصبح قادراً على النهوض، فلديه النفط فاذا تمكن من الاستفادة منه توصل ال سد رمقه الى ان يلم شعثه».

ويحث الشعب على بذل الجهود ومواصلة العمل، وان يعي الاخطا ر المحيطة بالبلاد:

«على شعبي الباسل ان يدرك الخطر المحدق به ويعمل ليلاً ونهاراً بعزم... للسير على الخطط التي تسير عليها الامم الاخرى. واضعاً امامه الغاية المثلى الاوهي انتشال الوطن المقدس من هوة الافلاس والاضمحلال».

بعد هذه المقدمة الطويلة ،يمضي الملك فيصل في استعراض الأزمة الاقتصادية العالمية، محللاً جذورها واسبابها ونتائجها، وخاصة بالنسبة للعراق ويتنبأ باستمرارها لسنوات اخرى بقوله « لايحتمل ان تنجلي مهما تفاءلنا قبل مرور ثلاث سنين في الاقل .هذا اذا قمنا بالواجب الذي ثبته في المقدمة» وهو تنبؤ اثبت الواقع صحته ودل على عمق في التفكير ودقة في التحليل.

ويناشد العراقيين حكومة وشعباً ،القيام بما يتوجب عليهم لتلافي الازمة الخطيرة:

«على العراق حكومة وشعباً ان يسهر على انعاش الصناعات ... وعلى رجال السياسة والمال ان ينظموا خططهم، ويوحدوا جهودهم بمساعدة الحكومة لانقاذ البلاد من الكارثة العظمى، بكل مالديهم من الحزم والعزم. وهذا السبيل وحده هو الذي يكفل لنا مركزاً اقتصادياً قوياً بين الشعوب، ويحقق امالنا واماننا المقبلة».

ان العلاج ليس بيد الحكومة وحدها، كما يراه الملك ،بل ان المعالجة الصحيحة لاتاتي «الا عن طريق التآزر بين الحكومة والشعب، لانعاش الحالة».

فيما يتعلق بالحكومة فان اول واجباتها هي تحديد الانفاق، ومنع الاسراف والتبذير، وان تقوم بواجبها بكفاءة عالية وشعور بالمسؤولية.

«فالدولة المستقلة المتمدنة يجب ان تكون تامة التشكيل والتنظيم في جميع فروع الادارة. وان يكون رجالها وموظفوها وجيشها وشرطتها قادرون من كل الوجوه على القيام بالواجبات الملقاة على عواتقهم..اما اذا كان التشكيل ناقصاً فنرى ان الشلل والارتباك يعم الادارة، كما هي الحال في معظم البلدان الشرقية.»

ويولي الملك في مذكراته قطاع الزراعة اهتماماً كبيراً، لان العراق قطر زراعي،تتوفر فيه اراض واسعة ومياه غزيرة فلابد من العمل على تطوير هذا القطاع ، لانه ركن اساسي من اركان الاقتصاد العراقي. وذلك بالاستفادة من الاراضي الزراعية الى اقصى حد ممكن واحياء ما اقفر منها وتشجيع زراعة المحاصيل القابلة للتصدير والضرورية لاقامة صناعة وطنية.

ويحث على حل مشكلة الاراضي واعادة النظر في ملكيتها ، والعمل عل تثبيتها واصدار قانون واجبات الزراع[١١] وتعيين محاكم لحسم الخلافات الناشئة بين المزارعين واصحاب الاراض، على الطريقة السائدة في ايطاليا والتي تحسم بموجبها المنازعات بين العمال واصحاب المصانع. وان تقوم الحكومة بمساعدة المزارعين مالياً وتخفيض ضريبة الارض الى ادنى حد ممكن او الغائها موقتاً. مع تخفيض اسعار الزيوت والنفط للمزارعين والاهتمام بتربية المواشي بتهيئة المراعي لها وتقليل الضرائب المفروضة عليها.

ويرى الملك ان تنظيم الري هو عماد الزراعة، وان فقدان مشاريع الارواء ادى الى هجرة السكان وانتقالهم ، خاصة بعد التحولات التي حدثت في مجاري دجلة والفرات.

«فاذا لم نقم بضبط جريان الانهر بصورة نهائية فلا زراعة ولا عمران ولاتشجير لدينا.. واجبنا ان نجتهد، ونضع برامج لايقل امدها عن خمسين سنة لانشاء القناطير والمبازل والجداول واصلاح الانهار». ومن المشروعات التي اكد عليها الملك في مذكرته خزان الحبانية وسدة الكوت ونهر الغراف وخزان عقرقوف وابي غريب وقزلرباط.

ومن واجب الحكومة ايضاً العمل على تطوير الصناعة ، كما ورد في المذكرة، لانها متممة للزراعة فان اقفر جانب يمكن التعويض عنه بالجانب الاخر، على ان يتم وضع برنامج محدد لانجاز حد ادنى من المشروعات الصناعية في كل عام. وتطوير مصانع الاقمشة

القائمة ومعامل الدباغة والصابون وتقديم المساعدة المالية والتسهيلات لها، لكي تصبح قادرة على سد حاجة الاسواق المحلية. ووضع الاسس لتشييد معامل السمنت والبلور (الزجاج) والورق والسكر وغيرها وحمايتها من المنافسة الاجنبية.

«بفرض ضرائب عالية على الوارد الاجنبي من الجهة الواحدة، ومن الاخرى تشتري الحكومة حاجياتها من تلك المعامل ترجيحاً على الغير.»

ويلفت الملك نظر الحكومة الى ضرورة الاهتمام بالمعادن والكشف عن كنوز العراق الدفينة مثل النفط والقير والذهب والفضة والحديد، بمساعدة الخبرة الاجنبية فالنفط هو:

«الكنز الثمين والخزانة التي لاتفنى والمورد العظيم الذي يجب ان تستند اليه البلاد، والركن الاساس لتثبيت ثروة وغناء المملكة. وعلى هذا الكنز الثمين استند بعد الله في تعمير بلادنا. وآمل بان هذا المورد يسد ماتتطلبه البلاد من المصاريف لحين نمو الزراعة والصناعة».

ويدعو الحكومة والشعب لحماية هذه الثروة فبسببها:

«يوجد خطر عظيم على البلاد، حيث كل عين شاخصة اليه، وكل يريد ان يقترب منه... فاذا لم يوضع على هذا الكنز سياج صعب من سواعد ابناء الوطن وصدورهم وعقولهم، فعليه وعلى الوطن باجمعه الخطر.»

ثم ينتقل الملك الى معالجة موضوع طرق المواصلات التي «هي العروق والشريانات التي يجري بواسطتها الرزق، وتنقل الحاصلات» فهي تقضي على العزلة، وتشد ابناء الوطن الواحد، وتقوي اتصال العراق بالعالم. ووجوب الاهتمام بالطرق الجوية والسكك الحديد، والعمل سريعاً على انجاز مشروع سكة حديد حيفا ـ بغداد ـ خانقين، وسكة حديد الموصل ـ حلب ـ استانبول، وسكك الحديد الداخلية:ـ

«فلاحياة ولاتقدم ولارخاء مالم ينشا الخط الاول وهو خط بغداد حيفا.. فهو العمود الفقري لتقدم العراق الاقتصادي والعمراني، وبانشائه يتخلص العراق من الحصار البحري... ويربطنا بالبحر المتوسط ومصر والحجاز وسوريا، كما انه سيربطنا بالاستانة واوربا.. ان الحبوب والغلال والمواد التجارية ستنتقل من العراق واليه بنصف الاثمان التي تنقل بها اليوم».

ويختتم الملك خططه ومقترحاته بالقول:

«تلك هي بعض الخطط الفرعية عن واجبات الحكومة، وضعتها لتكون اساساً للتدقيق والفحص من جانب الحكومة، ومن مفكري البلاد، عند وضع المنهاج الاقتصادي، لينفذ خلال سنين عديدة. ورجائي من رجال شعبي ان يقدموا آراءهم بشانها بصورة صريحة، خالية من الحب للنقد المجرد لاظهار النواقص فقط».

اما بشأن المبالغ التي يتطلبها تنفيذ هذه الخطط والمشروعات فقد خمنها الملك «بنحو سبعمائة وخمسين لك روبية (خمسة وسبعون مليون روبية) تصرف في ظرف عشر سنوات». وهذه المبالغ يمكن ايجادها من موارد النفط:

«فالاساس الذي يجب ان نعتني به هو تخصيص المبالغ التي تاتي من النفط للاعمال المثمرة فقط.»

ويقترح الملك في نهاية المذكرة تشكيل «مجلس اقتصادي اعلى» برئاسته وعضوية وزراء المالية و (المواصلات والاشغال) والري، او من ينوب عنهم. وستة اعضاء منتخبين احدهم من كبار التجار وآخرون من البيوت المالية، واثنان من كبار المزارعين، واثنان من كبار الصناعيين، مهمتهم الاشراف على تنفيذ هذا المنهاج. وينظر في طلبات الاهالي والاجانب للقيام بالمشاريع الصناعية والزراعية والتجارية، على ان يرتبط هذا المجلس بديوان مجلس الوزراء وتقترن قراراته بمصادقته. ويؤكد الملك على وجوب الاستعانة بالخبرة وراس المال الاجنبي لتنفيذ المنهاج.

ويبدو انه جرى تلكؤ في تنفيذ هذا المنهاج، وتعثر تنفيذ الكثير من المشروعات المقترحة، وحالت دون تنفيذها عوامل داخلية وخارجية ،يأتي في مقدمتها معارضة بريطانيا ومستشاروها المنبثون في الوزارات ومعظم الدوائر، وسعيهم دون تحقيق الكثير من المشروعات، بهدف ابقاء العراق سوقاً لتصريف بضائعهم. وبسبب مماطلة الشركات في استثمار النفط، هذا المصدر الذي وضع الملك فيصل كل آماله على موارده لتوفير رأس المال القادر على تحقيق برنامجه الاصلاحي كما رأينا في مذكرته.

ويظهر شعور الملك فيصل بالمرارة، من تعثر برامجه من قراءة مذكرته الثانية في ١٥ آذار ١٩٣٢ والتي كتبها بمناسبة دخول العراق

عصبة الامم وحصوله على الاستقلال، ومع ان المذكرة الجديدة ركزت على القضايا السياسية والاجتماعية والعسكرية غير ان الشؤون الاقتصادية اشغلت حيزاً كبيراً منها فقد جاء فيها [١١]:-

«ان مشكلة الارض ،وحلها سيربط الاهالي بالاراضي ،وهو ذومساس كبير بالشيوخ ونفوذهم، ولا لزوم للاسهاب بمنافعه، ويجب الاسراع بتطبيقه على قدر المستطاع. كما انه يجب ان لا يحس الشيوخ والاغوات بان قصد الحكومة محوهم».

ويضيف الملك الى ذلك قوله:

«اقول بكل اسف ان الزراعة افلست في بلادنا، بالنظر لبعد مملكتنا عن الاسواق. لقد وضعنا الملايين لانشاءات الري، ولكن ماذا نريد ان نعمل بالمحاصيل؟ اننا في الوقت الحاضر عاجزون عن تصريف ما بايدينا من منتوجات اراضينا، فكيف بنا بعد اتمام هذه المشروعات العظيمة؟ هل القصد تشكيل اهرامات من تلك المحاصيل الخام؟ ماذا تكون فائدتنا منها اذا لم نتمكن من اخراجها الى الاسواق الاجنبية او استهلاكها في الداخل على الاقل؟ ما الفائدة من صرف تلك الملايين قبل ان نهيئ لها اسواقاً تستهلكها، ونحن مضطرون الى جلب الكثير من حاجاتنا من الخارج.»

ثم يقترح اعادة النظر في الموقف الاقتصادي،والاقلاع عن السياسة الخاطئة والناشئة عن تقليد الامم الاخرى، بالاعتماد على البضائع الاجنبية وتحويل المجتمع الى مجتمع استهلاكي فقط:-

«علينا ان نساعد المتشبثين من ابناء الوطن بصورة عملية فعالة، وعلينا ان نعطي الانحصارات الى مدة معينة لابناء البلد الذين فيهم روح التشبث. واذا لم يظهر طالب او راغب لانشاء عمل صناعي ترى الحكومة انه مربح، فعليها ان تقوم به، ومن مالها الخاص او بالاشتراك مع رؤوس اموال وطنية، اذا امكن والا فاجنبية او كلاهما معاً. على الحكومة ان تشكل دائرة خاصة لدرس جميع المشاريع الصناعية على اختلاف انواعها... وترشد الاهلين الى كيفية التشبث بالاعمال الصغرى، وتقوم هي بالاعمال الكبرى، اذا تعذر القيام بها من قبل الاهالي. انه لمن المحزن والمضحك المبكي معاً ان نقوم بتشييد ابنية ضخمة بمصاريف باهظة، وطرق معبدة بملايين الروبيات، ولاننسى الاختلاسات، وتصرف اموال هذه الامة المسكينة التي لم تشاهد معملاً يصنع لها شيئا من حاجياتها. واني احب ان ارى معملاً لنسيج القطن، بدلاً من دار حكومة ، واود ان ارى معملاً للزجاج بدلاً من قصر ملكي».

الحق ان الملك لم يكتف بتسطير تلك الافكار بل عمل جاهداً لوضعها موضع التنفيذ فراح يمارس ضغطاً على شركات النفط بوجوب التخلي عن سياسة المماطلة والتسويف في استثمار النفط واخراجه الى الاسواق العالمية، للحصول على المبالغ اللازمة لتنفيذ هذه الخطط والمشروعات. وقد ادى تصلبه في ذلك الى اصطدامه بالسلطات البريطانية التي تدعم شركة نفط العراق، لحد جرى تبادل كتب التهديد والانذار بين البلاط ودار الاعتماد.

في ذلك الوقت كانت الشركة تفاوض الحكومة منذ عام ١٩٢٨ حول تعديل اتفاقية عام ١٩٢٥، بصورة تضمن لها سيطرة اكثر وارباحاً اكبر وتعمد الى إطالة المفاوضات الى اطول حد ممكن لتاجيل استثمار النفط. وفي اثناء المفاوضات التي جرت في لندن صيف ١٩٣٠ وافق نوري السعيد رئيس الوزراء على تلبية بعض مطالب الشركة مقابل اقناعها بالمباشرة بالانتاج، ومد الانبوب والسكة الحديد المقترحة الى حيفا. ومن بين المطالب التي تقدمت بها الشركة تخلي العراق عن حقه في فرض ضريبة على ارباح الشركة، التي نصت عليها المادة ٢٧ من الاتفاقية، بحجة ان الشركة لاتطمئن الى سياسة العراق المالية لان زيادة الضرائب في العراق لاتستند الى قواعد ثابتة وفيها قفزات كبيرة لم يعرفها التشريع المالي.

واضطر نوري السعيد الى التراجع عن موافقته على تعديل المادة ٢٧ بسبب معارضة الملك فيصل، وبعد ان دعا زعماء المعارضة وعدداً من المستقلين الى اجتماع عقده من ١٩ شباط ١٩٣١، واستطلع اراءهم في الموضوع. بيّن هولاء ان المادة ٢٧ ادخلت في نص الامتياز باشارة من الحكومة البريطانية نفسها، املاً في ان يحصل العراق على بعض الموارد من نفطه. وقد وقفت الاحزاب الوطنية وصحافتها ضد مطلب الشركة ، لانه يشكل تفريطاً بحقوق البلاد. واصرت على رضوخ الشركة للقانون[١٢].

ولاقناع الشركة قدم الملك فيصل عروضاً مقنعة تدل على افق واسع في التفكير، ورغبة صادقة في ضمان مصالح العراق، والتعامل وفق قواعد العدل والقوانين الدولية. عرض ان تعامل الشركة في موضوع الضريبة وفق الاسلوب المتبع في بريطانيا ومستعمراتها بشأن الشركات العاملة فيها، واعطاء الشركة الضمانات الكافية بان تعامل في العراق معاملة جيدة وبشكل غير مألوف حتى في البلدان الراقية. وبعدم فرض اية ضريبة عليها غير معقولة ، مما لايأتلف والتعامل الدولي. وابدى استعداده لقبول اية طريقة في هذا الخصوص قد تفرض باتفاق دولي[١٣].

ويعترف المندوب السامي البريطاني (فرنسيس همفريز) في برقيته لوزارة المستعمرات في الثاني من آذار ١٩٣١[١٤] بانه مارس ضغطاً شديداً على الحكومة العراقية، وعلى الملك فيصل، لحرفهم عن موقفهم المتشدد في ضمان مصلحة العراق:

«لقد شددت الحكومة العراقية بانهم تصرفوا بشكل غير منصف.. وان الامتياز الجديد يفي بكل رغباتهم المشروعة ومن الحماقة توقف المفاوضات بسبب المادة ٢٧، وابلغتهم انهم اذا عرضوا انفسهم لهذه المسؤولية الخطيرة فان حكم جميع المراقبين المنصفين سيكون ضدهم وانهم سيركبون بحراً من الاضطرابات دون مبرر».

وكان الملك فيصل قد تلقى انذاراً شديد اللهجة في الاول من آذار ١٩٣١ من دار الاعتماد جاء فيه:

«والآن لما كان قد حصل الاتفاق على هذه النقاط، فلا استطيع ان اصدق ان الحكومة ترفض فجاة قبول المادة المعدلة بخصوص فرض الضريبة، وتكون مستعدة لقطع المفاوضات ..انه من واجبي ان انذر بكل مالدي من عزم جلالتكم ، بانه اذا ضحت الحكومة بالجوهر من اجل العرض، وضربت بمصالح البلاد عرض الحائط (كذا) فانها عندما تعرف حقيقة وقائع القضية لامحالة، سوف تجلب ليس سخط كل ملاحظ غير مغرض في الخارج فحسب، بل وسخط كل وطني عاقل في العراق. وارى بعد امعان النظر ، انه اذا لم يلتفت الى هذه المشورة فان التبعة بكاملها سوف تقع على حكومة العراق.»

همفريز

لم يجد الملك فيصل بدأ من القبول بالامر الواقع، والتراجع عن موقفه على مضض. ويبدو عدم قناعته بهذا التدخل من الكتاب الذي بعث به الى دار الاعتماد في الخامس من آذار ١٩٣١[١٥] والذي قال فيه:

البلاط الملكي

بغداد

الرقم اي/١٦

٥ آذار ١٩٣١

عزيزي السر فرنسيس

كتابكم ١ آذار المتضمن مشورة فخامتكم الودية حول قضية النفط، والذي تحذروني فيه من النتائج السيئة فيما اذا لم يتم الاتفاق بيننا وبين الشركة.

اشكر لفخامتكم صراحتكم التامة في الملاحظات التي ابديتموها بخصوص تبعة قطع المفاوضات ، واني مع اخذها بعين الاعتبار ارغب في تقديم وجهة نظر حكومتي حول ذلك، مبيناً انه اذا كان هناك قطع في المفاوضات فتبعته تقع على الشركة وحدها طالما هي المطالبة بتعديل المادة ٢٧ بشكل لايتفق ومصلحة البلاد. في حين انها رفضت ما تقدمت الحكومة بعرضه عن طيبة خاطر من الضمانات التي تزيل مخاوفها المزعومة، واصرت على تكليفها غير المعقول والمجحف سياسياً ومالياً بمصالح البلاد ومنافعها. وحكومتي رغم انها لاترى موجباً لاثارة هذه المادة الان، وليس من المحتمل ان تثار قبل خمس او ست سنوات، فقد اقدمت نزولاً عند رغبة الشركة على تقديم ضمانات معقولة.

اني من غير المعقول ان اعارض فخامتكم فيما ذكرتموه عن قبول نوري باشا تعديل المادة ٢٧، احب ان اذكر ان مثل هذا القبول لايعد بموجب التعامل السياسي الدولي ملزماً ،بينما لاشك تعلمون فخامتكم ان نوري باشا قد اخبر السرجون كادمن (مدير الشركة) تحريرياً على اثر اخفاق المذاكرت الاولى بانه يحتفظ لنفسه الحرية الكاملة، وبانه غير ملزم باي قول سبق. ومن خصوص السرجون كادمن قبل قدومه الى بغداد لم يفاتح بشأن تعديل المادة ٢٧ فلا ادري هل يجب علينا ذلك ام كان الاولى بالسرجون وهو المطالب بالتعديل ان لايأتي الابعد ان يستوثق من حقيقة هذا الامر.

لاشك انكم تتذكرون انكم بلغتمونا راي حكومة صاحب الجلالة البريطانية في جعل قطع المفاوضات مناطاً بنا، وكانت قضية

السكك الحديدية على بساط البحث. ولا ادري ماذا كان يحصل فيما لو لم نقبل تكليف الشركة بمرور خطوط الانابيب من جنوب حديثة مثلاً او من درجة اربعين ونصف، وقطعنا المفاوضات بسبب ذلك. اكان يكون عملنا معقولاً لايستوجب الانتقاد ويجلب عطف العالم علينا؟ وان عدم قبولنا تعديل المادة ٢٧ بشكل مجحف يكون من الجرائم غير المغتفرة رغم تقدمنا بكل مالدينا من حسن نية لاعطاء الشركة الضمانات التي رغبت فيها: باننا سوف نعاملها معاملة غير مألوفة في البلدان الراقية وذلك فيما اذا حصل خلاف في المستقبل على مدلول المادة ٢٧. ولابد تذكرون كذلك انكم في احدى الجلسات اشرتم الى وجوب تقديم مقاولة مرضية لمجلس الامة، وطلبتم الينا اتخاذ كل احتياط في عدم التفريط بما نراه مفيداً لها وكاملاً لحقوقنا، ومن اجل ذلك فانه لما كنا نرى ان لهذه المادة مساساً عظيماً بحقوقنا السياسية والمالية، راينا وفقاً لنصيحتكم، وما شعرنا به من واجب، وما الهمتنا به ضمائرنا ان نتمسك بحقوقنا.

اشارك فخامتكم القول بان المواد التي تم الاتفاق عليها كانت مرضية الى حد ما، وتكفل بقدر المستطاع حقوق الطرفين ومنافعهما، لكن المادة ٢٧ لا علاقة لها بما كان قد تم الاتفاق عليه. ولذلك اذا كانت الشركة مصرة على التمسك باقتراحها وانقطعت المذكرات فليس هناك شك بان التبعة تترتب على الشركة. ان حكومتي لاتزال للان على استعدادها لاعطاء الضمانات التي تؤمن تخوفات الشركة المشروعة.

اما بخصوص المنافع التي سيجنيها كل من الفريقين، فان صفقة الشركة منها اربح اذ انها بموجب ما اتفق عليه نالت اكثر مما تمنت باعطاء الحكومة لها اوسع واغنى منطقة نفطية في العالم، بينما الذي نالته الحكومة، مع عدم بخسه حقه، لايزن محصول الشركة. لذلك اذا كانت هذه ترغب ان تطلب اكثر مما نالت، وبوجوب تضحية جديدة من جانب الحكومة فيتحتم عليها بداهة ان تتقدم بالتعويض.

اعتقد اننا تساهلنا جداً مع الشركة وقمنا بخلاف ما قطعنا على انفسنا للعالم من اتباع سياسة الباب المفتوح. اذ كلنا يعلم بان الشئ الذي عملنا بالفعل بسد الباب المفتوح في وجه الطالبين. اذ لايخفى على فخامتكم ان النفط يكاد ينحصر في شرقي الدجلة. وتستُّرنا بترك غرب الدجلة حراً لاستثمار الغير لايُقينا من توجيه الانتقاد، ولا ادري اذا كان هناك كمية من النفط تبرر الصرف على مد الانابيب. فهل للشركة ان تقدر هذه التضحية من جانب حكومتي؟

ولايسعني الا ان ابدي ملاحظتي على عبارة فخامتكم الاخيرة من كتابكم معرباً عن شكري لمشورتكم الودية، ملتمساً العذر على مانحن عليه من حالة قد لاتمكننا من التمييز بين النفع والضر. ولكننا بالرغم من ذلك لا لوم علينا لاننا لم نقدم على الامر موضوع البحث الا بسائق الاخلاص والقناعة بما تراءى لنا عدلاً وانصافاً. واتذكر انني في نفس الموقف من سلفكم فخامة السر هنري دوبس وقد اعطينا الامتياز سنة ١٩٢٥. ولا اجد من داعي في الوقت الحاضر الى العتاب طالما رائدنا المشترك الخير والنفع لهذه البلاد.

فيصل

الهوامش

١ ـ السيد عبدالرزاق الحسني، تاريخ الوزارات ط٤ ١/٥١.

٢ ـ عن هذه الخطب والناهج انظر الحسني، المصدر نفسه الجزئين الاول والثاني

٣ ـ عبدالامير الحكام، الحركة الوطنية في العراق (النجف ١٩٧٢) ص٢٤٥

٤ ـ نوري عبدالحميد خليل، شركةنفط العراق ومشروع الاتحاد العربي المشبوه(١٩٣٠ ـ ١٩٣١) مجلة النفط والتنمية تشرين الاول ١٩٨٠

٥ ـ مذكرات طه الهاشمي (بيروت ١٩٦٧) ١/١٠١.

٦ ـ (61 — 24—21 British Report(1930)(P مجلس النواب (اجتماع ١٩٣٠) ص١٢٩، ٢٤٩

٧ ـ اسماعيل نوري الربيعي، تاريخ العراق الاقتصادي ١٩٢١ ـ ١٩٣٢ رسالة ماجستير غير منشورة كلية التربية الاولى ١٩٨٩ ص٧٢، ١٨٦.

٨ ـ الربيعي المصدر نفسه ص١٧٠.

٩ ـ ملحوضات اقتصادية وضعها الملك فيصل في العام ١٩٣٠، د.ك.و. ملفات البلاط الملكي. الملف ١٤١٢/٣١١، الاوراق ٤ ـ ٢٧.

١٠ ـ شرعت الحكومة سنة ١٩٣٠ بسن لائحة (قانون حقوق الزراع وواجباتهم)

١١ ـ نص المذكرة في كتاب الحسني، تاريخ العراق السياسي الحديث ط٦ ج١/٩ ـ ١٦.

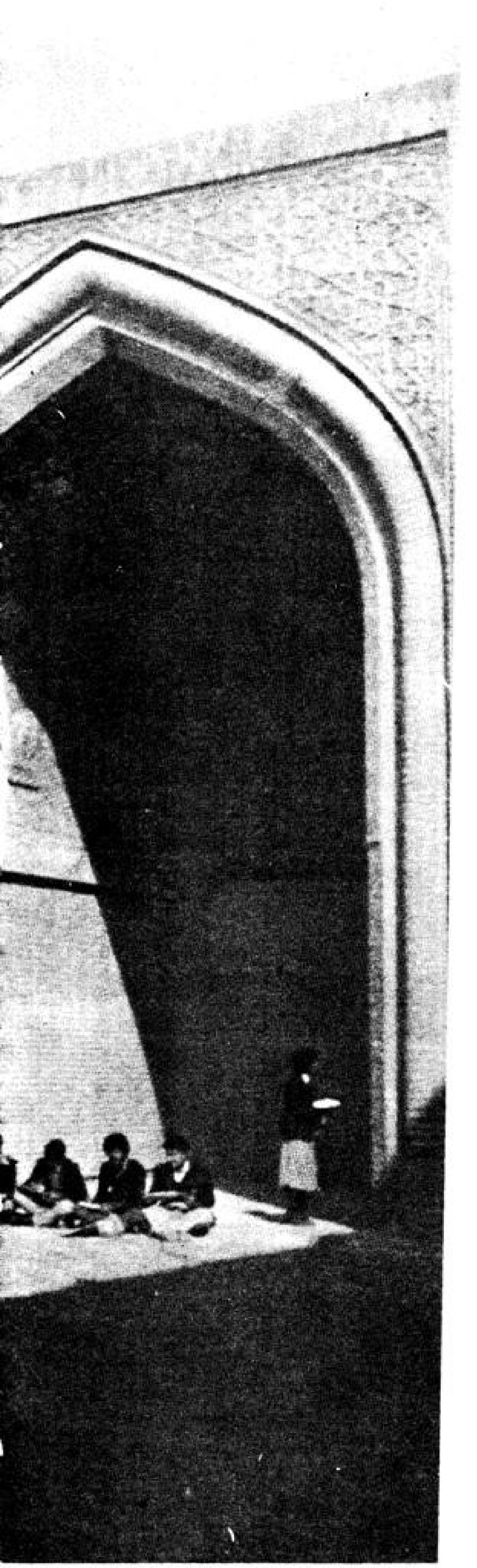
١٢ ـ خليل، التاريخ السياسي ص٣٠٢ ـ ٣٠٤

١٣ ـ نفسه، ص ٣٠٥

١٤ ـ FO.371/15305/E1105 P.R.O

١٥ ـ ملفات الملك فيصل الاول د/١/١/١٩٣١ (المخابرات مع المعتمد السامي ونسخة اخرى من الملف ص/٣/٢ ١٩٣١ د.ك.و. ونسخة من وثائق مجلس الوزراء الملف ٣/ ١٩٣٠ ـ ١٩٣٥.

١٦ ـ وثائق مجلس الوزراء الملف ٣/ ١٩٣٠ ـ ١٩٣٥ ونسخة اخرى في د.ك.و الملف ص/٣/٢ ١٩٣١.



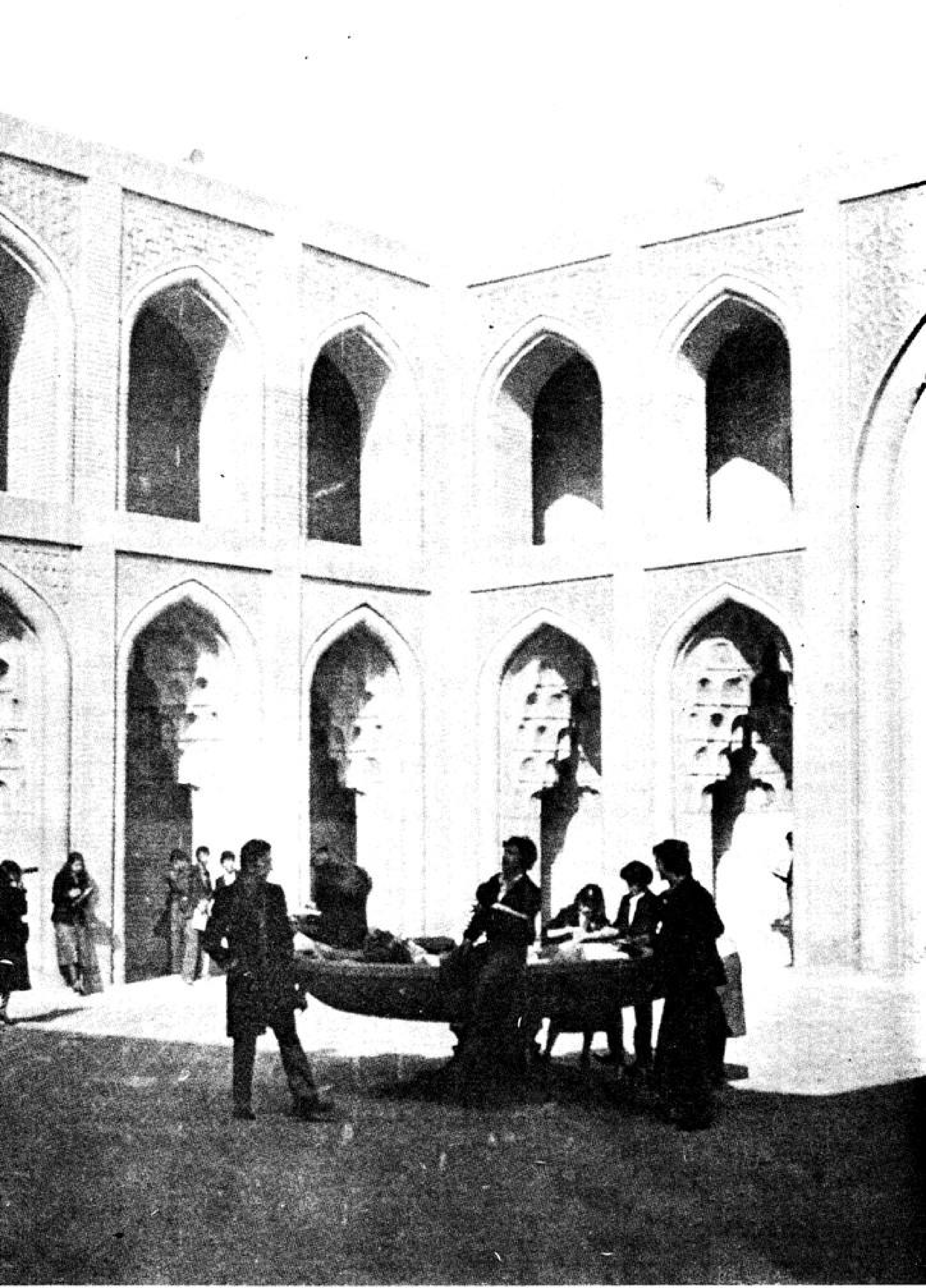
وحدة الحضارة العربية

د. عادل عبد الحسين شكارة

كلية الآداب - جامعة بغداد

الحضارة العربية حضارة أصيلة، لها جذور ومنطلقات ذاتية المولد والنشأة، وان احتضانها لبعض المظاهر الحضارية لم يكن بصيغة الاقتباس او التقليد وانما بصيغة القدرة على الاستيعاب بسبب نزعتها الى الافادة من مصادر الفكر الانساني.

وعندما جاء الاسلام عمل على تنقية الحياة الفكرية العربية وشرع يدعو الى استخدام العقل والتأمل في مظاهر الكون والاصرار على طلب العلم بحيث صارت العقيدة الاسلامية القاعدة التي ينطلق منها التفكير العربي الاسلامي



اولا نمط الحضارة العربية :

ان النظم التي يعيش وفقها الناس او يفكرون بمقتضاها تسمى (الانماط الحضارية) فالحضارة هي الاسلوب المعيشي والفكري الذي تسير على نمطه جماعة من الجماعات[1]. ووحدة الحضارة العربية تبدو من خلال النمط الموحد المتمثل في ادواتها المادية والنظم والعقائد والفنون وغيرها وهي عوامل اساسية في تكوين الحضارة .

ان هذه الادوات او الانماط الحضارية التي ترتبط بالعادات والتقاليد والافكار واللغة وانماط السلوك تكون عامة ومشتركة في الحضارة الواحدة وتعد من ادوات الوحدة الحضارية في المجتمع العربي، وهي تعكس في الوقت نفسه طريقة الامة في التعبير عن ذاتها وهي حاضرة في مختلف جوانب حياتنا[2].

لقد اكد الباحثون اهمية هذه الادوات الحضارية في تكوين الحضارة داخل المجتمع. وقوة المجتمع وتماسكه يعتمدان بالاساس على قوة ووضوح الانماط الحضارية؛ ومما ساعد على الوحدة والتماسك فيما يتصل بالعرب ميل الانسان العربي الى العيش مع ذويه واقاربه بالرحم من جهة والارض المشتركة من جهة اخرى مما دفعه الى تكثيف روح التعاون في سبيل مجتمعه وامته الى جانب حاجة المجتمع الى سلطة ونظام يعززان الوحدةوالدفاع عن امته واستقراره ضد اي عدوان، وكل هذه الامور ساعدت على وحدة الروابط الاجتماعية بفعل الانماط الحضارية العربية .

واذا اردنا استعراض الانماط والادوات الحضارية التي لها الفضل في تعزيز الوحدة الحضارية في الوطن العربي، نجدها متمثلة فيما يأتي[3]:

١ ـ الوحدة الحضارية المتمثلة في العادات والفنون والفضائل الاجتماعية والقوانين وانواع التنظيم :

إن مقومات الحضارة العربية المتمثلة بالعادات والاعراف والتقاليد العربية العريقة ساعدت على بلورة سلوك اجتماعي معين والاطمئنان لهذه العادات، والتقاليد ونقلها من جيل الى اخر مع المحافظة على روحها بالفلولكلور منها يُعد ذخيرة تنبع من اعمق مصادر الحياة الاجتماعية وتنقل من جيل الى اخر. اما الاخلاق والفضائل الاجتماعية الموحدة فلها دورها في تعزيز الوحدة الحضارية العربية لانها عبارة عن قيم ومعان يجد ابناء المجتمع فيها ضميرهم وصلاحهم.

اما اذا رجعنا الى الشرائع والقوانين الوضعية، ودورها في الوحدة الحضارية فاننا نجدها متمثلة في روح التعاليم الدينية من جهة وما اتفق عليه المجتمع من عادات واعراف وتقاليد تعمل على وحدة المجتمع وضمان استقراره وأمنه.

تتجلى وحدة التنظيم الحضاري في الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية، حيث نجد في الجوانب السياسية مايتعلق بشؤون الحكم والادارة، في حين ان النسب والجوار واللغة ، هي التي تمثل الروابط الاجتماعية. اما الجوانب الاقتصادية فنجدها تتمثل في الادوات الحضارية المتعلقة في الانتاج واستثماره[4]..

٢ ـ الدين :

لقد كان اثر القرآن الكريم في حياة العرب ووحدتهم كبيراً، وقد شكل في عهد التدهور الاجتماعي والمرحلة الاستعمارية درعاً واقياً للامة العربية يحفظ شخصيتها وعبقريتها اللغوية من الضياع ويحافظ على روحها المتوثبة حتى في اصعب الملمات في التاريخ العربي.

٣ ـ اللغة والكتابة :

اذا نظرنا الى حياة العرب قبل الاسلام نلاحظ ظاهرة بارزة الا وهي الثروة اللغوية التي تميز بها اللسان العربي والشعر الذي بلغ عصره الذهبي مع (المعلقات العشر).

ان الامة العربية عبرت عن وحدتها خلال المراحل التاريخية وعن عبقريتها في لسانها اولغتها ونستطيع ان ندرك ذلك المستوى من البلاغة والايجاز في لغة القرآن، وهي اصالة عبرت عن عبقرية الامة وشخصيتها في المرحلة الجديدة[5].

اما الكتابة فهي الاداة الحضارية التي تصل بين افراد المجتمع العربي وتربط المجتمع بسواه من المجتمعات وتسهل التبادل والتعامل وانها تيسر سبل انضباطه الفكري وتفتحه وتساعد على نموه، وهي تحفظ التراث العربي وتتيح انتقاله وتراكمه عبر الاجيال، ولهذا يعتبر الباحثون الكتابة واللغة مظهرين او اداتين من ادوات وحدة الحضارة[7].

٤ ـ الاداب والفنون :

يشكل الادب الجانب الفكري والعاطفي والوجداني الموحد للامة العربية وان نصوصه من شعر وأدب كانت تعني تجارب الحياة الموحدة واحوال الامة الموحدة وصور مراحلها التاريخية الموحدة خلال المراحل التاريخية[8].

كما ان الحضارة العربية في مجال الفنون لها شأنها البارز

المتمثل في تحفها واثارها والصناعات الموروثة (مثل الحياكة والانسجة ونقش الفضة وغيرها). ويمكن ان تدخل في هذا المجال المظاهر الموحدة في فنون المأكل والملبس والمخالطة والمحادثة حيث تعد هذه الأدوات وجودها وديمومتها[٩] وان اختلاف الحضارة العربية عن الحضارات في مجتمعات اخرى يعود اصلاً الى البيئات الطبيعية والانسانية والخبرات التاريخية وبهذا يمكن القول اخيراً ان لكل حضارة (وحدتها) و(شخصيتها) التامة[١٠].

ثانياً التاريخ الموحد للحضارة العربية

الحضارة العربية هي الحضارة الموحدة التي تعكس في تاريخها صورة الامة وطريقتها في الحياة، ثم انها امتداد للحضارة العربية قبل الاسلام وبعده وهي مخاض لثورة حضارية تنسجم ومتطلبات مرحلة النهضة القومية التي تجتازها الامة العربية . ان دراسة أي حضارة لابد من ان يأخذ واقعها اليوم علاقتها بالبعد التاريخي لهذه الحضارة أي بالماضي وبآفاق المستقبل[١١].

وتمثل الحضارة العربية تاريخيا ذاك التراث الضخم الذي اشتهرت به الامة العربية خلال مراحل التاريخ واصبح عنوان مجدها ورمز مدنيّتها. وهذه الحضارة تعد من الحضارات الاصلية المتميزة بوفرة انتاجها كما هي الحال في الحضارة العراقية والحضارة المصرية في العصور التاريخية القديمة وان هذه الاصالة جعلتها ذات شأن وقيمة تجلت فيها عبقرية العرب ونزعتهم الانسانية. وقوله تعالى بهذا الشأن (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون)[١٢].

والحضارة العربية في تاريخها القديم وقبل الاسلام وبعده استفاد منها عدد كثير من العلماء المستشرقين بقدمها واصالتها وكتبوا عنها بحوثا مستفيضة ولا سيما في عراقتها ومبتكراتها وابداعاتها[١٣].

ثم ان دراسة المجتمع العربي كأمة واحدة لا بد من ان يقترن بدراسة هذه الحضارة العريقة الموحدة لان عزل دراسة المجتمع العربي عن دراسة حضارته حـ [illegible] عام شائع في كثير من الدراسات الاجتماعية. فالحضارة العربية إذاً، ذات التاريخ الطويل تعد هويّة المجتمع العربي، وأن أية محاولة للفصل بين الامة العربية مجتمعاً، وحضارة هو تحطيم لوجودها وطمس لهويتها وتشويه لماضيها، العريق وحضارتها ومستقبلها المزدهر[١٤].

ثالثاً المنظور الحضاري لدراسة الحضارة العربية

وهكذا يتضح ان هذه الحضارة المشتركة الموحدة ذات التاريخ الطويل تعطي للانسان (العربي) شعوراً بالانتماء لانها تربط الناس بجماعة يشعرون بالاندماج فيها. وهذا يتطلب تأكيد المنظور الموحد لدراسة الحضارة العربية. في البدء نقول: ان بناء المجتمع بناء حضارياً اصيلاً يشترط وعياً اصيلاً بالماضي الحضاري ورؤية موضوعية للحاضر متطابقة مع طبيعة المرحلة التاريخية.

ان المجتمع العربي الذي كان مهداً للحضارات لايمكن ان تكون مرحلة نهضته من دون هوية حضارية موحدة، فالحاجة الى التعرف على المنظور الحضاري ضرورة لكي تستوعب الامة ماضيها وحاضرها وتطلعاتها نحو مستقبل حضاري.

ان المنظور الحضاري الذي يستوعب دراسة هذه الامة هو (المنظور الحضاري الشمولي) وهو حاجة اولية من حاجات التطور الاجتماعي، حيث هناك منظورات جزئية لايمكن الاعتماد عليها في ابراز الحضارة العربية منها:

١ ـ المنظور السياسي: الذي يكتفي بمعالجة ظرفية لاتطمح في اغلب الاحوال الى اكثر من تنسيق التجزئة القطرية.

٢ ـ المنظور الاجتماعي المجرد: الذي يقتصر على استعارة المفاهيم الحديثة ليفسر بها واقع المجتمع العربي حيث يعالج ظواهر التخلف مع الاضطهاد الطبقي ومع التجزئة بشكل لا يساعدنا على فهم الظاهرة الاجتماعية من دون منظور شمولي.

٣ ـ المنظور (القومي الوحدوي الخالص) الذي ينظر الى الامة كما لو انها حقيقة مطلقة مستقلة عن جماهيرها وواقعها الاجتماعي والسياسي.

ان هذه المنظورات من الدراسات تعد من المنظورات السلفية والتقدمية السطحية لاتستطيع ان تتطابق مع خلق ووعي (الثورة الشاملة) والنهضة التاريخية التي يتسم بها طابع المرحلة التي يمر بها المجتمع العربي.

فالمنظور الحضاري الذي يتضمن تلك المنظورات الجزئية ويتجاوزها، هو المنظور الذي يتناول (المجتمع العربي) في ابعاده وظواهره وتناقضاته كافة وعبر مسيرته التاريخية. ان المنظور الحضاري يساعدنا على فهم تاريخنا وحضارتنا العربية. ويمكن ان نشير بهذا الصدد الى ريادة ابن خلدون حينما ربط التاريخ بعلم جديد اسماه (علم العمران) الذي يعد أول من نادى بعلم الاجتماع، فالمنظور الذي يربط بين الاحداث التاريخية وقاعدتها الاجتماعية، هو المنهج الذي يمكن ان يزود الباحث (بمنظور حضاري) يكشف عن ابعاد المرحلة التاريخية ولهذا يعد المنظور الحضاري لدراسة

الحضارة والمجتمع العربي هو المدخل الطبيعي لدراسة هذا المجتمع[15]. ولابد من الاشارة استكمالا لهذا المنظور الحضاري الى ان نولي اهتماما بـ(البون الشاسع بين هذه الامة وماضيها وكذلك بينها وبين حاضرها وغيرها من الامم)[16].

والبون الشاسع بين هذه الامة وماضيها، او بمعنى اخر تحديد (التراث) وتحدي (المعاصرة) لابد من الجمع بينهما بين الاصالة وروح التجدد الدائمة فالمنظور الحضاري له موقف من التراث القريب والبعيد، سواء الحي الفاعل في الحاضر او الآثار التي تشير الى الماضي الذي استنفد طاقاته القديمة، فتحول الى مجرد ذاكرة تاريخية حية في تاريخ الحضارة.

اما مايتصل بواقع الامة مع الامم الأخرى، فلابد ان يأخذ هذا المنظور الحضاري مبدأ (التفاعل الحضاري) الذي يتعرض للتشويه عندما تطرح منظورات حضارية تجزيئية مهمتها بعث نزعات حضارية (سلفية) لم يعد لها تأثير حي في الحاضر العربي[17].



رابعاً: في اهمية دراسة الوحدة والبناء الحضاري

لدراسة الوحدة والبناء الحضاري اهمية كبيرة فاذا توافر مثل هذه الوحدة في المقومات الحضارية والثقافية للبناء فسيكون اقوى تماسكا واوضح دراسة في سبيل تقدم المجتمع ورفاهيته. وهذا يتطلب التعرف على بعض المقومات الضرورية للدراسة وهي :

١ ـ ضرورة وضوح الهدف الوحدوي[18] :

يعني ذلك ان يكون وضوح الهدف الوحدوي منبعثاً عن واقع الامة وتطلعاتها نحو المستقبل، وهذا ما نجده في واقع مجتمعنا العربي حيث تقضي الضرورة الحياتية للامة العربية تأكيد الهدف الوحدوي في وسائلنا الثقافية والتعليمية جميعا وفي التجربة الحياتية التي مرت بها المراحل الكفاحية التحريرية، والمواجهة الواعية المدركة لطبيعة الوضعية التي تمثلها هذه الحركة الوحدوية في الوطن العربي، فأن مرتكزات القومية العربية تبلورت وتعمقت في الوطن العربي بحيث اصبحت تمثل محورا من محاور ميزان القوى الدولية في المحافل المختلفة كافة.

وهذا يقضي ان تكون نظرة الفكر العربي الى المجتمع العربي تختلف اختلافاً جذرياً عن معالجة الفكر الاجنبي، لان الفكر الاجنبي يتأثر بالاكراه الحضاري الذي نما في تكوينها العقلي وعلى اساس طرحه للواقع التاريخي بمنظار تحيزي ومحاولة ربط هذا بالفكرة والحضارة العربية. من امثال هذا دراسات المستشرقين والباحثين الغربيين، او نمط دراسات العرب (المغتربين) او نمط الدراسات (السلفية) التي تدرس المجتمع من خلال المنظور القديم ومقاييسه او نمط الدراسات الاكاديمية التي تنتهج نهجاً علمياً مجرداً[19].

ان هذا التقسيم بين عقلية المفكر العربي وعقلية المفكر الاجنبي تقسيم نسبي، حيث تقتضي الضرورة الاطلاع على الفكر الاجنبي لا بصيغ الاقتباس والتقليد وانما بصيغ التفاعل والانفتاح.

وعلى هذا الاساس لابد من تأكيد ابعاد المسألة العربية في دراسة المجتمع العربي وبطريقة تفاعلية تقديرية، وان يكون الهدف الوحدوي واضحاً في بلورة الوضعية العربية واظهار ملامح الشخصية العربية، مع تأكيد الاتجاه الحضاري لحركة الوحدة، فاذا اردنا دراسة اي قطر عربي منفرداً يجب ان يكون الهدف الوحدوي واضحاً، فالمعيار يجب ان يوجد اذا كان هذا القطر يتجه الى التماسك والوحدة او يتجه الى التفكك والفرقة مع دراسة عوامل واسباب التأخر او التقدم لكل مجتمع من اجل الاسهام بسرعة في التغيير الاجتماعي والحضاري.

والهدف الوحدوي لا يكون واحدا في مجال ممارساته التطبيقية او التنفيذية في الاقطار العربية جميعا ولكن يبقى واحدا في النمو والتوعية واليقظة وغيرها من عوامل الانبعاث واليقظة . وقد يختلف كل قطر عن الاخر في مراحل الانطلاق لتنفيذ هذه الاهداف ولكن لابد من ان يكون تخطيطاً استراتيجياً لكل قطر في مسيرته نحو الوحدة.

٢ ـ ضرورة الدراسة التكاملية للوحدة الحضارية والثقافية[20]

ان الوطن العربي يمثل وحدة اجتماعية تتوافر فيها كل مقومات التكامل الاجتماعي والاقتصادي، وان الاوضاع الحالية التي يمر فيها مجتمعنا العربي تقتضي الاخذ بالمنهج او المنظور التكاملي في الدراسة لتحقيق الاهداف الوحدوية.

ان الضرورات الداعية لهذا المنظور متعددة الجوانب منها:

أ ـ ضرورة ان يكون العامل السياسي الخارجي من جهة والنشاط الاجتماعي الداخلي من جهة اخرى شكل التساند والتآلف والتكامل على نحو يؤدي الى معالجة او تلافي الاثار الاجتماعية والنفسية للسياسات التجزيئية والتيارات الانعزالية والدعوات الانفصالية وعلى نحو يخدم المصالح المحلية ضمن اطار المصلحة العربية القومية.

ب ـ محاولة الانتقاء في رسم ابعاد المخطط العربي الذي يضمن توجيه الطاقات البشرية والامكانات المادية لاشباع الحاجات الاجتماعية بطريقة علمية وعلى نحو يحقق الوحدة والحرية والعدالة الاجتماعية للمواطنين كافة.

جـ ـ من ملامح العمل الوحدوي شعور المجتمع بكيانه الثقافي والحضاري ضمن اطار ما يرسمه تجاه المستقبل وما يهيؤه لجيله من اعداد نفسي وتربوي بهذا التراث الحضاري والثقافي الموحد، وعلى نحو يؤدي الى تعميق الفهم بالقدرات والامكانات الموجهة لتوعية العلاقات الاجتماعية.

د ـ النظر الى الحدود السياسية يحتم ان نفهم ان العمل العربي قد يأخذ مسارات في طريق التكامل والارتقاء منها ابعاد مكانية محلية او اقليمية او ابعاد زمنية او محلية طويلة او ابعاد اخرى، والمهم انه مادام المجتمع العربي يسير نحو الارتقاء في سلم التكامل والشمول فان العمل العربي لابد أن يسير في ترسيخ ابعاد الحضارة العربية.

خامساً: الضرورات الحتمية لدراسة الوحدة والبناء الحضاري[٣١]

هناك ابعاد او ضرورات تستوجب دراسة الوحدة والبناء الحضاري العربي دراسة تكاملية وهي تضم المقومات الاساسية للوحدة. ان اهم هذه الضرورات هي:

ا ـ اصالة الحضارة وتجانسها :

ان الحضارة العربية نشأت في معظم اجزاء المجتمع العربي نشأة ذاتية لها سماتها الروحية واهدافها العلمية مما اكسبها القدرة على الاشعاع اضف الى ذلك ان الحتمية الاجتماعية قد هيأت فرصة التجانس الحضاري بين شعوب هذه المنطقة التي عاشت على الوعي ومن ثم تدرجت في طريقها الى الزراعة، واصبحت الزراعة السمة المميزة لحضارة المجتمع بكل خصائصه الحضارية وسماته الثقافية.

ان ما تمتاز به المجتمعات الزراعية انها اكثر استقرارا واشد تفاعلاً مع البيئة الاجتماعية وانها تعد اعمق النماذج المجتمعية تماسكا ببيئتها الحضارية وتمركزاتها الثقافية ونشاطاتها العقلانية واهتماماتها المادية ونظمها الاسرية التي ارتكزت على السلطة الابوية.

وعلى الرغم من الهجرات المتتابعة والمؤثرات الثقافية والفكرية التي جاءت من الجهات المحيطة به، غير ان المجتمع العربي ظل صامداً تجاه هذه التأثيرات معتمداً على قدرته الذاتية بحيث استطاع ان يصهر هذه التيارات الزاحفة ويتمثلها بدرجات متفاوتة او ان يستنبت من هذه الحضارات الوافدة نبتا يتفق مع ايديولوجيته ومبادئه ومقوماته وكل هذا يدل على اصالة الحضارة وقدرتها وابداعاتها تجاه المؤثرات والتيارات الوافدة عليها.

ب ـ الوحدة البيئية الايكولوجية :

نقصد بوحدة البيئة الايكولوجية: ان الوطن العربي يتمثل في قطعة متصلة الاجزاء، وتتأكد هذه الوحدة بانها مستقلة عما سواها من الناحية الجغرافية بفواصل طبيعية، وان تنوع البيئة في الوطن العربي يؤدي الى نوع من التكامل[٣٢].

وهكذا فالوحدة الجغرافية للوطن العربي ميزته عما سواه بشخصيته الاقليمية البيئية على انه وحدة متجانسة من حيث الموقع والتركيب والمناخ والنبات كتجانسها في التقاليد والعرف والعادات والاهتمامات. ولا ريب ان هذا التوحيد البيئي والتجانس والتكامل في مظاهره من شانه ان يعزز القومية العربية ويقرب مفاهيم الوحدة الثقافية والاقتصادية والسياسية بين اجزاء الوطن العربي[٣٣].

جـ ـ الوحدة الاستراتيجية للوطن العربي :

يمثل الوطن العربي وحدة استراتيجية من الناحية الحربية سواء من ناحية الهجوم أم من ناحية الدفاع وكان كبار السياسة الدولية في مختلف مراحل التاريخ[٣٤] يدركون ذلك حيث كانوا يضعون في تقديرهم وفي خططهم الدفاعية والهجومية وحدة هذه المنطقة من الناحية الاستراتيجية.

وعلى اساس هذا الوضع نجد الاعداء يقومون بمحاولات من شأنها اضعاف روح القومية العربية بين سكان هذه المنطقة ومنها: المحاولات الاستعمارية والامبريالية لبذر بذور الانفصالية والانتهازية وليس ادل على ذلك ما حدث لفلسطين المحتلة من انشاء وطن قومي لليهود لتضييق الخناق على الوحدات السياسية التي تمثل شرائح الامة العربية المنطلقة للوحدة والتحرر من التبعية السياسية والاقتصادية[٣٥].

د ـ وحدة التجربة الحياتية :

مما يدعم الوحدة القومية ويقرب مفاهيم الاتحاد بين شرائح هذه المنطقة ويعزز مقومات النضال وخضوع الشعب العربي في كل قطاعاته وشرائحه لاحداث تاريخية مشتركة ألفت بين قلوب ابنائه ووحّدت مشاعرهم وخلقت فيهم وجداناً قومياً يسعى الى غايات واحدة واهداف مشتركة، وهذا حصيلة التجربة الحياتية التي مر بها الشعب العربي.

ومما يعزز هذه التجربة وحدة الاهداف والامال المشتركة اضافة الى تماثل وتشابه العادات والتقاليد والاعراف ومقومات الثقافة والحضارة والعقيدة ومظاهر العبادة والطقوس وسيادة لغة واحدة وقيم ومفاهيم متقاربة كل هذه الامور تعد مظاهر الوحدة في البناء الحضاري والثقافي للمجتمع العربي[٣٦].



مفهوم الوحدة والبناء الحضاري والثقافي

١ ـ تحديد مفهوم الحضارة والثقافة :

في البدء نجد هناك اختلافاً واضحاً في تحديد المفاهيم في العلوم الانسانية ومن هذه المفاهيم التي نحن بصددها الثقافة والحضارة والمدنية وقد يرجع هذا الاختلاف الى الترجمة غير الموفقة احياناً، اضافة الى ان اللغة العربية من اللغات الحرة بمفرداتها وتركيبها بحيث تكون ادق واشمل في تحديد المفهوم عندها ممّا هو في اللغات الاجنبية.

في اللسان العربي، يتصل تاريخ الفعل (ثقف) بلغة العرب قبل

الاسلام ويشكل القرآن الكريم مصدر معنى (الثقافة)[٢٧]:

وهو (الظفر بالشيء، بعد البحث والتفتيش عنه) كما جاء في الآية الكريمة (واقتلوهم حيث ثقفتموهم). كما ان القواميس العربية، القديمة والحديثة تنطوي على تحديدات متقاربة لمعنى الثقافة[٢٨]. (سرعة الفهم، أي الذكاء، والمهارة والدقة، والسعي لتحصيل المعرفة وتهذيب الفكر وصقله وتقويم الاعوجاج والبحث والتقصي).

تستند الثقافة الى المعرفة العامة واتساع الافق والقدرة على تذوق نواحي الانتاج الفكري والحسي للانسان وتنبع في احاسيسه ووجدانه وتتصل بضميره اكثر مما تتصل بالعقل ومناهجه في البحث العلمي المجرد. ومن هنا يكون اتصالها بمظاهر الحياة الاجتماعية من تقاليد وعادات واداب السلوك كالاخوة والتعاطف والتسامح ومبادىء الحرية والمساواة.

ومن هنا فان الثقافة لايمكن ان تتجرد عن البيئة التي يحيا فيها الانسان، فلا نستطيع ان نتصور ثقافة عربية دون ان نقرنها مباشرة بالشعب العربي وبالامة العربية وبالمجتمع العربي والتاريخ العربي والامال العربية بالماضي والحاضر والمستقبل[٢٩].

وتعد الثقافة العربية عنصراً مهماً من التراث الاجتماعي وتشمل مايتلقاه الفرد من الجماعة من مظاهر الفنون والعلوم والمعارف والفلسفة والعقائد وغيرها.

وفي اللغات الاوربية نرى ان تعريف العلامة تايلور من التعاريف الجامعة والشاملة لمفهوم الثقافة وهو (ان الثقافة هي ذلك الكل المعقد الذي ينطوي على المعرفة والعقائد والفن والاخلاق والقانون والعرف والعادات وغير ذلك من القدرات التي حصل عليها الانسان بوصفه عضوا في المجتمع)[٣٠].

ولم يحظ تعريف تايلور بانتقادات كثيرة، بل عدت الثقافة إرثاً اجتماعياً (Social Inheritance) تتضمن جوانب انسانية، حيث يقول رالف لنتون (R.Linton) (ان ثقافة أي مجتمع من المجتمعات هي طريقة حياة اعضائه او بالاحرى مجموعة الافكار والعادات التي يتعلمونها ويشتركون فيها وينقلونها من جيل الى آخر. وتزود الثقافة اعضاء كل جيل باجابات فعالة وجاهزة عن معظم المشكلات التي يواجهونها).

وقد رتب بعض الباحثين محتويات الثقافة او عناصرها التي تمثل الامور الذهنية والمعنوية وتظهر باجلى مظاهرها في الفنون والاداب وقواعد السلوك . فهي اذن الاسلوب المعيشي والفكري الذي تسير على نمطه ـ جماعة من الجماعات، حيث لكل مجتمع عادات ونظم ومعتقدات مختلفة، لهذا رتب ويسلر (Clark Wissler) العناصر التي تتألف منها الثقافة:

١ ـ اللغة، وتشمل طريقة التخاطب والاشارات والرموز التي تستخدم في تلك الكتابة وطريقة رسم الحروف، وما يتعلق بنقل الافكار والاعمال من شخص الى اخر.

٢ ـ العناصر المادية، وتشمل :

أ ـ العادات والاذواق الخاصة بالمأكل والمشرب والملبس.

ب ـ نماذج المواصلات او النقل.

جـ ـ انماط الملابس.

د ـ الادوات والاواني المستخدمة في المأكل والمشرب.

هـ ـ الاسلحة المستخدمة لحماية الجماعة في السلم والحرب.

و ـ المهن والحرب.

٣ ـ الفن والنحت والنقش والرسم والموسيقى السائدة في الجماعة.

٤ ـ الاساطير الدينية والاساطير الشعبية او المعارف العلمية.

٥ ـ الطقوس الدينية: وتشمل على نحو خاص اشكال التدين، وعلاج المرضى وطقوس دفن الموتى والنماذج السحرية[٣١].

٦ ـ الاسرة والنظم الاجتماعية السائدة وتشمل:

أ ـ اشكال الزواج.

ب ـ طريق تحديد ذوي القربى.

جـ ـ الميراث .

د ـ اتجاه الحياة الاجتماعية.

هـ ـ الالعاب والتسلية.

ويعرف العالم «جلن» الثقافة بانها تشكل انواع السلوك المكتسبة (اي غير الوراثية) التي يتبعها الافراد على نحو عام في مجتمع من المجتمعات، ويعرفها «ويزر» بانها تشمل (مواقف المجتمع ومعتقداته وافكاره واحكامه على الاشياء والقيم التي يتمسك بها ونظمه السياسية والثقافية والدينية وقوانينه العنصرية وقواعد المعاملات الذوقية وكتبه الدينية والالات والادوات التي يستخدمها في معيشته والعلوم والفلسفات التي وصل اليها[٣٢].)

فالثقافة لها دلالة على مظاهر الحياة الروحية والاخلاقية التي تسود المجتمع. فالنظم الدينية والاخلاقية والتربوية والظواهر الخاصة بالفنون والاذواق وغيرها تمثل الثقافة في نظر هؤلاء العلماء.

اما مفهوم الحضارة (بفتح الحاء او كسرها) في اللغة العربية، فيعني « الاقامة في الحضر » أي في المدن والقرى، بخلاف البداوة (بفتح الباء او كسرها) وهي الاقامة المنظمة في البوادي، والحضر خلاف البدو.

ان التمييز بين الحضارة والبداوة قديم نجده واضحاً عند المفكر العربي عبدالرحمن بن خلدون والحضارة عنده طور طبيعي او جيل من اجيال طبيعية في حياة المجتمعات المختلفة، وهكذا البداوة ويقول « ان الحضارة غاية العمران ونهاية لعمره ومؤدية لفساده » ويقول « الحضارة هي التفنن في الترف، واستجادة احواله والكلف بالبضائع التي تؤنق من اضافة سائر فنونه »[٣٤].

يرتبط مفهوم الحضارة بالمسائل المتعلقة بالناحية المادية في المجتمع وهي تعبير عن حيوية الانسان في تحويل معتقداته وافكاره

ومواقفه من الكون والانسان والمجتمع الى ممارسات عملية يشترك فيها افراد المجتمع فتكون انذاك مواقف موحدة وشعوراً مشتركاً وتجاذباً روحياً، ولهذا نجد فريقا يطلق مصطلح الحضارة ضمنا على الثقافة لان الحضارة لابد ان تعبر عن روح ثقافة المجتمع[٣٥].

ومن اجل التمييز بنحوٍ أدق بين الثقافة والحضارة يمكننا ايجاز ما يأتي :

١ ـ الثقافة حياة ونشاط وطاقة واحاسيس في بيئة معينة، في حين انّ الحضارة وسائل وادوات والات وفنون تكنيكية.

٢ ـ الثقافة نزعة الى طراز ولون من الوجود، في حين انّ الحضارة وجود ملموس ومتحقق له مظاهره ومؤسساته وقواعده.

٣ ـ الثقافة في حياة الفرد شعور وفكر وسلوك، في حين ان الحضارة اشياء تدور وسطها حياته.

٤ ـ الثقافة تنحصر بالامور الذهنية والمعنوية وحدها. وتظهر بأجلى مظاهرها في الفنون والاداب وقواعد السلوك، في حين ان الحضارة تمثل الامور المادية والوسائل المادية وتتجلى بنحوٍ واضح في العلوم والصناعات[٣٦].

ومع ذلك فكثيراً ما يؤخذ معنى الثقافة بمعنى الحضارة فالتفرقة يمكن ان لا تقوم على حدود فاصلة دقيقة، لان المظاهر الثقافية المادية والمعنوية تتضافر جميعاً في خلق النظم والتنظيمات الاجتماعية « التي تعد قلب الثقافة اذ ان هناك تجاوباً بين الناحيتين الروحية والمادية في المجتمع ».

لهذا يرى فريق انه لا ضير من استعمال كلمة ثقافة لمصطلح (Culture) عندما نعني الجوانب المادية، ويستعمل احيانا مصطلح الثقافة او الحضارة ليدل على كل من الجانبين حسب سياق التلاؤم[٣٧]. في حين ان مصطلح المدنية (Civilization) قديم، فقد استعمل الفلاسفة العرب لفظة (مدني) بمعنى اجتماعي.

وفي هذا الجانب يقول ابن خلدون « ولهذا نجد التمدن غاية للبدوي، يجري اليها[٣٨] وهذه الصيغة لم ترد في المعاجم « المدنية » ولكنها انتشرت حديثاً، وان كان بعضهم يؤثر عليها « التمدين » المشتقة من « تمدين »[٣٩].

نرى ان مصطلح المدنية هو أعلى مرتبة من مراتب الحضارة او أعلى صورة من صورها، فهو يعني التقدم التكنولوجي والآلي، ويمتاز بطبيعة عقلية عامة لاتحدد بطبيعة محلية.

يمكن القول: ان المدنية هي ظواهر قائمة على اسس موضوعية من المعرفة اليقينية او على افتراضات كونية.فالتطبيقات العلمية الرياضية الصالحة في كل زمان ومكان هي مدنية في حين انّ الحضارة تعد الى حد كبير ظاهرة نسبية في حين انّ المدنية ظاهرة مطلقة.يقول «اود روم» : (ان كل مدنية حضارة وليست كل حضارة مدنية)[٤٠].

وخلاصة القول :

١ ـ ان المدنية هي مرتبة من مراتب الحضارة وصورة من صورها.

٢ ـ تقوم المدنية على التكنيك والصناعة وتعتمد اساسا على الاختراع اي تكون ضمنا في ميادين الفنون الصناعية والعلوم الطبيعية والرياضيات .

٣ ـ المدنية هي العنصر الجديد المتطور للحضارة، وغاية كل مدنية ان تعود حضارة أي ان الاكتشافات التي تمت في الماضي كانت مدنية ثم اصبحت حضارة، فالزراعة كانت مدنية وكذلك التجارة ثم اصبحت حضارة زراعية او صناعية.

فالمدنية هي العنصر الجديد المتطور للحضارة، وغاية كل مدنية ان تصبح حضارة[٤١].

٢ ـ ماهية الحضارة او الثقافة العربية وخصائصها :

ان واقع الحضارة او الثقافة العربية تتجلى في وحدة تتمثل فيما يأتي :

أ ـ ان (العربية) ليست بالعرق بل العربية باللسان والفكر،واللغة العربية التي هي من اهم مقومات الثقافة هي ظاهرة اجتماعية تتميز بحاجة الانسان العربي اليها فهي ملزمة وضرورية له كحاجته للاكل والطعام وهي اداة للتعبير عن الفكر والافكار، وهي ظاهرة حضارية لانها تنطلق بالمنجزات الفكرية والابداعات العقلية والعلمية.

ب ـ هي من انجازات الانسان العربي قبل الاسلام وبعده وتعززت بالفكر الاسلامي الذي جاء عربي اللسان لامة العرب، فالثقافة العربية، عربية الفكر والدعوة انسانية الاهداف توحد البشر في مواقفهم تجاه البيئة والانسان والمجتمع...

جـ ـ كانت اللغة العربية لغة العرب في الثقافة والحضارة سواء في الاداب والفنون اوالدين اوالتقدم الحضاري، وهي اكثر اللغات معرفة وقدرة على التعبير وقد أسهم العرب بالترجمة اضافة الى كون اكثر الكتب قد ألفت بالعربية. وهم في ترجمتهم لم يكونوا ناقلين فقط بل اسهموا بالتطوير والاضافة والنقد والابداع.

د ـ الحضارة العربية من الحضارات الاصيلة، لها جذور ومنطلقات ذاتية المولد والنشأة وان احتضانها لبعض الثقافات او المظاهر الحضارية لم يكن بصيغة الاقتباس والتقليد وانما بصيغة القدرة على الاستيعاب والهضم وتمثلها ضمن الحضارة والثقافة العربية بسبب نزعتها الانسانية في الافادة من مصادر الفكر الانساني[٤٢].

٣ ـ الخصائص المميزة للثقافة والحضارة العربية :

في ضوء الحدود والمداولات السابقة في تعيين ماهية الثقافة يمكن النظر الى خصائص الثقافة والحضارة العربية بكونها تمثل الخصائص الاتية:

أ ـ البعد الزمني او التاريخي[٤٣]: او ما يطلق عليه التواصل بين الماضي والحاضر أو « الصلة الحية بالماضي ». فالتاريخ هنا يشكل بعدا من ابعاد الحضارة وهو التاريخ الحي اي ما بقي في الماضي من بعد « مستقبلي » مؤثر في الحاضر تجاه النهضة. فالثقافة والحضارة ليست وليدة مرحلة زمنية معينة انجز فيها الانسان العربي ما خلفه

لنا، بل هي تراكمات وتجارب وتفاعلات هذا الانسان مع محيطه ومع الاحداث والثقافات الاجنبية وما اثارته من مواقف وتساؤلات مع تطلعاته واهدافه في نشر رسالته الحضارية بين الامم .

ب ـ البعد الحضاري: الثقافة والحضارة العربية تمثلان حيوية الامة العربية في الابتكار والاصالة وفي العطاء والتفاعل وفي القدرة على الانجاز من خلال تحويل الافكار والطموحات الى عمل، وليس التراث مجرد الانجاز الموروث للامة من التاريخ القديم بل انه الصلة « والمعاناة الحية للحضارة »[٤٤].

جـ ـ البعد الحيوي : ليس التراث العربي الحضاري والثقافي في محط الاعتزاز والتقدير فحسب بل انه يتميز بالحيوية والديمومة والقدرة على التفاعل والعطاء. وان استمرار الحياة العربية الثقافية والحضارية مدينة لهذا التواصل في التراث واستلهامه تجاه المستقبل الزاهر ويقول الدكتور الياس فرح في هذا الصدد: « التفاعل الحي مع روح العصر المنطلقة نحو المستقبل »[٤٥].

د ـ البعد القومي : انقطع التطور الثقافي والحضاري والعلمي للامة العربية بعد مرحلة من التدهور وسيادة قوميات اجنبية عليه. ولكن على الرغم من هذا فان الاصالة العربية المتمثلة بالاعتزاز باللغة العربية والتاريخ والاداب والاحاسيس المشتركة بقيت شامخة تجاه الاجنبي معززة بما يمليه عليه السلوك العربي من قيم اخلاقية واعراف سامية على الرغم من جمود التطور الفكري مدة من الزمن عندما بدأت المدنية الاوربية بالتأثير في الامة العربية. وعندما استيقظت في النفس العربية ضرورة التحدي والمجابهة، وكان المعين الذي لاينضب في هذه المرحلة التراث العربي والحضارة والثقافة العربية الهادفة الى الوحدة والابداع؛ فكانت وحدة اللغة العربية ووحدة التاريخ والفكر ووحدة المشاعر والتقاليد والمثل والقيم ووحدة الهدف، من اجل مقومات الامة العربية لحفظ وجودها وتماسكها القومي وتطلعاتها تجاه مستقبلها الزاهر[٤٦].



عناصر وحدة البناء الحضاري والثقافي العربي ومقوماتها :

ان وحدة المجتمع وانسجامه وتقدمه تتوقف على وجود قدر مشترك من الفكر والثقافة والعقيدة والسلوك بين افراده.

فمثل هذا القدر المشترك من المعارف او الثقافة هو بمثابة ذخيرة الامة المشتركة ولا تستطيع امة من الامم ان تتخلى عنها في تكوين وحدتها في البناء الحضاري والثقافي ما دامت هناك عناصر او مقومات ينبغي ان تتفاعل معاً باستمرار من اجل هذه المقومات.

و العناصر هي ما يأتي:

١ ـ اللغة :

تعد اللغة حجر الزاوية في كل تراث اجتماعي وثقافي، لانها الوسيلة الاولى للتخاطب والتفاهم وتبادل الاراء والاتفاق على اساليب العمل والتفكير وبدونها يتعذر المجتمع الانساني.

واذا نظرنا الى حياة العربي قبل الاسلام نجد هناك ظاهرة بارزة توحد العرب هي الثروة اللغوية التي تميز بها اللسان العربي.

كانت اللغة العربية في تلك المرحلة تمتلك ثروة من الكلمات والتراكيب اللغوية والاشتقاقات المنطقية للكلمات والمعاني تعبر بحق عن عبقرية الامة المتمثلة في لسانها خلال تلك المدة[٤٧]. لهذا تعد اللغة العربية من اهم السمات الثقافية للعرب قبل الاسلام التي تتمثل في مجالات منها : الشعر خاصة، حتى ذهب كثير من العلماء الى اعتبار العرب قبل الاسلام اشعر شعب في العالم لانهم قد نظموا في قرنين من الزمان مالم يجتمع لدى امم العالم في عدة قرون[٤٨].

اما الخطابة التي كانت من مظاهر الوحدة العربية فنجد ان العرب كان يضرب بهم المثل في الفصاحة، حيث كانوا يعقدون الندوات لمناقشة الاشعار والمسامرة في الشؤون العامة ومن ذلك نادي قريش ودار الندوة اضافة الى انهم كانوا يناقشون في الاسواق المعلومات او تبادل الشعر كما هو الحال في سوق عكاظ[٤٩]..

لقد اصبحت اللغة العربية آنذاك لغة مشتركة لكل العرب تسجل اشعارهم واخبارهم وتتناقلها الاجيال بحيث اصبحت هذه اللغة تؤلف شعورا مشتركاً وفكراً واحداً تعكس تطلعات الامة كما انها تنقل الصورة المثلى للقيم التي يجب على العرب ان يتربوا عليها.

وعندما بدأ الرسول الكريم (ص) رسالته، كانت اللغة العربية ابرز مظاهر الدين الجديد فلقد أُنزل القرآن الكريم بلسان عربي فاجتمعت بذلك في الدعوة الاسلامية ثلاثة اركان وهي[٥٠] :

١ ـ انزل القران الكريم بلغة عربية توحد العرب في اللسان وتدفعهم الى التعمق في معاني الفاظها...

٢ ـ رسول عربي يقود مسيرة حضارية جديدة، فيصبح المثال والقدوة الحسنة للبشر جميعا.

٣ ـ امة عربية تخرج الى الدنيا موحدة تحمل رسالة سماوية الى الناس كافة إذ تبلورت شخصية الامة في ظل الاسلام قوميا.

ان الترابط بين اللغة العربية والعقيدة الاسلامية اكدها كثير من النصوص القرآنية التي تذكر اللغة التي نزل بها القرآن الكريم كما في الآيات الكريمة:

(انا انزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون)[٥١]. (وكذلك انزلنا قرآنا عربيا وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون او يحدث لهم ذكرا)[٥٢]. و(بلسان عربي مبين)[٥٣]. و(آنا جعلناه قرانا عربيا لعلكم تعقلون)[٥٤].

لقد ادركت القوى الاجنبية اهمية اللغة العربية باعتبارها ركناً من اركان مقومات الامة ولهذا اتبعت عدة اساليب من منع العربي التحدث بها او ابدالها بلغة المستعمر ومن هـذه السياسـات التي استهدفت الحد من اللغة العربية في العصر الحديث :

١ ـ السياسة التي انتهجها الاتراك في بعض الاقطار العربية، ولكن هذا المسعى باء بالفشل لسبب بسيط هو ان القرآن الكريم منـزل باللغة العربية وضرورة تلاوته اثناء تأدية الصلاة او الشعائر الدينية وغيرها. كما ان المساجد لها دور في استمرار اللغة العربية.

٢ ـ السياسة التي انتهجها الفرنسيون في الاقطار العربية في معظم مظاهر الحياة وانحسرت اللغة في دائرة ضيقة ليتداولها الناس في المساجد والمناطق الريفية، ومن هنا في الصحراء والريف والمساجد تمت الثورة لتحرير الانسان العربي من الاستعمار وأنْ تعيد اليه اللغة العربية وتشيد رابطة الوحدة العربية تأكيداً لتواصل الوجود القومي العربي[٢٥].

٢ ـ التاريخ المشترك :

وحـدة التاريـخ المتمثلة في الاحساس المشتـرك والاستلهام التاريخي او التواصل التاريخي العـربي للعرب، بحيث تـأتي من الاهمية بعد اللغة في ترتيب مقومات الوحدة للمجتمع العربي فاذا كانت اللغة تمثل روح الامة وحياتها فان التاريخ يصنع ذكرياتهـا ومشاعرها ويوحد احاسيسها وتواصلها.

ولعل الامة العربية من اكثر الامم في العالم عاشت تاريخـا موحداً. وحدة الكفاح ضد الغازين من الاجانب خلق نوعا من الارث التاريخي الذي يعزز الوحدات السياسية في الوطن العربي ويخلق بينها تضامنا في الشعور والاحاسيس المشتركة[٢٦].

وتؤدي الاصول التاريخية المشاركة دورا فعالا في شد اوصال الامة العربية ومدها بالاحاسيس المشتركة والقوة الفاعلة للتغلب على عوامل الفرقة والتمـزيق، واهم تلك الاصول هي الاجـداد الاوائل بظهور الاسلام وعصر النهضة العربيـة الذي يتميز بقيـام الدولة لعربية الكبرى وعصر النكسة وما فيه من استعمار وحركات التحرير والتحرر ولا تعد هذه الاصول التاريخية المشتركة بين اجزاء الوطن العربي مراحل تاريخية منفصلة عن بعضها وانما هي مراحل متصلة متداخلة[٢٧].

لقد سارت الامـة العربيـة في تاريخهـا متحدة ومتضـامنة، فاتحدت في تـاريخها وتشـابهت وتضامنت فيمـا احتملته من آلام وما بذلته من تضحيات فكانت قافلة سار افرادهـا في طريق واحد وغاية واحدة متعاونين.

لقد ظلت هذه الامة خاضعة لخليفة واحد وحكم واحد في صدر الاسلام والعصور اللاحقة وكانت لها عاصمة واحدة، وكانت في اغلب تاريخها متحدة الا في بعض الاوقات عادت الى وحدتها.

ان وحدة التاريخ والاحساس المشترك والتضحيات المقدمة من الشعب العربي كل هذا له اثر في دعم الوحدة العربية وتوثيق الروابط بين سكان الوطن، فاتحاد ابنـاء الوطن العربي يجعلهم يشعـرون دائما وكانهم منذ نشاتهم بمثابة اعضـاء في جسم واحد خـاضع لمؤثرات واحدة اذا اشتكى عضو تداعت له وخفت لنجدتـه سائـر الاعضاء[٢٨].

٣ ـ الوحدة الروحية :

القومية الحقيقية لايمكن بأي حال من الاحوال ان تنـاقض الدين الصحيح. انها ليست في جوهرها سوى حركة روحية ترمي الى بعث قوى الامة الداخلية وتحقيق قابليتها العقلية والنفسية.

اذن لابد للقومية وهي حركـة روحية ان تـلاقي الدين وان تستمد منه القوة والحياة. وان القومية العربية لاتعارض دينا من الاديان، واذا عارضت شعبا، فليس هو الروحية الدينية وانمـا هو العصبية التي تجعل الرابطة الطائفية اقوى من الرابطة القومية[٢٩].

والدين له اثره في تكوين التاريخ المشترك للمجتمع العربي، وفي صهر افراده في بوتقة فكرية ونفسية واحدة، والدين الاسلامي اكثر تاثيراً من غيره لانه لايقتصر على جانب العقيدة اي صلة الانسان بربه، ولكن تعرض لوضع اسس الحياة الدنيوية بما يحقق سعادة الناس وكان له الفضل الكبير في جوانب مختلفة منها :

حفظ اللغة العربية وانتشارها وصيانتها كونها لغة قومية لامة العرب، فكان القرآن الكريم وهـو اول كتاب عـربي محور اهتمـام العلماء والادباء والمفكرين كما اصبحت السيرة النبوية محور اهتمام المؤرخين والمحدثين والفقهاء، فاذا بالقرآن والحديث منبعان رئيسان من منابع المعرفة العربية نشأت حولهما الدراسات المتعـددة وكل ما يتصل بالحياة الاجتماعية. وبهذا اخذ الوجود القومي العـربي تترسخ دعائمه على اسس ثابتة من العلم والمعرفة بحيث اصبحت شخصية العربي تتوحد في خصائصها الجديدة[٣٠].

ولقد تضمن القرآن الكريم كثيراً من المعارف المتصلة بالكون والمجتمع والانسان واصبح اطارا للفهم التاريخي لحركة الانسان ونشـات العلوم العربيـة قبل الاتصـال بالثقـافات الاخـرى فكان الاساس الذي حفظ للامة العربية وجودها القومي.

لقد اهتم الفكر العربي بتفسير القرآن ومن هذا التفسير خرج التشريع والفقه وتطورت المدارس وظهر الكثير من الفلاسفة. اضافة الى ان الاسلام شجع النظر في العلوم الطبيعية والكشف عن اسرار الحياة فاتجه انذاك الفن العـربي وجهة الاسـلام فاصبـح للروح الديني والذوق العربي اثر واضح[٣١].

٤ ـ وحدة القيم والعادات والتقاليد العربية :

يمكن القول ان النظم الاجتماعية في المجتمع العربي مشتركة والعرب يشتركـون الى درجة كبيـرة في عادات وتقـاليـد كثيـرة. ويشتـركون في معـظم عادات الزواج والاعـراس والاداب والمـآتم

والمعاشر وغيرها[٦٣].

والملاحظ ان بعض العادات والتقاليد المشتركة تمتد الى ما كان موجودا من عادات وتقاليد في الاسلام، ويرجع ذلك الى الوحدة التاريخية واللغوية والاحاسيس المشتركة والمصير الواحد. وعندما طرأ على المجتمع العربي نتيجة التغير الاجتماعي بعض العادات والتقاليد الاجنبية نتيجة الاستعمار والاحتلال، لكن التقاليد العربية اخذت طابع الاستقرار والصمود امام هذا الغزو الاجتماعي والفكري وظلت محافظة على اسس الحياة العربية الاصلية التي لم يمسها التغير بشيء جدي واساس افقد مقوماتها واسسها الواحدة[٦٤].

ان القيم هي احكام بالمرغوب فيه حسب معايير الجماعة، ولدى المجتمع احكام تقويمية تجاه الاشياء الواجبة الالتزام بمعايير المجتمع واحكام التقويم، يرتكز ذلك على الاعتقاد الذي يتحول « تحت تأثير القيم نفسها » الى عمل ومن ثم الى عادات متصلة في السلوك البشري ولهذا تكون العلاقة وثيقة بين القيم والعادات الاجتماعية[٦٥] لكون الاخيرة « العادات » هي « الشكل » المادي للسلوك الاجتماعي فالقيم هي « المضمون » المعنوي والعادات « الشكل المادي للسلوك ». اذن فالقيم والعادات الاجتماعية مظهران لشيء واحد هو السلوك الجمعي.

من هذا يمكن القول ان القيم الاجتماعية العربية هي التي تدفع العربي الى التمسك بالعادات والاعراف والتقاليد العربية، وقد توصل اليها ابناء هذا الوطن عن طريق التاريخ المشترك والتجربة الحياتية الموحدة والاختبار فاقروها واطمأنوا اليها وتناقلوها جيلا بعد جيل وحرصوا على المحافظة عليها لانها لب حياتهم وحضارتهم وثقافتهم.

ان هذه العادات والتقاليد والاعراف الموحدة يتلقاها ابناء الامة عن طريق التنشئة عليها لهذا تتحول هذه القيم الى انماط سلوكية متمثلة في عادات وتقاليد. وبعض هذه العادات والتقاليد تغور في اعماق ابناء الامة وتختلط بمشاعرهم وتسري في اشعارهم وقصصهم وامثالهم وتبرز في اعيادهم ومواسمهم وتقترن بحياتهم فيؤلف ذلك فولكلور الامة وهي ذخيرة الفنون التي تكون جذورها في اعماق الحياة الاجتماعية وتنقل من جيل الى اخر.

ان من العادات والتقاليد العربية تلك التي تؤكد الاخلاق والفضائل الاجتماعية كالصدق والامانة والمروءة والشهامة، والعفة والشجاعة واكرام الضيف وغيرها؛ ان هذه الاخلاق والفضائل هي قيم ومعان نشأت ونمت في الحياة العربية بالتجربة والاختبار ويجد ابناء الامة في ممارستها والحفاظ عليها ضمان سلامتهم ورقيهم[٦٥].

٥ ـ التراث الفكري والعلمي العربي :

كان العرب قبل ظهور الاسلام[٦٦] قد قطعوا اشواطا متقدمة في الميدان الفكري والثقافي يتجلى ذلك في المستوى الرفيع الذي بلغته اللغة العربية، فكانت هي اللغة التي عبرت عن الشعر والحكم والامثال والقصص وغيرها على نحو يدعو نحو التوحيد الفكري.

وعندما جاء الاسلام عمل على تنقية الحياة الفكرية العربية من عوامل التخلف والخرافة واخذ يدعو الى استخدام العقل والتأمل في مظاهر الكون وحثهم على التعلم وبهذا اصبحت للاسلام اثار واسعة في العقلية العربية بحيث صارت العقيدة الاسلامية القاعدة الاساسية التي ينطلق منها التفكير العربي الاسلامي، اضافة الى ان القرآن اورد اخباراً عن احوال الامم مما دفع الى محاولة تعرف ما عندهم من علوم واخبار، وكذلك رسم القرآن قواعد سليمة للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، مما ساعد على نهضة في مجال الفكر الفقهي والتشريعي اضافة الى حث القرآن الكريم على مراعاة اداب اللياقة والالتزام بقواعد الاخلاق.

ان مكونات التراث العربي في المجال الفكري والثقافي والعلمي يمكن ادراجها على شكل حلقات متحدة في المركز « من اجل التبسيط والتوضيح »[٦٧]. وهي كالاتي :

١ ـ تمثل العقيدة الاسلامية المتمثلة بالقرآن الكريم والحديث والسنة النبوية وجهاد العرب الاوائل في سبيل انتشار الدعوة « الحلقة الاولى » في هذا التراث ولايقتصر هذا على الجانب الفكري فقط بل تضم كذلك العبادات والطقوس الدينية والاماكن المقدسة.

٢ ـ تمثل (الحلقة الثانية) مجموعة الاجتهادات الشرعية والفقهية التي هي امتداد الحلقة الاولى ولكن عنايتها تقتصر على الاحكام الدنيوية والتفسير ومعالجة المشكلات الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي واجهت العرب بعد اتساع رقعة الحكم ودخول شعوب اخرى في الدين الاسلامي.

٣ ـ اما « الحلقة الثالثة » فهي مجموعة الدراسات التي اولاها العرب اهتماما خاصا في فقه اللغة العربية والبرهان على اعجاز القرآن في المعنى والاسلوب والادب العربي والتاريخ وتشريع القوانين لتنظيم الحياة الاجتماعية والاقتصادية وانواع الفنون المختلفة.

٤ ـ اما « الحلقة الرابعة » فهي العلوم الرياضية والطبيعية والهندسية والصيدلانية والزراعية والعمرانية وغيرها.

٥ ـ في حين ان مجموعة المعارف المنقولة من حضارات سابقة او معاصرة للحضارة العربية تمثل « الحلقة الخامسة » وهي تعالج مسائل بطريقة مختلفة وتثير مشكلات وتفتح ابواب الشك والتأويل لاشياء كثيرة الجدل والنزاع.

ليست كل هذه الحلقات وهي تمثل التراث الفكري والثقافي والعلمي العربي مغلقة؛ ان كل حلقة تتمتع بالحيوية والانفتاح ما عدا الحلقة الاولى وحدها هي المغلقة وتتسم بالقدسية في حين ان الحلقات الاخرى منفتحة على الثقافات والحضارات الاخرى، ولكن انفتاحها لم يكن خاليا من الرقابة الناجمة عن الاصالة، وامتازت الحلقة الثانية بالحيطة والحذر لاقترابها من الحلقة الاولى.

الهوامش

١ ـ الدكتور حسن شحاته سعفان، اسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، القاهرة ١٩٦٥، ص٢٢٢.

٢ ـ الدكتور الياس فرح، في الثقافة والحضارة، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٠، ص٦٠، ص٧٧.

٣ ـ قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨١، ص٧٧، ص١٠٩.

٤ ـ قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، ص٨٩ـ ص٩٢.

٥ ـ الدكتور الياس فرح، في الثقافة والحضارة، ص٨٤.

٦ ـ الدكتور الياس فرح، في الثقافة والحضارة، ص٨١، ص٨٢.

٧ ـ قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، ص٩٩.

٨ ـ الدكتور نوري حمودي القيسي، الاديب والالتزام، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٩، ص٦.

٩ ـ قسطنطين زريق، في معركة الحضارة، ص١٠٢.

١٠ ـ المصدر نفسه، ص١٢٠ـ١٢٣.

١١ ـ الدكتور الياس فرح، في الثقافة والحضارة، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٧٩، ص٧٧ـ٧٨.

١٢ ـ سورة فصلت، آية ٢.

١٣ ـ ناجي معروف، المدخل في تاريخ الحضارة العربية، بغداد، ١٩٦١، ص٧٠٦.

١٤ ـ الدكتور الياس فرح، مقدمة في دراسة المجتمع والحضارة العربية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩، ص١٨.

١٥ ـ الدكتور الياس فرح، مقدمة في دراسة المجتمع العربي، ص٢١، ص٣٣.

١٦ ـ ميشيل عفلق، في سبيل البعث، الطبعة ، ١٩ ،، ص١٤٣.

١٧ ـ الدكتور الياس فرح، قراءة منهجية في كتاب (في سبيل البعث) الجزء الاول، دار الرشيدللنشر، بغداد، ١٩٨١، ص٧٧.

١٨ ـ الدكتور احمد الخشاب، سكان المجتمع العربي، مكتبة القاهرة، سنة ١٩٦٤، ص٣ـ٨.

١٩ ـ الدكتور الياس فرح، مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية، دار الطليعة، بيروت، سنة ١٩٨٠، ص٨ـ١٠.

٢٠ ـ الدكتور احمد الخشاب، سكان المجتمع البشري، ص١١٨.

٢١ ـ الدكتور احمد الخشاب، سكان المجتمع العربي، ص٩ـ١١.

٢٢ ـ الدكتور عاطف امين وصفي، المجتمع العربي، دارالمعارف، القاهرة، سنة ١٩٦٩، ص٣٩ـ٤٠.

٢٣ ـ الدكتور احمد الخشاب، سكان المجتمع العربي، ص١١ـ١٢.

٢٤ ـ محمد عزة دروزة، الوحدة العربية، منشورات المكتب التجاري للطباعة والتوزيع والنشر، بيروت، ص٩٨.

٢٥ ـ الدكتور احمد الخشاب، سكان المجتمع العربي، ص١٢.

٢٦ ـ المصدر نفسه، ص١٣.

٢٧ ـ محمد عبدالمنعم الجمال (التفسير الفريد)، جـ١، القاهرة سنة ١٩٥٢، ص١٧٩.

٢٨ ـ لسان العرب: المجلد العاشر (يقال ثقف الشيء ـ وهو سرعة التعلم)
المصباح المنير: ثقف الحديث ـ فهمه بسرعة، وثقفته اقمت المعوج منه.
ابن دريد: ثقف الشيء حذقته
اساس البلاغة: بمعنى طلب العلوم والمعارف..
القاموس المحيط للفيروزابادي: ثقف ثقافة: صار حاذقاً خفيفاً فطناً.
انظر: الدكتور الياس فرح، في الثقافة والحضارة، منشورات وزارة الثقافة والفنون (الجمهورية العراقية) سنة ١٩٧٩، ص٥٤.

٢٩ ـ د. عزالدين فودة، المجتمع العربي، دار الفكر العربي، القاهرة، سنة١٩٦٦، ص٧٠ـ١٧١.

٣٠ ـ د. احمد ابو زيد، تايلور، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٧، ص٤٩.

٣١ ـ الدكتور حسن شحاته سعفان، اسس علم الاجتماع، دار النهضة العربية، القاهرة، سنة١٩٦٦، ص٢٢٢ـ٢٢٣.

٣٢ ـ المصدر نفسه، ص٢٢٣.

٣٣ ـ ابن منظور، لسان العرب، المجلد الرابع، بيروت ١٩٥٥، ص١٩٧.

٣٤ ـ مقدمة ابن خلدون، طبعة مصطفى محمد، القاهرة، ص٣٧١، ص٣٧٤.

٣٥ ـ الدكتور ياسين خليل، المفهوم الحضاري للتراث، مجلة افاق عربية، العدد ٨ نيسان ١٩٧٦، ص٨٥..

٣٦ ـ الدكتور عزالدين فودة، المجتمع العربي، ص١٧٣.

٣٧ ـ المصدر نفسه، ص١٧٣.

٣٨ ـ مقدمة ابن خلدون، طبعة مصطفى محمد، القاهرة، ص١٢٢، عرف المعجم الوسيط الذى اصدره مجمع اللغة العربية ،القاهرة سنة١٩٦٠ ص١٩٦١ المدنيّة بانها الحضارة واتساع العمران ولم يشر الى ان اللفظة مولودة، كما فعل في لفظة (تمدن) التي عرفها بـ(عاش عيشة اهل المدن واخذ باسباب الحضارة). .

٣٩ ـ د. محي الدين صابرة، التغيرالحضاري وتنمية المجتمع، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص٤٩.

٤٠ ـ الدكتور محي الدين صابر، التغير الحضاري وتنمية المجتمع، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤، ص٤٩.

٤١ ـ الدكتور محي الدين صابر، المصدر نفسه، ص٥١ـ٥٢.

٤٢ ـ د ياسين خليل، المفهوم الحضاري للتراث العربي، المصدر السابق، ص٨٥ـ٨٦.

٤٣ ـ الدكتور الياس فرح، مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية.

٤٤ ـ الدكتور الياس فرح، مقدمة في دراسة المجتمع العربي والحضارة العربية، ص٢١.

٤٥ ـ المصدر نفسه، ص٢١.

٤٦ ـ الدكتور ياسين خليل، المرجع السابق، ص٨٧ـ٨٨.

٤٧ ـ الدكتور الياس فرح، في الثقافة والحضارة، دار الرشيد للنشر، بغداد ١٩٧٩.

٤٨ ـ الدكتور حسن شحاته سعفان، الوجيز في المجتمع العربي، المطبعة العالمية، القاهرة ١٩٦٤، ص٧٣.

٤٩ ـ الدكتور حسين نصار، المعجم العربي نشاته وتطوره، دار مصر للطباعة، الطبعة الثانية، ١٩٦٨، ص٦٥.

٥٠ ـ الدكتور ياسين خليل، اللغة والوجود القومي، بحث مقدم الى ندوة اللغة العربية والوعي القومي التي اقامها مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٨٤، الطبعة الاولى، ص٣٤٩.

٥١ ـ سورة يوسف، الاية ٢.

٥٢ ـ سورة طه، الاية ١١٣.

٥٣ ـ سورة الشعراء ، الاية ١٩٥.

٥٤ ـ سورة الزخرف، الاية ٣.

٥٥ ـ الدكتور ياسين خليل، المرجع السابق، ص٣٥٧ـ٣٥٨.

٥٦ ـ الدكتور صلاح الدين عبدالوهاب، اضواء على المجتمع العربي، المكتبة القاهرة، مطابع دار القلم بالقاهرة، ١٩٦٣، ص١٩.

٥٧ ـ الدكتور عاطف امين وصفي، المجتمع العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٦٩، ص٩٥.

٥٨ ـ الدكتور علي عبدالواحد وافي، المجتمع العربي، مكتبة النهضة، مصر، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ١٩٦٦، ص٨٧ـ٨٩.

٥٩ ـ الدكتور صلاح الدين عبدالوهاب، اضواء على المجتمع العربي، المكتبة الثقافية، مطابع دار التعليم، القاهرة، سنة١٩٦٣، ص٤٤.

٦٠ ـ الدكتور ياسين خليل، المرجع السابق، ص٣٥٣.

٦١ ـ محمد عزه، الوحدة العربية، المكتب التجاري، بيروت، سنة ١٩٥٧، ص٨٦ـ٨٧.

٦٢ ـ الدكتور رمزي الشاعر، المجتمع العربي، دار النهضة العربية، ١٩٧٠، ص٢٠٩ـ٢١٠.

٦٣ ـ فوزية ذياب، القيم والعادات الاجتماعية، طبعة اولى، القاهرة ١٩٦٦، ص٢٣٧ـ٢٤٠.

٦٤ ـ قسطنطين زريق، في مقولة الحضارة، ص٨٨ـ٩٢.

٦٥ ـ وزارة الثقافة والاعلام (نخبة من المؤرخين العراقيين) العراق في التاريخ، بغداد ١٩٨٣، ص٣٠٥ـ٣٠٧.

٦٦ ـ الدكتور ياسين خليل، المفهوم الحضاري للتراث العربي، ص٨٦ـ٨٧.

٦٧ ـ الدكتور ياسين خليل، المفهوم الحضاري للتراث العربي، ص٨٦ـ٨٧.

خاص بآفاق من • لندن: احمد عباس صالح
• الرباط: محمد شقرون
• طنجة: ادريس الجبروني



① التحرر من عقدة الذنب

احمد عباس صالح

بعد قرون من الشد والجذب بين الحضارة الغربية والحضارة العربية مازالت هناك مناطق غير ماهولة ومازالت جسور كثيرة مقطوعة .. وفوق هذا كله يوجد التوجس وسوء الظن .

ولتبرير هذه القطعية أو سوء الفهم المشترك قبلت آراء كثيرة، وهناك ميل ما في المنطقة العربية للاعتزال والتحصن، واعتبار الثقافة الغربية عملية غزو فكرية لها اهدافها الخبيثة الخطرة . وهذا الميل يتدرج من المبالغة الى الاعتدال أو العكس، كما يقابله ميل آخر الى تقبل الثقافة الغربية والترحيب بها .

من الناحية الاخرى فان صورة الثقافة العربية لدى الغرب متعددة ومختلفة وتكاد تكون في اغلبها صورة ثقافة خاصة ومختلفة وتكاد تكون تنتمي للثقافة الحديثة التي يتصورها الغرب .

والغرب عموما هو المسئول الاول عن فكرة اختلاف الثقافات، والمسئول عن توصيف البنيات الثقافية واظهارها كما لو كانت لها نظم شديدة الخصوصية تكاد تكون مستقلة تماماً عن بعضها . وعلى الرغم من انتشار الثقافة الغربية في كل ارجاء العالم، الآ أن الاعتقاد - الاكثر رسوخا - لدى الغرب يتجه الى تمايز الثقافات واختلافها الى درجة القطيعة التامة فيما بينها .

والثقافة هي مجموعة الخبرات الفكرية والعملية التي تتعامل بمقتضاها امة من الامم مع الطبيعة وفيما بينها لاستمرار حياتها وتحسينها .. ولذلك فثقافة الأمم متحركة دائماً والمتغيرات فيما اكثر من الثوابت . ومع ذلك فهناك درجة من الثبات والاضطراد بحيث يمكن تحديد ملامح الأبنية الثقافية وتمييزها .

وقضية الثقافة قضية معقدة ! فهي في النهاية تتدخل في السياسة تدخلاً مباشراً، وتتغير القيم الثقافية وتراكيبها حسب الصراعات المختلفة داخل المجتمع، وغالبا ماتسود الثقافة التي تتفق مع مصالح القوى الاجتماعية المسيطرة على

النظام الاجتماعي، ولكن الامور لاتمضي بهذه البساطة اذ تدخل في التغييرات عوامل اخرى، مثل التطور العلمي والتكنولوجي والابداعات الفكرية والفنية، ولاتوجد الثقافة في حالة ثبات وجمود الآ حين يصيب المجتمع الجمود ويتوقف عن النمو.

والكّتاب العرب لم يكفوا عن تشخيص الثقافة الغربية وتحديد ملامحها منذ رفاعة الطهطاوي حتى اليوم. ومع ذلك لم يزل سوء الفهم المتبادل ولم تزل الازمات تتفجر بين يوم وآخر، وقد أصبحت العلاقة بين الثقافتين اكثر توتراً عما كانت عليه في الأزمنة القديمة نتيجة التحولات الخطيرة التي حدثت في العالم في الربع الأخير من هذا القرن.

الكوكب أصبح في متناول البشر، والصلات أصبحت أوثق، والاتصالات أسرع، وصدور قرار في اي موقع يؤثر على بقية المجتمعات، ونشر كتاب في بلد قد يحدث ازمة في انحاء كثيرة من العالم. وتكاد الحدود تتلاشى وتتسع المسؤلية ليصبح الانسان في هذا البلد أو ذاك مسؤلاً عن افكاره او افعاله خارج حدوده حتى لو كان يزاول نشاطاً داخل حدود عقائدية او عرقية او اقليمية.

● التاريخ والثقافة

وعلى الرغم من ذلك فان الثقافة نسبية وهي ليست بناء في المطلق، انما هي أبنية تنحل وتتفكك ويعاد تراكيبها وفقاً للأحداث التي تمر بها، ولذلك فعندما نتحدث عن الثقافة الغربية أو العربية لانستطيع الادعاء، بأن هناك بناء ثقافياً واحداً للعرب منذ الجاهلية حتى اليوم، وكذلك الأمر بالنسبة للثقافة الغربية، فليس صحيحا ان الثقافة المعاصرة يمكن أن ترجع الى ماهو أبعد من قرنين وهناك تفاعلات ومتغيرات سريعة تنهار بسببها نسبة كبيرة من الافكار التي كانت ثابتة وراسخة منذ خمسين سنة فقط. وها نحن اولاء نجد ابنية كثيرة تتصدع من الشرق والغرب ويشعر الجميع ان العالم مقبل على عصر جديد تماماً.

وحتى اذا حاولنا أن نستخلص ركائز ثقافة ما فاننا لن ننجح في ذلك الآ بالرجوع الى التاريخ حيث نتابع قيمة فكرية معينة منذ مولدها حتى نموها وثباتها، وربما حتى موتها ايضاً.

● العقلانية

العقلانية مبدا او ركيزة من ركائز الثقافة الغربية، وهو مستمر منذ القرن الثامن عشر حتى اليوم، ولايبدو أن هذا المبدأ سوف يتغير من المنظور القريب.

وفي الثقافة العربية قامت معركة كبيرة في عصر ازدهار الفلسفة بين الفلاسفة والمتكلمين ويعتبر الفيلسوف العربي ابن رشد أحد المفكرين الاساسيين الذين دعوا الى اعمال العقل في دراسة الظواهر. ذلك ان البشر الى عهدابن رشد كانوا يعتقدون ان التعرف على الظواهروالمبادىء الاساسية للأفكار تاتي عن طريق الوحي فقط، ومن اراد ان يستفسر عن شيء فليرجع الى الشريعة أولا وآخراً. وكان للفقه أصول معينة تتبع لاستنباط الحكم. ومع ان العقل كان جزءاً من هذه الأصول، بل كان هو اداة ابتكار الأصول واعمالها كمنهج، الآ أن الناس كانوا يفضلون اتباع النص مالم يكن تعارضه مع العقل شديداً.

ومنذ خلق الانسان الى اليوم والقلق بين العقل والشريعة قائم حتى في المجتمعات البدائية ولكن الذي يجعل كفة ترجح على كفة هو الظروف الاجتماعية التي يعيش فيها هذا القلق.

فابن رشد وتلامذته من بعده حين كتبوا كتبهم كانت القوّة العربية تضعف وبعد قرن واحد من حياته كان تفكك الدولة العربية في اسبانيا قد بدأ وبعد ذلك توالى التفكك بينما بدأت القبائل الاوربية المتخلفة تقوى وتتساند وتقاوم ثم تنتصر ...

وحينما تسلم الاوربيون هذه الافكار وبدأاللجوء الى العقل بالذات في التعرف الى الظواهر والأحكام الصحيحة، تسلموا في الواقع معركة العقل والثقل نيابة عن العرب الذين كانوا - نتيجة الهزائم - قد كفوا عن التفكير المبتكر والأصيل وتحمل الأوربيون كل تبعات المعركة. تعرض ابن رشد للأذى وقذفه الرعاع بالحجارة حتى أدموا جبهته وحرقوا كتبه في الميادين، ولكنّ الأوربيين الذين خاضوا معركة تحرير العقل البشري واعادة الثقة في القدرات الانسانية تعرضوا للحرق والتعذيب والابعاد حتى استطاعوا في النهاية ان يثبتوا في الاذهان أن العقل الانساني هو الاداة الصحيحة التي يملكها الانسان لاستخلاص الأحكام من المشاكل الفكرية والعلمية والعملية.

والواقع ان معركة تحرير العقل لايكاد يفهمها المعاصرون ولكنها كانت عملية شاقة جداً. فعلى الرغم من أن البشر كانوا يعتقدون ان الانسان هو أشرف خلق الله، وان اشرف ميزة للانسان هي العقل، الآ انهم كانوا يعتقدون ان المعلومات الاساسية التي يحتاجها الانسان قد وردت في الكتب المقدسة وانها جاءت عن طريق الوحي، وذلك - بمفهوم المخالفة - لأن العقل البشري قاصر ولابد ان تاتيه هذه المعلومات من المصدر الالهي مباشرة.

وفي الحقيقة كانت هذه عملية سياسية

خالصة لاعلاقة لها بالدين. وكانت الكنيسة بازدرائها للعقل الانساني، تدافع عن سلطاتها. وقد بلغ الأمر بكاردينالات الكنيسة البابوية أن حولوا الانسانية الى قطيع من الغنم والكنيسة هي الراعي . وكانت هذه الصورة تبدو حقيقة لامجاز فيها ولم يكن مسموحاً للانسان ان يفكر بعيداً عن هيمنة الكنيسة وتوجيهاتها . ولم يكن هذا التحكم دفاعاً عن الدين بل دفاعاً عن سلطة مطلقة وعن ثروات باهظة ورفاهات صارخة . ولم يستطع الناس ان يعرفوا أن وراء كل فكرة مصلحة ما الا بعد وقت طويل، وبعد ان تكبدوا دماء غزيرة، وعذابات لاتحتمل .

وتاريخ أوربا مليء بالحروب الدموية. وقد كانت الحروب الدينية والطائفية افظع مما يخطر على عقل بشر وفي سلسلة من المعارك قضي على مذهب ديني نهائياً من القارة الاوربية هو المذهب الأريوسي بحيث لم يبق له اثر . ولقد ادى هذا العنف الى عنف مضاد وحاربت المصالح الاقتصادية والسلطوية تحت رايات فكرية وطائفية .

وكانت الاكتشافات العلمية التي توصل اليها العرب والمسلمون تنقل الى القارة الاوربية من الاندلس ومن غيرها من المراكز الحضارية، فظهرت هندسة ورياضيات جديدة وكيمياء وفيزياء واحياء وفلك ودراسات فكرية. وعرف الفلاسفة الكبار في اوربا مثل ابن سينا وابن رشد اللذين اصبحا انموذجاً للفكر الجديد . واصبحت اللغة العربية هي لغة العلماء والباحثين، وتطور الطب والدواء وصناعة الأسلحة، وانطلق الناس من العلماء الى اصحاب الحرف يعكفون على تطوير ادواتهم وتحسين معلوماتهم واكتشاف المبادىء الاساسية للعلوم . وكثيراً ما كانت الكنيسة تقف عقبة امام اكتشاف جديد وتصدر قرارات التحريم والشجب ولكن لان الحياة اقوى ورغبات الناس في تحسين احوالهم لاتقف، كانت هذه العقبات تزول بعد تضحية هنا او هناك. ولم يفلح القتل والحرق والتعذيب في منع الناس من ان يبتكروا أدواتهم ويطوروا معلوماتهم بعيداً عن سلطة الكنيسة .

ونجحت أوربا الخارجة من كهف مظلم في أن تغير حياتها وتطورها وتحسنها بواسطة الاعتماد على العقل. واستسلم الجميع لهذا النجاح وتاكد لديهم ان الاعتماد على العقل هو المسئول عن كل التحسن الذي طرا على حياتهم .

وعرفت اوربا أيضا وبنفس القوة أن التجربة العملية هي الجانب الأخر المكمل للعقل . فاصبح المعمل والتجربة المعملية والتحليل العقلي هو المصدر الصحيح للمعرفة . ومنذ هذا التاريخ والعقلانية والتجريبية ركيزة من ركائز الفكر التي توسعت لتوصل الى المناهج العلمية الحديثة .

● ابن الخطيئة

كان الانسان المسيحي يتذكر بين وقت وآخر، وكلما ساورته النزعة الدينية، انه ابن الخطيئة الاولى وان آدم جده وحواء جدته قد غرقا في المعصية ولولا المسيح عليه السلام الذي فدى اتباعه بتحمله وزر هذه الخطيئة لظلت تلاحقه . وكانت الخطيئة قيداً على حرية الانسان في هذا الوقت ودليلاً على انه مفلوت الزمام وفي حاجة الى رعاية شديدة. وكانت الكنيسة - وفق تعاليم وتفاسير كهنتها - هي المنوط بها هذه الرعاية ..

وحين اكتشف المفكرون ان العقل هو وسيلة المعرفة، اكتشف البشر - بناء على ذلك - انهم قادرون على ان يميزوا بين الخير والشر وانهم كائنات عاقلة وعظيمة، وليس هناك مايدعو للشعور بالخطيئة او بالذنب . وجاءت براءة جديدة للانسان عن طريق العقل وحده، وعادت الثقة بالنفس الى البشر، وأصبح العالم مفتوحاً امام جميع التساؤلات والطموحات التي كانت مستهجنة ومكبوحة، وتوجهت الابحاث نحو مايسعد الانسان وينفعه، وتلاحقت الاكتشافات في مختلف العلوم، وابتكرت - بناء على هذا العلم - ادوات جديدة، ونظم حياة واخلاق وسلوك مختلفة، عما كان سائداً .. وبدلاً من الحزن والخوف والزهد والياس، امتلات الحياة بالفرح والثقة واتجه الناس الى اسعاد انفسهم بقدر مايستطيعون . هذه النقلة من الخطيئة الى البراءة، ومن فقدان الثقة بالنفس الى الثقة بها، ومن الزهد والتقوقع والانزواء، الى حب الحياة والاقبال عليها ومواجهة العالم والغازه، كانت ثمرة العقل الرائعة .

● السيمفونية التاسعة

وبدلاً من أن يعامل الانسان، كعضو من جماعة أو رقما من الارقام، برزت روح الفرد، وأصبح الفرد الانساني قيمة كبرى، وأصبحت حريته بلا حدود، الا فيما يضر الآخرين، وصار هناك انبهار بهذه الحرية، التي كانت في الحقيقة حرية داخلية.. كان الانسان يتحرر من القيود التي قيدت تفكيره وأذلت نفسه وعقله، وكان من فرط البهجة بهذه الحرية يثق في كل الاشياء ويرى العالم في أجمل صورة، ويعانق الحياة ويحب البشر .. وربما كانت السيمفونية التاسعة لبيتهوفن واحدة من الابداعات البشرية للتعبير عن هذه البهجة وللرغبة في السلام مع كل البشر والشكر لله الذي أوجد المحبة والبهجة وساعد على هذه الاكتشافات

بموهبة العقل الكبرى .. وكانت قصيدة الشاعر شيلر عن السلام هي محور النشيد السيمفوني الرائع الذي يكّون نواة هذه السيمفونية .

وفي بعض حركات هذه السيمفونية تبلغ الفرحة ذروتها، حيث يصبح الانسان جذلاً باكتشاف نفسه معلنا للكون رضاءه التام وسعادته القصوى ورغبته في السلام مع كل الكائنات .

وفجرت هذه الحرية طاقات لاحدود لها عبّرت عنها الفنون والآداب والرحلات وغزو العالم وفض كل مجهول .

● الكنيسة الجديدة

من قلب الكنيسة قامت حركات الاصلاح، ولم يتوقف ابناء الكنيسة واعضاء كهنوتها عن الثورة والدعوة الى الاصلاح، ومر هؤلاء المصلحون بكوارث عظمى وحرق وعذب الكثيرون منهم، ولكن في النهاية ظهرت طوائف جديدة او مذاهب جديدة، فمن الصعب ان لم يكن من المستحيل ان ينجو موقع او مؤسسة من المؤسسات الاجتماعية من رياح التغيير وهكذا بدأ التغيير يلحق الكنيسة والفكر الكنسي .

وبدلاً من أن تكون الكنيسة المؤسسة الأم لكل شيء في المجتمع بدءاً من السياسة العليا للدولة حتى طقوس الميلاد والزواج، أصبحت مؤسسة من بين المؤسسات، وحتى رجال الكنيسة اصبحوا يكتشفون انفسهم ويتعرفون الى هذه البهجة الجديدة التي أمسك بها المنشقون والأوائل، بهجة التحرر من الذنب والخوف واليأس .

ولم تعد الكنيسة عقبة امام حرية الفكر وأمام النتائج العظيمة التي جاءت بها هذه الحرية في العلوم التجريبية والانسانية، بل تجاوبت، كما يحدث في المجتمع، مدركة خطأ الجمود، ومستسلمة أمام الوقائع اليومية التي تثبت صحة الأفكار والاساليب الجديدة . وانهارت التفاسير القديمة وبدأت تنقشع غيوم الخرافات والتهاويل التي كانت تعتبر في وقت من الاوقات مقدسة ويقينية ،وبعض الأساقفة في المجتمعات الحديثة يفسر وقائع مهمة في صميم العقيدة المسيحية على انها مجاز وليست صورة حقيقية، وهو تفسير اشبه بتفسير ابن رشد في عصورنا القديمة. وهناك تفسيرات اكثر جراة ومع ذلك لم تحرقها الكنيسة

وفي بريطانيا عرض فيلم .. «الاغراء الأخير للسيد المسيح، وهو يتعامل مع المسيح عليه السلام من منطلق انه بشر وانه قد وقع تحت اغراء التخلي عن عبء الرسالة والعيش عيشة سعيدة مع من يحب . وقد هاجمه المتدينون ورجال الكنيسة ولكن أحداً لم يملك وقفه، وكل مافعله اسقف كنتربري وهو اكبر منصب كنسي في بريطانيا هو ان ينصح اتباع الكنيسة بالاّ يذهبوا لرؤية هذا الفيلم .

وفي كل سنة يعرض التلفزيون البريطاني افلاماً تصور حياة السيد المسيح، وندوات دينية واخرى علمية يثير بعضها الدراسات حول تاريخ السيد المسيح . ويحضر الندوات بعض رجال الكنيسة ممن لهم اجتهادات في هذا المجال الى جانب العلماء واساتذة الجامعات .

دخلت الكنيسة مجال البحث العلمي، واستعملت المناهج الحديثة ووصلت الى نوع من التوفيق بين التفكير العلمي والمعتقدات الدينية، وتطورت العقيدة الدينية مع التطور العام وأصبحت العقيدة تتفق مع الحريات العامة الجديدة وفي مقدمتها حرية الفكر وحرية البحث وحرية العقيدة .

ويبدو انه عندما تنتقل المجتمعات نقلة كبرى يتاثر بها وينتقل معها كل النشاط البشري بما في ذلك الفكر الديني، والفرق بين الكتابات الدينية الحديثة وماكان يكتب في الدين منذ خمسين عاما كالفرق بين عصر العربة والحصان وعصر الصاروخ المفارق لكوكب الارض .

وكما ان الأفكار الدينية تغيرت وتطورت بحيث اصبحت ـ في الغالب ـ مقبولة لدى الفرد الذي تعود منذ قرون على ان الشفاء من المرض يتم عن طريق الطبيب والدواء لاعن طريق الرقي والأحجبة، وان العلل الاجتماعية والاضطرابات ناتجة عن اسباب اجتماعية، كما ان الظواهر الطبيعية كالزلازل والبراكين والفيضانات الكاسحة لها اسبابها الطبيعية ايضا، وان المستقبل موكول به حل المشاكل التي لم يحلها العلم الآن . . مثل هذا الفرد يقبل التعاليم الدينية، ولا يحمل تناقضا كبيراً معها. فهذه التعاليم تتحدث عن الأخوة وعن المحبة وعن الأخلاق الصحيحة التي من شانها ان تحفظ حياة الانسانية وتساعد على تحسينها.

التناقض بين الدين والعلم رُفع في المجتمعات الغربية الى حد كبير، فلم تعد الكنيسة تنكر السببية أو العلية ولم يعد العلم الحديث ينشغل بغير مالديه من مشاكل . وأصبحت الكنيسة واحة الرحمة والمحبة والرعاية الالهية أو الجانب العذب والرقيق في الحياة أمام جفاء وصراعات العالم الدنيوي .

ربما تمضي الحياة الفكرية هادئة في الغرب الاوربي لأن التعصب قد انتهى الى حد كبير، وأن المذابح والعذابات القديمة قد استأصلت من القلوب كل حوافز الغضب العنيف، وردته ايضا الى العقل الهادي والحكيم

② الهيمنة الحضارية والتدجين الحضاري

د. محمد شقرون ـ الرباط

ليس خافٍ على احد صعوبة الكتابة في هذا الموضوع المتعلق بالهوية والتعددية او التدجين الحضاري، ساكتفي باقتراح مسلك للتفكير، اوحى لي به كتاب نوربير إلياس «دينامية الغرب» وكتاب هابيرماس «المعرفة والمصالح».

يقترح إلياس تاويلاً يبدو لي عميقاً، عن تكون الهوية الثقافية ووحدة حضارة ما. هذا التاويل يهم في الحقيقة مجالاً جغرافياً محدداً (أوربا الغربية) ومرحلة تاريخية معينة (من القرون الوسطى إلى بداية الحداثة). ولكنه يهمنا ايضاً نحن العرب لانه يطرح سؤالاً معاصراً واساسياً لازلنا نواجهه باستمرار.

هل يمكن او توجد هناك ارتباطات بين الحضارات دون ان تكون علاقة التداخل الحضاري صراعاً من اجل هيمنة حضارة على اخرى؟

● الحضارة لغرض الاحتكار

لكي نبسط أطروحة إلياس يمكن ان نقول انه يبين ان بناء وحدة حضارية كانت نتيجة صراع من أجل الهيمنة. لقد انطلقت هذه الوضعية في الغرب المسيحي بالمنافسة بين الوحدات الترابية الصغرى، إقطاعيات القرون الوسطى التي كانت غارقة في الصراعات الدائمة التي كانت تنتهي دائما بمنتصر ومنهزم. وبهذه الكيفية سقطت اهم الامتيازات تدريجاً بين أيدي عدد قليل، بينما تم القضاء على الآخرين او ضمان تبعيتهم. وبقيت هذه العملية تتكرر إلى ان سيطر واحد في مجال جغرافي محدد على جميع الامتيازات، واصبح بالتالي يحتل مكانة مهيمنة. وتمارس هذه الهيمنة اساساً بواسطة الاحتكار الثنائي المفروض: عسكري (أحتكار الاستعمال الشرعي للعنف الجسدي او المادي) ومالي (احتكار التصرف في الثروات). وستقام في هذا المجال الجغرافي وحدة حضارية تشكل الحالة النهائية لعملية تعطي الاولوية للصراع والمنافسة من اجل الاحتكار.

إنني لا ادعي ان هذه الصورة التي بسطتها كثيراً تفسر كلية مجموع العناصر المكونة للحضارة. ولكن يستحق الوقوف عندها حسب رايي لعدة اسباب:

أولاً: إنه عندما نتكلم عن الحضارة فإننا قد نغتر بالمحافظة والتشديد الرومانسي على مجد حضارة ما او بالدفاع عن احترام الاختلافات الحضارية.

ثانياً: يبدو تفسير إلياس مقنعاً لكي نتفهم تاريخيا الخاصيات المهمة للوحدة الحضارية التي تشكلت على الأقل في اوربا. مثلا. تبين حرب المائة سنة في القرنين (١٤ و١٥) الميلاديين هذه العملية الخاصة بالصراع من أجل الهيمنة كما تم بين فرنسا وانكلترا. وقد انتهى هذا الصراع بمقابلة سلبية، بحيث لم يستطع اي احد من تحقيق اهدافه. وقد نتج عن هذا كتلتان حضاريتان قويتان، خاصتان نسبيا، الفرنسية والإنكليزية.

ثالثاً: هذا النمط من القراءة يدلنا على مجموعة من المعطيات الاساسية التي تشكل قاعدة تكون الحضارة وتعبر بالتالي عن بنيتها التحتية المادية. وهكذا هو الامر بالنسبة لحدة الاختلاطات وكثافة المبادلات التي تسمح بها تكنولوجيا عصر ما وتقنيات الاتصال وسرعة او بطء دوران الاخبار والاوامر والسلع والجيوش. لقد بين إلياس ان من بين اسباب تاخر تكون حضارة المانية متجانسة كون الامبراطورية الجرمانية تتوفر على مساحة تفوق مساحة فرنسا او انكلترا. إن هذه القوة الظاهرة (المساحة) كانت تشكل عائقاً لوسائل الاتصال والسير، ونظرا كذلك للمسافات الكبرى وحالة الطرق، الخ... التي لم تكن تسمح بنسج شبكات ضيقة للتبادل والحراسة ولم تكن التبعيات المتبادلة قوية لدرجة يمكن فيها لمختلف المكونات الاجتماعية

الموجودة داخل الامبراطورية الجرمانية تشكيل وحدة حضارية حقيقية.

● الهيمنة والخصوصيات الحضارية:

إذا نحن سرنا في هذا الطريق في تحليل الظاهرة الحضارية فإننا سنتوفر على مدخل نطرح من خلاله السؤال المعاصر والضروري الذي بدات به عرضي هذا: هل يمكن ان نفكر في الاتصال الحضاري، او بالأحرى التمازج او التدجين الحضاري خارج إطار الصراع من اجل الهيمنة، وخارج الارادة في تكوين احتكارات، او بتعبير اوضح، خارج منطق الامبريالية؟

حسب الاوضاع التي حللها إلياس تقودنا بعض المعطيات الجديدة في اتجاه يمكن اعتباره تفاؤليا: إذا كان يهمنا على الأقل احترام الاختلافات الحضارية. لقد اصبح اكثر من المحتمل ان الفرنسيين لن يحاربوا الانكليز او الالمان، لهذا يمكن ان نفكر في حضارة اوربية خارج منطق الصراع من اجل الهيمنة. وهذا لا يستثني إمكانية وجود صراعات ومنافسات منها ماهو موروث عن الماضي. لقد اصبحت كل المؤشرات تدلنا اليوم على ان كل اسباب هذه الصراعات والخلافات لن تاخذ شكلاً دامياً من اجل الهيمنة وذلك راجع لوجود شبكات دقيقة للتبعية المتبادلة بين هذه الدول، لذا فالمواجهة بين هذه الدول لن تكون إلا انتحارا.

ومن جهة اخرى اصبح من الممكن القول بوجود بنية تحتية تقنية لحضارة كونية نظرا لآنية تكنولوجيا الاتصال والدوران الشبه المتزامن للمبادلات على الصعيد العالمي. إنما الفرصة تكمن في الإفلات من الانغلاقات الحضارية، وكسر التشديد على الخصوصيات، والانعتاق من مواقف الانغلاق المرضي على الهوية الذي يغذي رفض الحضارات الاخرى وينمي مختلف اشكال العنصرية الحضارية.

تعتبر هذه المعطيات المعاصرة لإشكالية الحضارة مهمة للغاية. لقد اصبح من السذاجة القول اننا نتجه نحو إنعاش حضارة اوسع، وإلى حد ما كونية، تحترم في نفس الوقت تعددية وخصوصية الانتماءات التاريخية. ويرجع هذا للمشكلين التاليين:

اولاً: استمرار وجود «كتل» اقتصادية وحضارية لسنا على يقين من انها قد تخلت عن الصراع من اجل الهيمنة. ويمكننا هنا كعلماء اجتماع ان نطرح اسئلة غير ديبلوماسية. مثلا، الا تتشكل اوروبا، التي هي في طريق التكوين حتى في بعدها الحضاري، جزئيا على الأقل، ضد حضارات اخرى؟ إني اقصد هنا: ماعسى تكون الآثار الاقتصادية والحضارية لاوربا قوية على دول العالم الثالث مثلا؟

إن المشكل هو ان هناك تبعية. وهذا يعني شيئين: انه من جانب المهيمنين، إذا لم يكن هناك تناظر فإن امكانية ممارسة الهيمنة، بما فيها الهيمنة الحضارية، تكون قائمة. اما من جانب المهيمن عليهم فيبقى المشكل هو ان تتحول اختلافاتهم الحضارية إلى عنصر للهيمنة الحضارية. كيف يمكن للحضارات التابعة ان تسلم بأن قبول اختلافهم سيتم اليوم في إطار تدجين سلمي قائم على التكافؤ؟ يستحق درس إلياس هنا ان نمعن في التفكير. ان طريق الصراعات الذي مرت به اوربا الى ان وصلت إلى نوع من السلم الداخلي الذي افرز بدوره التوحيد الحضاري لم تمر به الانسانية كلها. مازالت هناك اختلافات بين الشمال والجنوب، بين الدول النامية والدول المتخلفة. هل يمكن ان نتصور - بدون سذاجة - ان هذه الفوارق يمكن ان تؤدي الى قبول متكافئ للحضارات في الوقت الذي يبين لنا التاريخ الحديث العكس، اي ان الهوية الحضارية القوية هي في الوقت نفسه نتاج وموجه للعملية التي تؤدي إلى الهيمنة؟

ثانياً: يتعلق المشكل الثاني بالكونية الحضارية، تلك الفكرة الجميلة الصادرة عن القرن ١٨ الميلادي والمتعلقة بنشر الأنوار حتى في المناطق النائية من الكرة الارضية. صحيح ان التكنولوجيات الحديثة تسمح اليوم بوجود الحضارات وتدجينها، ولكن الا يتعلق ماتنشره هذه التكنولوجيات بعقلانية وسائلية وبكونية مجردة فقط تقضيان على الاختلافات الحضارية عوض تدجينها؟ هنا ايضاً مازالت فكرة الهيمنة حاضرة.

يجب ان نخصص الوقت الكافي لتحديد مانقصده بالحضارة حتى نعثر على إمكانية تجاوز الثنائية ما بين الكوني والخاص التي تشكل محور كل تشكيلة حضارية. إن الحضارة تخاطب الجميع وفي الوقت نفسه تشكل نتاجا لتاريخ وشروط خاصة. إنها تتكلم للانسان عامة عن الجمال والحب والموت، وتعبر في الوقت نفسه عن مايميز تاريخ جماعة او شعب. كيف يمكن التركيب بين البعد الكوني الذي هو افق كل حضارة والبعد الخاص الذي هو ارضية نشاة هذه الحضارة؟ إذا كانت الحضارة الكونية المقصودة حضارة كوكا كولا وماكنتوش فقط فإنها ستكون مجرد شكل حديث

للهمجية. ولكن ماهي الرموز الحضارية السائدة اليوم في المدن الكبرى للعالم الثالث وحتى في المناطق النائية من الأرياف الافريقية او الغابة الأمازونية؟ إذا قلنا هذا فإننا لا نقصد تمجيداً ماخوياً للفولكلور والجهويات وإنما عدم مماثلة الشروط التقنية لنقل عالمي للحضارة وإيجاد حضارة مفتوحة تقبل تدجين مساهمات مختلف المناطق الحضارية..

● الفكر العقلاني والتقاليد الحضارية:

تؤدي بنا التساؤلات السابقة الى طرح الإشكاليات الرئيسة في الوقت الراهن، وهي علاقة الفكر العقلاني بالتقاليد الحضارية. لقد تمت الحداثة الغربية تحت شعار المعارضة ما بين العقل والتقليد. وقد اخذ القرن (١٩) الفكري عن الإرث العقلاني لعصر الأنوار. وكان الرهان هو إزاحة الخطأ والأفكار المسبقة واقتراح قواعد عقلانية لمعرفة الطبيعة والمجتمعات. وقد عوض علماء الاجتماع الاوائل العقلانية الفردية والطبيعية للقرن (١٨) بعقلانية جماعية وتطورية من أجل تفسير التعقد والتمايز المتزايد للمجتمعات الحديثة. وادى فشل محاولة التوفيق بين «العلوم الفكرية» و«العلوم الأخلاقية» التي واجهت المفكرين الاسكتلنديين الى التحدي الذي يواجه علماء الاجتماع في القرن (١٩) حيث كان من بين طموحاتهم تجاوز العراقيل الأخلاقية للفردانية العقلانية والمنفعية. وقد وجد المشروع العقلاني في الوضعية بديله الأخلاقي.

ان المعارضة المعاصرة بين العقل (مقر المعرفة الشكلية والوسائلية) والتقاليد (مجال التجربة المعيارية) تنتمي لتاريخ معين. لقد انتجت الحضارة الغربية العقلانية العلمية وعقلنة ماهو اجتماعي. وقد خلقت العقلانية العلمية عالما دون ان تمنع تنوع التقاليد الحضارية.

وقد بينت عدة دراسات، منذ ماكس فيبر، الذي حدد خصائص الحداثة الغربية في العقلنة المتزايدة للمجتمعات وفي تمايز مصادر السلطة، المكانة المركزية للعلم والتقنية كقوى إنتاج وكمصدر للشرعية والسيطرة.

لقد اعترف هابير ماس بالتقدير لماكس فيبر الذي عبر بجلاء عن خصوصية الحداثة في عملية عقلنة الحضارات. وقد ميز هابير ماس بين شكلين للعقلانية في الممارسة الانسانية: عقلانية تقود كل نشاط موجه نحو هدف، وعقلانية تنشط التفاعل الاجتماعي او «النشاط التواصلي».

وقد حاول هابيرماس إعادة تكوين الأسس الاستعلائية للمعرفة ثم إعادة تكوين شروط النشاط التواصلي الذي ينبني بداخله الفاعل الاجتماعي في إطار ذاتية متداخلة تتم الاحالة من خلالها للعوالم الثلاثة: الموضوعي والاجتماعي والذاتي. يدعنا هذا التحول في برنامج هابير ماس في إطار معيارية «عالم الاحياء» والتقاليد الحضارية. فهو بهذا يمشي في اتجاه الطموح الطاغي على الفكر الغربي والذي يقتضي التوفيق بين العقلانية والتقاليد.

هكذا يعتبر برنامج مابير ماس محاولة معاصرة نموذجية لأعادة الاعتبار للعالم الرمزي للتقاليد الحضارية وإعطاء العقلانية سلطة في إنتاج الحضارات وليس في اعتبارها سلطة وسائلية فقط.

إن الحفاظ على التقاليد الحضارية في ظرف يتميز بهيمنة الممارسات العلمية والمعرفية والتقنية والحضارية يشكل إحدى التحديات التي تواجه الاقطار العربية ودول آسيا، خصوصاً تلك الدول التي قطعت اشواطاً كبيرة على درب التنمية الاقتصادية كاليابان وكوريا الجنوبية. في هذا الاطار تطرح المعارضة ما بين العقل والتقاليد بطريقة خاصة اذ ما يميزها هو تحديث البنيات التحتية مع الحرص في التمييز ما بين الحداثة والتغرب.

لقد قامت اليابان مثلاً، على مستوى العقلانية الوسائلية والاقتصادية، باستيراد مباشر للعلم وللتكنولوجيا الغربيتين. اما على مستوى الضبط السياسي فانها تقوم بالمحافظة على الهوية الوطنية على النمط التقليدي للسيطرة (الكاريزماتية) حتى مع وجود مؤسسات سياسية برلمانية. وعلى مستوى التنظيم الاجتماعي فإن التقاليد هي التي تتحكم في البنيات التحتية الحضارية (مركبات سكنية، اسواق، مجالات ترفيهية، الخ). اما الحياة الاجتماعية فتقوم على القيم العتيقة (البوذية او الطاوية) كضرورة الانضباط الفردي والعمل والفضيلة والنظام واحترام التعليم والمتعلمين والمقاول والعائلة والكبار والأطفال. وتقوم اشكال الاجتماع على الاعتقاد في إمكانية استيراد العلم والتقنية دون المساس بانماط العيش والمعتقدات. لدينا هنا مثال لتغير اجتماعي يجمع مابين الخصوصية والكونية في إطار صراع جدلي في بعض الاحيان. إن هذا المثال يجعلنا متفائلين لاننا نرى كيف ان قيم التعددية والتدجين الحضاريين ممكنين مهما تكن الصراعات المؤدية للهيمنة الحضارية.



المؤتمر الأول لأدباء إسبانيا وأمريكا اللاتينية

الكتابة والتحديات السياسية

بقلم: خ. أ. غبرييل إي غالان — ترجمة: إدريس الجبروني - طنجة

من الأشياء المعروفة عن «فرانكو»: معاداته للثقافة. إن ديكتاتورية «الموت للذكاء»! كانت اختياراً سياسياً اتخذ بوعي كامل خاصة وان النظام الذي كان قد أطيح به - الجمهوري - كانت ثوريته تسير قبل كل شئ إلى جانب الثقافة. والفرانكوية كانت تعلم بكل تأكيد شيئاً تجهله القوات السياسية الحالية على ما يبدو: وهو أن الثقافة هي المحرك الحقيقي لكل تغيير اجتماعي. لذلك وظفت ضدها كل طاقاتها، في تركيب فعال للدفاع الذاتي، احتجزت المدرسة ومنعت الإبداع وعوضت الفكر بمصالح التجهيل الكنائسي.

اكثرية أولئك الذين كان لهم دور بارز في الازدهار الثقافي في المرحلة الجمهورية كانوا قد استسلموا بطريقة أو بأخرى، أما اولئك الذين ظلوا هنا فقد ابيدوا أو ارغموا على الصمت، وفي أحسن الأحوال سقطت عليهم اكثر الشبهات خطورة.

وفي حوالي منتصف الخمسينات فقط رفعت الموجات الأدبية الجديدة رأسها: الواقعية الاجتماعية والديكتاتورية. كانت في أوجها الكامل والكاتب كان يتصارع داخل شخصية فصامية. كان الإبداع والعمل السياسي قطبين اجباريين لايمكن التخلي عنهما في ذلك الإطار القمعي والعذاب المعمم. وتعددت أشكال الالتزام بدءاً بالكاتب المشاهد البسيط إلى اولئك الذين وضعوا الإبداع في المرتبة الثانية لكي يتعاطوا كلية النضال السياسي، وكان أدب تلك الفترة أدباً نضالياً، عاجلاً، والتسمية المشتركة كانت مناهضة الفاشية.

كان هؤلاء الكتاب يمارسون التفاؤل التاريخي. الشئ الذي لم يكن يحمل أية مفاجأة، لقد سبق «لنيتشه» أن قال بصدد العالم الكلاسيكي، انه في الفترات الصعبة والقاسية والمتميزة بعدم الاستقرار، كانت روح الاغريقي متفائلة، بينما في المراحل المنطقية والطبيعية النفعية والديمقراطية كانت تسيطر عليه حالة تشكك وتشاؤم وحتى مأساة. فكرة «نتيشه» يمكن تلخيصها في السؤال التالي: هل كان «ابيقور» متفائلاً، وبالضبط كإنسان يتعذب؟ إن المثقف اليساري في النظام الفرانكاوي كان يثبت نفسه في قناعته بأن التاريخ يجري لصالحه، إلا أن أمتعته الإيديولوجية كانت ضعيفة بشكل مقلق، يمكن اعتباره هاوياً مشاركاً في حملة لمحاربة الأمية، وفي هذه الحالة حملة التوعية. الكتابة كانت بالنسبة إليه توعية.

إنه موقف يشبه النادرة التي كانت تُروى عن «دومينغو دومينغين» (Domingo Dominguin). يظهر أن هذا الرجل اللين والمأساوي في الوقت نفسه، كان في الاربعينات يذهب رفقة صديق له إلى بوادي «إكسطريمادورا» (Extremadura) في سيارة فخمة. وعندما كانا يمران أمام العمال المياومين وعمال المزارع كان يسبهم ويشتمهم، وهؤلاء كانوا يدورون نحوه بغضب وعنف، وكان «دومينغين» يضغط على دواسة البنزين ويشرح لصديقه عمله هذا: «بهذه الطريقة نوعّيهم بصراع الطبقات»، أخشى أن يكون كتابنا قد استعملوا ما يشبه هذه

السذاجة في عملهم لخلاص الشعب، ولكن، في الاخير، بما انهم لم يكونوا في العمق فاعلين فان التعب سرعان ما ترك اثره عليهم، واقتنعوا ان كاتبا حقيقياً ليس عضواً في حزب افضل من كاتب سيئ له عضوية في حزب. وهكذا قرروا الرجوع إلى تقوية مواهبهم الإبداعية والحضور كمتفرجين فقط في ميدان مصارعة الثيران الإيبيري المتوحش. ولم تكن تلك خطوة سهلة، بالنسبة لبعضهم بل كان أول تراجع كبير وأول خيبة كبيرة. وصادف وكان مؤتمر «هابانا».. هو الأوج واعتبر آخر نشاط سياسي لهذه المجموعة.

إن خيبة الأمل شعور ذو مفعول مضاعف يولد بعداً ونفوراً خاصاً ويعجل التغييرات العقلية، وقد تشتتت المجموعة إلى الأبد. بعضهم هاجروا وبعضهم فاجأهم الموت المبكر، وآخرون انسحبوا إلى معسكرات شتوية وتعددت القراءات وكذلك وجهات النظر. وكانت هناك دروس سريعة في البنيوية واللسانيات، وسمحوا «للرواية الجديدة» أن تدخلهم خفية وكان صعود الرواية الأمريكولاتينية قد بدأ، وهبط نجم الشاعر «أنطونيو ماشادو» (Antonio Machado) وصعد نجم الشاعر «ثيرنودا»، وبدأوا كلهم تقريباً ينظرون للسياسة كزوج ظالم ومخيب للامال، الاحزاب التي كانت ما تزال سرية فقدت سحر الأيام الماضية، وحتى ذلك الوقت كانت توقع بيانات الاحتجاج والعرائض، لكن ذلك لم يكن سوى مُسكّن، مثل الذي يضمن الشيء بإمضائه دون أن يكون على اقتناع بالقدرة على فعله. بعضهم اعترفوا أنهم بالرغم من كل شيء لم يكونوا قط ماركسيين، إنهم في النهاية اكتشفوا الالتباس الكبير: مناهضة الفاشية والماركسية أمكن أن يلتقيا ظرفياً، ولكن لم يكن ضرورياً أن يحملا في المعنى الدقيق مصطلحات متشابهة. فيما بعد انضمت أجيال جديدة من الكتاب تهيأوا قبل أن يخرجوا من قشرتهم واستطاعوا بمهارة الاتصال بجماعة من الكتاب الشبان.كانوا وقتئذ موضة؛ لم يكونوا قد عانوا صدمات الحرب، فقد شهدوا جروح الديكتاتورية فقط، لكنهم اكتسبوا متانة ثقافية كبيرة. قراءاتهم كانت جامعة اكثر وغير خاضعة لأي مذهب، ودرجة تسييسهم اكثر عالمية، علينا أن لاننسى انهم كانوا يعتبرون انفسهم براعم ماي الفرنسي. كانوا يطالبون فوق كل شيء بحق تغيير الرأي أو المذهب وبالطوباوية وببعض اللاعقلانية وبطراوة فوضوية. كانوا الأطروحة المضادة للواقعيين، وإذا كان اولئك قد تحدوا الدكتاتورية فهؤلاء سيتحدون السلطة في أي مظهر من مظاهرها.

إلا أن الظروف السياسية في إسبانيا عجلت الأمور. فموت فرانكو كان حدثاً قد طال انتظاره وعندما وقع يبدو أنه فاجأ الآخرين. انّ الطبقة المثقفة اخلّت بالتزامها كثيراً، حتى إذا جاءتها الساعة لتحيا انتقالاً كبيراً، موضوعياً قابلته بعدم ثقة مدمرة وغير اعتيادية. الطبقة المثقفة عاشت الانتقال الديمقراطي بابتعاد وانكار.

إن موقفاً من المواقف الفوضوية مس أغلبية الطبقة المثقفة عندنا لدرجة أن الشك الجذري أصبح موضة أو قاعدة، والحالة انه عندما ظهرت الحرية في اسبانيا وضعها الكاتب في محجر صحي، الأعوام الكثيرة من الرقابة الماضية اشترطت غياب الفطنة والحداقة، والحرية ظهرت فجأة كتحد للخيال، وصادفت أكثر من واحد، وعاكسته في تمارين للكسل العقلي ونكران المخاطرة.

نعيش إذن (في اسبانيا) خيبة الأمل الوضعية، وتشخيص المرض الذي قام به نيتشه قد تحقّق عند الدخول في مرحلة ذات عقلانية ديمقراطية، وقد سيطر على عقل الكاتب مزاج تشكيكي وبقي التفاؤل التاريخي الذي أفرزته الآلام الديكتاتورية بعيداً. كذلك فاننا بعيدون عن امبراطورية الخيال.

إن النهاستية التي تأخذ طابعاً خاصاً ليست فقط عائقاً لاتصال العمل الادبي بالمجتمع، وإنما تتضمن كذلك نوعاً من اليتم الثقافي ذي المفعول الذي لا يمكن توقعه. الحقيقة ان ميلاد الديمقراطية ليس قادراً على خلق حماس كبير وان الانتقال ثقافياً كان مخيباً للأمل ولكن الواقع ان الثقافة في هذا البلد ترتاح على مهد الأرواح الغامض والرخو، ويسهم في هذه الظاهرة بصفة حاسمة عدم تعبئة «الانتليجينسيا» الإسبانية، غياب الإحساس بملاحظة ما يجري، هل هو موقف اتخذ بوعي؟ إن المجتمع في هذه القضايا مرتاب وهو يقابل لامبالاة المبدع بنفس العملية.

ويبدو ان المثقفين يتعبأون فقط عندما يكون لهم دور في الأحداث، وفي المسلسل الإسباني ليست هناك قطيعة، ومن جهة أخرى فإنهم لم يتحملوا أي دور خاص في التغيير السياسي المتميز بالحذر والأخطار الكامنة ـ وتجدر

الإشـارة إلى المـوقـف المتـخلف الذي استقبلت به الطبقة المثقفـة (التي لعبت دوراً في التغيـير سنـة ١٩٣١) مجيّ الجمهورية بالبرودة التي استقبلت بهـا دستـور ١٩٧٨، ولايمكن أن يقـال ان دستور ١٩٣١ كان متقدماً ـ من وجهة النظر السياسية ـ على الدستور الحالي.

إننا (في اسبانيا) نحيا في المرحلة الحالية خـاضعين لنـظرية «ما لايمكن تجنبه» ما لابد منه. أزمنة يسيطر فيها الحـذر والإمكانيـة والتعاقـد والتراخي السياسي، وهي أشياء لايشتهيها الذين يرغبون في القطيعة الثورية والطوبـاوية والارض المحروقة أو تدمير وهدم كل شئ. وفي هـذا المناخ، ليس كمـا يدعي بعض صـانعي الكـوارث في الصـالونـات: إن الاحزاب السياسيـة التي تتحرك فيهـا الطبقـة المثقفـة لايمكن إلا ان تصـل بتناقضها الخاص وهو استحالة تطبيق ايديولوجيتهـا، فلا الحـزب الاشتراكي العمـالي يقوم بسيـاسة اشتـراكية، ولا الشيوعيون يقومون بسياسة شيـوعية الخ... ويظهر أن الانتخابية هي ميـدان عملهم الوحيـد، وهذه ظاهـرة مشابهـة لظاهرة نظرائهم الأحزاب الغربية.

أمام هذه الظروف المعاكسة، كان من المنطقي أن تلقي الأحزاب اليسارية بكـل طاقاتهـا في الميدان الثقـافي بهدف تحقيق تغيير اجتماعي عن هـذا الطريق غير المباشرذي الفعالية الكبرى على المدى البعيـد. ولكنها لم تفعـل ذلك. إن عمى البصيرة عند هذه الأحزاب قد وصل إلى حدود بعيدة، ولا يمكن إرجاعها إلا إلى عـدم الفهم القـاعـدي لمعنى الظاهـرة الثقافية، وكأن هذه الظاهـرة عبارة عن إضافة زخرفة أو زينة، أو شذوذ زائد أو بند بلاغي بسيط في الصفحات الاخيرة من برامجها، كأن الثقافة يشتغل بها من ليست لهم القدرة على فعل شئ آخر.

هذا الجهل لايمكن أن يكون نتاج مصادفة، وإذا كانت الأحزاب الإسبانية تعاني من فراغ في مضمـونها الثقـافي، فذلك راجع أساساً إلى خلل وعيب لدى المثقفـين، وإن سوء الفهم المتبـادل هـو مسـألة مسلم بهـا، والحقيقـة هي أن الديالكتيك بين الحزب والمبدع هو جدل مفتوح وقائم، قوي في عدة دول غربية، ولكن في إسبانيا الانعكاس عُوِّض بتكتيك الفعـل الكامـل والنهائي. وهنـا لم يجر نقاش: الكاتب صفق الباب وراءه وذهب. وهذا أسوأ بالنسبة للأحزاب السياسية وللكتاب انفسهم.

هـذا الطلاق ستكون له عـواقب وخيمـة. علينـا أن نضيف إلى الفـراغ الثقافي لدى الأحزاب السياسية والمجتمع الإسبـاني عـامـة يُتم الكتـاب الذين يحاولون إخفاء عـزلتهم وتشتتهم تحت مـواقف تنازليـة واطئـة لاأهميـة لهـا. لايدافع أحد هنا عن نضـالية الكـاتب، وهي مسـألة لاأهميـة لهـا عـلى هـذا المستوى. من المعروف أن المثقف يناضل فقط في فترات تاريخية إستثنائية. ما أريد ان أشير إليه في هذه اللحظة هو، الهاوية التي تفصل الكاتب عن واقعه السياسي والاجتماعي، مشاركته المنعدمة تقريباً في الميدان العمومي، وبالتالي قلة إنعكـاس عمله، ربما لم يعرف تاريخنا أبـداً مثل هذا الفصل الهائل، ومثـل هذا الجهـل الجـذري المتبادل، كـل واحد في جهتـه يتباهى بإدارة ظهره.

الاشباع الناتج عن أربعة عقـود من الآمـال المتجـددة والبـائـدة، هـذا الإشبـاع وحده يمكن أن يفسر المـوقف السلبي لاكثرية كتابنا.

مـا العمل بـالحريـة؟ صـحيح أن الحرية ليس من الضروري أن تقودنا إلى أعمال فنية رفيعة، ولكنها ـ وإن بدا هذا غريباً ـ لاتقودنا كذلك إلى تحقيق تطابق مع المجتمع. إن الأداة المسماة بالحرية هي في يد المبدع الذي ينظر إليها ويعيد النظر فيها، ولايعرفها، وكأنها شئ غريب عنه، يتركها في المكان الذي وجدها فيـه ويتابع طريقه.

إسبانيا غيـرت نظامهـا السيـاسي ودخلت مرحلة تاريخية جديدة. ولكن يبدو أن الكـاتـب لايعـلم ذلك. إن الأزمنـة الحديثة لبلده لاتصلح له لأي شئ فهو لم يسهم فيها ولا يشعر بأدنى رغبة في ذلك.

لقد قال «خوان غويطيسولو، Juan Goytisolo» في مقال حديث له، إن الكاتب الإسباني تمتع لمدة أربعين سنة بامتياز تعظيمي هو انـه كان ضمن المعـدومين كمجرمين، لكن لم يبق حتى هذا الاتهام، وحتى القـدرة عـلى التحـريض، حتى الشحنة التدميرية في معناها العميق يظهر أنها فُقدت.

إن السقوط في الشك كمـا وصفه نيتشة كان يجب أن تنتـج عنه مـواقف إبداعية عميقة ومجددة، تمارين للخيال أوج أشكـال جـديـدة. وفي الواقـع ان الجمـود والانسجـام البيئـي الأكثـر استعجـالاً يسـودنـا حتى اللحظة.

عن المجلة الإسبانية:

EL Viejo Topo, No. 35

ملامح الرواية الغربية في

● ترجمة : د. المنجي الصيادي ـ تونس

يمكن التعرف على الحركة الادبية الروائية والقصصية والشعرية عن طريق الكتب المترجمة الى لغة يتقنها قارئ العربية، وذلك بواسطة المقالات التي تنقد محتواها وفنياتها في الدوريات.

سنحاول عرض أهم الاتجاهات التي يقودها كبار الروائيين الفرنسيين فنجد في المقدمة كلود سيمون الذي حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٨٥. وهو مستمر في مسيرته الأدبية الفريدة. وقد نشر له هذه الايام كتاب (L'Acacia)(شجيرة الإكاسيا). والآن، وقد بلغ الخامسة والسبعين من العمر مازالت تحيط به هالة من الغموض. وقد تجلى لكثيرين من النقاد ان هذا الروائي منذ نشره لخمسة عشر كتاباً سنة ١٩٤٥، فان عشرته للرواية الجديدة يكتنفها من الغموض. وكان جانب مهم من الادباء الفرنسيين يتظاهرون بالقول بان سيمون لم يكن في مستوى الجائزة، لانه لم يكن على موعد مع وسائل الاعلام والمصورين.

يتميز هذا الكتاب بمقاطع نثرية مطولة. فالجملة تحتل الصفحة والصفحتين: وهذا كثير في الكتاب: كان الكاتب يدفع آلة لسحق الكلمات وتأطير العالم في كلمات. فكان يكثر من استعمال الحال ويلون لغته مصححاً متردداً مكرراً، بحيث كان النص يتقدم عبر العود بالخطاب الى التدفق. هكذا يكون المؤلف مدققا تدقيقا مرضيا في كتابة مجهرية او مكبرة وكلتاهما في امتزاج متواصل بحيث لايمكن التمييز بين «الباطني» و «الغيري» الذي تبرز فيه العلاقة بين الذات والموضوع (وهو اسلوب يتناقض مع مادرج عليه آلان روب غرييه). كان الاس اللغوي والنحوي بطيئاً ساحقا مستمرا ولايشبه اي نثر غيره فلا جدوى من التشبيه بنص بروست لاختلاف المنهجين الجماليين.

رواية كلود سيمون

كتاب «الاكاسيا» يعود الى طرق اغراض واستعراض شخوص كان قد ادرجها الكاتب في نصوص سابقة: «شؤون عائلية، وصف العوانس، الحرب، "حرب اسبانيا"». ماهو الموضوع؟ الأب في هذه الرواية (كما كان في واقع المؤلف) ضابط فقير يتزوج قبل حرب (١٩١٤) وارثة عائلة من زراع الكروم، فانتقل بها الى بلاد الزنج (لنتذكر ان سيمون ولد سنة ١٩١٣ في مدغشقر وكان ابوه ضابطاً يعمل في هذه الجزيرة، وقد ورث حقلا) لكن الاماكن والشخوص غير واضحة في ثنايا الرواية. وهذه احدى مهارات سيمون الذي لايسمي الشخوص والاماكن دون ان يعطل ذلك القارئ. تمتد الرواية على قرن (١٨٨٠ ـ ١٩٨٣) فينطلق المؤلف من وصف الحياة قبيل الانتقال الى القرن العشرين، ثم ياتي التجنيد وتندلع حرب ١٩١٤، وتمر فترة مابين الحربين الى ان تحل بفرنسا هزيمة ١٩٤٠. وبعد الفراغ من المطالعة، نكون قد ألممنا إلماماً عجيباً بالمشاهد الاجتماعية والتاريخية والعاطفية التي عاش داخلها البطل دون ان يكون له اسم. وتتميز بعض سمات المؤلف عبر وصف هذا «التعريف».

إن المواقف المعبرة في الرواية تظهر في وصف الابوين والخطوبة والزواج. وهنا مشهد آخر رائع حين تزور الارملة صحبة ابنها وسلائفها ساحة الوغى مؤملة العثور على اثر لموت الضابط سنة ١٩١٤. وكانت المشاهد المؤثرة عن الحرب الثانية بديعة ايضاً وساعدت على اعادة تشكيل مايكتنف الرواية من اسرار وتواريخ ومواقف لصيقة بالوجود الانساني.

مثل هذا الغرض الروائي يتناوب فيه العمل الروائي المحض والترجمة الذاتية الأشد تقليدية، وتكمن براعة الكاتب في المبنى والشكل اللغوي الذي توخاه سيمون الذي تراكمت لغته بدل ان ينتقي مفرداتها، ففصلها تفصيلاً بدل التعجيل.

الصورة للفنان التونسي عبد الرزاق ال

عام ١٩٨٩

وجعل الوصف سميكا بدل ان يرققه.

اعتبر بعضهم ان هذا الاتجاه يخون موسيقى الجملة الفرنسية التي دبّقها ورقصها، مع انها كانت لها نوعية هي البراعة والابتكار. فإذا قال بيكاسو: «أنا لاأبحث بل أجد»، فان سيمون يتوخى العكس إذ يسري الاطمئنان الى كتابته الى حد القدرة على السحر المبني على إصرار البحث والتنقيب متخليا عما اتصف به «الاسلوب الفرنسي» من ميزات رسمية مطرية. لعل المؤلف بعد هذه المغامرة المتعبة انفرد بأقوى ابتكار في الادب الفرنسي الذي ظهر بين الخمسينات والثمانينات، والذي لم يجاره فيه اي كان.

بهذه العلامات على طريق ارتياد هذه الرواية يمكن القول ان «الاكاسيا» تنضوي في ادب المدرسة الطبيعية لأن لسيمون فنا بسيطا قابلا للتطبيق، إذ أن اصالته وتحكمه في الاسلوب يظهران في التركيب والملاءمة بين الفصول المتميزة بتشابك المشاهد وتنوعها. وقد استخدم المؤلف كافة الاصناف الادبية كالغرض الملحمي والشخصي والمأساوي والتافه. ولايقتصر عمله على المجموعات الواسعة بل ان المناظر الفخمة محببة إليه حيث ينزع الى ذكر الاشياء المفضلة لديه كالطوابع فوق بطاقة بريدية، والنظارات التي يضعها الميكانيكي على جبينه، والرايات والاسلحة التي تذكر بالمشاهد الحربية.

وليست هذه الجزئيات لارضاء شهوة البصر فقط بل ان الكاتب يستجيب للنزعات السمعية كقصف المدافع وترنيم الوقواق وصفير القاطرة. لقد بقي كلود سيمون وفيا للمبدأ للاكبر في فنه الذي اعلن عنه في خطابه خلال تسلمه جائزة نوبل حيث قال: «لايكون عملي البرهنة بل العرض، ولا الاعادة بل الانتاج، ولا التعبير بل الاكتشاف». إن نسيج نثره مرصوص بصورة رائعة، ويتشكل من مجموعة من الانعكاسات والاصداء واللوازم والتسلسلات والمطابقات. يكون الواقع في نظره مشوشا ضخما. فاذا كانت القراءة تعني الوصل، فان الكتابة تذكر. إن كل لغة منظمة تنتج معنى وهي معنى. فكثيرا ماقيل ان جملته الطويلة قادرة على قنص اقصى مايمكن من «الواقع» بمنعرجاته وثناياه وتقوساته. لم تكن حركة اسلوبية لاإرادية لأنها تتناوب مع جمل قصيرة لاتقل عن الطويلة قوة ايحائية. إن ولعه بالمحسوسات لايبطل الحدث التاريخي بكوارثه ومباهجه. ومع أن الانسان لاينال من الكوارث إلا انطباعات جزئية، فان التأليف الروائي حتى برفضه للكلية المنطقية للنموذج الكلاسيكي، فهو يحرك تفكير القارئ بمناسبة ذكر جزئية ملموسة، مثلاً صوت القيقاب ليلاً، أوماتكتسبه الاحداث من بعد ملحمي. ويبلغ سيمون هذا المستوى بالعمل اللغوي الذي يركزه على كل مفردة مستغلا كافة الموارد اللغوية، مجمعا أجزاء حياته التي بقيت عالقة في الذاكرة، فيجعلنا نرى العالم وربما نفهمه ببصر جديد كما قال سنتيانا: «إن الشعوب التي تنسى تاريخها محكوم عليها أن تعيشه من جديد».



كلود سيمون

وفي الجملة فان رواية «الاكاسيا» تتميز بتماسكها العجيب الذي يكفل «رجوع» الشخوص والاوضاع والاغراض. وهي تشكل مرحلة جديدة لاتتسم بتكاثر «الغريب» كما في الروايات السابقة، بل بالتركيز والتهذيب الكلاسيكي لامحالة. فتحتل هذه الرواية مكانا بيوتها المكان الذي احتلته اعترافات روسو، ومذكرات من القبر لشتوبريان وبحثا عن الزمن الضائع لبروست[1]، تلك الملاحم الذاتية الكبرى حيث يحول إنسان بين الناس تجربته الفردية الى قطعة من التجربة الانسانية الكونية.

الطريقة التي توخاها سيمون في كتابة هذه الرواية، هي ان الكاتب يتذكر ستندال وهو يعبر الجبال نحو ايطاليا مع الجيش والذي وصف المواقف الحربية الضخمة في صفحة واحدة، اي في صورة فريدة. في المؤلفات التي تكتسي طابع الترجمة الذاتية يحرر ماهو موجود في حاضر الكتابة ومايوجد في الذكرى بالتشويهات المرتبطة بكل ذاكرة وكل كتاب. ولذا فسيمون يقول أنه يفضل القول إن كتبه الاولى مؤسسة على المعيش. اما عن تكوينه الثقافي فكان المعتقد ان يتخرج قسا لكنه انسلخ عن ذلك فتفرغ الى تكوين عصاميته الثقافية، فكان يزور متحف اللوفر ويهتم بالموسيقى لأسباب عائلية. وقد تعرف على التيارات الأدبية (السريالية خاصة) بمجهوده الفردي وبمحض الصدفة. فالى جانب كسله وميله الى

الراحة كان فضوله الفكري واسعاً. كانت نزعته تقوده الى الابتعاد شيئا ما عن الكتابة الخيالية والاستناد الى واقعه القريب فاستمد موضوع كتابه من حياته العائلية.

وهناك وجهة اخرى في الرواية الفرنسية البارزة تتجسم في اللجوء الى المكتشفات العلمية والثقافية لحبك موضوع بوليسي او تجسسي ولعل ذلك بتأثير من الحركة التي تجسمها تقنيات السينما والتلفزيون. من ذلك رواية البحيرة تأليف جان إيشينوز، التي تستمد مادتها من علم الحيوان فتمكن الرواية الفرنسية من قفزة نوعية، إذ تدور الاحداث رفقة الذباب الذي قل ما حظي بعناية الكتّاب، ولاغرابة في الامر لان المؤلف درس الكيمياء العضوية. إن بطل الرواية عالم حشرات ملحق بمتحف التاريخ الطبيعي. والى جانب انشغاله العلمي العابر كان يمارس الجوسسة. وقد اتضح من خلال أطوار الرواية ان الايجاز في الكتاب ماهو الا انعكاس للسرعة التي بها يعرض علينا الاعلام في كل لحظة. لم تعد التحاليل النفسية المطولة قاسماً مشتركاً في العمل الروائي ولا هي أداة عند المؤلف الا بقدر ماتتضح التفاعلات بين الاشياء قبلَ بما تبوح به الانفس.. من هنا كان السبق للوصف الشيئي بدقة نابعا من رقة الملاحظة. فعلى سبيل المثال يغتنم الكاتب فرصا لغيابات ابطاله لوصف دقيق ـ كعالم الحشرات ـ لأسواق البقول والفواكه خارج باريس وعدة مناطق وأحياء تجارية وكل موقع تدب فيه الحركة كدبيب النمل وراء الفتاتة ... الاهتمام بهذه الرواية يعني جرد مايتخبط على السطح ومايسبح في الاعماق. يرى المؤلف ان عالمنا الغريب قد سيطر عليه عهد المعادن وعهد النبات وعهد الحيوان، التي اصبحت عنصرا فاعلا في حياتنا اليومية. إن هذا التجسيم الحامي يطرحه المؤلف الهازئ بثبات ولطف وينحو بنا الى الخيال لان مثل هذه الروايات تسبح في عالم الشكل والاضطراب، وفك العقدة وحده يضفي عليها بعض المعقول.

كان المفروض ان يحشر هذا الصنف من الكتّاب في زمرة من عرفوا بالجدد بين الروائيين الذين كانوا لايأبهون بعلم النفس، بل كانوا ينزعون الى «سبر الكلي» قبل القلوب والخواص. لم يكن هذا الجيل ملاطفا لانصار روب غرييه، ولاعطوفا على بني الانسان الذي أنزل الى الدرجة الاخيرة في سلم الاجيال بعد القردة وزهر الربيع. نرى الشخوص مفككين بصورة مضحكة يقفزون قفزات قردية ويتبخرون كالحصاة في المحيط. وفي الجملة لم يعد بلزاك مقبولا اليوم. لقد زال البطل منذ وقت بعيد من الرواية، ولن يكون هناك حتى شخوصات. يترك الانسان المكان للاطار الذي يصبح مهيمنا على مأنسنا. وستكون السلامة في الشئ لم يعد البطل يجد له دورا ولو ضئيلا. هذا مايتبناه دعاة الرواية المقبلة للخروج من المأزق الذي تردت فيه الكتابة الروائية. اصبح بلزاك متهما، ولو عاد بين الكتاب لكان العجب العجاب يغرقه في هذه التيارات الساخرة التي تجعل الكاتب يبحث عن النشوة في جمال حصاة.

● جولة مع الروايات الاجنبية المنقولة الى الفرنسية

روايات إسبانية:

سنبدأ برواية اسبانية للصدى الذي تركته رواية خوان بيلي «سوف تعود الى بلدة ريجيون».

يبني المؤلف نصه في عالم يُشيّد بالتدريج حول القارئ، عالم ريجيون الارض القاحلة التعريضية اكثر منها المجازية. هي قطعة من اسبانيا شاهدة على اسبانيا كلها، وخلاصة لوضعية الانسان، ويكون دخول القارئ في لب الرواية كمن يطالع قصة صبيان الجزيرة السرية لجول فيرن. يصف في الفصل الاول هذه الارض مستقصيا ظروفها الجغرافية والمائية والحجرية ومقابل التاريخية، فتتسرب منها شاعرية المعاجم العلمية. النبات والحيوان يكملان هذا العالم المغير لانتاج مناخ صغير ماورائي حيث يكون الانسان عبداً للاساطير والتاريخ. ثم ينصرف الكاتب الى السرد الملحمي والمصير الجماعي الذي يؤول فيه النظام الى اضطراب وتخلف اوراق القمار الخرائط. وتدور الاحداث حول شوط من لعبة البكّارا، فتتشابك عبر الاحداث حركات الضمير والذاكرة والنسيان. لقد فتح هذا الكاتب الذي يمتهن هندسة الطرقات سبلا كثيرة لتسليط التفكير على اسبانيا وحربها المدنية وعلى الايديولوجيات. كما ابدى تأملات حول الغريزة والعقل ووضعية الانسان الحديث. ان هذا الكون بمصائبه وسقوطه كما حورته الرواية لايدعمه سوى اسلوب استثنائي من اعظم ماعرفته إسبانيا. هذا كتاب انحناء الفضاء الذي عليه يتجمع كل شئ حول مركز فارغ. إنه بمثابة حلقة في إصبع القارئ تربطه بافلاسه وتجبره على عيش حياته الزائلة.

هذا الكتاب الفريد من نوعه انفصل عن «جيل الكرنب»، والمقصود ماجاءت به الواقعية الاجتماعية من غمغمة شهّرت في الكتابة الأدبية بنظام فرانكو فكان هذا الكتاب منطلقا لناغة أدبية.

و«بيني» ميّال مثل كلود سيمون السابق ذكره الى الجملة الطويلة جدا الملتوية المشبعة بالمنعرجات والجمل الاعتراضية. إلا ان لغته اكثر غنائية وهي تجهل اللطائف التي اصطبغ بها التأليف الروائي الفرنسي. وما توخاه «بيني» هو الرواية التكرارية للاحداث حيث يعود مرارا الى سردها مع تلوينها. فجاء أسلوبه مناقضا طبعا للقواعد الاولية التي اعتمدها القرن التاسع عشر والتي عرفها قبله سرفانتاس ومؤلفو روايات الفروسية. «ريجيون» التي تتموضع حولها الرواية هي الفضاء وايضا الزمان او الازمنة المتدافعة المتداخلة كأن الكارثة أصابتها.

للزمان في الرواية قيمة جوهرية يسمو بها عن التقسيم الى عصور، والزمان والفضاء كلاهما يساهمان في الرواية بحيث تكون العقدة ذات صبغة اداتية. وإذا ماقصرنا النص على لحمته الزمنية

فلن يكون سوى رواية رخيصة. لكن مايخلب الالباب ان الكاتب يعطي لكل مكان ولكل حين وزنا وحضورا، فيصبح كلاهما أجزاء من الواقع. ومايسحرنا ان يسحق الوقت الحياةحتى ان البلدة التي تدور عليها أحداث الرواية هي عالمنا الأرضي الذي نقلت منه عبر الخيال ونعود اليه حتما.

ولنشرع الآن في استعراض بعض الروايات حسب الاقطار: البرتغال البلد المجاور لأسبانيا صدرت فيه رواية بعنوان «غابة استوائية». المؤلف من مواليد ١٨٩٨ نشأ في بيت فقير في الريف البرتغالي. وقد اشتهر بقدرته الفذة على وصف روائع غابة الأمازون وفظائعها، والاشارة الى غرائبها وخوارقها الناشئة في مناخ كله ماء ونار. وبراعته اكثر ماتبرز في وصف البشر المقيم في هذه الغابة الكثيفة التي تنفرج بعض أماكنها لأيوائهم سواء كانوا من المتوحشين او البدائيين او المواطنين الاصليين او المولودين على ارضها او الفلاحين الاحرار، او العمال الزراعيين او المعمرين او الزراع او التجار وأيضا المنبتين والمهاجرين، منهم المؤلف نفسه «فرّيرادي كاسترو» الذي رحل الى هذه الغابة لافضولا او لتأليف كتاب، بل لكسب قوته بصفته مهاجراً برتغاليا وضيعا.

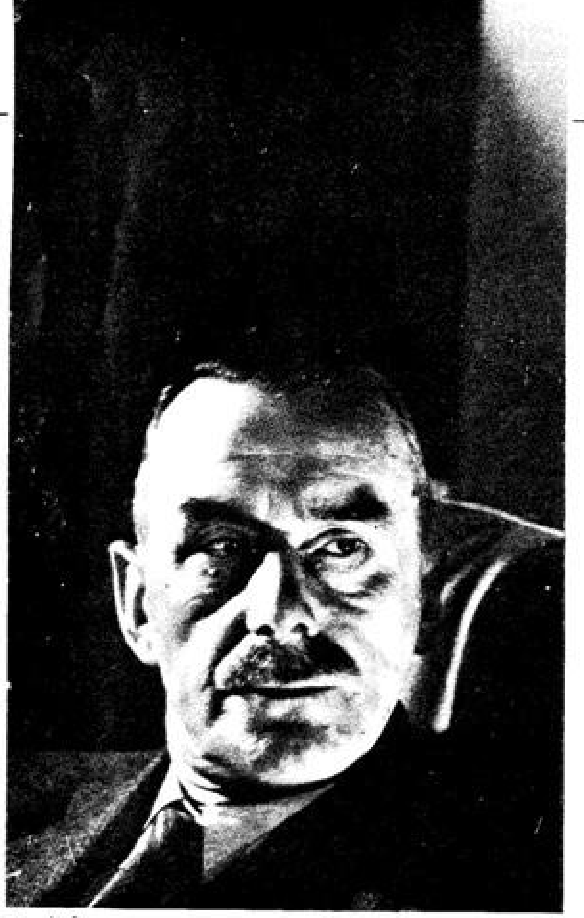
روايات أمريكية:

نبدأ «بحكايات مستحيلة» تأليف أمبرواز بيرس الذي ألف هذا الكتاب فظهر بمظهر الخصم العنيد للأخلاق في مجموعته القصصية (١٧ قصة) المنتمية الى مجال الخيال والخوارق. اعتمد المقومات المعروفة في هذا الصنف القصصي كالبيوت المسكونة بالارواح، والغابات المسحورة والاشباح، وهو يتجاوزها بأسلوب الكتابة الباردة وسخريته السوداء التي تشبه ماتوخاه السورياليون في مجال المواقف الساخرة.

اما دارسكين كالدوال المولود سنة ١٩٠٣ في جيورجيا فقد اشتغل مراسلا حربيا وروائيا. ألف طريق الدخان (١٩٢٣)، والفدان الصغير للرب واستمر يكتب الروايات: سبل الإله، أرض المأساة (١٩٤٤)، ليلة الصيف الاخيرة (١٩٦٣)، والقصص. اما في هذا التأليف (المصباح في المساء..) فهو يواصل تصوير حياة «البيض المساكين» في جنوب الولايات المتحدة.

جوزيف هيلير ولد في حي بروكلين سنة ١٩٢٣، واشتهر بروايته «كاتش» (١٩٦١) التي نالت نجاحا باهرا. وهي تشتمل على شخوص مدهشة، منها الطيار الذي يقذف سربه التزاما بتعهد مع الالمان، والعقيد الذي ابتكر المادة إرضاء لتعطشه للقسوة الدامية، وبموجب هذه المادة يمكنه إرسال جنوده الى التهلكة. اما البطل المضاد فهاجسه الوحيد ان «يبدو مصعر الوجه» (للهروب من القتال).

نورمان مايلر وكتابه (لماذا نوجد في فيتنام؟) لايتحدث الكاتب عن حرب فيتنام بل عن الخروج الى الصيد في جبال الاسكا. اما



توماس مان

اختيار هذا العنوان بالذات فهو يخاطب به امريكا برأسها المقلوب، ويدعوها الى التأمل في مصير أبنائها. ابطال الرواية يجسمون مافي أمريكا الفتية من مغالاة معصوبة. ولمتابعة الابطال اللاهثين وراء الذئاب والدببة عبر الغابات والجبال، يكون مايلر قد رسم صورة اكثر ماتكون قساوة للمجتمع الامريكي.

روايات انكليزية

«في بلاد بطاغونيا» لبروس شاطوين الذي اقتحم عالم الادب بامتياز بفضل هذا العمل، واستمر في الكتابة. بما ان كل مسافر هو حالم قبل كل شئ فان بطاغونيا كما يراها شاطوين تشبه مُخلف من غرباء الاطوار، مثلها مثل مخالف الهنود الحمر. فالثائرون والمنبتون والشواذ يجتمعون في هذا السهم الارضي المتجه الى القطب. فيوجد مزيج من ابناء اسكتلندا وإن بطاغونيا عند بروس عبارة عن موطن للثراء الادبي.

إن جون كاوبر بويس (١٨٧٢ ـ ١٩٦٣) من الوجوه المدهشة في الادب الانكليزي. ألف ترجمة ذاتية وقد اجمع اساطين النقد العالميين على إبراز اربع روايات كبرى في مؤلفاته هي: رمال البحر، وولف صولنت، سحر غلاسطونبوري، معسكر محصن الذي نفخ فيه المؤلف من عبقريته المتقلبة فاحيا شخوصات معقدة يتقاطع مصيرها بالاغراض الأساسية في المدرسة الكاوبرية، اي الخشية الخفية من



فرانز كافكا

النيرالابوي، وهيمنة الانحرافات الجنسية والذهنية المصحوبة بأحاسيس شبقية صوفية لايمكن وصفها بحيث ان ادنى حدث أو أعظم الالغاز تتحول الى سحر. وهكذا اصبحت دورسستر مدينة مسحورة في نظر الكاتب، لها سطوة لايمكن تعليلها، لكنها بارزة للعيان وعلى هذا الاساس فان هذا التاليف وغيره يفرض نفسه كواحد من الكتب القوية التي ظهرت في النصف الثاني من هذا القرن، الى جنب ماكتبه جويس وبروست وكافكا.

أما ماري وبّ (١٨٨١ ـ ١٩٢٧) فكانت تكن حب مبرحا لمسقط رأسها شروبشاير. نشرت روايتين «السهم الذهبي» و«الثعالة». أما رواية مارن فستكون اول عمل ناجح من خلاله يتأكد مزاج المؤلفة الذي يمزج بين الحنين والحلم، ويجعل من المؤلفة الدافع المرتجف على الحياة في الريف.

فمن خلال قصة جيديون مارن الطماع الشحيح وأخته المشوهة الوجه القبيحة المنظر، جاءت هذه الرواية مشحونة بالحرائق والسموم والاطفال اللقطاء. وهي عبارة عن حكاية اخلاقية حيث يتغلب النظام على الفوضى، ويتغلب الحب الشامل على الشهوة الانانية.

روايات المانية

إن إرنست غلايزر (١٩٠٢ ـ ١٩٦٣) الذي ينتمي الى البورجوازية الالمانية بدأ صحفيا. وقد بدأت شهرته بصدور روايته الاول «الطبقة ٢٢» التي تشكل شهادة اخاذة عن الحرب في نظر شبان مؤخرة الجيش. اما في تاليفه «المدني الاخير» فهو يتعرض الى الغزو التدريجي الذي تسرب الى العقول عند ظهور النازية ذاك السرطان الذي نخر جمهورية ويتمار. فكل الشخوصات تستجيب بدرجات متفاوتة الى ما في هذه الايديولوجيا من جاذبية.

اما هرمان هاس فقد نشأ في بيت ينتمي الى مذهب البروتستانت سنة ١٨٧٧ واشتهر بعد العشرينات إثر صدور روايته «لعبة الجواهر الزجاجية» و«ذئب الفيافي» و«سدارثا»: اعتراف شخصي انفرادي برفض كل المذاهب والحكم على عالم القوة والمال، وتقريظ لحياة التامل كما يعيشها الهنود. بهذه الرواية المُسارية أصبح هاس في الستينات قائد الشباب الامريكي المنازع وزعيم تفكيرهم، ثم اتسع تاثيره الى الشباب الاوربي. حصل هيرمان هاس على جائزة نوبل لسنة ١٩٤٦، وتوفي سنة ١٩٦٢.

فرانز كافكا: «إغراء في القرية». حين اوصى كافكا قبيل موته بتدمير آثاره غير المطبوعة، خالف منفذ الوصية هذا الامر، مما جعل القراء يسعدون بمطالعة بعضها مطبوعة وعلى راسها يومياته. جاء «إغراء في القرية» كمدخل مثير لليوميات، وشكّل وثيقة ذات قيمة كبيرة جداً. اما ماتضمّنته من قصص فقد كان لمحات مقتضبة خاطفة تعرض لاعمال كافكا وعالمه الذي كان من أعظم العوالم جاذبية في عصرنا.

هانريش مان شقيق طوماس مان اشتهر بروايته الاستاذ اونرات (أو الملاك الازرق) التي نشرت في ميونخ سنة ١٩٠٥. وهي رواية تصطبغ بحب جامح، وقد جسمتها الممثلة السينمائية الالمانية مارلين ديتريش في السينما، في فلم الملاك الازرق. أحب استاذ عجوز سماه طلابه أونرات (قمامة) إحدى الغانيات، مكتشفا الحب الاول لاول مرة ولذة الانهيار الاخلاقي، مدركا ان الغانية لُولا تقوده الى التهلكة، لكنه اصر على تتويج حياته التافهة بهذا الحب المأسوي.

طوماس مان «صاحب السمو الملكي» يروي قصة أمير احدى المقاطعات، الذي اثمرت اعماله فاحب امريكية ثرية عرّفته على الحياة التي أبعد عنها في إمارته. فتزوجها وقرر إسعاد شعبه بثروته الواسعة. إن هذه الرواية تحتل مكانا مهما في اعمال مان التي منها «عائلة بذوبروك» (١٩٠١) التي تروي حياة اسرة برجوازية، وطونيوكروجر (١٩٠٣)، وموت في البندقية (١٩١٢)، لكن طوماس مان (١٨٧٥ ـ ١٩٥٥) نال شهرة عالمية بروايته الجبل السحري (١٩٢٤) التي حصل عنها جائزة نوبل (١٩٢٩).

وفي «دم مخصص» و«اضطراب» و«السيد والكلب» يمزج طوماس مان بين النقد والشعر، فيبدو الرقيب والمشارك لتيار جمالي في آخر القرن ١٩. اما «اضطراب» فوصف لفترة مضطربة وقصة اول حب لطفلة. في قصة السيد والكلب يصف مان العلاقات الدقيقة بين الانسان والحيوان وبذا يكون لدينا ثلاث قصص اي ثلاث عجائب

من التبصر والسخرية والحنان.

كانت تآليف ستيفان زوايغ (نشأ سنة ١٨٨١) متنوعة هامة تشمل الرواية والمسرح والدراسات الادبية والنقدية والقصص والتراجم التاريخية. فكان بحق من أهم كتاب القرن العشرين الموسوعيين، لانه كان نتاجا لملتقى الحضارات. وكانت روايته الوحيدة الموسومة «الشفقة الخطيرة»، بطلها الضابط أنطون هوفميلر من ضباط الفرسان، دُعي في سهرة الى قصر احد السراة فراقص ابنة مضيفه مع انها كانت مشلولة كان راغبا باصلاح غلطته غير المقصودة مدفوعا الى ذلك بالشفقة على الفتاة، فكان يتردد على البيت فلم تقدر المرأة الشابة على اخفاء حبها للضابط الذي كان لايدرك شيئا إذ إن عطفه عليها غطى كل شئ.

أما قصة «السر المثير» لنفس الكاتب فهي تطرح العلاقة بين رجل وامرأة، التي تتعطل بفعل ابن المرأة. من خلال هذا التأليف يكون زوايغ قد عالج بدقة محتوى الوعي الانساني محللا إياه ببراعة. وفي نفس الوقت يصور عالما كان يحن اليه رغم انه كان الى الانهيار اقرب منه الى البقاء. إن دقة الملاحظة عند الكاتب تبرز كاملة في مجموعته القصصية «الخوف» (١٩٣٥). فهو يسيطر على تحليل السلوكات البشرية لما كان له من حاسة باشياء النفس. كان مقلدا لموباسان فكان يريد «ايجاز مصير فرد في ادنى فضاء ممكن وتقديم مادة كتاب في اطار قصة». وكمثال على تراجمه المستمرة من عصرالنهضة الاوربية بعد العهد الوسيط. قام زوايغ بسبر حياة إيراسم ضمن مشروع شامل بعنوان «عظمة الفكرة وتدهورها». فكان في قمة التوفيق في مسعاه لأن ايراسم كمفكر كان جديرا بادراك زوايغ ومحبته.

روايات إيطالية

«الهدنة» تأليف بريمو ليفي. كانت الحرب العالمية الثانية وماتخللها من جرائم، كالإبعاد الى معسكرات الموت، بمثابة التصدع الكبير الذي أصاب القرن العشرين. تتمحور الرواية حول مجموعة من المساجين الايطاليين الذين اعتقهم الروس، فشرعوا في مسيرة دامت شهور طويلة للرجوع الى مسقط رأسهم. كانوا يرافقون الجيش الاحمر في مزيج بشري من الابطال والخونة، من الفلاحين واللصوص، من العلماء والرحل. كلهم بشر يعودون الى اكتشاف الحياة والعالم والغابة والنساء، وفن المتاجرة اللامشروعة للعيش. كانت قصة واقعية ملحمية لتنقلاتهم العجيبة على طرقات أوروبا الوسطى.

كان الكاتب إينيازو سيلوني (١٩٠٠ ـ ١٩٧٨) أحد مؤسسي الحزب الشيوعي الايطالي قبل الهجرة الى سويسرا حيث لاقت روايته الاولى «فونطامارا» نجاحا كبيرا (١٩٣٠). اما اهم رواياته فقد ظهرت بعد الحرب، منها «حفنة من توت» وموضوعها يتمحور حول الفقر، لأن المؤلف نفسه فقير، فهو أصيل منطقة جبلية قاحلة، فأصبح مؤلف الفقراء. فقد هبت ريح الامل عند الفلاحين بعد انهيار النظام الفاشي في ايطاليا، لكن كبار ملاك الارض فضلوا مهادنة الشيوعية للمحافظة على امتيازاتهم. فكان على الكافوني (الفلاحين) ان يستمروا في فقرهم.

روايات من هنا وهناك

من الاتحاد السوفيتي: كتب فلاديمير نابوكوف (١٨٩٩ ـ ١٩٧٧) الملك والعامة وأعرج البستوني (١٩٢٨)، وغرفة مظلمة (١٩٣٢)، واليأس (١٩٣٦). كان كاتبا كبيرا فرض ادبه في برلين. ثم استقر في الولايات المتحدة سنة ١٩٤٠ حيث درس الادب الروسي، ونشر لوليتا (١٩٥٨) التي نالت صدى عالميا. في روايته غرفة مظلمة يروي الكاتب قصة حب بين رجل مسن يعيش حياة مستقرة وفتاة تدعى ماجدة، انفصل عن زوجته من أجلها لكن موت ابنه جعله ينهار ويجن وبذا نجد نابوكوف يصور النزول الى الجحيم عند ظهور اوضاع يكون فيها الحب مستحيلاً.

من هولندا كتب هوغوكلاوس (مواليد ١٩٢٩) أول رواية بعنوان صيد البط ثم استمر يؤلف بغزارة. كانت احدث رواياته الخجل (١٩٧٢) وحزن البلجيكيين (١٩٨٣)، فاعتبر اكبر كتاب الفلامان. موضوع «صيد البط» يدور حول قتل أحد العمال لرئيس الاسرة. وبقدوم جندي أمريكي تضطرب الاوضاع وتنقلب العلاقات الخفية والعميقة بين الشخوصات، فينجم عن ذلك ضحية ثانية غير منتظرة، خلال الخروج الى صيد البط ثانية.

من النرويج كُتبُ كنوت همسون من مواليد سنة ١٨٥٩. نشأ في بيت فلاحين وحصل على جائزة نوبل سنة (١٩٢٠). من رواياته «الجوع والمتشردون» تجول المتشرد أوغست في العالم، ولما عاد الى قريته شرع يحكي مغامراته ففتن سامعيه بما يكتنفه من غموض. وسحر رفيقه الساذج صاحب القلب الطيب الذي كان يطمح هو ايضاً الى الرحيل. وتتعقد مأساة القرية في الورطة التي تجمع بين المستقرين المكتفين وبين اولئك الذين يسكنهم قلق دائم يدفعهم الى ارتياد العالم.

واخيرا من رومانيا، نشر لبانيات إستراتي الذي اعتبر «غوركي البلقان» عشر روايات الى ان مات سنة ١٩٣٥ في بوخارست. الف قصة «اشواك براغان» سنة ١٩٢٨، وهي من نوع الرواية العمارية الغربية، ومن النوع التدريبي. كان طفلاً يجول في ارياف رومانيا إثر والده البائع المتجول، فاغتنمها الكاتب فرصة لتصوير العالم المسحوق في مطلع القرن العشرين، الذي كان يسوده الاستعباد والذي انحرف في لحظة من الخنوع اليائس الى الثورة.

صناعة النص

هكذا نكون قد القينا نظرة جزئية على الرواية الغربية متطلعين الى ان يستفيد القارئ من التيارات الادبية السائدة في الادب الاجنبي الروائي من حيث المواضيع والهيكلية والاسلوبية، وكل هذه العناصر إنما جعلت اخراج النص الادبي والكتابة عامة في احلى مظهر.

وبالفعل فحين سلم لويس آرغون مخطوطاته المتبقية الى مركز البحث القومي الفرنسي كان ذلك مؤشرا لميلاد وراثيات النصوص الادبية. وبعمله ذاك كان يرمي الى الاعتراض على تصورين خاطئين في الخلق الادبي، مستبدلا إياهما بعلم تميز بكونه هو ايضا خلقا واستراحة، إذ كان يعلم ان مستقبل هذا العلم يندرج في مضمون اللعب. كانت السوريالية الدارجة تستمر في الدعوة الى الوصف الرومانسي باعتبار ان العمل الادبي ينبثق عفويا من العبقرية. كما ان أراغون اعترض على العلم الوضعي الذي يقرر فكرة الرقي الجمالي بحيث ان النص النهائي المطبوع الذي يتوج عدة مراحل مخطوطة (انظر ورقة من كتاب سمويل بكيت في آخر هذا المقال) يكون بالضرورة في مستوى ارفع، ويبلغ مستوى من الكمال لايدانى.

إن العمل الفكري نتاج عمل كتابي، وبموجب هذا العلم الجديد فان المبدأ الضمني للنشر النقدي الذي يُعتمد فيه آخر نص مطبوع بعد المراجعة والتصحيح، ينتج عنه ثلاثة قواعد للخلق الادبي تعلل بالنظر للمعلومات المعاصرة:

- كل عمل نتاج عمل كتابي.

- هذه الكتابة في تطور مستمر ولن يوقفها الا الموت.

- هذه الكتابة الفردية رهان لعدد من القوى الاجتماعية الثقافية.

فلتشكيل نظرية للرموز والعلامات الصالحة للمخطوطات، بمعنى نظرية للقواعد العامة التي تسود تشكيل النصوص الخاصة، ينبغي متابعة الخطوط والتشطيبات والاضافات والتغييرات، التي يجب دراستها بتبصّر عند كبار الكتاب والشعراء (ستندال وبروست وفاليري، لبروزها عندهم)، وتفحص العلاقات بين الخط والكتابة عند هوغو بحيث يمكن ضبط مكونات الصفحة المخطوطة، والتساؤل عن ماهية الصفحة ذاتها (بالمقارنة مع العرف الياباني والصيني مثلا). ماهي فائدة الهوامش؟ كيف تكتسح النص أحيانا وتأخذ مكانه؟ (كما عند ستندال وهوغو وفلوبار). ماهي حدود الفقرة؟ وبمقتضى اية حتميات تتنقل في كتابات جيمس جويس؟ ماكان حلم الشعراء وكيف يكون حلمهم بخصوص الكتاب (شكله، حروف الطباعة) الذي يضم ديوانهم؟ هنا تتوفر فنيات جديدة كعملية النشر بمساعدة الرتابة، مع اعتبار مساوئ الاعلامية وفنياتها التي تؤول الى حذف المراحل الوسيطة في النص. وفي هذا العلم الجديد جدا يرفض أنصاره كل منحى مضجر وكل المفاهيم الجامدة ويميلون الى اعتماد الأمثلة المحسوسة الناطقة بالصفحات المخطوطة، لابراز عنصر لم يبلغه العلم الوضعي، وهو حركية الكتابة. وبذا يتدخل البعد الرابع - اي الزمن-في تحليل الكتابات. على هذا الاساس تكوّن وراثية النصوص علما جديدا لاجملة من الحلول القديمة التي وقع تحديثها. هو علم مستقبلي شاسع البرنامج يعمل من اجل بعث «علم لرموز الفضاء المخطوط».

Samuel Beckett

Soubresauts

صورة من مخطوطة صمويل بيكيت الذي توفي في ٢٢ كانون الاول ١٩٨٩ والتي ترجمها بنفسه من الانكليزية الى الفرنسية سنة ١٩٨٩.

نورمان مايلر



فنان من تونس

محمود السهيلي

ولعبة الوضوح

.. والاختفاء

■ اعداد: شفيعة الداغستاني



• ولد في تونس سنة ١٩٣١، وتلقى تكوينه الفني بمدرسة الفنون الجميلة في تونس ثم بالمدرسة القومية العليا للفنون الجميلة في باريس. استاذ في مدرسة الفنون الجميلة في تونس من عام ١٩٦٠ ـ ١٩٨٠. حصل على جائزة مدينة تونس في عام ١٩٦٣.

• شارك محمود السهيلي في عدة معارض جماعية اهمها في واشنطن ونيويورك وشيكاغو (١٩٦١) وستوكهولم (١٩٦٣) وميلانو (١٩٦٤) ولندن (١٩٦٤) وباريس (١٩٦٦) وتونس (من ١٩٦١ الى ١٩٦٥). كما شارك في عدة دورات في معرض السنتين بباريس.

• نظّم عدة معارض خاصة به في تونس: معرض «المرايا» (١٩٦٧)، معرض «الجزائر» (١٩٧٢)، معرض «السودان» (١٩٧٨)، معرض «سيدي ابو سعيد» (١٩٨٠)، معرض «المدينة العتيقة» (١٩٨١)، معرض «المغرب» (١٩٨٤).

هذا النور الذي يغمر الكون، ويتيح لنا رؤية الاشياء، دون ان نعرف له ذاتاً، صار في اعمال السهيلي الفنية، ثغرة ننفذ خلالها الى الامكنة والاشياء لنراها، «ليس كما قد نراها لو نظرنا اليها، بل كما قد لانراها وان نظرنا اليها».

بياض شارد ظل الفنان يطارده منذ تخرجه في مدرسة الفنون الجميلة بباريس، وأضنى نفسه بمحاولات اقتناصه، حتى اذعن له بعد لأي، وانقاد طوع ارادته ورهن مشيئته، ليقدم فناً متميزاً ينم عن موهبة خاصة مع «استفادة

محمود السهيلي
فنان اتعبته فكرة الضوء وفلسفته

حول البئر ـ الجزائر

تلك المرحلة، مع لمسات خفيفة من الاحمر او الاخضر او الازرق. ثم تفجرت فرشاته عن اشعة من البنفسجي والبرتقالي والارجواني وخفّتْ حدّة الابيض والاسود.

«كما ان لكل مكان ضياءه بحكم الاقليم» فان الضياء يتجلى في لوحاته بحسب المكان، وما في ذلك المكان من طبيعة وعمران وانسان. فهو معنى «بالتفاعل بين النور والانسان في مكان ما عبر ثقافة ما، وبذلك تتسع الرؤية ويصبح النور جزءاً من واقع حضاري اشمل»

واذا اردنا معرفة أصل ومنشأ اهتمام السهيلي بالمكان فان معرفة مكان ولادته، ونشأته الاولى، كفيل ان يعيننا. فقد ولد في عام ١٩٣١ في بلدة المرسى باحواز تونس الشمالية المشهورة بجمالها وسحر موقعها على ساحل البحر. وقضى سني طفولته وصباه سابحاً ليس في البحر فقط، بل في الطبيعة كلها تتبدى له بهية شهية في صفاء عناصرها من ماء ورمل وسماء وهواء ونور... ولم يكن شيٌ من مباهج تلك الطبيعة يبهره

القديمة، او يتسلل «من النوافذ العتيقة.. او يتلألأ على مويجات البحر حول الفلك الراسية، او يسطع على صفحة خد، أو.. طرف ثوب» لكنه سيد اللوحة ومركزها تحيط به الاشكال، والالوان، وتدور حوله، سيما الظلال التي تنقاد اليه طائعة مختارة كأنها روحه او صورته الاخرى.

عني السهيلي، في لوحاته الاولى، بلونين اساسيين هما: الأبيض، وشبه الأسود، بتدرجاتها المختلفة. فكان التقابل الحاد بين القطبين من ابرز سمات

صحيحة من اهم تيارات الرسم في الغرب لم تبعد الفنان عن ذاته ومحيطه بل ردّته اليه بقوة اشد ومحبة اعمق».

«يأخذ السهيلي نقطة من نور ويبني حولها. ينطلق من تحت النقطة ومن فوقها، ينبعث من وسطها اويشع من زاوية منها، يكتنز او يمتد، باختلاف المشاهد»

وقد يطالعك النور، في لوحاته، من باب سقيفة مظلمة، منفتحاً على وضح النهار في الشارع او ينعكس على جدران بيض او يتخلل من سقوف الاسواق



مطماطة ـ تونس



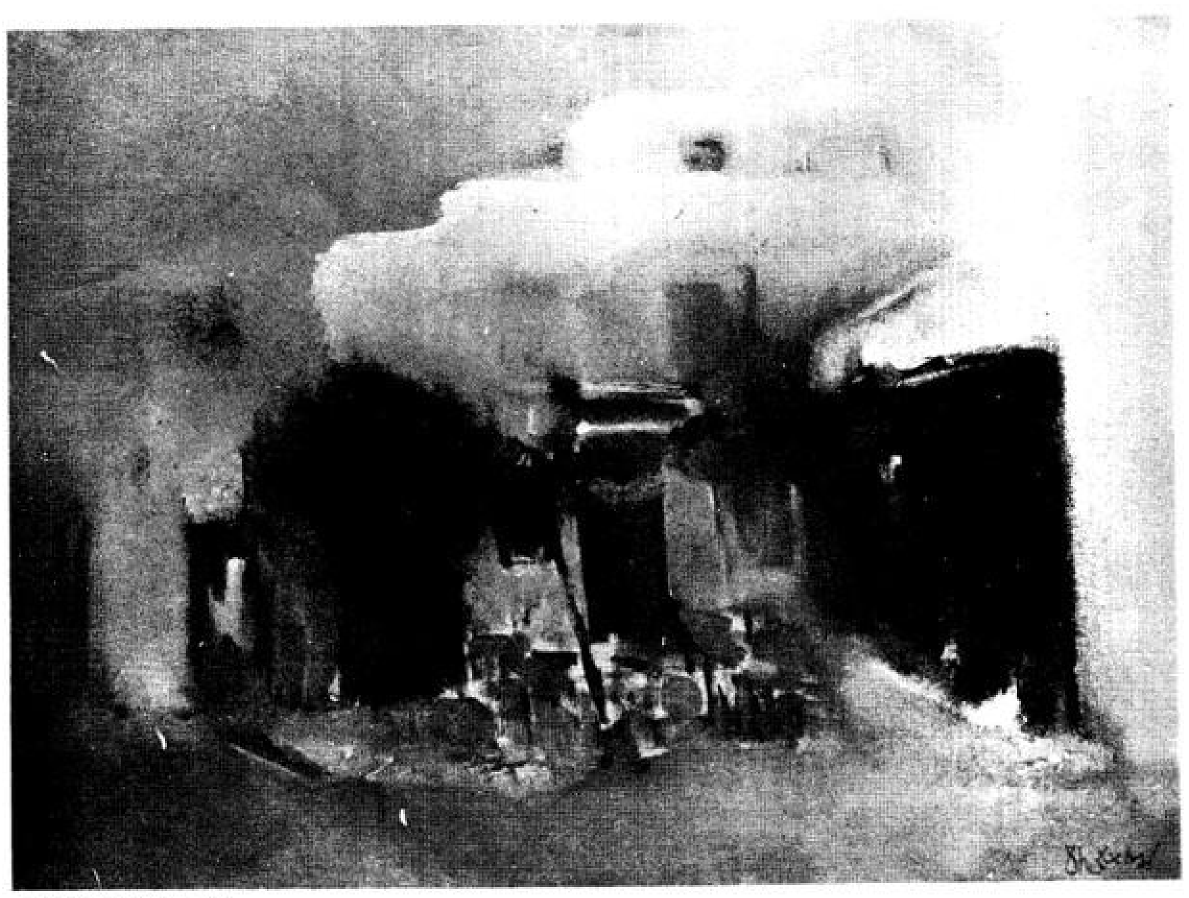
توضؤ ـ السودان

كالنور يختلف لونه بين فجر وضحى وأصيل وغروب.. يسطع او يخفت ويرق او يغلظ متردداً ابداً بين السماء والماء كأنها مرآتان قد تقابلتا فانعكست احداهما في الاخرى فاذا البحر في تلألؤه سماء قد انبسطت من تحت والسماء من فوق متموجة.

وقد ظلت تلك البيئة الطبيعية محفورة في شعوره بعنصريها، الأساسيين: الرمل والماء. وظل الفنان يصورهما: ماء على ساحل بحر، او على ضفاف نهر. ورمل على امتداد الصحارى في مدينة قد يكون اسمها سيدي بوسعيد، او ام درمان، او الجزائر، او فاس.. او بغداد.. المدينة العربية التي احس الدفء فيها واحب رائحة توابلها وعطورها وشكل امتدادها بين الأزقة والحارات، وشموخ مآذنها واسواقها: «بيوت تتدرج صعوداً الى المئذنة، فتنطلق نحو السماء» انها ملامح مشتركة لكل المدن العربية استطاع محمود السهيلي تصوير تفاصيلها ودقائق هندستها وأرثها العمراني الخاص الذي كادت معالمه تنطمس بفعل الزحف الحضاري الغربي.

وهو يبدع في رسم الأبواب والواجهات، ويضفي عليها شيئاً من النور يختلف لونه باختلاف ساعات اليوم، دون ان «يكشف لنا من أركان الداخل شيئاً، كأنه يخشى ان ينتهك حرمته. لكنه احياناً يشي بشيءٍ من اسرار البيوت من خلال أبواب يفتحها نصفاً..»

والى جانب الأبواب كانت المرايا وتراً آخر عزف عليه الفنان الحانه المرئية الجميلة وجرّنا طائعين الى لعبة الوضوح والاختفاء.



مقهى «سيدي بوسعيد» ـ تونس

اما انسانهُ، فهو العربي الأصيل بأزيائه الموروثة: الجبة التونسية، او الجلابية المغربية او السودانية. وهو على الرغم من خلو وجهه من الملامح فانه سيد المكان وأليف الطبيعة. حضوره واضح وتأثيره شديد. يرصد الفنان حركاته وسكناته: طمأنينة وجوه المتوضئين في باحة المسجد، ورجولة الفرسان المنطلقين بجيادهم، ونزق صبيان يلعبون في زقاق من أزقة المدينة. كل ذلك الثراء يقدمه السهيلي رافداً لبحر الفنون الانسانية الزاخر.

هكذا سار السهيلي على الطريق الذي سار عليه قبله رواد الفن التونسيون: «يحي التركي، عمار فرحات، جلال بن عبد الله، الزبير التركي، عبد العزيز القرجي، علي بلاّغة» مشكّلين ماسمي «بمدرسة تونس» نكل، اولئك الاعلام اتخذوا التراث موضوعاً اساساً لهم مع «اختلاف طرقهم ووسائلهم من واقعية بدائية الى خرافية، الى انطباعية. ومن كاريكاتور الى منمنمات، الى فسيفساء الى نقش على الخشب، لكنه ظل متميزاً عنهم بطريقته الخاصة، التي تقع بين التشخيص والتجريد وعمادة الالوان فشخوصه اشكال غير مسورة، توزيعات لونية ترفّ بطلاقة، وقد خفّت ضربة الريشة وقصُرت ودقّت بعدما كانت جرّات مسترسلة ملحة، حتى تهشمت الحوافي وتفتتت وامّحت ملامح الكائنات وملامح الاشياء، وحلّ الايحاء محل النقل الدقيق. انه الرسم الاشاري، لا الرسم البياني. ومن ثم كان الحاقه بالمدرسة الانطباعية، فالوجوه يكتنفها الغموض لكنك لاتبحث فيها عن التفاصيل بل تكتفي بمتعة الشعور

فاس ـ المغرب



بأن ثمة سراً خلفها قد تحظى بمعرفته أو تكتفي بمتعة التأمل والانتظار «العيون ثقوب سود، والأجسام بلاكيانات، لكن الشخوص مع ذلك حية متحركة في هزّة الكتف أو اغفاءة الرأس.. حركات وتموجات، ولاجسد، أو يكاد»

مع محمود السهيلي نحس بذواتنا العربية اكثر، نرسخ في أصولنا، نفخر بها، ونكبر أرواحنا لتشعَ مع النور في قلب اللوحة، وتدفع الأجساد والاشياء الى دائرة الظل بلا ملامح ولا قسمات.

عن:
منشورات دار سراس للنشر
تونس

عودة ـ المغرب

أضواء ثقافية

■ وصف اللغة والمعنى اللغوي، موضوع «اضواء» الاول يناقش فيه الكاتب «نايجل لايف» علم اللغة عند «جون فيرث» صاحب مدرسة لندن في علم اللغة الذي يؤكد على ان وظيفة اللغة هي عكس الواقعية الذهنية للانسان او تقديم نسخة ثانية عنها في شكل معادلات لفظية، ويتطرق الى الانقسام الذي حدث بين فيرث والمعلقين على طريقته.

■ «نحو اثنوغرافية الثقافة» حوار مع العالم البولندي تشلاف روبوتسكي، عبره يحدثنا عن مادة الاثنوغرافيا ونظامها الرمزي، والثقافة المعاصرة المنظمة بالأ...ب الاسطوري.

■ الإبداع عبر متاهات الاضطهاد الفكري نتعرف من خلاله على معاناة أديبين روسيين منشقين هما ميخائيل بولغاكوف وبوريس باسترناك من الاضطهاد الفكري الذي تعرضا له اثناء حياتهما، وردود فعل الأحداث الأخيرة في الاتحاد السوفيتي على الأدباء والفنانين السوفيت المنشقين.



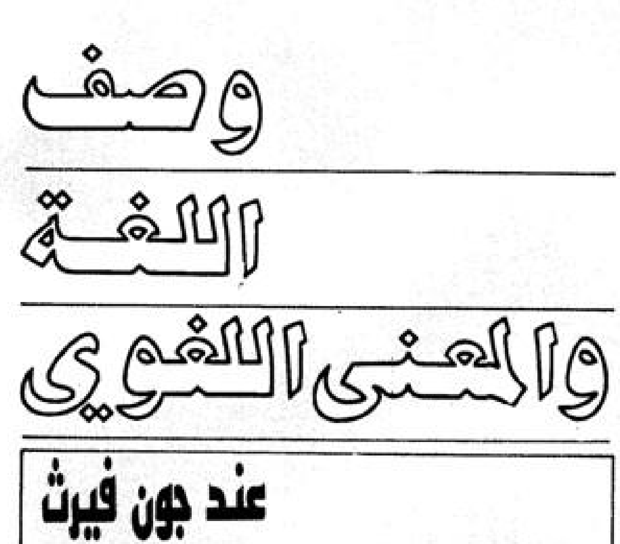
■ ويطالعنا في «أضواء» حوار مع د. صلاح فضل يتحدث فيه عن محلية النقد وإقليمية المنهج النقدي ويؤكد على ان الابداع مع احتفاظه بالشخصية القومية فقد اصبح ذا صيغة عالمية.

■ ويجد القارئ اضافة الى ذلك مواضيع منوعة عن الرقم ثلاثة وأسراره في بناء بابل والاهرامات، ومسرحية «كارثة» لصمويل بيكت، واحسان عبد القدوس بين الأدب والسينما، وأنماط التزامن في الادب والشريط السينمائي.





■ وهناك ندوة عن مرور مئة عام على مولد طه حسين ومستقبل الثقافة العربية، ومحاضرة للروائي الفرنسي كلود سيمون في القاهرة، عن تجربته الروائية وحياته الخاصة، وقراءة في تحليل الاحلام، ومتابعات في المكتبة العربية. اما الصفحة الأخيرة فقد كتبها الاستاذ ناصيف عواد بسؤال كبير عن هجرة اليهود السوفيت الى الارض العربية المحتلة.



وصف اللغة والمعنى اللغوي عند جون فيرث

■ نايجل لاف *

■ ترجمة: محمد درويش



* كاتب المقال: استاذ علم اللغة في جامعة كيب تاون

تتحدد مهمة علم اللغة حسب مفهوم (فيرث) في «وصف اللغات». وهذا القول من شانه ان يحظى باجماع منظري علم اللغة في القرن العشرين. اما نقاط الاختلاف التي يقف عندها (فيرث) وهؤلاء المنظرون فتتمثل اساساً في ان هذا المشروع منسجم تماماً، بل لا يكاد ينفصل عن موضوع دراسة «الصوت الحي للانسان في اثناء الكلام». ويكمن اهتمامه الاساس بوصفه مفكراً لغوياً في محاولته معارضة الفكرة القائلة ان علم اللغة الوصفي السينكروني ينبغي ان يعالج ما اسماه «حالات الكلام» بوصفها ليست الا وسائل توصل الى ما يهم عالم اللغة حقا، اي النظام اللغوي الذي تنطوي عليه.

فاللغات عند عدد كبير من المنظرين يجب ان ينظر إليها كأنظمة من كيانات مجردة. وهذه الكيانات هي وحدات من «شكل» لغوي. وتتخذ وحدات الشكل اللغوي نمطين مختلفين اساساً: الوحدات ذات المعنى والوحدات التي تحمل المعنى رغم انها عديمة المعنى في خاصيتها. يحتوي كلا النمطين على وحدات من انواع مختلفة ويمكن تنظيم هذه الانواع وفق نظام هرمي (مثلاً: ملامح اساسية، فونيمات من ناحية ومورفيمات وجمل من ناحية أخرى.) وقد اكد (فيرث) ان اظهار النطق يتضمن اختيار اشكال ذات معانٍ مناسبة. كما ان فهم المنطوق يتضمن ادراك رموز هذه الاشكال وايجاد المعنى المناسب لها. وتدخل في هذا المضمار الاجابة على السؤال الخاص بالوسيلة التي يصبح فيها جعل الاتصال بواسطة اللغة امراً ممكناً. وهذه الاجابة ظلت مقبولة فترة طويلة حتى ان عملية الاتصال نفسها باتت تُعرَّف بانها عملية استخدام لنظام تجريدي من النوع الذي يطرحه علماء اللغة الوصفيون.

لقد صاغ (فيرث) اعتراضاته على اجزاء من سلسلة الروابط المفاهيمية ذات العلاقة بتمييز (دي سوسير) بين (اللغة) و (الكلام). فقد لاحظ (فيرث) ان نظرية (سوسير) يمكن وصفها بانها بنيوية دوركهايمية (نسبة الى دوركهايم) بينما تعامل اللغة بوصفها نظاماً من «الحقائق الاجتماعية» على صعيد يختلف عن الظواهر التي في الامكان ملاحظتها من مثل السلوك اللغوي عند مستخدم اللغة الفرد في حالات محددة. وتشكل هذه الحقائق الاجتماعية «نظاماً... صامتاً» من الاشارات القائمة بمعزل عن الفرد. وهذا النظام من الاشارات (اللغة) هو الذي ينظر اليه البنيوي السوسيري موضوعاً لدراسته لا حالات الكلام التي تحدث بفعل متحدث خاص في حالات معينة من الكلام. ان نظام اللغة، حسب مفهوم (سوسير)، هو وظيفة جمعية اما (فيرث) فينظر الى علم اللغة بوصفه يهتم اساساً بحالات الكلام. وهذه الحالات «ثابتة» بينما (لغة) سوسير عبارة عن «نظام من القيم المختلفة لا مصطلحات جامدة». ولما كان (فيرث مهتماً اساساً بالناس الحقيقيين وسلوكهم اللغوي، فان معالجة اللغة تفترض انها «شكل لكائن حي لا نظام من الاشارات العشوائية والرموز».

لكن هذا لا يعني ان (فيرث) يعترض على فكرة انظمة اللغة كما هي. فالتعامل مع حالات الكلام يتضمن توظيفاً متسقاً لبنىً ومراتب تحليلية قد تصبح عند التطبيق مشابهة للبنى والمراتب الموجودة في تحليل الانظمة التجريدية التي تتضمنها حالات الكلام.

والواقع ان (فيرث) يؤكد ان مثل هذه الحالات هي تعابير للنظام اللغوي الذي تنشأ عنه وتعود اليه. اما الاختلاف فيكمن في المكانة الاونطولوجية التي تتمتع بها البنى والمراتب ومن ثم النظام اللغوي نفسه.

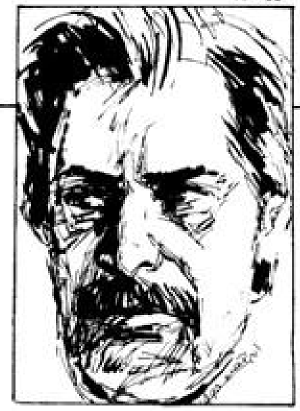
وقد لاحظ (فيرث) ان


مالينوفسكي

«البنيوية الآلية الثابتة» التي طورها (سوسير) على اساس سوسيولوجية (دوركهايم) تتضمن عدّ البنى بمثابة شواهد. «ان البنية موجودة وتعامل بوصفها شيئاً. وكما قال (دوركهايم) فان الحقائق الاجتماعية لا بد من النظر اليها بوصفها «اشياء». اما حالات الكلام - حالات الكلام الحقيقية - فتحتاج الى دور تقديم الدليل للبنية». وعلى العكس من ذلك، فان انساق الوصف التي يقدمها (فيرث) تستحضر في مجرى محاولة توضيح حالات الكلام. «البنى النسقية ليس لها مكانة اونطولوجية ولا نفترض ان لها مثل هذا الوجود». والكلام عند البنيوي النفساني هو نتيجة لتوظيف معرفة بنية مجردة يتضمنها الكلام نفسه. اما عند (فيرث) فان البنية التجريدية هي من خيال علم اللغة وهي ناجمة عن محاولة لفهم الكلام.

واذا كان النظام اللغوي الذي تعود اليه حالات الكلام هو تركيب من تراكيب عالم اللغة يشيده في اثناء تحليل حالات الكلام ولاجلها، فان ذلك سيتتبع ان موضوع الوصف اللغوي عند (فيرث)، بعكس غيره من البنيويين النفسانيين، ليس تقديم شرح مسهب للغة بوصفها «كلا متكاملا». اذ ان مثل هذا الهدف لا يعني شيئاً لمن يرفض جعل الانظمة اللغوية شيئاً مادياً. بل ان ما يشكل «لغة ما» يمكن تركه كي يتقرر بما يجده المحلل مناسباً في نطاق وصف محدد. ومن المناسب في الغالب ان يتعامل المحلل مع ما يدعوه (فيرث)

دوركهايم



■ نظام اللغة، حسب سوسير، وظيفة جمعية

اللغات المحددة: «يكون علم اللغة الوصفي في افضل حالاته عندما يتعامل مثل هذه اللغات. فالمادة واضحة تماماً ومحددة. وعالم اللغة يعرف ما لديه من موضوعات على جدول اعماله. كما انه ملم بمجال التطبيق وفي استطاعته اقامة البنى والتراكيب على نحو اعتباطي - ان مثل هذه اللغات المحددة تكون متمثلة في العلم والتكنولوجيا وعلم السياسة والتجارة وفي كتاب محدد، او شكل محدد او نوع معين يرتبط بكاتب ما او نوع من انواع وظيفة الكلام بما فيها الاسلوب المناسب.»

واذا كانت البنية التجريدية وظيفة العالم اللغوي، فان ذلك يعني ان (فيرث) يرفض نظرية التواصل والاتصال التي توحي بها البنيوية النفسانية والتي يصبح بموجبها الاتصال عملية نقل للافكار بفضل المعرفة المشتركة بالشفرة التجريدية.

و (فيرث) وفق هذا المنطق يتفق ووجهة نظر (مالينوفسكي) القائلة ان من الخطأ النظر الى اللغة بوصفها «عملية تسير على نحو موازٍ ومتسق مع العملية الذهنية وان وظيفة اللغة هي عكس الواقعية الذهنية للانسان او تقديم نسخة ثانية عنها في شكل معادلات لفظية» وذكر ان من الخطأ النظر الى اللغة «بوصفها» وسيلة لنشر الافكار الصادرة عن الرأس في طريقها الى المستمع.» واستناداً الى رفضه مثل هذا التصور، فان الاشكال اللغوية ليست، عند (فيرث)، اوعية افكار او معانٍ بالمعنى المعروف، اذ ان تحليل معنى حالات الكلام هو الهدف الاساس لعلم اللغة الوصفي.

وعلى الرغم من ان جميع حالات الكلام فريدة في حد ذاتها، فانها على الرغم من ذلك، ذات سمات مشتركة بينها وبين حالات الكلام الاخرى. وهو يؤكد ان «من الواضح ان نرى البنية والحالة الفريدة في مثال ما، ووجود علاقة اساسية بين الامثلة الاخرى.» ويبدأ المسعى من اجل توضيح معنى هذه الامثلة والحالات بهذا التصور. ويقول: «لا بد لنا من الفصل بين الاشياء العامة وملامح وسمات الحالات المتكررة التي تبدو اجزاء من عملية منظمة ومعالجتها معالجة منسقة وذلك بتوضيحها بواسطة منظور من الاساليب اللغوية.» ويؤكد «ان علم اللغة الوصفي يعد نموذجاً هرمياً من الاساليب والتقنيات التي يصبح بواسطتها معنى الحالات اللغوية منتشراً في منظور من الجمل المحددة.»

ليس المعنى سوى وظيفة ذات شكل لغوي في سياق محدد. وعلى اية حال، من المفهوم ان هناك اشكالاً ذات معنى تقع في مستويات وصفية مختلفة: فونولوجية ونحوية ودلالية.

والمعنى الدلالي هو وظيفة النطق واجزائه في محيط الكلام. اما في الفونولوجيا والنحو، فان العناصر والمراتب تظهر لوصف انماط وظائف النطق وذلك وفق علاقتها بعناصر اخرى تعود الى نفس المستوى. ان المعنى الفونولوجي هو وظيفة ذات

■ المعنى الدلالي هو وظيفة النطق وأجزائه في محيط الكلام

■ ليس المعنى سوى وظيفة ذات شكل لغوي في سياق محدد

■ فيرث يرفض نظرية التواصل والاتصال

عناصر فونولوجية لها علاقة بعناصر فونولوجية اخرى. اما المعنى النحوي فهو وظيفة عناصر نحوية لها علاقة بعناصر نحوية اخرى. وهكذا نرى ان حالات الكلام تنفصم وتخضع للتحليل والوصف فتصبح سلسلة من وظائف منفصلة لعناصر واشكال تغدو مجردة بفعل معيار مناسب في كل مستوى.

وتجدر الاشارة الى ان المعلقين على فونولوجية (فيرث) منقسمون على انفسهم في مدى دقته وصواب تحليله اللغوي. ومما لا يسعف الدارس نفسه ان (فيرث) لا يوضح الكثير من الانتقادات التي توجه اليه. ولكن يبقى الامر الواضح متمثلاً في ان الاساس النظري للعملية الوصفية الجديدة التي يقدمها (فيرث) تختلف اختلافاً اساسياً عن الصوتيات النفسية. والمنطق العقلاني الذي يؤسس الوحدات النثرية والفوينمية لا يكشف المجردات الفونولوجية التي تعد شيئاً «واقعياً» عند المتكلم، بل انه من خلال مثل هذا التأسيس يجعل المرء يتفق اكثر مما يجب مع التحليل الفونيمي للمبدأ النظري الخاص بالمعنى بوصفه اختباراً. وهكذا، نجد في الاقل ثمة معنى سطحياً يسمح من خلاله للنظام الفونولوجي بالظهور من تحليل المعنى الفونولوجي بدلاً من الافتراض بانه احساس مثل هذا التحليل.

ولد (جون روبرت فيرث) في عام ١٨٩٠. وبعد ان قضى فترة من الزمن تمتد من ١٩١٩ - ١٩٢٨ عمل اثناءها استاذاً في اللغة الانكليزية في جامعة البنجاب. انتقل الى قسم الصوتيات في كلية الدراسات الشرقية والافريقية في لندن وظل يدرس فيه مادة علم اللغة العام للفترة في ١٩٤٤ وحتى تقاعده في ١٩٥٦. وكان له الاثر البالغ في علم اللغة واصبحت الكثير من مفاهيمه وبخاصة تلك التي تتعلق بالفونولوجيا من الموضوعات التي اخذ طلابه على عاتقهم مسالة تطويرها واصبحوا فيما بعد يعرفون باسم (مدرسة لندن في علم اللغة).



نحو أثنوغرافية الثقافة

حوار مع العالم البولندي تشيلاف روبوتسكي

■ عدنان المبارك: وارشو

يفيد القاموس ان الاثنولوغيا تعني باليونانية علم (Logos) الشعب، القبيلة، الرس (ethnos). الا ان الكلمة تعني اليوم تخصصات شتى. مثلا في التقاليد الانجلو ـ امريكية تكون ذلك الحقل من العلوم الانسانية والذي هو جزء مما يسمى بانثروبولوجيا الثقافة والتي تتفرغ للثقافات القائمة والاخرى التي زالت في ازماننا المعاصرة. اما في التقاليد الفرنسية فتكون هي ذلك العلم المتكرس للخصائص العامة لبنية وتطور المجتمع. والواقع ان تطور الاثنوغرافيا قد تم بالعلاقة مع الألسنيات وعلم الاجتماع. وفي اطار الاثنولوغيا تنشط، وليس منذ اليوم، مدارس كثيرة لعل ابرزها الارتقائية evolutional diffusional والانتشارية والوظائفية والبنيوية. ومعلوم ان الاولى احدثت تاثيراً كبيراً في الادب (المدرسة الطبيعية). وبعد الحرب جاءت (فتوحات) البنيوية التي ادخلت تعقيدات اخرى على كامل الصورة التي تملكها في حقل (علم الثقافة الشعبية)..

فالسؤال: ماهو عالم الاثنولوغيا؟ الذي بات مشروعاً اليوم. يجيب الاثنوغرافي البولندي الأستاذ تشيسلاف روبوتسكي بقوله:



■ في الواقع يبدو أمراً كثير المزالق التفرغ للاثنولوغيا او بالأحرى الاثنوغرافيا التي هي، وفق التصور الشائع، وصف النشاط الثقافي الذي تمارسه مختلف المجموعات البشرية وخاصة في المجتمعات البدائية وما قبل الصناعية. وما تجمعه الاثنوغرافيا يكون مادة البحث النظري والدراسة المقارنة في الاثنولوغيا. ويستمر الخلاف منذ اجيال حول قضية واحدة هي: هل مادة الاثنوغرافيا تعني الثقافة الشعبية حسب؟.. ومعلوم ان ممثلي الجيل القديم من علماء الاثنوغرافيا يريدون اقناعنا بأن الثقافة الشعبية هي ثقافة سكان الريف، وعلى عالم الاثنوغرافيا ان لايسوح في المناطق الاخرى من الثقافة كالمدينية او (الرفيعة) الا ان بامكانه، وكما حصل في فترة ما بين الحربين، التفرغ للثقافة العمالية أو العامة. بالطبع يكثر الحديث اليوم عن الاثنوغرافيا المدينة عن العادات والاعراف التي صارت مشتركة بين جميع الفئات الاجتماعية وفي كل مكان بفعل التحول الحضاري السريع.

• الا ان هناك موقع رؤية اساسياً..

■ نعم. وهو ان المادة الرئيسية للاثنوغرافيا تبقى ثقافة الريف اي الظواهر التي سميّت في فترة معينة بالثقافة الفلاحية التقليدية.

وهكذا فهي بمثابة (مجموعة مضامين) لثقافة منظومة Community محلية ما مشروطة بالمنظومة الاخرى المشابهة لها وتخلق معها كلاً منسجماً. مثلا قيل ان طراز المزرعة الفلاحية البولندية من نهاية القرن التاسع عشر يلائم طراز الثقافة التقليدية المعزولة عن التاثيرات الخارجية التي تسودها المعتقدات المسماة اليوم بالسحرية أو كما يقول السيميائيون الروس المعاصرون: السحرية ـ الاسطورية. الا ان فترة ما بين الحربين بيّنت ان مثل هذا الواقع المنعزل غير قائم. اذن صارت الثقافة الفلاحية التقليدية مجرد موديل نظري أو تاريخي.

• في هذه الحالة ما هي مادة الاثنوغرافيا؟.

■ معروف هنا التعريف الذي طرحه العالم البولندي يان بسترون في مطلع الثلاثينات: (الاثنوغرافيا هي علم خاص بمضامين ثقافية محدّدة وليس فئات اجتماعية مستقلة عن الاخرى). لذلك لايربط اثنوغرافيو اليوم صفة (الشعبي) بالثقافة الريفية وحدها. بالنسبة لنا تكون هي تلك المنطقة من الثقافة المنظّمة بأسلوب قد نحدّده، وباكبر ايجاز، بالأسطوري.

واكيد ان هذه (الوجهة الجديدة) للاثنوغرافيا جاءت نتيجة احوال كثيرة من إعادة التقييم في حقل العلوم الانسانية. وقد نشأت بفضل ارنست كاسيرير وفرضياته حول التفكير الرمزي، وكلود ليفي ـ شتراوس وانثروبولوجيته البنيوية، والكثيرين من علماء الألسنيات والاجتماع، وبالنسبة لي وزملائي الذين يشاطروني آرائي فلقد ادى رولان بارت دورا مهماً في هذا الميدان.. وهؤلاء كلهم يجدون ان الثقافة هي تقليد أو نظام رمزي واعلامي لذلك تصبح كل ظاهرة امبيرية تقليدية، واذا نُقلت من المستوى الامبيري الى الآخر الرمزي، فحينها تبدأ وظيفتها في نظام دلالي اخر. واساس التفسير عند المؤلفين المذكورين هو الاعتقاد أن هذا الانتقال الى حقل الثقافة لايتم بصورة اعتباطية، وهناك بعض القواعد المُلزمة مثل المشبّك matrix الذي يصوغ، هيكلياً، تفكير الانسان، او البنى اللاواعية وغيرها. وبفضل نشوء هذه الاراء يمكن القول ان الثقافة نظام رمزي واعلامي.

• ولكن اي قواعد يملكها هذا النظام؟.

■ كان احد الاكتشافات المهمة ميكانزم نشوء وعمل الاساطير التي تُفهم بصورة مختلفة عما هي في المفهوم اللغوي الكلامي، فالاسطورة هي، اليوم، بُنية سردية معينة، وبالمفهوم الأثنولوجي تكون طرازاً من طرز تفسير العالم بمراتب شمولية لاتحتمل الشك. وبفضل الاسطورة يمكن تفسير اي ظاهرة جديدة أو قديمة اي إلحاقها بكليّة الرؤية الى العالم. ولقد تبيّن أن الاسطورة المفهومة بهذه الصورة هي عنصر من عناصر العقيدة، وقواعد نشوئها (كذلك عملها وتفسير العالم عبرها) وهي عملية مستمرة. ونحن نعثر عليها في ثقافة كل فئة اجتماعية وليس الفلاحية فقط. فإدراك الثقافة الشعبية ريفياً حسب، يفقد معناه القديم. ويمكن العثور على النظام الأسطوري في كل تفسير للواقع وحين تحل المعرفة الناقصة عن العالم محل الرؤية الكلية. وهذه الرؤية تقود الى ما يسمى بالتصورات الجماعية

■ الثقافة نظام رمزي

■ التفكير الاسطوري ضرروي لتفكير الانسان

■ ليس هناك معنى دائم

الموجّهة لأحوال السلوك والدوافع الأنسانية كالدين والقانون والاخلاق. فالأثنوغرافيا لاتتفرغ لمسألة تفسير السلوك الفردي كما أنها لاتبحث عن فرضيات ايضاحية ذات أحالة الى الفرد. وهذا ما يميّزها، وعلم الاجتماع أيضاً. عن علم النفس. والواقع ان عالم الاثنولوجيا **يهمل** الباحث النفسي مؤكداً بأن البواعث الفردية والتفسيرات الشمولية هي مجرد عقلنة مكرورة للحقائق التي لم تُلحق بعد بنظام ما. اذن الاثنوغرافيا المعاصرة هي تفسير لتلك المناطق من الثقافة والتي تنظّمها قواعد معينة من التفكير الأسطوري. ووفقا للفرضية التي وضعها الفيلسوف البولندي ليشيك كولاكوفسكي والواردة في عنوان كتابه (حضور الاسطورة) فأن التفكير الاسطوري هو عنصر ضروري من عناصر تفكير الانسان.

*** كذلك يقول كولاكوفسكي ان الاسطورة يمكن البحث عنها في اي حقل من حقول نشاط الانسان..**

■ لكن قبل كل شئ في الحقول غير التكنولوجية، في عالم التاريخ. فالأسطورة تنشأ في المكان الذي تسعى فيه الى منح فوضى الاحداث معنى ما. إذ إن اكتشاف المعنى، كما يقول هو، ليس معناه اكتشاف المعنى الدائم. فالإنسان يمنحها في كل مرة المعنى.

ان هذه الفرضية تلقى برهانها في الأثنولوجيا رغم ان بعض الفلاسفة يقول بوجود ميكانزم داخلي تاريخي او اجتماعي، مكرراً القول بوجود ما يسمى بقوانين التاريخ.

*** وهل يكون السؤال عن وجود نظام دائم بصورة عامة وارداً؟.**

■ حول هذا الموضوع هناك خلافات مثيرة للاهتمام بين علماء الانثروبولوجيا والفلاسفة. كذلك يُلحق بها التاريخ المعاصر الذي يؤكد على روابطه بالأثنولوغيا التي تحتل فيها اليوم الثقافة الشعبية والاخرى الخاصة بالفئات الريفية جزءاً صغيراً بالمقارنة مع **الاثنوغرافيا** التأريخية التي تشيّد حقائق من ذلك الجزء المهمل من الموروث الثقافي البولندي مثلاً. ونحن حين نقول (ميدان الأثنوغرافيا) علينا ان نتذكر الاثنوغرافيا الوصفية المعاصرة او السوسيولوجية المتفرغة لبحث اشكالية التبدل في المنظومات الاجتماعية والثقافية. لذلك يصعب رسم الحدود بين سوسيولوجيا الريف ومثل هذه الأثنوغرافيا. وجاءت نهاية السبعينات، والثمانينات بتيار جديد في الاهتمامات يسمى بأثنوغرافيا المعاصرة كذلك الاهتمام بالميثولوجيا والطقوس الدينية إلخ. و (الأداة) هنا هي السيمياء والبنيوية وعلم التفسير الألسني hermeneuyics. وهذه تسمح بأعادة تفسير المواد الأثنوغرافية من القرن الماضي مثلاً. هكذا تتوفر اليوم الدراسات الكثيرة التي تحلّل بنية ورمزية الطقوس. كذلك نشأت في بولندا دراسات حديثة تتفرغ لمسألة اعادة تشييد أسطورة نشوء الشعوب السلافية وانثروبولوجيتها. وهذا المجال من الاهتمامات يحاذي، لاشك، علم الفولكلور المستقل منذ امد بعيد، كذلك فهو حقل اهتمامات الاثنوغرافيا التي تكون السيميولوغيا اداتها الهامة.

*** استاذ روبوتسكي، هذا يعني ان حقل اهتمامك الرئيسي هو تلك الثقافة المعاصرة المنظّمة بالأسلوب الاسطوري..**

■ بالاحرى عناصرها التي تملك بنى اسطورية واضحة فالأثنولوغيا تبذت مسألة بناء نظرية عامة للثقافة، وما يهمني هو عملية منح المعاني لظواهر مختلفة وتفسيرها. بالنسبة لي تصبح الاثنوغرافيا بدرجة أكبر فأكبر تفسيراً انثروبولوجياً. والحدود القائمة بين مختلف حقول المعرفة الانسانية تزول في حقل واحد مشترك هو الاثنوغرافيا. مثلاً أنا أعثر على صعيد للتفاهم مع بعض منظّري الأدب وعلماء اللغة والفولكلور والتأريخ. ومعلوم انه لغاية أمد غير بعيد كانت حدود الاثنوغرافيا تحاذي علم الاجتماع ونظرية إقتصاد العمل. وما يهمني شخصياً هو البحث في مختلف مناطق الواقع، بدءاً بالمعرفة الشائعة وإنتهاء بالعلم، عن ذلك الطابع الاسطوري للمعرفة عن الفئات الشعبية وثقافتها. واحيانا يقال ان هذه الثقافة تحمل قيماً جوهرية، اخلاقية مثلاً اي انها تمنح المعنى لمنطقة معينة من الواقع. كذلك بالأمكان ان نفسّر الاعتقاد بوجود طابع خاص للعمل في الزراعة والذي يكون بمثابة عامل هام في تشكيل الشخصية. وهذا الحكم ينسحب على الفولكلور ايضا، وخاصة يُجانبه بالثقافة العامة الكوزموبوليتية.

كما ذكرتُ فأن الاثنوغرافيا تواجه اليوم مهاماً جديدة الى جانب القديمة مما يدفعنا الى إعادة ترتيب مختبر عملنا الذي كف اليوم عن أن يكون نشاطاً معزولاً وفي رقعة مسوّرة، لكن لايعني هذا الامر استحالة رسم الحدود والاطر العامة للاثنوغرافيا وقرينتها الانثروبولوجيا، ويحضرني هنا ما قاله روبرت ردفيلد حين مسّك الفوارق بين ممثلي العلوم الأنسانية الصرفة والاخرى الاجتماعية. فالاوائل معنيون بالأبعاد الخُلُقية والواعية والأصيلة لأنشطة الأنسان حسب، اما الآخرون فيكون اهتمامهم منصباً على ما هو عام ويومي، وكان قد قال: (فاحصو الادب والفن معنيون بأجمل ازهار الشجرة التي يفحص جذورها الانثروبولوجي)..



الابداع عبر متاهات الاضطهاد الفكري

الكاتب السوفيتي ميخائيل بولغاكوف:

■ د. عباس خلف

تشهد الحياة الادبية السوفيتية عودة كثير من الاسماء التي كان، الى وقت قريب، يمنع تداول نتاجاتها الادبية وذلك بسبب وضعهم في قائمة «الادباء المنشقين». وكثير من نتاجات «الادباء المنشقين» كانت تصدر في الغرب او «تصدر» في الاتحاد السوفيتي بشكل سري عن طريق طباعتها على الآلة الطابعة ليصار الى تداولها بشكل غير علني. لكن بيريسترويكا الرئيس السوفيتي غورباتشوف لم تقتصر فقط على السياسة بل تجاوزتها لتصل الى الأدب والفن والحياة الثقافية عامة.

منذ عامين والصحافة الادبية السوفيتية تنشر «الاعمال الادبية المحظورة» ويكاد القارىء السوفيتي لايحصل على نسخته من هذه المجلات. وقائمة «الكتاب المحظورين» الذين تنشر أعمالهم في الوقت الحاضر طويلة نذكر منهم: الكسندر سولجنستن واناتولي ريباكوف ونابكوف وبسترناك وآنا آخماتوفا وغيرهم.

ومن الكتاب السوفيت الذين كانوا على قائمة الكتاب «المنشقين» الكاتب ميخائيل بولغاكوف (١٨٩١ ـ ١٩٤٠) الذي لم تر نتاجاته الادبية الضوء العلني الا في العام الماضي. ويمكن اعتبار عام ١٩٨٩ عام بولغاكوف من حيث نشر نتاجاته الادبية او الدراسات الادبية التي تناولت بالنقد والتحليل النتاج الابداعي لهذا الكاتب المتميز. ومن هذه الكتب كتاب الباحثة السوفيتية جوداكوفا «سيرة حياة ميخائيل بولغاكوف».

ميخائيل بولغاكوف تميز بجرأة ادبية كبيرة. ففي نتاجاته انتقد وبشدة رجالات الحزب الشيوعي السوفيتي وطريقتهم البيروقراطية في التفكير والتعامل مع الحياة. انتقد بولغاكوف الشيوعية وهي في أوج ذروتها في عشرينات وثلاثينات القرن الحالي وقد جاءت انتقاداته هذه للمؤسسة الشيوعية في الاتحاد السوفيتي في روايته «قلب الكلب». ونتيجة لذلك تعرض بولغاكوف لشتى أنواع الملاحقات والمضايقات التي لم تكتف فقط بخطر تداول نتاجاته الادبية فقط، بل وصلت الى حد تزييف وقائع حياته. وقد كشفت عن ذلك الباحثة الادبية السوفيتية جوداكوفا في كتابها الذي صدر في العام الماضي بعنوان «سيرة حياة ميخائيل بولغاكوف»، حيث اكدت الباحثة مايلي

من يقرأ الموسوعة الأدبية القصيرة السوفيتية يدهش جداً بخصوص المعلومات التي توردها الموسوعة عن ميخائيل بولغاكوف. فالموسوعة تذكر ان بولغاكوف ولد في ١٤ أيار ١٨٩١، وحقيقة الامر انه ولد في ١٥ أيار ١٨٩١، ثم تذكر الموسوعة بان بولغاكوف ولد في عائلة استاذ جامعي بينما والده كان استاذاً في اكاديمية مدينة كييف للدراسات الدينية. وتضيف الموسوعة انه صدرت للكاتب في عام ١٩٢٥ روايتان هما رواية «الأبالسة»، و«بيوض القدر» الا ان الحقيقة غير ذلك فرواية «الأبالسة» تم مصادرتها في عام ١٩٢٥ ولم تظهر الا في عام ١٩٢٦، أما رواية «بيوض القدر» فلايوجد لها اي اساس في الواقع، أي ان الكاتب لم يكتب مثل هذه الرواية قط.

اتهم بولغاكوف بانه هاجم سياسة النيب (السياسة الاقتصادية) الجديدة التي رسمها لينين للخروج بالاقتصاد السوفيتي من ازمة كانت تهدده وذلك عندما فتح الباب للقطاع الخاص للعمل في الاقتصاد السوفيتي ـ المترجم) في نتاجاته الادبية. لكن حقيقة الامر هي غير ذلك. فقد هاجم بولغاكوف الأسلوب الإداري الرتيب والبيروقراطية في تطبيق السياسة المذكورة على ارض الواقع.

وتستمر الباحثة السوفيتية جوداكوفا بذكر المغالطات الموجودة في الموسوعة الأدبية الصغيرة لتضيف: لقد جاء في الموسوعة أن مسرحية «الأيام الاخيرة لبوشكين» صدرت في واقع الحال قبل خمس سنوات من التاريخ المذكور. ثم تذكر الموسوعة أن بولغاكوف عمل في صحيفة «العشية» للفترة من ١٩٢٠ الى ١٩٢٢، في حين ان الصحيفة المذكورة لم تصدر الا في عام ١٩٢٢ واستمر بولغاكوف يعمل فيها حتى عام ١٩٢٤. ولم تتطرق الموسوعة الى ابرز روايات بولغاكوف وهي رواية «الاستاذ ومارغاريتا».

يقول ميخائيل بولغاكوف عن الادب السوفيتي في الفترة التي كان يعيش فيها إنه حكمة كاذبة تشع بضوء باهت ثم تخفت بلا ضوء.... ويعيب بولغاكوف على الكاتب والاديب تخوفه في نقل الواقع ويعد هذا الخوف خطيئة.

من ابرز نتاجات ميخائيل بولغاكوف الادبية رواية «الاستاذ **ومارغاريتا**» ورواية «قلب الكلب» ومسرحية «آدم وحواء» ورواية «شعاع الحياة»، الى جانب العشرات من المقالات الصحفية فبولغاكوف احب الصحافة وعمل فيها في مختلف مراحل حياته.

الشاعر السوفيتي بوريس باسترناك

الابداع عبر طريق متعرج

في ١٠ شباط الماضي مرت الذكرى المئوية لميلاد الشاعر السوفيتي بوريس باسترناك (١٨٩٠ - ١٩٦٠) الذي لم يكن احد قبل فترة وجيزة .. يذكر اسمه في الصحافة او تداول نتاجاته الابداعية. السبب في ذلك يعود لكونه «معادياً للسلطة السوفيتية» ومن «المنشقين». ولتاكيد هذه التهمة اتخذ اتحاد الكتاب السوفيت في عام ١٩٥٨ قراراً بطرد بوريس باسترناك من صفوف الاتحاد.

استمرت القطيعة مع باسترناك الى ١٩ شباط ١٩٨٧ حين اتخذ اتحاد الكتاب السوفيت قراراً يلغي قراره السابق بطرد باسترناك من صفوف الاتحاد وطبع نتاجاته الادبية في الاتحاد السوفيتي.



باسترناك

ونشرت مجلة «نوفي مير» الادبية الشهرية على شكل حلقات روايته المعروفة «دكتور جيفاغو» بالاضافة الى طبع نتاجاته الشعرية على شكل ديوان.

العودة الى باسترناك وكتاب سوفيت آخرين كانوا في «قائمة الممنوعين» لم تكن لتتم لولا سياسة الزعيم السوفيتي ميخائيل غورباتشوف الاصلاحية والمعروفة بـ «البريسترويكا».

يقول الناقد السوفيتي الكساندر كامينسكي بان بوريس باسترناك اعتلى المقصلة بنشره روايته المعروفة «الدكتور جيفاغو».

الابداع عبر طريق متعرج

ولد بوريس باسترناك في عام ١٨٩٠، وكان والده ليونيد اوسيبوفيتش باسترناك من ابرز الرسامين الروس حيث تعرض لوحات والده لحد يومنا الحاضر في اشهر متاحف موسكو ولينينغراد. منذ الطفولة تميز باسترناك الابن بمواهب عديدة فقد كان يرسم بشكل رائع، ودرس الموسيقى عند الموسيقار الروسي المعروف سكريبان **ودرس** في جامعة موسكو وفي جامعة ماربورغ الفلسفة. اهتم بالشعر منذ سنوات عمره المبكرة، حتى ان قصائده الاولى اثارت الاهتمام. الشاعر السوفيتي المعروف مايكوفسكي امتدح بوريس باسترناك ووصفه بالعبقري، الكاتب السوفيتي مكسيم غوركي هو الاخر امتدح باسترناك ونتاجه الابداعي. الشاعر النمساوي رايز ماريا ريلكا تحدث عن باسترناك بكل تقدير واحترام.



سولجنتسن

ابداع بوريس باسترناك لم يمتدح فقط من قبل اصدقائه او من قبل النقاد الموضوعيين فقط، بل الاعجاب بنتاجات بوريس باسترناك كان حتى من قبل الاعداء. فحتى ستالين الذي امر بملاحقة بوريس باسترناك لم يكن يخفي اعجابه بعبقرية باسترناك الشعرية. في العشرينات من القرن الحالي كان الناقد والاديب السوفيتي فيكتور شكلوفسكي يتنبأ لبوريس باسترناك بمستقبل رائع فكتب يقول:

«باسترناك انسان سعيد، لايعرف الحقد. اما خلال حياته فمن الواجب ان يعيشها محبوباً ومدللاً وعظيماً».

كلمات السيد شكلوفسكي تبدو اليوم مضحكة.. فقد عاش بوريس باسترناك حياة مليئة بالمصاعب. تعرض للمطاردة وسجن. وشوهت صورته الحقيقية. وعاش حياة الفقر والكفاف وعانى من غدر اصدقائه وعدوانيتهم. وتم تجريحه باحقر الكلمات النابية. فلقد وصل الحد برئيس منظمة الكومسمول الشبابية السابق السيد سيماجاسني ان يصف بوريس باسترناك بالخنزير ويصفه بكلمات غير مؤدبة اخرى. ولعل سيماجاسني قد سار على اسلوب جدانوف نفسه الذي وصل به الامر ان يطلق على الشاعرة السوفيتية المعروفة آنا آخماتوفا كلمة «البغي».

كان الشعر والابداع هما ملاذ بوريس باسترناك الوحيد في حياته. فقد كتب في عام ١٩٥٥ الى صديقه فارلام شالاموف بعد الانتهاء من روايته «دكتور

جيفاغو» يقول: «لقد نفذت واجبي الان بانهائي هذه الرواية. وواجبي هذا قد اوصاني به الله..»

رواية «دكتور جيفاغو» العمل الروائي الوحيد لبوريس باسترناك. لكنه العمل الذي جلب الشهرة الكبيرة له. والقارئ «للدكتور جيفاغو» يحس بقدرة باسترناك الكبيرة. فلقد وضف قابليته الشعرية في كتابة الرواية اي ان كلماته كانت قصيرة ومقتضبة.. وعدة كلمات منه لها القدرة على عكس الكثير من الصور والافكار التي يمكن ان يتناولها اديب آخر بعدة صفحات.

«الخنزير» الحائز على جائزة نوبل:

في ٩/١٢/١٩٨٩ سافر ابن بوريس باسترناك الى ستوكهولم لتسلم جائزة نوبل والتي منحت لوالده في عام ١٩٥٨، لكن والده لم يستطع السفر في وقتها الى ستوكهولم. لقد منعته السلطات السوفيتية في وقتها من مغادرة البلاد لتسلم الجائزة المذكورة. لقد اشترطت السلطات السوفيتية في وقتها على بوريس باسترناك: اما مغادرة الاتحاد السوفيتي نهائياً او الامتناع عن جائزة نوبل.

في وقتها كتب بوريس باسترناك رسالة الى الرئيس السوفيتي السابق نيكيتا خروشوف يقول فيها:

«انا مرتبط بروسيا بولادتي وحياتي وعملي.. لايمكن ان اتصور حياتي بدون روسيا.. ومغادرة بلادي تعني الموت بالنسبة لي. لهذا اطلب منكم عدم ارغامي على ترك بلادي...»

ولم يغادر بوريس باسترناك روسيا لتسلم جائزة نوبل بالرغم من كل ماتعرض اليه وبالرغم من صفة «الخنزير» التي اطلقها عليه رئيس الكومسمول السابق سيماجاسني.

بوريس باسترناك كان مترجماً رائعاً وترجم نتاجات عديدة لابرز الشعراء العالميين امثال شكسبير وغوته وشيلر وبايرون وفيرلن وغيرهم.

بقي ان نقول ان الذكرى المئوية لميلاد الشاعر والتي احتفل بها في شباط الماضي شهدت اقامة العديد من النشاطات والفعاليات التي تخلد ميلاد بوريس باسترناك ومن ابرز هذه الفعاليات المعرض الذي اقيم في متحف الفنون الجميلة في موسكو تحت عنوان «عالم باسترناك» والذي ضم العديد من اللوحات التي رسمها بوريس باسترناك.

الهوامش

١ـ جدانوف: اندريه جدانوف (١٨٩٦ ـ ١٩٤٨) سكرتير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي وعضو المكتب السياسي للحزب وكان يعتبر المسؤول العقائدي ومسؤول الثقافة في الحزب الشيوعي.

محلية النقد وإقليمية المنهج

حوار مع د. صلاح فضل

■ حاوره: هاتف الثلج ■

د. صلاح فضل واحد من نقادنا العرب المعاصرين الذين ينظرون الى الخطاب الابداعي اليوم من جوانب عديدة. واذا كان د. صلاح فضل قد عرف بالتصاقه بالمفاهيم الواقعية كما في كتابه «المنهج الواقعي في الابداع الادبي» فانه عرف من جانب آخر باطلاعه الواسع على التيارات النقدية الجديدة التي تاثر بأهم طروحاتها. ولا عجب ان نراه داعية الى تلاقح المناهج النقدية عبر رؤية حذرة ووعي حداثي يضع في نظر الاعتبار جدوى الفكر المقارن. والى جانب هذا، يتمتع د. صلاح فضل بخصائص بحثية قادته الى الالتزام بقناعات وآراء تستاهل الوقوف عندها. ولعل هذا الحوار يسلط اضواء جديدة على طبيعة تفكيره ونظرته الى الحركة النقدية العربية التي قيّمها من خلال الاسئلة الموجهة اليه. وهكذا بدانا معه من السؤال التالي:

*** كيف تقيم الوضع الراهن لحركة النقد العربي الحديث؟**

■ المشكلة الجوهرية في حركة النقد العربي الحديث تعد إنعكاساً مطابقاً للحركة الحضارية بصفة عامة، إذ تتجاوز العصور والعقليات المتناقضة دون إتفاق على الحد الأدنى من الالتزام بمناهج العلم ومنجزات العصر الحديث، وتتفرع عن ذلك قضايا تبدد جهود الطرفين في التنابذ والتضارب وعدم الاعتراف بمشروعية الوجود من أساسه، فبينما نعيش في عصر تطورت فيه الجوانب المادية الى المستوى الذي اصبحنا فيه من اكبر مستهلكي المنجزات الحضارية والتكنولوجيا، فاننا مانزال نتصور ان بوسعنا ان نعيش في كل هذه التحولات من دون اية تغيرات في علومنا الانسانية



تعريفي للواقعية السحرية قبل ان يشتهر ادب أمريكا اللاتينية عندنا، إنما هو دعوة لمبدعينا بالدرجة الأولى كي يقبضوا على جمرة واقعنا الأسطوري من دون خوف.

وفنوننا وآدابنا. فلابد أن يمثل هذا كل المعطيات المادية التي نعيشها، وبالتالي تسقط في تقديري دعاوى السلفيين الذين يفزعون من التجديد ويهرعون الى التراث للاحتماء به من معايشة الواقع الساخن المفعم بالتقلبات، انهم لن يصبحوا تراثيين قلباً وقالباً، لأن هذا التراث ذاته يتغير بمرور الوقت بما أضيف اليه، نحن لانستطيع أن نقرأ مثلاً إلا من منظور المعري وأحمد شوقي وشعراء الحداثة، فلم تعد قراءتنا لأي نص قديم بريئة مباشرة، تستطيع عن طيب خاطر أن تسقط من حساباتها كل ما أثقل به ذلك النص وتفرع عنه ونبت فيه من قراءات وابداعات، واذا كان هذا يحدث في الشعر فلا بد أن يحدث بصفة أقوى في النقد والبحث، لانملك وليس بوسعنا ان نملك عقلية (الجرجاني) لأنه لم يشهد مانشهده اليوم ولم تتغير أمام عينيه صور الكون في عصر الفضاء وانطلاقة العلم حتى تتغير نظرته للغة ووظيفتها، وللفن وأبعاده، ماأريد ان اخلص اليه في هذه النقطة بالذات، هي أن دعوة السلفيين الى الاقتصار على معطيات التراث كما كان يراه اصحابه مستحيلة التحقق عملياً.

لأننا لسنا بأصحابها وإن ورثناها، وكما تتعدل الخلايا في الكائن الحي بمنطق الهندسة الوراثية لتضيف خصائص متصلة بالزمان والمكان فأن خلايانا التراثية قد عدلت بالرغم منا، وعلينا ان نكون أشد وعياً بموقفنا من هذا التراث القديم.

• تحديداً نطلب رأيك في جدية وجدوى المقاربات الحداثية المنبثقة من الاتجاهات الألسنية والسيميائية والبنيوية..؟

■ ان لحظات من الشك تعتري من يرقب الساحة العربية أحياناً، فيكاد يصاب بقدر غير قليل من اليأس، إذ تختلط أمامه الأصوات ويتوهم أنها قد فقدت صواب إتجاهها نحو المناهج العلمية الحديثة، لكن إذا تذكرنا ان عالمنا العربي يريد ان يختزل في أقل من نصف قرن من الزمان محصلة التطور والمعاناة التي استغرقت عدة قرون في العالم الغربي، ويريد ان يحرق مسافات ضوئية لكي يلتحم بالأيقاع السليم لحركة النمو العلمي والنضج المنهجي، في دراسات الأدب ونقده، أدركنا ان ذلك مهمة كبيرة على أن جهد هؤلاء الأفراد مادام منتظماً في سياقه الصحيح ومؤمناً بمستقبليته لابد أن يصنع تياراً. وأؤمن على وجه اليقين بأنه سينتصر وذلك بسبب بسيط وبديهي، وهو انه لابديل أمام المفكر والناقد العربي إلا الافادة من هذه التيارات وتطويعها والمزج بينها أحياناً واستخلاص بنية جديدة منها أحياناً أخرى، كي تتلائم مع درجة حرارته القومية وتصبح اكثر كفاءة في تمثل واستيعاب نتاجه الأبداعي، لأن البديل عن ذلك هو أن يظل في موقفه السابق يكرر مثل الببغاء المقولات التاريخية والانطباعية المتقلبة في فهم الأدب ونقده، دون العمل المنظم الواعي في سبيل إقامة أبنية علمية جديرة بالكشف عن مكونات الأعمال الأدبية من ناحية وكيفية قيامها بوظائفها الجمالية والاجتماعية من ناحية اخرى، وإذا كان هناك جماعات من العجزة القاصرين عن إدراك هذه المناهج وغير القادرين على تمثلها أولاً وتوظيفها ثانياً، فأن هذا هو شأنهم مهما نادوا أن لاطائل منها أو لاجدوى، فلن يستطيعوا ان يقعدوا غيرهم ممن يبذلون جهداً مخلصاً في سبيل القيام بهذه المهمات المنهجية والعلمية.

• هل استنفد المصطلح النقدي القديم اغراضه ولم يعد صالحاً لأستيعاب التقنيات الادبية الحديثة ؟

■ حياة المصطلح مستمدة من الابداع الذي انبثق منه من جانب، ومستمدة من جانب آخر من درجة

التطور العلمي ومستوى الوعي المعرفي في اللغة والفن في عصره، فإذا اقتصرت اليوم عليه حددت نفسي، مما يجعلني في موقف القصور التام عن تطبيقه على الابداع الحديث، فلو اقتصرت مثلاً في إدراك النقد لشعرية ابي تمام على المعطيات التي تبلورت حول مدرسته بالتعارض مع مدرسة البحتري مثلاً في النقد القديم، فسأقف عند حدود تكرار مقولات الآمدي مثلاً دون تجاوزه، أما لو حاولت أن اترجم هذه المفاهيم إلى مقابلاتها المعاصرة في التحليل اللغوي والأسلوبي او السيميولوجي للظواهر الشعرية، فسيصبح في إمكاني أن افيد من كل المنجزات العلمية والمنهجية المعاصرة في فهم أبي تمام.

● هل تعتقد بأن هناك حركات نقدية زاوجت بين النظرية النقدية الحديثة، والنظرات النقدية العربية تمثيلاً لصياغة نظرية نقدية عربية؟

■ لمحاولة رسم تخطيط أولي للخارطة النقدية العربية كما تتراءى الآن، يبدو لي أن الطرف المغربي يقوم بدور نشط وفعال في ترجمة عناصر مهمة من الاحوال النقدية الحديثة، على مايعتري هذه الترجمة في كثير من الأحيان من ضعف الصياغة العربية وفوضى المصطلح وتشتت الجهد، كما ان هناك من جانب آخر مراكز ثقل في المشرق العربي على وجه الخصوص للدراسات المتشبثة بخلود التراث العربي النقدي والشجب المتشنج لأي رفض له، وأنا أحسب أن الطرفين لابد أن يلتحما في عملية جدلية تستقرأ التراث بحثاً ثم تنساه فعلاً كما ينبغي وتعرضه على محك سلم القيم العلمية الحديثة في الفروع المختلفة، سواء كانت اللغة أو علم الاجتماع أو علم النفس أو علم الجمال وتستبقي منه تلك العناصر التي ماتزال صالحة للحياة وتقوم في الوقت ذاته بانشاء أجهزتها المعرفية المضبوطة على إيقاع العصر من ناحيته والممثلة للمزاج القومي المتجسد في اللغة الخاصة من ناحية اخرى، بمعنى انني ممن يؤمنون بأن النقد لم يعد محلي الطبع ولا اقليمي المنهج، لكن كما أن الابداع بدوره اصبح ذا صبغة عالمية مع إحتفاظه بقدرته الخاصة على تمثيل الشخصية القومية، فأن النقد الى جانب بروز الارتباط الواضح بمنجزات التطور العلمي في الفروع التي أشرت اليها يبقى مشدوداً الى الشخصية القومية عن طريق اللغة، بعبارة أبسط استطيع ان اقول انه ليس من الصواب المنهجي والموضوعي ان نتوقع نظرية عربية للنقد الأدبي، وانما الأدق من ذلك ان نعمل في سبيل صياغة عربية للنظرية العالمية ترتبط بحركة العلوم من جانب وبمزاج اللغة الخاصة وخصائصها الفارقة من جانب آخر.

أمل دنقل

● في كتابك «نظرية البنائية في النقد الأدبي» نجحت في تقديم عرض واضح وشامل للبنيوية، وشرعت في خاتمة الكتاب بفحص المنجز النقدي البنيوي فحصاً سريعاً واولياً. فهل تنوي حالياً الشروع بانجاز هذا المشروع الأولي بشكل متكامل ونعني به تقويم وتقييم المنجز النقدي البنيوي والسيميولوجي والألسني للنقد العربي الحديث؟

■ بعد كتاب «نظرية البنائية في النقد الأدبي»، تعددت مسالك الدراسات البنيوية في النقد العالمي والعربي معاً، وتبينت أننا إنطلاقاً من هذا التأسيس النظري نستطيع أن نمضي في مجموعة من التطبيقات المنهجية التي لا نتمسك حرفياً بنموذج مسبق نقسر النصوص عليه، وإلا أصبحت تمرينات مدرسية ممجوجة، وانما نحاول أن نستهدي ببعض المحاور الجذرية في التحليل البنيوي بأشكاله المختلفة وتفرعاته العديدة دون ان نصر على رفع شعار أو نلح في تكرار المصطلح، بل نتخذ موقفاً إنتقائياً يلائم بعض الأجراءات المنهجية من ناحية وطبيعة النص المدروس من ناحية أخرى، لنقدم قراءة متجددة كاشفة للعمل الأدبي. هذه المحاولة جاءت في بحث قصير بعنوان (إنتاج الدلالة في شعر أمل دنقل) وحاولت بشكل اكثر جذرية مرة أخرى، في تجربة منهجية مازلت أعتقد أنها تستحق النقاش، وقد نشرت بعنوان (نص شعري وثلاثة مناهج نقدية) إختبرت في ضوئها - بعد مقدمة عن إشكالية المناهج النقدية الحديثة - قطعة غزلية شهيرة من شعر شوقي وهي التي تبدأ:

(خدعوها بقولهم حسناء
والغواني يغرهن الثناء)

في ضوء ثلاث خطوات عملية في التحليل الاجتماعي والنفسي والدلالي والبنيوي، واظن أنها قد نجحت في التدليل على كفاءة الخطوة الأخيرة في الاحاطة بالعالم الداخلي للنص والكشف من خلاله عن (ميكانزم) الصياغة الشعرية الاصيل لدى شوقي ومدرسة الشعر التقليدي العربي عموماً، ثم جمعت بعض هذه الدراسات التطبيقية ونشرتها في كتاب (انتاج الدلالة الأدبية) وجاءت مرحلة تالية لذلك تبين لي فيها ان هذا النسق التحليلي اللغوي لابد ان



أحمد شوقي

■ قراءتنا للنص القديم لم تعد بريئة ومباشرة.

■ لم يعد النقد محلي الطبع واقليمي المنهج.

يعتمد على تأسيس آخر يأخذ في إعتباره ويضم الى ذاكرته الانجاز الطويل الهائل في الدراسات الأسلوبية في اللغات الغربية. فقدمت كتابي الآخر المطول عن علم الأسلوب (مبادئه واجراءاته) ليقوم الى جانب نظرية البنائية بأستكشاف هذا الميدان اللصيق بتراثنا البلاغي واللغوي والقريب جداً من مفاهيمه، وان اعتمد على نظرية لغوية تخالف النظرية العربية السلفية، وكانت الدراسات التطبيقية التي أعقبت أيضاً هذا العرض النظري المنهجي هي المحك الذي يختبر كفاءته وفعاليته في مقاربة النصوص الادبية، واذكر انني نشرت في مجلة الاقلام بحثاً تطبيقياً كان بمثابة قراءة اسلوبية لمجموعة من المختارات الشعرية الاندلسية التي وردت في كتاب (التشبيهات) للكتاني، وقد تبين من هذه القراءة ان جزيئات البحث البلاغي القديم لابد ان تنتظم في الجهاز الأسلوبي الحديث. وعندما بدات الاقتراب من الدراسات السيمولوجية آثرت ان اقدم نماذج تطبيقية مباشرة لها، في مجموعة من البحوث تنشر قريباً في بغداد بعنوان (شفرات النص ـ بحوث سيمولوجية في شعرية القص والقصيد).

• لقد كان لك فضل خاص في كتابك (المنهج الواقعي في الابداع الادبي) في دراسة وفحص مفهوم الواقعية السحرية والغرائبية في آداب امريكا اللاتينية؟ كيف تنظر الى الوضع الراهن للواقعية بمختلف مسمياتها واتجاهاتها؟

■ انا اعتز الى درجة كبيرة بتجربتي منهج الواقعية في الابداع الأدبي، لأنها نهجت خطة تنحو الى تنمية الفكر النقدي الواقعي بعد مرحلة التأسيس التي قام بها كبار النقاد العرب، من ماركسيين وليبراليين خاصة بعد أن قامت دراسات أكبر ناقد في القرن العشرين في رايي وهو (جورج لوكاش) بتأسيس جماليات الواقعية، فلم يعد الأمر قاصراً على الجانب الايديولوجي الفج وإنما انتهى الى صياغة فلسفية عميقة لقضايا الانعكاس والنموذج والشعرية والمستقبلية. أما الأمر الثاني فقد حرصت على تقديمه من منظور الواقعية النقدي على يد (لوسيان غولدمان) إذ اصبحت هي علم إجتماع الادب وأخذت اسم (البنيوية التوليدية) كما نطلق عليها في المشرق او (التكوينية) كما يقول اخواننا المغاربة. والانجاز الجمالي الرائد في نظرية غولدمان يتمثل في اكتشاف العلاقة بين أبنية الوعي الاجتماعي من ناحية، والابنية الادبية الدالة في الاشكال الفنية من ناحية أخرى، وذلك عبر مجموعة من المفاهيم الاجرائية العميقة مثل رؤية العالم والبنية الدالة والوعي الممكن والوعي القائم. واعتقد ان هذا النهج في فهم الظواهر الادبية يلائم بدرجة كبيرة حاجتنا القومية في الوطن العربي للربط المنهجي والعلمي بين الأدب والواقع وإدراك طبيعة الأساس السوسيولوجي للظواهر الجمالية، كما اعتقد من ناحية اخرى انه مازال اكثر المناهج كفاءة في قراءة فن الرواية على وجه الخصوص، وقد حاولت بعد ذلك ان اقدم نموذجاً تطبيقياً له في بحثي عن رواية (ملحمة الحرافيش) لنجيب محفوظ أما ما يتعلق بتعريفي بالواقعية السحرية قبل ان يشتهر امر أدب امريكا اللاتينية عندنا في العالم العربي فقد كانت هذه دعوة الى مبدعينا بالدرجة الاولى كي يقبضوا على جمرة واقعنا الاسطوري من دون خوف وان يقدموا صياغاتهم الفنية لهذا العالم الذي نعيش فيه بعصبه الحساس وذائقته المتميزة.

• الا ترى ان المناهج الادبية الحديثة قد اذابت الفروق بين العلم والادب وصادرت جمالية الاخير؟

■ أنا معك في ان القارئ العربي، كثيراً مايصطدم في بعض هذه التحليلات بمجموعة من الجداول والرسوم، التي تكسر عاداته في

■ مع احتفاضه بالشخصية القومية، أصبح الابداع ذا صبغة عالمية.

نجيب محفوظ

القراءة وتعتدي على حسه الفني في التلقي. لكن المسألة في تقديري أهون من ذلك، وإذا كان الباحث متمكنا من إجراءاته قادراً على إستخلاص النتائج واستقراء الدلالات من هذه الارقام، عندئذ ستصبح متابعته رحلة شائقة ممتعة ومقنعة معاً. وذلك تتويج للحظة سعيدة من إلتقاء العلم والفن ومعانقة المعرفة للأدب. أما الحالة الأخرى وهي الغالبة لسوء الحظ، فان صغار الباحثين يلجأون لتغطية عجزهم وإيهامنا بالعلم وتخويفنا بالارقام والمثلثات، دون مقدرة حقيقية على تمثل الجوانب المختلفة للظاهرة الجمالية او الترجمة الكمية لخصائصها الكيفية. فاننا لابد أن نشعر إتجاه هذا بالنفور المبرر، مثلما نشعر أيضاً إتجاه عشرات الدراسات التقليدية المكرورة التي لاتضيف الى العلم ولا الى الفن شيئا ذا بال. المشكلة إننا امام إحتمالين بالنسبة لهذا الناقد: إما أن يكون ناقداً كبيراً وعالماً صحيحاً في كلا الاتجاهين، أو انه من صغار الكتاب ممن يسيئون لمنهجهم فيلعن بسببهم.



رقم بابلي من ذهب

■ الدكتور فوزي رشيد

هل الآثار التي تظهر نتيجة الاعمال والحفر والتنقيب تكفي لوحدها لان نفهمها ونفهم منها التاريخ القديم؟

للجواب على هذا السؤال نؤكد ان الآثار لوحدها لا تكفي على الاطلاق لفهم التاريخ القديم فهماً علمياً بعيداً عن المغالطات التي حشرت فيه بقصد او بغير قصد ولذلك لا بد لنا ونحن ندرس آثار الماضي ان نتعرف اولاً على المعتقدات الدينية والقيم الجمالية وغير الجمالية التي آمن بها الاقدمون، لان هاتين الناحيتين تلعبان الدور الرئيس في المنتجات الحضارية منذ اقدم العصور وحتى الوقت الحاضر.

ومعرفة هذه الحقيقة هي التي تساعدنا في كثير من الاحيان على اكمال النواقص التي تظهر في بعض الآثار.

ان كل ابتكار في الحياة يبدأ اولاً بالتركيز على قيمته الوظيفية ثم يتطور باتجاه المفاهيم الدينية المتوارثة وباتجاه

القيم الجمالية التي اعتاد عليها المجتمع. وفيما يخص هذه الحقيقة بالنسبة للابراج المدرجة في العراق القديم نستشهد بنتائج التنقيبات التي اجرتها البعثة العراقية في منطقة المعابد في مدينة اريدو، حيث اوضحت لنا بشكل ملموس بان البداية الاولى للابراج المدرجة (= الزقورات) كانت عبارة عن مصطبة ترتفع عن الارض بضعة امتار ليبنى عليها المعبد الرئيس للمدينة. والوظيفة الاساسية لهذه المصطبة هي لحماية المعبد وجدرانه من تأثير المياه الجوفية ومياه الامطار، وبالدرجة الاساس من مياه الفيضان، لان الواقع يؤكد ان معظم اراضي القسم الجنوبي من العراق كانت مغطاة بمياه الفيضان، ولهذا السبب ولا سبب آخر غيره بنيت المعابد الاولى على مصاطب.

وخير مثال على ذلك زقورة الإله آنو في منطقة كلاب وزقورة الآلهة اينانا في الوركاء، حيث ان الاولى كانت مكونة من طبقة واحدة والثانية يعتقد أيضاً انها كانت من طبقة واحدة

وبعد فترة من ذلك بدأ العراقيون القدامى بادخال القيم الدينية والجمالية الى ابنية الزقورات وبذلك ارتفع عدد الطبقات الى ثلاثة كما هو الحال مع زقورة مدينة اور.

والسبب في ذلك يعود الى ايمان العراقيين بان الرقم ثلاثة هو من الارقام المباركة. وهذا الايمان ببركة الرقم ثلاثة قد برز منذ بداية ظهور حاجة الانسان الى استخدام الاعداد، حيث ان الانسان قد عرف العددواحداً قبل غيره من بقية الاعداد من خلال ذاته، لان جسمه كاملاً يمثل الواحد، وعرف العدد اثنين من خلال تناظر اعضاء جسمه بدليل ان التثنية في اللغة العربية، كانت في الاصل مقتصرة على اعضاء الجسم المتناظرة.

اما العدد ثلاثة فليس في الجسم ثلاثة اعضاء متطابقة تماماً تمكنه من التعرف على العدد المذكور، ولذلك فإن العدد ثلاثة لا يتكون امامه إلا من اجتماع ثلاثة اشياء ولذلك اخذ العدد ثلاثة يرمز الى الجمع، وخير مثال على ذلك هي لغتنا العربية، حيث انها تحتوي على المفرد والمثنى فقط ومايزيد على الاثنين يعتبر جمعاً.

واعتماداً على قانون العلل المتشابهة تنتج عنها نتائج متشابهة، اي ان الخير لا ينتج عنه الا الخير والشر لا ينتج عنه الا الشر، فقد اخذ العدد ثلاثة يرمز الى البركة مادام الجمع هو الكثرة، اي البركة، وبذلك تحول العدد ثلاثة منذ فترة مبكرة الى رمز للخير والبركة. وهذه الناحية قد فسحت الطريق للعدد المذكور لان يفرض نفسه على معظم النتاجات البشرية.

ففي مجال اللغة أكدت الدراسات الخاصة بلغات اقوام الجزيرة العربية عموماً وبضمنها طبعاً اللغة العربية ان جذور الافعال في مراحل اللغة المبكرة كانت تتألف من حرفين لا اكثر وبعد فترة من ذلك أضيف اليها حرف ثالث واصبحت بذلك ثلاثية. والسبب في هذه الزيادة راجع الى تحول الرقم ثلاثة الى رمز للخير والبركة. ومما يؤكد هذه الحقيقة هي ان معظم جذور لغات اقوام الجزيرة العربية هي ثلاثية والقاعدة الشاذة هي الفعل الرباعي. والشئ نفسه قد حدث مع النظم الشعري، حيث ان الاشعار والاغاني القديمة كانت ثلاثية التفعيلة بالنسبة للصدر والعجز وخير مثال على ذلك شعر الرجز، الذي هو من اقدم انواع الشعر، حيث ان تفعيلة كل شطر من شطور قصيدة الرجز هي تفعيلة ثلاثية.

والحقيقة ان تأثير الرقم ثلاثة لم يقتصر على اللغة والشعر وانما امتد كذلك الى مجال البناء فتحولت نتيجة ذلك الزقورات ذات الطبقة الواحدة الى ثلاثة طبقات دفعة واحدة، لان هذه الزيادة التي حصلت في عدد طبقات الزقورة ليس دافعها وظيفياً فقط وانما [illegible] عقائدي وجمالي.

والسبب العقائدي يتمثل بأيمانهم ببركة الرقم ثلاثة والسبب الجمالي يعود الى حقيقة الجمال التي تتمثل عادة بالاشياء التي تديم الحياة او تساعد عليها اوتذكر بها. وما دامت البركة ضرورية للحياة فهي اذن لا تخلو من الجمال. وفضلاً عن ذلك فان القسم الجنوبي من العراق يخلو تماماً من المرتفعات، فبناء الزقورة بثلاثة طبقات يخلق جواً تفتقد اليه طبيعة القسم المذكور. وفيما يخص بلاد وادي النيل فان المعلومات المتوفرة تؤكد ان الملك زوسر حوالي ٢٧٧٨ ق.م مؤسس السلالة الثالثة قد بنى الهرم الاول في مصر بستة طبقات. والواقع يؤكد ان هرمه من حيث الشكل كان متأثراً بالزقورات العراقية وان كل مافعله الملك المذكور من جديد هو مضاعفة عدد طبقات الزقورة العراقية. وهذه المضاعفة قد افقدت هرمه الثلاثية رمز الخير والبركة ولذلك عندما قام الملك خوفو، حوالي ٢٧٠٠ ـ ٢٦٧٧ ق.م، ثاني ملوك السلالة الرابعة ببناء هرمه اعاد الى الهرم الثلاثية التي فقدها هرم الملك زوسر، لان كل وجه من وجوه الهرم الكبير لخوفو عبارة عن مثلث ويواجه احدى الجهات من جهات العالم الاربع الرئيسة.

واضافة الى مجالات البناء فان الثلاثية قد امتد تأثيرها الى نواحي كثيرة جداً نختار من بينها مايلي:ـ

١ ـ يتناول الانسان في اليوم الواحد ثلاث وجبات طعام، في الوقت الذي يؤكد فيه الواقع بان الانسان يستطيع ان يزيد او يقلل هذه الوجبات الثلاث، ولكنه فضل الوجبات الثلاث بسبب البركة التي يحتويها الرقم ثلاثة.

٢ ـ الثالوث المقدس في ديانة مدينة الحضر (= مرن ومرتا وبرمرين)، والثالوث المقدس في الديانة المسيحية (= الاب والابن وروح القدس).

٣ ـ تكرار عدد من الآيات القرآنية والادعية اثناء الصلاة والوضوء ثلاث مرات.

٤ ـ القائد في الجيوش العربية الاسلامية كان عليه ان يكبر ثلاث مرات من قبل ان يبدأ هجومه على الاعداء.

كل هذه الحقائق وهناك كثير غيرها تدل على اهمية الرقم ثلاثة في حياة سكان بلاد وادي الرافدين منذ القديم وحتى الوقت الحاضر ولذلك لايمكننا ان نتقبل النموذج الجبسي الذي صنعه الالمان لزقورة مدينة بابل والمعروض حالياً في متحف نبوخذ نصر بمدينة بابل، لان عدد طبقات هذا النموذج لا يستند على ادلة آثارية معلومة ولا على اية قيمة روحية كانت ام جمالية من القيم البابلية، ولا يستند كذلك على آثار لاحقة يمكننا ان نقول بخصوصها انها متأثرة بالزقورة الممثلة بالنموذج الجبسي، بل يستند فقط على معلومات وردت في نص مسماري من الفترة السلوقية (= ٢٢٩ ق م)، علماً بان هذا النص قد كتب في فترة لم يك فيها لزقورة بابل، اي وجود، لانها قد دمرت في الكامل في زمن الملك الاخميني أحشويرش الاول ٤٨٦ ـ ٤٦٥ ق.م. ومن الادلة الآثارية التي تؤكد ان زقورة بابل، وفي مقدمة هذه الآثار ملويتها سامراء وجامع ابي دلف، حيث ان تشكيلهما لا يوحيان على الاطلاق بانهما متأثرتان بالزقورة التي صنعها الالمان وفق معلومات النص السلوقي لمدينة بابل، ولذلك فان زقورة بابل الحقيقية لا بد انها كانت بشكل آخر غير الشكل الممثل بالنموذج الجبسي.

لذا فاننا نعتقد ان جميع الزقورات التي ظهرت في العراق من بعد زقورة

زقورة بابل

١١

مدينة اوركانت متألفة من ثلاث طبقات لا اكثر، حتى لو اشارت النصوص الى احتوائها على طبقات سبع، لان الادلة كافية لدينا على ان الرقم سبعة كان يقصد بذكره في معظم الاحوال الكثرة والجمع، والرقم ثلاثة كما سبق وان بيّنا يدخل ضمن مرحلة الجمع.

والتغيير الذي حدث مع الزقورات التي بنيت من بعد زقورة اور يتمثل في ان قواعدها قد اصبحت مربعة بعد ان كانت قاعدة زقورة مدينة اور مستطيلة لان ابعادها هي ٦٢،٥ × ٤٣م بينما ابعاد زقورة عقرقوف هي ٦٩ × ٦٧م، وابعاد قاعدة زقورة مدينة بابل هي ٩١،٥ × ٩١،٥م. وهذا التغيير الذي حصل في قواعد الزقورات التالية لزقورة اور لم يحدث اعتباطاً وانما سببه يرجع الى ان القاعدة المربعة للزقورة تسهل على المعمار لان يجعل كل زاوية من زواياه تتجه بشكل دقيق نحو جهات العالم الاربع.

هذا وقبل ان نعرض الأسلوب الذي توصلنا من خلاله الى معرفة الابعاد والارتفاعات الحقيقية للزقورة علينا ان نشير الى ان معظم الباحثين الآثاريين قد اعتقدوا بان ارتفاع زقورة بابل كان مساوياً لطول قاعدتها الارضية، اي انه يساوي ٩١،٥م. وهذا الاعتقاد من قبل الآثاريين هو الذي منحنا الثقة على ان الاسلوب الذي اتبعناه في معرفة ابعاد الطبقات الثلاث للزقورة كان صحيحاً لانه قد اعتمد من جهة على نسب مثالية مستخدمة من قبل البابليين واعطى من الجهة الاخرى نتيجة متطابقة بين طول قاعدة الزقورة وارتفاعها. وهذه النسب المثالية قد استخدمت في اللوح الرياضي من تل حرمل، الذي يحتوي على قضية هندسية لها علاقة بتشابه المثلثات، حيث جعلوا ابعاد المثلث القائم الزاوية على الوجه الاتي: الوتر ٧٥ والقاعدة ٦٠ والارتفاع ٤٥، اي ان الفرق بين ضلع وآخر هو فرق ثابت ويتمثل بالرقم (١٥) الذي يساوي ثلث الارتفاع.

فلو حاولنا ان نستخدم هذه النسب، اي ان الفرق بين طول قاعدة كل طبقة واخرى هو ثلث طول الطبقة الاولى والشيْ نفسه مع ارتفاعات الطبقات الثلاث، تتولد لدينا زقورة مصممة وفق النسب المثالية (= الذهبية) البابلية. ولكن مانحتاجه لهذا الفرض ان نعرف اولاً الارتفاع الحقيقي للطبقة الاولى.

ولحسن الحظ ان بقايا زقورة عقرقوف قد ساعدتنا على التعرف على ان ارتفاع الطبقة الاولى لزقورة بابل يساوي نصف طولها، اي ٤٥،٥م، لان ارتفاع الطبقة الاولى لزقورة عقرقوف هو ٣٣،٥م، اي يساوي نصف طول قاعدتها البالغة ٦٧م. وبناءً على هذه الحقيقة وعلى النسب المثالية (= الذهبية) البابلية يمكننا القول بان اطوال الطبقات الثلاث على التوالي هي ٩١،٥م و ٦٠،٥م و ٣٠،٥م والارتفاعات هي ٤٥،٥م و ٣٠،٥م و ١٥،٥م. وبذلك يكون ارتفاع زقورة بابل مطابقاً تماماً لطول قاعدتها الاولى.

وهذه الابعاد للطبقات الثلاثة لزقورة بابل قد خلقت نسباً ذهبية بين كل طبقة واخرى، حيث ان قسمة طول الطبقة الاولى على ارتفاعها سوف يساوي في الناتج قسمة طول الطبقة الثانية على ارتفاعها ويساوي كذلك قسمة طول الطبقة الثالثة على ارتفاعها، اي ٩١ / ٤٥،٥ = ٦٠،٥ / ٣٠،٥ = ٣٠،٥ / ١٥،٥.

علماً ان هذه النسبة البابلية قد اعتمد عليها فيثاغورس كثيراً واستمرت في الاستعمال الى ان وضع لها الفنان المعروف «ليوناردو دافنشي» قاعدته المعروفة باسم «النسب الذهبية»، واعتمد جسم الانسان اساساً لها. وهذه النسب الذهبية حسب راي ليوناردو دافنشي هي الاتي: لو قسّمنا طول المسافة المحصورة بين قمة راس الانسان وسرته على المسافة ما بين السرة والقدم فان نتيجتها تساوي نتيجة قسمة المسافة مابين السرة والقدم على طول الجسم كاملاً، اي ان اب / ب ج = ب ج / أج.

وفي ختام الموضوع نقول لم يحدث شيْ على سطح هذه الكرة الارضية وزال من عليها مالم يترك اثراً في مكان مايدل عليه، ولذلك لا بد وان تحتوي مدينة بابل على بعض الاثار التي تدل على الشكل الاصلي لزقورتها. وعند النظر الى العناصر الزخرفية التي تزين اعالي جدران المباني والقصور والمسرح البابلي وشارع الموكب، فسنجد ان شكل هذه العناصر الزخرفية في الجدران الواطية نسبياً يتطابق تماماً مع شكل زقورة بابل لوحدها. اما في الجدران العالية فشكل هذه العناصر الزخرفية يتماثل مع الزقورة والمعبد المقام فوقها.

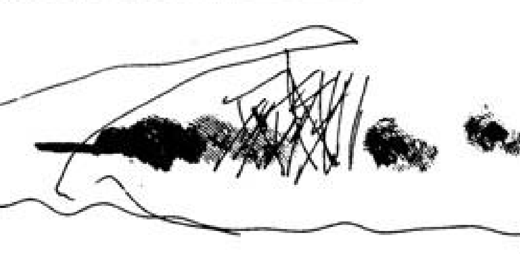
ولذلك فان هذه العناصر الزخرفية لا بد لها وان تكون مستوحاة من شكل الزقورة لوحدها او من شكل الزقورة والمعبد فوقها وماعدا ذلك يصعب علينا ان نجد الاصل الذي استندت عليه هذه العناصر الزخرفية.



* شعر

ثلاث أغنيات

محمد جميل شلش





هجاء نون النسوة

والله من حبّي لدندانتِهِ
قلتُ له اكرهُ موسيقاكْ
اعبدُ شيطانَكَ يامَلاكْ
اهوكَ من قلبي ولا اهواكْ
يازورقَ النجاةِ والهلاكْ
ياقمراً منكسراً افقَكْ
ياوتراً، منهمراً بالوردِ والاشواكْ
إياكَ أنْ تجرحَنا إياكْ
فاصعدْ الى سمكْ
وأكمِلِ النُّعمةَ كي نعبُدَ موسيقاكْ.

إنهمار

من عالمٍ خفيّ
عبر نَقاءٍ كستنائيٍّ، صَنوبري
ياتي الجسدُ
منبهراً، ملفعاً، بالمَرَحِ الطَري
مكتنزاً بدفئِهِ العاجي

**

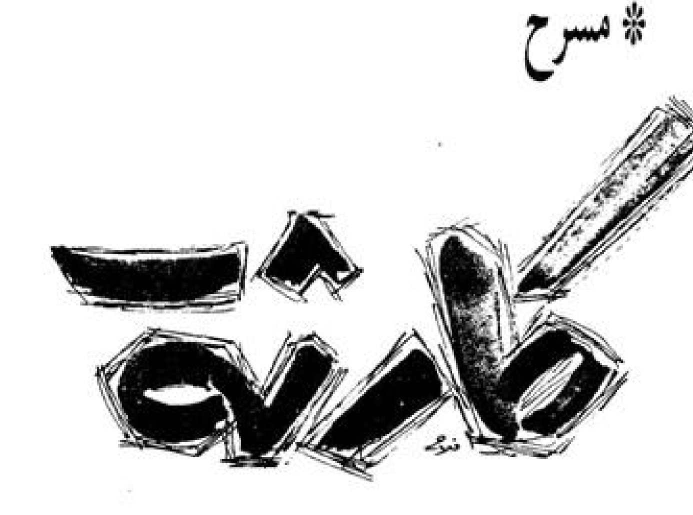
عبر انهمارٍ، حالمٍ، روحي
ممتزجٍ بآخرٍ وردي
ياتي انهمارٌ آخرٌ
مبلّلٌ بالفرحِ النقي.

**

عبر انهمارِ الجسدِ العاجي
ياتي انهمارُ المطرِ الخفي.

وحدة

وحيدٌ، بلا صَبوةٍ
وحيدٌ مع الليل والغربةِ
وحيدٌ مع الصمتِ والوحشةِ
وحيدٌ مع الوَحدةِ
وعارٍ من الحسِّ كالميتِ
وكيما اكون وحيداً بلا هاجسٍ،
وبلا نزوةٍ
تعريتُ حتى من الوَحدةِ
واغلقتُ نفسي على غُرفتي.





■ صموئيل بيكت

■ ترجمة: أحمد حامد عثمان: القاهرة

■ صموئيل بيكت الكاتب المسرحي العالمي الراحل، الحاصل على جائزة نوبل للآداب، صاحب المسرحية المشهورة «في انتظار غودو» يصفه الذين يعرفونه انه كان لايخرج عن طبيعته الصامتة الجذابة إلا إذا فكر بالكتابة وعندها يفكر بصوت مسموع، أما عن كونه ذا صميمية سخية، فذلك امر يعرفه المحيطون به من المعارف. وبالرغم من ذلك كان لايخرج من عزلته وتامله. واذا خرج فإلى ما يعطيه نشاطاً ذاتياً وعضلياً. ذلك النشاط الذي مارسه اثناء خدمته في جيش المقاومة الفرنسية. والتي حصل نتيجتها على وسام شارل ديغول. لم يكتب بيكت اعماله بالفرنسية والانكليزية حسب، بل كان مترجماً ممتازاً لاعماله المسرحية. واما مسرحه فكان مسرح اشخاص، وليس مسرح كلمات. والحياة القصيرة المبدعة كانت عنده خيراً من الطويلة الخالية. وكان همه البحث عن الاجوبة في اعماله المسرحية. وكان الانسان وقواه المحدودة موضوعه المسرحي الاول.

الشخصيات:

المخرج (م)/مساعدته (الف)/البطل (باء)/لوقا مسؤول الاضاءة (لام)

الخشبة عارية. الف ولام يضبطان الاضاءة. يدخل ميم.

ميم: واقف عند مقدمة خشبة المسرح، بجانب الحديقة. يرتدي معطفاً من الفراء وقبعة. العمر والهيئة لايهمان.

الف: واقفة بالقرب منه. ترتدي «بلوزة» بيضاء اللون. مطرقة الرأس. تضع قلماً خلف أذنها. العمر والهيئة لايهمان.

باء: واقف عند منتصف خشبة المسرح، على قاعدة سوداء، ترتفع عن الأرضية بمقدار أربعين سنتيمتراً. يرتدي قبعة سوداء عريضة، ومعطفاً أسود، يصل إلى ركبتيه. قدماه عاريتان. مطرق الرأس. يداه في جيبيه. العمر والهيئة لا يهمان.

ميم والف يتأملان باء في وقفته. فترة طويلة.



الف – **(في النهاية)**. من يعجبك ؟

ميم – حتى منتصفه. **(لحظة)**. لماذا هذه القاعدة العالية ؟

الف – حتى يتمكن افراد الاوركسترا من رؤية اقدامه.

فترة (بعد توقف)

ميم – لماذا هذا المعطف ؟

الف – كي يضفي على المكان لوناً اسود.

(فترة)

ميم – ماذا يوجد اسفل المعطف ؟ **(تلتفت الف نحو باء)**. قولي له.

(الف تتوقف)

الف – لون يتناسب والليل.

ميم – ما اللون ؟

الف – رصاصي.

(ميم يخرج سيجاراً)

ميم – أرغب في أشعال سيجار. **(الف تتقدم. تشعل له السيجار. تتوقف. ميم يدخن)**. ياالف، بماذا تشبهي هذه الجمجمة ؟

الف – رأيتها.

ميم – نسيت ذلك. **(الف تتجه نحو باء)**. قولي له.

(الف تتوقف)

الف – تشبه طائراً منزوع الريش، ماعدا القليل من الريشات.

ميم – مالونها ؟

الف – رصاصي.

(بعد توقف)

ميم – لماذا يداه في جيبيه ؟

الف – كي يكون المكان معتماً بشكل افضل من ذي قبل..

ميم – هذا خطأ.

الف – سادون تلك الملاحظة. **(تخرج دفتراً صغيراً من جيبها. تمسك بقلمها، وتدون.)** اليدان طليقتان.

ميم – بماذا تشبيهك؟ **(لم تفهم الف المقصود. منزعجة.)** تلك اليدان، بماذا تشبهك ؟

الف – هل رأيتهما ؟

ميم – نسيتهما.

الف – من القمم العالية.

ميم – كيف ؟

الف – رأيتهما من القمم العالية.

ميم – آه! من القمم العالية... **(لحظة)** هل كانتا مخدشتين ؟ **(لحظة. منزعج.)** هل كانتا مخدشتين ؟

الف – إذا اردنا ذلك.

ميم – مخلبان.

الف – فقط، في حالة إذا ما ضممنا القبضتين.

ميم – خطأ.

الف – سادون تلك الملحوظة. **(تخرج دفتراً صغيراً من جيبها. تمسك**

بقلمها، وتدون.) اليدان طليقتان.

ميم ـ اشعل سيجاري. **(الف تتقدم. تشعل له السيجار. تتوقف. ميم يدخن.)** لنزكل هذا. **(لم تفهم الف شيئاً. تبدو منزعجة.)** كيفما حدث. إخلعيه. **(يتطلع إلى ساعته.)** إخلعيه بسرعة، لدي موعد مهم.

(تتجه الف نحو باء، تخلع المعطف عن جسد باء، الذي يتركها تفعل ماتريد، تعود والمعطف ع ذراعها. نرى باء واقفاً وهـ ـي منامة قديمة، رصاصية اللون. كان مطرق الرأس. قبضتاه مضمومتان. الف وميم يتطلعان إلى باء).

الف ـ هل ينال اعجابك من دون..؟ **(لحظة) تضطرب**

ميم ـ ليس بالضرورة. القبعة.

(تتقدم الف نحو باء، ترفع القبعة عن رأسه، تعود، والقبعة في يدها، لحظة).

الف ـ هل تعجبك هذه الجمجمة ؟

ميم ـ من الافضل، أن تكون بيضاء اللون.

الف ـ سأدون تلك الملاحظة. **(تدع المعطف والقبعة يسقطان ارضاً. تخرج الدفتر الصغير، تتناول قلمها، وتدون.)** جمجمة بيضاء اللون.

(تدس الدفتر الصغير في جيبها، وكذلك القلم)

ميم ـ اليدان **(يتطلع إلى الف ـ يبدو على وجهها امارات الانزعاج.)** أرخي قبضة يده. هيا. **(الف تتقدم، ترخي القبضتين، تعود إلى مكانها.)** وأطليهما باللون الأبيض.

الف ـ سأدون تلك الملاحظة. **(تخرج الدفتر الصغير، وتتناول قلمها، وتدون.)** تكسى اليدان باللون الأبيض.

(تدس الدفتر الصغير في جيبها، وكذا القلم. الف وميم يتطلعان إلى باء).

ميم ـ هل هناك شئ غير مفهوم ؟ **(في قلق)** لكن، هل هناك شئ غير مفهوم ؟

الف (في خجل) وإذا كنا.. كنا.. قد ضممناهما ؟

ميم ـ من حيث الوجهة... **(الف تتقدم. تضم كفيها. ترجع.)** أعلى. **(الف تتقدم، ترفع قبضتيها إلى بطنها. ترجع إلى مكانها.)** اعلى **(الف تتقدم، ترفع قبضتيها الى صدرها)** قفي! **(الف تعود إلى مكانها.)** هذا افضل من ذي قبل. وصلنا إلى الشكل الأمثل. أشعلي سيجاري.

(الف تقترب منه، تشعل له السيجار وتقف في مكانها، بالقرب منه، ميم يدخن. الف وميم يتطلعان الى باء).

الف ـ إنه مضطرب.

ميم ـ في الوقت الحاضر، فقط.

(لحظة).

الف (في خجل) ـ قد تكون كمامة صغيرة.. صغيرة ؟

ميم (في غيظ) ـ يالها من فكرة! هوس صريح! كمامة صغيرة! كالقبضتين! كمامة صغيرة! يالها من فكرة!

الف ـ هل أنت واثق من عدم ثرثرته؟

ميم ـ ولا كلمة. **(يتطلع إلى ساعته.)** لقد أزف موعدي. سأرى ذلك من البهو.

(يخرج. لانراه أبداً. تتهالك الف على المقعد، تنهض بشكل مفاجئ، تمسك بقماشة متسخة. تطرد الغبار عن العديد من «الملفات» تلقي بالقماشة، وتجلس (لحظة).

ميم في هدوء ـ أنني لا أرى الأصابع **(في إنزعاج)** جلست في أول صف، ولم أر الأصابع.

الف (وهي تنهض) ـ سأدون تلك الملاحظة. **(تخرج الدفتر الصغير من جيبها، تتناول قلمها، وتقيد)** رفع القاعدة.

(تدس الدفتر الصغير والقلم في جيبها)

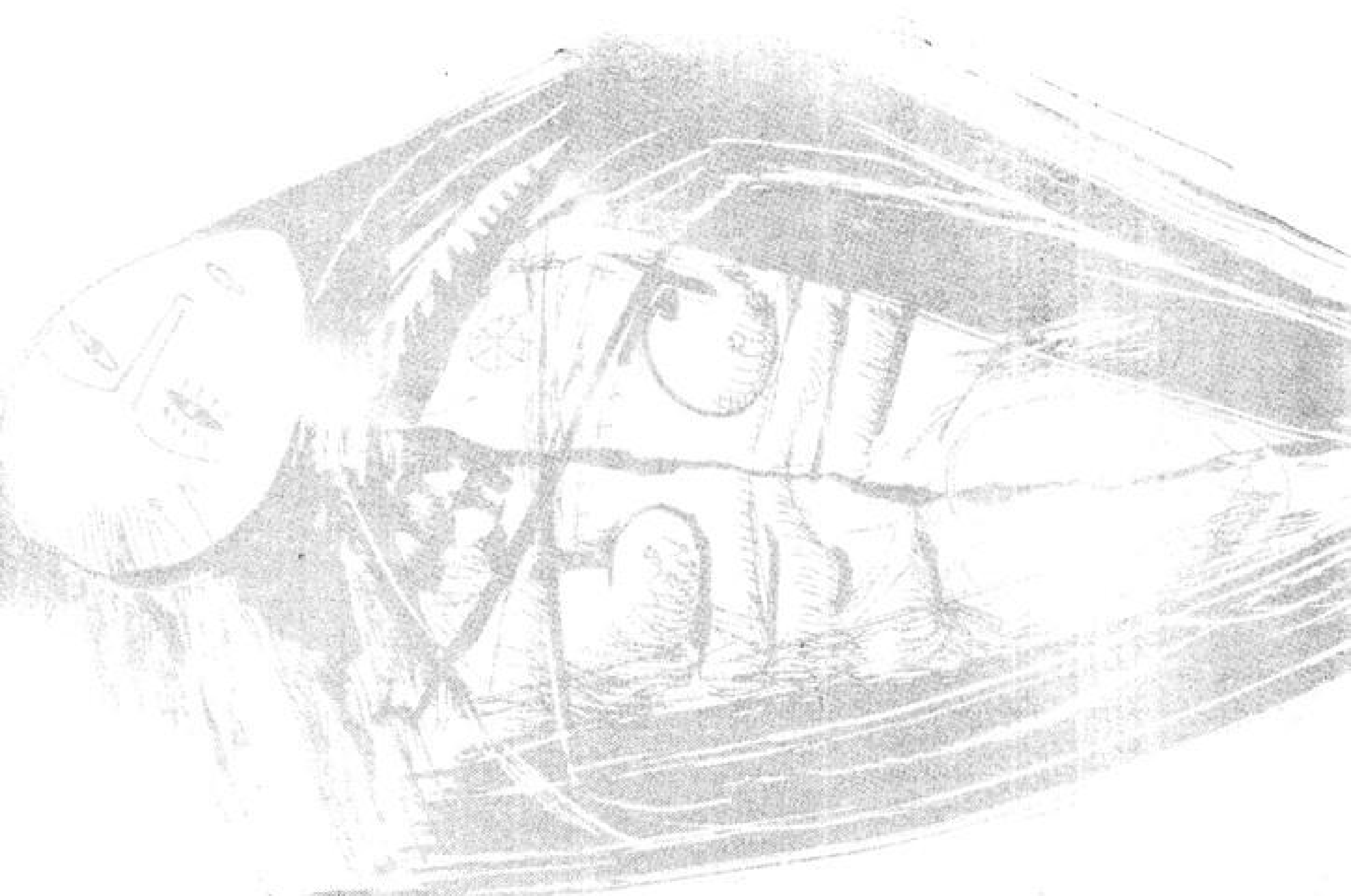
ميم ـ نتخيل الواجهة.

الف ـ سأدون ذلك.

(تخرج الدفتر الصغير، تتناول قلمها، وقبل أن تدون هذه الملاحظة يتحدث إليها ميم).

ميم ـ اخفضي رأسه. **(يتطلع إلى الف، في إنزعاج.)** هيا. اخفضي رأسه.

(تضع الف الدفتر والقلم في جيبها. تتجه نحو باء. تخفض من رأسه.



تعود إلى مكانها.) اخفضي رأسه اقل من ذي قبل، **(تتجه الف نحو باء، وتخفض من رأسه.)** قفي! **(تعود الف إلى مكانها.)** ممتاز. **(لحظة)** ينقصه قليلاً من العري.

الف – سأدون تلك الملاحظة.

(تخرج الدفتر الصغير، تحاول أخراج القلم).

ميم – لم يحن الأوان بعد، ليس الآن! **(تدس الف الدفتر في جيبها. تتجه نحو باء. تقف أمامه.)** اكشفي عن جسده. **(تفك الف الزر العلوي للسترة. تباعد بين طرفيها. ترجع.)** الساقان. عظم الساق. **(تتقدم الف نحوه. ترفع ذيل البنطال إلى أعلى. ترجع.)** الساق الأخرى. **(تفعل مافعلته مع الساق الأولى. ترجع.)** يجب أن تُكسى الساقان باللون الابيض.

الف – سأدون تلك الملاحظة. **(تخرج الدفتر الصغير، تتناول قلمها. وتقيد.)** يُكسى الساقان باللون الأبيض.

(تدس الدفتر الصغير والقلم في جيبها).

ميم – هل لوقا موجود هنا ؟

الف (منادية) – لوقا! **(لحظة. تنادي بصوت عال.)** يالوقا!

لوقا – (صوت بعيد هادئ) – أنا قادم. **(لحظة. صوت قريب.)** ماذا هناك ؟

الف (متوجهة بحديثها إلى ميم.) لوقا هنا.

ميم – اطلبي منه أن يطفئ الضوء. **(تردد الف ماسمعته من ميم إلى لام بشكل آلي. يطفئ لام الضوء. لام موجود وسط بقعة من الضوء. الف موجودة في الظلام.)** لاشئ. سلط الضوء على الرأس فقط. **(تنقل الف إلى لام ماسمعته من ميم. يدخل جسد باء في الظلمة. الضوء مسلط على الرأس. فترة طويلة.)** رائع، كم هو رائع هذا الشكل.

الف – (في خجل) – لن يستطيع... رفْع رأسه... حتى لثانية... حين نرى الواجهة... في لحظة ؟

ميم (في غيظ) – يالها من فكرة! ماهو المطلوب مني؟ ارفعي رأسه! اين التقينا من قبل؟ في بولونيا؟ ارفعي رأسه! يالها من فكرة! **(لحظة)** جيد... احمل كارثتي... وأعود لأهرب.

الف – متوجهة بحديثها إلى لوقا – (يعود ليهرب).

(يعود الضوء غامراً جسد باء، ومستقراً عليه. **(لحظة)** يعود الضوء تدريجياً في بطء، غامراً خشبة المسرح).

ميم – قف! **(يستقر الضوء على الجسد. لحظة.)** والآن... هيا! **(ينطفئ الضوء. لحظة. يدخل جسد باء في العتمة تدريجياً. الراس هي العضو الوحيد المضاء. فترة طويلة.)** رائع، سأتحدث، مصيبة. سأنتظرها هنا. **(لحظة)**.

من على بعد، نستمع إلى تصفيق حاد. يرفع باء رأسه، باتجاه الجمهور. يخفت التصفيق. يتوقف. صمت.

فترة طويلة.

تدخل الراس تدريجياً في العتمة.

ستار

يوم الجمعة ٢٢ كانون الاول ١٩٨٩ توفي صموئيل بيكيت في احد مستشفيات باريس.

المثقف ومنهجية الثقافة

لابدَّ في البدء، من الاشارة الى ان الحديث عن المنهج الذي يُراد تحديده او الكشف عنه في «العلوم الانسانية Sciences Humaines» والأدب على نحو خاص، يستلزم حديثاً ولو موجزاً عن «الشخص» الذي يتوالى أمر تطبيق هذا «المنهج». هذا الشخص الذي يحلو لبعضنا ان يدعوه بـ«المثقف»، وذلك بسبب من طبيعة العلاقة الخاصة التي تقوم بين العمل الأدبي، وصاحبه، والتي يصعب فيها ان نستبعد، على نحوٍ نهائي، التداخل بين العُنصر الذاتي والموضوعي، على الرغم من محاولات بعض الدارسين المحدثين تحقيق الانفصام بين النص ومؤلِّفه.

■ د. ضياء خضير

ومع تقديرنا للصعوبة الخاصة بايجاد تحديد دقيق لما تعنيه كلمة «مثقف» نرى ان من الضروري، مع ذلك، القيام بمحاولة إلقاء بعض الاضواء التي من شانها ان تُنير جوانب من الواقع التاريخي الذي استمدَّت فيه الكلمة معناها وتحدَّدت وظيفتُها، لاسيما في تاريخ الأدب العالمي الذي كان يشهد تقابلاً دائماً بين البطل الرومانسي العاجز عن الفعل والمواجهة العملية من أمثال «دون كيشوت» و «فاوست» وبين ذلك النوع الآخر من البشر الذي يجدون مثلهم الأعلى في قضية تتوفر لهم مقدرة فعلية على خدمتها، بهدف محدود يمكنهم، بوسائلهم الخاصة، بلوغه. وهؤلاء هم الذين يُطلق عليهم الفيلسوف الألماني «هيغل» تسميةً ظريفة هي «الحيوانات المثقفة». وقضيتهم هذه تمثل لهم، كما يقول «أميل برهييه» تعليقاً على ذلك «الهواء الجوي الذي لا يستطيعون بدونه حياةً: وهؤلاء هم الأساتذة او الفنانون الذين يخلعون إعتسافاً على مهمتهم قيمة مطلقة، بدون ان يفطنوا إلى أنها، بالاضافة الى غيرهم من الأفراد، واقع غريب يسعون إلى ان يحلّوا محله قضيتهم الخاصة»[1] وهكذا يظل الغموض محيطاً بكلمة «مثقف» حتى إذا جرى توضيح الالتباس الذي تثيره في اذهان بعض الناس.

وحين أراد الفيلسوف الفرنسي جون بول سارتر في كتابه المعروف «دفاع عن المثقفين» وضع تعريف للمثقف لم يجد غير القول إنه شخص «يمثل حالة خاصة من جملة أشخاص يتحددون بوظائف معترف بها إجتماعياً»[2].

وسارتر يرفض ان يطلق كلمة «مثقف» على من يسميهم «إختصاصي المعرفة» الذين بدأوا بالتكاثر والنمو مع نمو الطبقة البرجوازية وتطورها. وهو ماجعل صورة المثقف الموجود في الغرب ملتحمة عضوياً بواقع التطور التاريخي في اوربا وغير منفصلة عن المشروع البرجوازي الطموح الذي كان يجد في هذا النفر من الناس الذين يعملون بألسنتهم ورؤوسهم أكثر مما يعملون بأيديهم، أدواتٍ ضرورية لحماية هذا المشروع وتقديم التبريرات الفكرية والأيديولوجية المناسبة لديمومته وتعميمه.

وسارتر نفسه ينفي صفة «المثقف» عن علماء يعملون، مثلاً، في حقل إنشطار الذرة لتطوير اسلحة الحرب الذرية وتحسينها. فهم، بالنسبة اليه، محض «علماء» لا اكثر ولا اقل. ولكن إذا ما إنتاب هؤلاء العلماء انفسهم الذعرُ لما تنطوي عليه الأسلحة التي تُصنع بفضل جهودهم وأبحاثهم من طاقة تدميرية، فاجتمعوا ووقعوا بياناً لتحذير الرأي العام من مخاطر استخدام القنبلة الذرية، غدوا من فورهم «مثقفين»[1].

ومعنى ذلك انهم قاموا بعملهم ذلك لايجاد دلالة وقيمة اخلاقية لنتائج فعلٍ كانوا يظنون انه الحقل الذي كانوا يجرون تجاربهم إنطلاقاً من قيم ومبادئ اخرى فيه، لا علاقة وثيقة لها بتلك القيم والمبادئ الأخلاقية التي وجدوا انفسهم مجبرين على الالتقاء بها في النهاية.

ولعل الوضوح الصارخ في هذا المثال يفرضه ما عُرفَ عن الطاقة التدميرية المرعبة لهذا السلاح الذي انتجه «إختصاصيو معرفة» مسالمون كانوا يهدفون نياتهم، في الأقل، لخدمة اوطانهم وشعوبهم قبل اي شئ آخر: وإلا فإن القيمة والمعنى الاخلاقي الذي لا تنفصل فيه الغاية عن الوسيلة سيظل لصيقاً بالعمل هذا، وطبيعة تقسيم العمل السائد في الغرب الرأسمالي خصوصاً، لمعرفة ذلك. وربما لزمت الاشارة هنا ايضاً الى أن «الثقافة» ليست واحدة في معناها وانما تختلف بحسب ماتعنيه من نمو الفرد، او نمو طبقة معينة، او مجتمع بأسره. والشاعر الأمريكي المعروف «ت. س. إليوت» الذي وضع «ملاحظات نحو تعريف الثقافة» يرى ان ثقافة الفرد تتوقف على ثقافة فئة او طبقة، وان ثقافة الفئة او الطبقة تتوقف على ثقافة المجتمع كله، الذي تنتمي إليه تلك الفئة او الطبقة. وبالنسبة لإليوت، فإن ثقافة المجتمع هي الاساسية. ومعنى كلمة «الثقافة» بالنسبة إلى المجتمع كله هدم ما يجب بحثه.[3]

ت ـ اس ـ إليوت

ومهما يكن نوع «الثقافة» وشكلها، تظل «صناعةُ» المثقف أمراً غير يسير، على الرغم من كل هذا الانتشار الهائل للتعليم، وازدياد وسائل الثقافة والاعلام الذي جعل البعض يتحدث، أحياناً، عن «قرية كونية» تتعذر معها العزلة التامة عما يدور في هذا العالم، حتى اذا كانت هذه العزلة مطلوبة بحد ذاتها: خصوصاً إذا علمنا ان روح التوتر والتعارض بين «الخاص» و «العام» تبقى سمة اساسية من سمات تكوين هذا المثقف. وربما كان هذا هو ما يجعل مايسميه «هيغل» بـ«الوعي التعيس» سمةً اساسية من السمات المرافقة لوضع المثقف وتكوينه الداخلي، يفرضها على نحو خاص، النفي الذي يشعر به المثقف شعوراً غريزياً يمكن ان يتطور نحو مبدأ «النقض» الذي يشكِّل خطوة ضرورية للفكر العلمي ـ بحسب الجدل الهيغلي.

ولئن لم تكن مهمةُ ابراز مثل هذا «الوعي» التعيس او غير التعيس مطروحةً دوماً على اصحاب المشروع الثقافي العربي منذ عصر النهضة حتى الآن، فأن هذا لا ينفي وجوده من ناحية، ولا حاجتنا الى إيلاء هذا الجانب من حياة مثقفينا مايستحقه من إهتمام وعناية، من ناحية اخرى وما يترتب على هؤلاء المثقفين من واجب إعادة قراءةقتراثنا قراءة جادة تتجاوز البحث الوثائقي والدراسات التجميعية، وما يضاف اليها عادة من هوامش وتعليقات، مسالة جوهرية، ليس فقط لأنها الطريقة الوحيدة الممكنة الرؤية هذا التراث رؤية موضوعية محايدة، وإنما ايضاً لأنها تمنحنا القدرة على معاينة الجانب الآخر من واقع الحاضر التاريخي الذي عاش فيه مثقفونا وسلكوا سبلاً ملتبسة، أحياناً، للتعبير عنه او عن أنفسهم فيه. وسيكون من اول مهمات مثل هذه الدراسات تلمُّس مواطن الابداع في تراثنا وبيان الفروق الدقيقة بين المثقفين الحقيقيين و«إختصاصي المعرفة» اللفظية من الشعراء والكتاب

■ ديكارت: المنهج «ألا أتلقى على الاطلاق شيئاً على انه حق مالم أتبين بالبداهة انه كذلك»

■ إليوت: ثقافة المجتمع هي الاساسية.

سارتر



الذين أدركتهم حرفة الأدب فساروا فيها وركبوا موجتها من دون ان تكشف كتاباتهم عن طاقة إبداعية حقيقية، او موقف واعٍ من الحياة والادب. فكان الأمر لا يعدوا لديهم ممارسة نوع من صناعة الكلام والالاعيب اللفظية والأساليب الانشائية الفجّة التي ابتليت بها حياتنا الثقافية حاضراً وماضياً. وغير ذلك من انواع الكتابة التي تجعل همها إعادة إنتاج ماسبق إنتاجه وقوله، من دون ادراك كافٍ لحقيقة ان الأثر المكتوب هو، قبل اي شئ آخر، اعادة بناء واحياء وتوكيد عميق لكل معاني القوّة في الحياة. وهو امر لن يتوفر لتلك القلوب والعقول التي لا تريد ان ترى، لفرط جمودها وبعدها عن [illegible]صر الحاضر بغير عيون مستعارة من [illegible]ضي، ولا تستطيع ان ترى في تراثنا الثقافي العظيم غير مستودع لأسماء وأزياء واشكال إبداعية لا حياة فيها ولا علاقة صميمية لها بواقع الحياة الادبية والثقافية التي يضجُّ بها العالم الكبير من حولنا.

اما «المنهج» فالحديث عنه ليس تاريخاً لحياة الفكر وتحديداً للسمات والبنى الأساسية التي تنطوي عليها كل الاعمال الفلسفية والعلمية ذات الشأن في التغيير الذي أصاب حياة الانسان في العصور الحديثة، وإنما هو بالاضافة إلى ذلك، علامة على وجود القوة والتكامل والانسجام والوضوح في كل الاعمال الابداعية الكبرى نفسها، بل في كل الانتاج الذي ينتمي إلى مانطلق عليه اليوم «العلوم الانسانية»، وهي العلوم التي لا تخضع عادة للتجربة المختبرية والقياس الرياضي الدقيق. فهي حقول في المعرفة تحاول ان تتبع وسائل العلم الصرف نفسها في الملاحظة الدقيقة، والبحث الشامل، والمناقشة الحرّة، والمقارنة المتكررة، بل الاختبار العلمي ما كان ممكناً. وكل ذلك من أجل الوصول الى الهدف المشترك الواحد المتمثل بتوسيع إدراكنا لانفسنا، وتعميق معرفتنا بالظواهر الاجتماعية والطبيعية المحيطة بنا، بغية تحسين الوضع البشري وجعل الانسان جديراً بالحياة على هذه الارض وقادراً عليها. غير انه يجب الاعتراف ان أمر تطبيق «منهج علمي» محدد على الادب أمرٌ لا يخلو من صعوبة، ويصعب إطراده وشموله، حتى في تلك الدراسات الحديثة التي تزعم لنفسها تطبيق هذا المنهج العلمي او ذاك. لقد بقي الدرس الأدبي، لا سيما الأكاديمي، يعاني عندنا من ثغرات وأخطاء منهجية جمة. وظل كثيرٌ مما وضع فيه من دراسات وأبحاث بعيداً عن الألتزام بأي منهج، ليس فقط لأنه مكتوب في الهواء الطلق من دون قواعد وقيود ذاتية او موضوعية واضحة، وإنما لانه ظل ميداناً للأهواء والنوازع الغريبة والاعتقادات الخاطئة ايضاً.

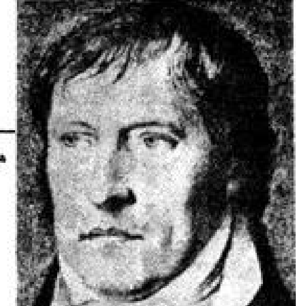
اما التحديدات المنهجية التي تفرضها رقابة العقل الواعي والنظرة الشمولية المستندة بالدرجة العملية، وخبرة الذوق السليم، وغير ذلك من أمور ينطوي عليها كلُ بحثٍ جاد، فهي أشياء يضيق بها الكثير من دارسينا باسم «الحداثة» مرّة، وباسم الأخلاص للتراث مرة أخرى، دون ان يخطر في بال احد انها قد تصدر في حقيقتها، عن عوامل واسباب اخرى تصبح فيها (الحداثة) تسويغاً لكبرياء ثقافية فارغة و«الاخلاص لتراث الأجداد» تبريراً للجهل والكسل العقلي الذي يهم أصحابه الاستمرار في وهم القدرة على صنع اساطير ادبية وعلمية هم اول من يعرف زيفها وبطلانها.

والجميع يعرفون ان امثال هؤلاء يقومون بعملية هروب مستمرة الى الامام ويمارسون بوعي او دون وعي، نوع من الخداع المزدوج مع الذات والآخرين، كانت بعض نتائجه المؤلمة هذا الذي نراه في حياتنا الادبية والثقافية من خصاصةٍ وفقر لا يستطيع سيلُ الابحاث والدراسات الرديئة، ولا هذا الفيض المتدفق من الاعمال النقدية والابداعية الهابطة ان يُغطي عليها.

وربما كان غيابُ المنهج او اختلاله يمثلان كلمة السّر في كل ذلك.

وفي حقل الادب كانت أبرز اخطاء هذا المنهج، في حالة وجوده، إختلال العوامل الخارجية المؤثرة في النص المكان الأول من غاية الدارسين وأهتمامهم، في حين احتلت النصوصُ نفسها مكاناً ثانوياً من عناية هؤلاء الدارسين؛ كما فرضت طرق بحث منهجية اخرى تجزئة النص وتمزيقه أثناء دراسته بحيث لم تعد دراسته بوصفه عملاً فنياً متكاملاً، امراً ممكناً، نظراً لطريقة التناول التي تخطط لها هذه المناهج، كما هو الحال، مثلاً، لدى البنيويين وأتباعهم ومترجميهم ممن عملوا على تحويل العمل النقدي إلى نوع من دراسات الحاسبات الالكترونية التي تتراجع معها القدرة على التذوق والنظر الشمولي الى حدود ينسى القارئ انه امام عمل إبداعي، فهو امام معاملات في الجبر او نظرية الاحتمال الرياضي. يضاف الى ذلك ماتراه عادةً هذه الايام من ضعف وسقم في بعض هذه الابحاث يحمل المرء على الاعتقاد ان اصحابها لا يعيرون الاساليب التي يكتبون بها اي اعتبار، ولا يؤمنون بان اللغة في البحث اداة خاصتها الاساسية تقسيم الافكار والحالات النفسية وتقريبها الى الفهم؛ وان كل ذلك ذو صلة بالمنهج والفكرة التي يعنى البحث بابرازها، بل إن ذلك شئ من «اجمل الاعمال واجلّها خطراً» كما يقول الناقد الفرنسي جورج ديهاميل. ذلك لانه «لو سلّمنا بان الانسان قد خلق منذ البدء ليعرف، وانه ليس لديه خير من تلك المعرفة، لوجب ان نحيّي اولئك الذين يبذلون جهداً منظماً قاسياً عنيداً ليجيدوا معرفة مايفكرون فيه ثم معرفة مايفكرون فيه ثم معرفة مايوحي إليهم عالمنا الخارجي». وديهاميل يثير في نهاية هذه الفقرة من كتابه المعروف «دفاع عن الادب» ملاحظة عن «الوضوح» جديرة بأن نشير إليها هنا. إذ هل من الممكن ان يكون في الوضوح المسرف مايتناقض مع ماتطلبه المعرفة الحقيقية؟ وجواب ديهاميل على ذلك هو ان «الضوء المسرف يعشي الأبصار، وهنا موضع الخطر على الروح الفرنسية، ولكنه خطر يعرف الفنانون الحقيقيون كيف يفلتون منه، بأن يسدلوا في الوقت المناسب حجاباً او يقيموا حاجزاً او يثيروا سحابة»[1]. ولست ادري إن كان إسدال ذلك الستار او إثارة تلك السحابة سيكون أمراً مناسباً ما لم تكن طبيعة الموضوع نفسه تستوجب ذلك، وما لم يتعمد الكاتب عدم التصريح بما يعتبره «مضنوناً به على غير أهله».

ومعروف ان الذي اصاب مناهج الدرس الأدبي عندنا كان نتيجة مباشرة او غير مباشرة للظروف التي أحاطت بنشأة بعض فروع الادب والنقد بأوربا في القرن التاسع عشر. وكان اهم هذه الظروف وأخطرها سيطرة النزعة التاريخية ومنهج البحث التاريخي وشيوع المنهج الوضعي في الفلسفة وهو منهج أريد له ان يمتد ليشمل فروع المعرفة الانسانية كافة، بما فيها تلك



هيجل

■ سارتر: المثقف حالة خاصة.

■ ديهاميل: الوضوح «ضوء مسرف يعشي الابصار».

المتعلقة بالادب الذي لا يمتلك غير الكلمات مادةً يتصرف بها ويقيم عليها بناءه. وتلك الدرجة الرفيعة التي بلغها منهج البحث في القرن التاسع عشر في إيجاد طرق جديدة في جمع المادة وتصنيفها وتفسيرها ونقدها. وماارافق كل ذلك من توسع في الحقل الادبي شمل دراسة كل ما له علاقة بالنص من ظواهر إجتماعية وإقتصادية ونفسية لم تكن كلُّها وليدة هذا القرن وأن يكن رجال هذا القرن العظيم قد بلوروا ووسّعوا من آفاقها، فشهدت على ايديهم اعلى درجات نضجها واكتمالها الى الحد الذي ذهب فيه الظن ببعض رجال الادب انهم اصبحوا قادرين على استعارة مناهج العلم وطرقه لتطبيقها على الأدب من دون إلتفات الى طبيعة المادة التي يدرسونها وكونها قد لا تستجيب بهذه المناهج العلمية.

لقد شهد القرن السابع عشر قبل ذلك، في فرنسا على نحوٍ خاص، شعوراً طاغياً بضرورة سيادة العقل، حتى انه اعتبر مبدأ اساسياً من مبادئ المذهب الكلاسيكي الذي جرت صياغته وبعثه في هذا القرن بالاعتماد على الآداب اليونانية والرومانية القديمة.

وقد بُذلت جهود جبارة لجعل هذا العقل يرتفع إلى مستوى المركز الاول في الخلق الشعري، وأريد له ان يكون مقابلاً ولا جماً للخيال الجامح والعبقرية غير المنضبطة ولعبة الإلهام والعواطف الحرة واعتبرت الأعمال الادبية التي يكتب لها الخلود هي، فقط، تلك التي تقبل الخضوع لمقاييس العقل وأحكامه.

ولقد كان رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) اباً للمذهب العقلي هذا. وهو صاحب مبدأ الشك الشهير و «مقالة في الأهواء» و «خطاب في المنهج» الذي حدّد للباحثين كل ابعادها، وتقسيم كل مشكلة او قضية إلى اجزاء صغيرة، والتدرج فيها من البسيط إلى المركب، ثم ضرورة أن يقوم الباحث المعني بإحصاءات ومراجعات شاملة لكل عمله ليضمن سلامة الخطوات المتبعة فيه، وعدم التفريط بالنظر في كل بعد من ابعاد المشكلة المطروحة مهما يكن خطرها تافهاً وحقيراً.

ومعروف ان تأثير ديكارت لم يكن ساحقاً على مناهج العلم المتبعة في عصره والعصور الأوربية التي تلته فقط، وإنما امتدّ هذا التأثير ليشمل الاعمال الادبية الكبرى ايضاً.[4]

لقد قال طه حسين في دراسته للشعر الجاهلي: إنه يطبّق في ذلك القاعدة الاولى في المنهج الديكارتي التي تقضي، كما يقول، بأن «يتجرّد الباحث من كل شئ يعلمه من قبل، وان يستقبل بحثه خالي الذهن مما قيل خلوّاً تاماً»[6] في حين ان الدكتور طه حسين لم يذكر هنا إلا جزءاً من القاعدة التي قال بها ديكارت في كتابه خطاب في المنهج (Discours de la M'ethode) ١٦٣٧م وهي:

«الا أتلقى على الأطلاق شيئاً على انه حق ما لم أتبينْ بالبداهة انه كذلك، بمعنى ان ابذل الجهد في إجتناب التعجل وعدم التشبُّث بالاحكام السابقة، وان لا ادخل في أحكامي إلا مايتمثل لعقلي في وضوحٍ وتميّزٍ يزول معهما كلُّ شك»[7].

ومعنى هذا ان الدكتور طه حسين قد ركّز، كما اشار باحثون آخرون، على الجانب السلبي من القاعدة الديكارتية التي تقضي بأطراح كل الافكار والاحكام السابقة، واغفل تلك الحالة الايجابية التي يؤمن الفيلسوف بضرورة الانتهاء اليها: وهي حالة من المعرفة واليقين الذي تتكشف معه الحقائق وتتضح بعد ذلك الشك الذي وضع الباحث على عاتقه مهمة إيضاحه. ولئن كان هذا موضوعاً بحثاً مستقلاً بحدّ ذاته، لا يتسع له مثل، هذا المكان (وقد قيل فيه الكثير على كل حال)[8] فقد اردنا فقط ان نشير، ولو من خلال عمل لطه حسين نفسه، إلى المخاطر التي تتولد عن استخدام المنهج العلمي استخداماً ناقصاً او غير صحيح.

فغياب المنهج، او عدم إتساقه، امر آخر لا يقل خطراً عن ذلك في نتائجه. وهو امرٌ يُشبه في خطره عملية الكتابة عن التراث من دون فهم كافٍ لجدل العلاقة بين الماضي والحاضر على نحوٍ تكون فيه احداث هذا الماضي ووقائعه مُعينة على فهم الحاضر، ومساعدة على تجنب تكرار الاخطاء في المستقبل. وهو امرٌ لا يتوفر للباحث مالم يُحسن إحكام العلاقة المعقدة بين الذاتي والموضوعي، على اعتبار ان هدف هذا الباحث يتركزّ على إيجاد تفسير للذاتي، بكل ما ينطوي عليه من تجارب وجدانية ونوازع شخصية، في الموضوعي الذي يمثل الطبيعة والمجتمع.. الماضي والحاضر، على حدٌ سواء.

وليس ثمة شك في أن إتباع المنهج العلمي في كتابة البحث والدراسة الادبية من شأنه ان يوفر الاداة الضامنة لتحقيق الكشف عن كل ذلك، فضلاً عن انه سيقلل الى اقصى حد ممكن، من فرص الاختلاف والتناقض في النتائج التي يمكن ان يصل اليها الباحثون في قضية او حقل دراسة واحد يكون موضوعاً للبحث، طالما كان الجميع ملتزمين بمبادئ المنهج وقواعده.

وهذا هو الذي دفع الفرنسي المعروف (جوستاف لانسون) إلى اعتبار الروح التاريخية والمنهج النقدي «ادوات سلام»، وذلك نظراً لما يوفره الالتزام بحدود المنهج وقواعده من «وحدة عقلية» ذات طابع إنساني يلتقي فيه الجميع على صعيد واحد، بصرف النظر عن قومياتهم واوطانهم.[9]

وهو امرٌ لا يتناقض، بطبيعة الحال، مع الخصوصية القومية الموجودة لدى كل أمة، ولا يعني عدم إعادة الاهتمام للجهود العلمية الضخمة التي قام بها اجدادنا وجعلوا فيها علوماً منهجية لازمة في التعديل والجرح ونقد النصوص وتحقيقها.[10]

وربما سيكون من نافل القول ان نذكر، في ختام هذا البحث، ان الحاجة الى منهج ملائم يمثل اداةً للبحث عن الحقيقة والكشف عنها، ليست قضية تقتصر على الدرس الادبي الذي يعاني عندنا من خلل واضح، وانما هي حاجة اساسية تمتد لتشمل جوانب اخرى كثيرة من حياتنا ليست مقطوعة الصلة بهذا الدرس.

هوامش

١ - أميل برهييه، تاريخ الفلسفة، القرن التاسع عشر، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة بيروت، ص ٢٠٤

٢ - جون بول سارتر، دفاع عن المثقفين، ترجمة جورج طرابيشي، بيروت ١٩٧٣ ص ١٣ وما بعدها.

٣ - ت. س. إليوت، ملاحظات نحو تعريف الثقافة، ترجمة د. شكري محمد عياد، المؤسسة المصرية العامة للتاليف والترجمة، القاهرة، ص ٢٣

٤ - جورج ديهاميل، دفاع عن الادب، ترجمة د. محمد مندور، القاهرة ١٩٤٢، ص ٢٥٤

٥ - جوستاف لانسون، تاريخ الادب الفرنسي، ترجمة محمد القصاص، القاهرة، ج١، ص ٢١٥

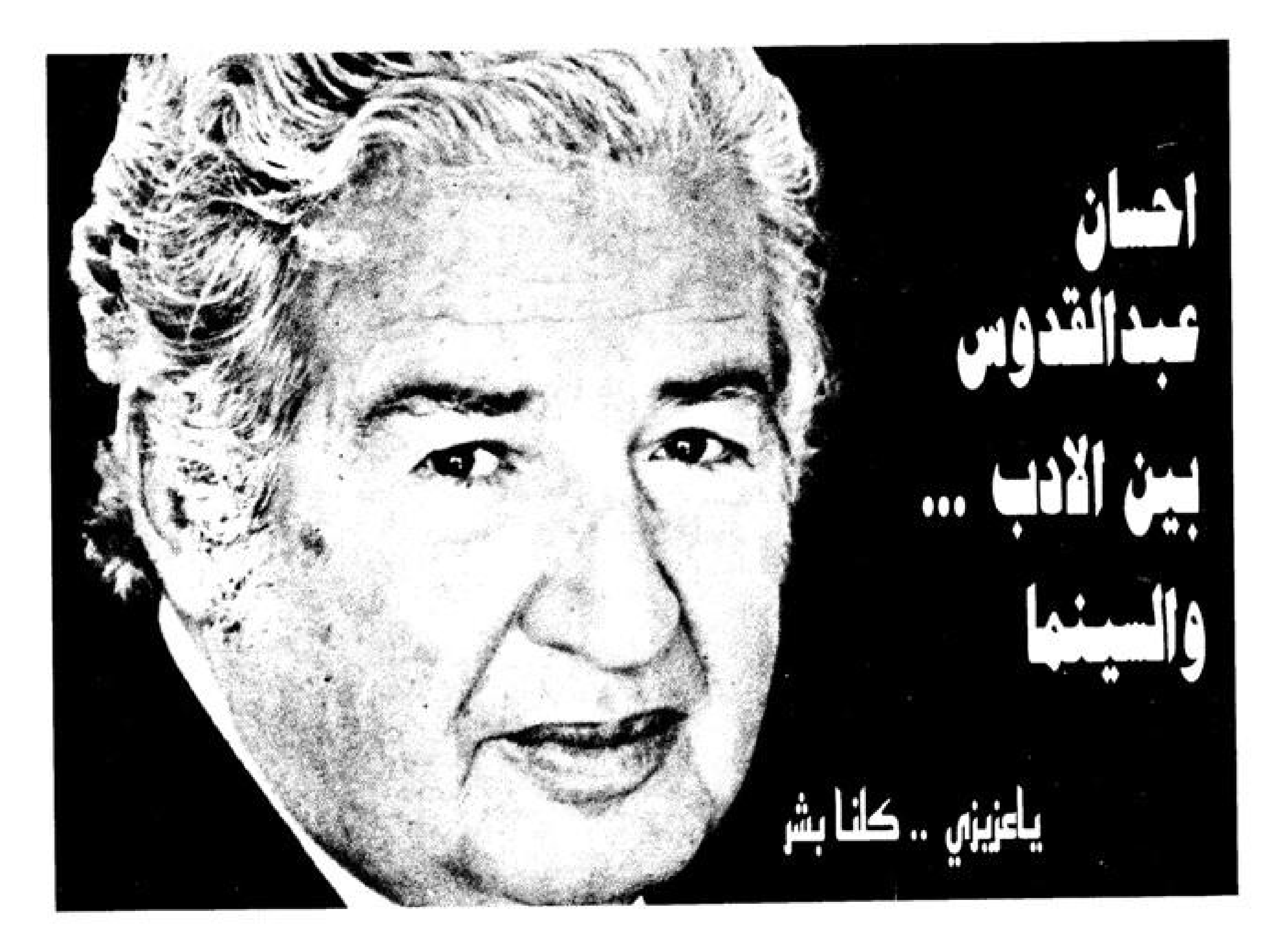
٦ - طه حسين، مجموعة المؤلفات الكاملة، بيروت، مج٣، ص ٦٩ - ٧٠

٧ - رينيه ديكارت، المقال في المنهج، ترجمة محمد الخضيري، ص ٣٠ - ٣١

٨ - انظر بهذا الصدد، مثلاً، عبد الرشيد الصادق محمودي، طه حسين وديكارت، مجلة فصول، مج٣، ع٣، ١٩٨٣، ص ١٠٤ ومابعدها.

٩ - لانسون، منهج البحث في تاريخ الآداب، ترجمة د. محمد مندور (نشر في مجلد واحد مع كتاب مندور، النقد المنهجي عند العرب، القاهرة، ط٢، ١٩٦٩، ص ٤٣٣.

١٠ - للمزيد، انظر «ماتبقى من الخلدونية - مشروع قراءة نقدية لفكر ابن خلدون، ضمن كتاب الدكتور محمد عابد الجابري «نحن والتراث»، ط٢، بيروت ١٩٨٢، ص ٤٤٨ ومابعدها.



احسان عبدالقدوس بين الادب ... والسينما

ياعزيزي .. كلنا بشر

على مدى خمسة وثلاثين عاما، راحت السينما المصرية تنقل عالم احسان عبدالقدوس، المتفرد الى الشاشة وتجسده من خلال احلام بطلاته من المراهقات . ومغامرات رجاله النسائية، وهموم المرأة من المشاكل الحياتية، وعلى قمتها مشكلتها مع الرجل مرورا بالغيرة، والشيخوخة، والغواية .

وقد وجدت السينما المصرية في ادب احسان عبدالقدوس كنزا لاينضب من الحكايات المتكررة حول اشكال العلاقات بين الرجل والمرأة، وراح كتاب السيناريو ينقلون رواياته الى الشاشة كما بحثوا في قصصه القصيرة كي يختاروا منها مايتناسب مع الخط العام للسينما المصرية . وخاصة انها مغرمة دوما بالحكايات الميلودرامية . والتي تكون فيها المرأة عاملا حاسما في التحول، او في العنصر الدرامي .

يعتبر احسان عبدالقدوس الكاتب الاول الذي لجأت السينما المصرية الى هذا الكم الهائل من ابداعاته . فهو لم يقترب قط من كتابة سيناريوهات اي من اقاصيصه ورواياته التي تتحول الى افلام عدا تجربته الخاصة في كتابة فيلمين الى الشاشة دون الرجوع الى نص ادبي .

وقد فتح احسان عبدالقدوس لجيله من الادباء باب السينما متسعا، حيث أصبحت السينما في النصف الثاني من الخمسينات بمثابة كتاب مفتوح للادباء الذين لمعوا فيه من خلال رواياتهم، وكانت الشاشة البيضاء سبباً اساسياً لاقترابهم اكثر من الجماهير الواسعة . ليس في مصر وحدها بكل مدنها ونجوعها وقراها . بل في كافة انحاء الوطن العربي .

الطريف ان علاقة احسان بالسينما قد بدأت بحكاية وطنية كتبها في عام ١٩٥٤ خصيصا للشاشة . استوحاها من حياة الرئيس جمال عبدالناصر . حيث جعل الضابط في فيلم «الله معنا» لاحمد بدرخان اقرب في صفاته الخلقية،

■ محمود قاسم : الاسكندرية

وفي افكاره الى عبدالناصر . وقد جسد الدور عماد حمدي الذي راح ينطق بمبادىء الثورة بصفته احد الضباط الاحرار، وسعى الى ان يسقط النظام الملكي من خلال وزير الداخلية، الذي هو في الوقت نفسه والد حبيبته ..

وابتداء من عام ١٩٥٦ كان على السينما ان تصبغ نفسها بأدب أحسان من خلال التحولات التي عاشتها علية في حياتها في رواية «اين عمري» وهي التي نقلت بامانة شبه كاملة الى السينما .

وعلية الفتاة تتمتع بشقاوة خاصة . ولكنها مقيدة باجواء البيت . فأخوها عادل هو صورة من أبيه، وأمها الشابة تحاول ان تضع القيود حولها .. وتنظر علية الى العم عزيز على أنه أبوها . تكررت حكاية المراهقة مع العم عزيز في رواية «انف وثلاث عيون»، وعندما يطلب عزيز الزواج من الصغيرة علية تتصور ان الزواج ماهو الا لعبة يلعبها الكبار مع الصغار . أشبه بلعبة العروس والعريس .

وعلية هي اول نموذج نسائي متمرد في سينما، وأدب، احسان عبدالقدوس . فحين تبلغ الثانية والعشرين يكون زوجها قد تجاوز الستين . ويبدأ المرض يصرعه . مما يدفعها الى التمرد اكثر . وتصبح امراة عصبية المزاج . ولابد من دخول الدكتور خالد الى حياتها كي يغيرها، مثلما حدث ايضا في قصة من قصص انف وثلاث عيون، ولأن علية لم تعش طفولتها . فانها تعود الى زمن البراءة من خلال تصرفات صبيانية عديدة بعد وفاة زوجها، فهي تركب الدراجات . وتخرج الى الحفلات . وتصاحب الشاب عادل الذي تكتشف أنه صورة مكررة من اخيها فتنتبذه الى الطبيب الذي يعالجها من حالات الفصام التي تصيبها .

وفي الفترة بين عامي ١٩٥٧ و١٩٦٦ راح صلاح ابو سيف يقدم العديد من روايات احسان عبدالقدوس . مثل «الوسادة الخالية»، و«لاانام» و «الطريق المسدود»، ثم «انا حرة»، و «لاتطفىء الشمس»، واقصوصة من قصص «البنات والصيف» .

ومحور هذه الافلام كلها فتاة لها صفات خاصة .. سميحة التي عليها ان تنسى تجربتها الاولى مع صلاح في «الوسادة الخالية»، رغم انها مطاردة منه لسنوات عديدة بعد أن تزوجت ثم نادية لطفي في «لاأنام» التي تردد : «أنني شريرة . مدمنة شر جرائمي كلها لم ينص عليها قانون الا قانون السماء .» بدأت جرائمها منذ كانت في الثانية عشرة . حين شتمت شابا كان يطاردها فيضربه البواب . ثم جرائمها ضد زوجة ابيها . وهي امراة وقورة . فتوقع بينها وبين الاب حتى يحدث الطلاق فيما بينهما . وتدفع اباها الى ان يتزوج من امراة لعوب هي «طنط كوثر» التي تخون زوجها مع رجل وآخر .

اما فايزة في «الطريق المسدود» فانها نموذج مضاد لنادية لطفي . انها تقاوم الشر الذي يحوطها بكل ماتملك . فالاب مات . والام تأتي بالرجال الى البيت كي يلعبوا القمار . وتهرب فايزة الى عالم مثالي من خلال مؤلفات كاتب مرموق . وتهرب الى الكاتب نفسه فتصدم به . وتفاجىء بانه لايقل سقوطا عن أسرتها . فتهرب الى الريف لتعمل مدرسة . لتفاجىء بأن المجتمع من حولها ينخر فيه سوس الفساد . وقد فتح صلاح ابو سيف الطريق المسدود الذي اغلقه احسان . فالكاتب ينصلح حاله . ويغير تفكيره . والشاب الذي احبها في القرية يتحول الى شخص ايجابي اكثر التزاما مما عهدته .

اما امينة في «انا حرة» ففيها الكثير من صفات، بطلة «اين عمري» فهي تعيش في مجتمع يفرض عليها قيوده الخاصة . وكان شعارها دوما هو «انا حرة» منذ طفولتها المبكرة . وحين تهرب من بيت عمتها القاسية الى منزل امها تصطدم بفظاظة زوج الام . والحرية لدى امينة هي محاولة التخلص من القيود التي تحوطها . لذا فهي فتاة بلا طريق تنتقل من خطيب لاخر دون ان تجد نفسها .. الى ان تتعرف على الصحفي عباس . وهو انسان ملتزم بقضايا التحرر التي ينادى بها وطنه .. وتحاول في الوقت نفسه ان تحرر نفسها من قيود جديدة تأتيها مثل قيد العمل لذي يستعبدها . وتجد ان عباس اقرب الى ماتبحث عنه . تشاركه المنزل والقضايا والسرير . وتعيش معه على هذا المنوال ثماني سنوات . ومن أجل محاولة ارضاء زوجها تجيد أعمال البيت . وتجد حريتها في قيدها .. أما في الفيلم فكانت اكثر سعادة وهي تنتظر عباس بعد أن تم القبض عليه في جريمة سياسية ..

المراة الخامسة التي جسدها صلاح ابو سيف في ادب احسان عبدالقدوس تختلف تماما . إنها امراة من القاع .. لاتفكر كثيرا في انوثتها . وهي واقعة فريسة لاشياء عديدة . اولها عيون فرغلي البصاصة . انه الرجل الذي تعمل خادمة في منزله . وهي ترفض مداعبات هذا العجوز ، البدين مما يدفعه الى اتهامها بسرقة ساعة جيب، اما عامل البحر الذي تتصور انه سيخطبها . فهو يصدمها بعد أن يتخلى عنها .. أما الشخص الوحيد الذي يقف الى جانبها فهو المكوجي في الفيلم، الذي يختار أن يخلصها من هذه القيود .. فيضعها في قيده الخاص .. في عصمته .

وبعد قرابة خمسة عشر عاما عاد صلاح ابو سيف ليستلهم اقصوصة جديدة من مجموعة «البنات والصيف» ليقدمها عام ١٩٧٥ تحت عنوان «وسقطت في بحر العسل» ومآسي بطلة هذا الفيلم هي نموذج مشابه للكثير من نساء احسان . فهي امراة تتمتع بانوثة طاغية، انتخبت ملكة جمال الشاطىء عام ١٩٥٨، تترك كل المعجبين من حولها كي ترتبط برجل «صعيدي» يدعى ابو بكر، يبدو كأنه جاء من كوكب آخر بالنسبة لها .. وتصدم مآسي عندما تعرف أن حبيبها مغرم بامراة بدينة تكبره سنا . وتتركه غير مصدقة أن رجلا يفضل عليها امراة كهذه .. وقد آثر أبو سيف أن يعيد مايسة الى حبيبها بعد ان تغفر له هذه الزلة .. اما مآسي الرواية فهي لاتتصور أن يشتهي رجلها امراة كالجاموسة بنفس الروح التي ينظر بها اليها وهي ملكة جمال الشاطىء .

كانت اقاصيص احسان عبدالقدوس ملهما جيدا للعديد من السينمائيين . فبعد «البنات والصيف» الذي اعتبر اول فيلم عربي يضم ثلاث قصص منفصلة، راح السينمائيون يكررون هذه التجربة مرات عديدة . أما بانتاج فيلم يضم ثلاث قصص، أو بتحويل قصة قصيرة مكتوبة في صفحات قليلة للغاية الى فيلم روائي .

ففي عام ١٩٦٦ اشترك كل من فطين عبدالوهاب، وحسن الامام، وصلاح ابوسيف، في تقديم «ثلاثة لصوص» مستوحاة من اقاصيص موجودة في مجموعة «بنت السلطان» . وبعد ثلاث سنوات اشترك ابوسيف مع محمود ذو الفقار . وبركات في تقديم حكاية «ثلاث نساء» في ثلاث قصص منفصلة وهي مأخوذة جميعها من المجموعة نفسها «بنت السلطان» .

وفي الاقاصيص التسع قدمت السينما نماذج انسانية صنعها عبدالقدوس .

جمعتها السرقة أو المصيف . أو كونهـا لنساء يعشن تجربة عاطفيـة ذات طابع خاص .

أما فيلم «ثلاثة لصوص» فهو يتضمن ثـلاثة مـواقف . وهي المرة الاولى التي تعتمد فيها السينما على مـوقف يصنعه احسـان في ادبـه . فمن المعـروف ان احسـان يتحرك دراميا مع ابـطاله من خـلال مجموعـة من الاحداث. ونـادرا مايقدم مـوقفا يكـون هو البـطل . ففي قصتـه «قتلت عمتي» التي حـولت الى «سارق عمته» لكمال الشيخ تدور حول الشخص الذي يضـطر الى قتـل عمتـه المريضة بداء عضال لاشفاء منه من أجل خطيبته التي تركته . هنا حولت السينما عملية القتل الى سرقة الا انهـا لم تغير كثيـرا في مصيـر سـائق اللوري الذي يضطر الى سرقة اوتوبيس تمهل سائقه في الطلوع به من أجل اللحاق بزوجته التي تلد .. الا انه يصل متأخراً بعد ان تموت الزوجة رتيبة .

النـوع الثاني من عـلاقـة السينمـا باقاصيص احسـان هو تحـويل قصـة قصيرة الى فيلم روائي كامل . وفي هذا النـوع من الافـلام يسـتلزم احـداث اضافات عـديدة سـواء في الاحداث أو الشخصيـات . وقد بـدأ احمـد ضيـاء الدين هـذه الظاهـرة من خـلال فيلمـه «عريس لاختي» . ثم استكملها حسن الامام في «هـي .. والرجـال» وكمـال الشناوي في «شابلة السلطان» . وكررها حسن الامام في «اضراب الشحاتين» ثم تكررت كثيرا فيما بعد ..

ومـن أبـرز هـذه الامثـلة فيـلم «امبـراطورية ميم» لحسـين كمـال .. فالاقصوصة المنشورة في «بنت السلطان» تروي حكاية الاب محمد مرسي الذي يقود اسـرة غير صغيـرة . كلها من الذكـور اسماؤهم جميعاً تبدأ بحرف الميم . أي ليس هنـاك أناث . هنـاك مدحت الذي يـدرس في كلية الآداب . أمـا الام فهي سلبية للغاية .. وقد ناقش احسان في هذه الاقصـوصـة مسـألة الديمقـراطيـة والاشتراكية في مجتمع مصغر .. فعـلى رئيس الاسرة ان يكون في هذه المكانـة بالانتخاب وليس لانه الاب ..

وقـد غيـرت السينمـا وقـائـع هـذه الاقصوصة بشكـل جذري . حيث كبـر الحـدث في الاسرة وتشعبت حكـايـات الصبيان والبنات في الاسرة . لكل منهم حكايته . حتى الام التي تريد الزواج من جديد وهي المشغولة في وظيفتها العليـا دائما ..

ومن النماذج البارزة في هذا المضمار ايضا اقصوصة «الخيط الرفيـع» التي تغيرت كثيرا عندما نقلها حسين كمـال، ايضا، الى الشاشة .. فنحن أمام شخص ضامر .. يكاد يشبه الهيكل . حصل على درجـة الدكتـورا في القـانـون . كثيـر الاطلاع . يعيش حيـاة جافـة . فالشيء الجميل في عينيه هو نص القانـون . أو كتاب الاقتصاد . الى ان يراها يـوما .. موظفة في البنك .. تثيره رغم انها ليست جميلة .. يراها يوما في نادي السباق الى جـوار عبده بـك الذي يعرفـه عليها .. اسمهـا يولنـدا .. يحس انها مـرتبـطة بالرجل لانه اكثر منها ثراء فيحـاول ان يكون ثريا .. ويقترب اليها اكثر .. تصدمه عندما يكتشف ان عالمها ماجن . عندما تصدمه سيارة وتجيء لزيارتـه يخبرهـا انها هي السبب .. ترتبـط به وتتغيـر له خطط حياته . وتظهر معه في المجتمعات انها الخطوط العامة نفسهـا للفيلم.. الا أن النهـاية تختلف كثيـرا .. فاذا كـان «الاستاذ» قد هجر يولندا بحثا عن مكانة اجتماعية افضـل . فان المـرأة لاتخسر كثيرا . بل تعود الى طبيعتها . وتنتقـل بين اكثر من رجل .

أمـا المـرأة في الفيلم فلن تكن بهـذا الابتذال الذي صور في القصة .. وعرفت التحول الحقيقي الى الافضل، من خلال علاقتها النقية بالمهندس . كما اختـارت أن تتقبل الصدمـة بثبات شـديد حين عرفت ان حبيبها قد اختار غيرها .

والجـديـر بـالذكـر ان احسـان عبدالقدوس قد كتب الرواية القصيـرة، سبق في هـذا المضمار الكثيـر من ابناء جيله .. كمـا كتـب الروايـات الطويلة الضخمة الحجم . وقد راحت السينمـا تأخذ من كل هذه الاعمال مايتفق مـع خطها العـام . فمن الروايات القصيـرة قدمت «الوسادة الخالية» «واين عمري» و«النظارة السوداء» و«البنات والصيف» وغيـرها .. وهي كلهـا منشورة في كتب تضم قصصاً أخرى .

أما الروايات الطويلة الحجم فهنـاك «لاتـطفيء الشمس» و «أنـف وثـلاث عيون» و «شيء في صـدري» و «في بيتنـا رجـل» و «لاشيء يهم» . واغـلـب هـذه الروايات تتحدث عن شخصيات محورية تـدور في افلاكهـا شخصيـات عـديـدة هامشية . وأوضح مثال على ذلك رواية «لاتطفيء الشمس» فشخصياتها تناثرت في بقيـة أعمال احسـان عبدالقـدوس . فمثلاً ليلى متقاربة في مواقفها من نادية لطفي في لاأنـام . فهي تحـب مـدرس الموسيقى فتحي رغم أنها تعـرف أنـه متـزوج . أما شخصيـة الخال المتسلط فهي متكررة في «أنا حرة» من خلال زوج العمة . ويعتبر أحمد الاخ الاكبر نموذجا لعادل في «أين عمري» رغم ان مسـاحة الدور هنـا أكبر .. ويضـطر أحمـد الى التخـلي عن قسوتـه بعد أن مـات الاخ ممدوح عقب مشاجرة فيما بينهما .

وقد أثير العديد من الاتهامات ضـد احسان عبدالقدوس بأنـه يصور عـالما ماجنا . وان نساءه قد افتقدن الشرف . ومثل هذه الاقاويل بعيدة الى حد ما عن الواقع . فالكثير من تلكم النساء في حالة صيـرورة .. وهن يبحثن عـن مصيـر افضل . وأغلبهن يتمكن من الوصول الى بر الامان . وقد أكد الكاتب ان العديد من بطلاته اللائي يتسمن بسلوك حسي غير مصريات، أو غير عربيات بالمـرة . مثل يـولندا في «الخيـط الرفيع» ومـاجي في «النظارة السوداء» . فقد ارتبطت نسـاء عـديـدات في ادب احسـان، والسينمـا المأخوذة عنه، بحركات التحرر الوطني العربي مثلما فعلت الفتاة في فيلم «في بيتنا رجل» وهي نموذج لفتاة مصرية فقيرة من أسرة محافظة، وتعيش على هـامش المجتمـع . وتجد هـذه الاسرة نفسهـا ومشاعرها من خلال موقف مفاجيء حين اضطر المناضـل السياسي ابـراهيم ان يهرب لبعض الوقت في منزلهم .

هـذه بعض الصور التي استـطاعت السينمـا ان تنقلهـا من ادب احسـان عبـدالقدوس . وفي بعض هـذه الصور استطاعت السينما ان تجري التغييرات التي تراها .. وعلى كل فهي صور تحمل وجهـة نظر صنـاع هذه الافـلام . أما احسان عبدالقدوس فهو صاحب الرؤية الشـاملة للعالم الذي صنعـه في اعماله الابداعية العديدة . ورغم انه يتكرر في بعض صوره . الا انه زاخـر بالنمـاذج الانسانية المتباينة فيما بينها .. ويهمنـا ان نؤكد ان عالم احسان عبدالقدوس الاقرب الى عالم مورافيا قد جذب الناس لقـراءته .. ولرؤيتـه سينمـائيـا . وهي الظاهرة نفسها التي شهدها أدب مورافيا حيث راح السينمائيون يتهافتون عليه، المرة تلو الاخرى .

من المعروف ان السينمائيين في مصر يتعاملون مع ادب الكاتب اثناء حياته . حتى اذا رحل تجاهلوه بشدة . حدث هذا مع توفيق الحكيم، وأمين يوسف غراب، وتيمور، ويـوسف السبـاعي، ومحمـد عبدالحليم عبدالله وغيرهم . فقد تهافت السينمـائيـون أثنـاء حياتهم لتقـديم اعمـالهم للسينما . والسـؤال الآن هل يمكن ان تتكرر هذه الظاهرة مع احسان عبدالقدوس . وهو الذي ترك جعبة مليئة بالحكايات الصالحة للسينما انـه مجـرد سـؤال .



انماط التزامن في الادب والشريط السينمائي

اولى القصاصون اهتماماً مستمراً بتصوير الفعل المتزامن سواء اكانت اداتهم لفظية ام مرئية. في الفن تخطر في الذاكرة لوحات معينة مثل «برج بابل» لـ بروجيل Bruge» او لوحة «الصلب» لـ تنتوريتو Tintoreto حيث تبرز نواحٍ درامية متناهية الصغر في اجزاء مختلفة من اللوحة، بل هناك الفريز البارثيني Parthenon حيث تظهر الفعاليات الزمنية اصلاً للمهرجان البارثيني وكانها تحصل في وقت واحد.

ان التزامن في القص يشبه تعددية الاصوات، لكن بسبب تأثيره المزدوج ينحو القص المتزامن الى ان يكون اكثر تعقيداً من القص احادي البعد حيث لايسمح بوجود اي شيء خارج الفعل، بصرف النظر عن درجة صلته بالاحداث.

يحمل التزامن فوائد اخرى. في المفارقة، بطبيعة الحال يمكن ان توجد من دون الحاجة الى التزامن، لكن حينما يجعل حدثين متباينين يتزامنان تاريخياً، فان المفارقة بينهما تتعمق ويبرز اختلاف اخلاقي اكثر من كونه مجرد اختلاف بلاغي. لذلك فان مؤلفي الاناجيل الاربعة عن تناولهم لموضوع آلام المسيح قد وصفوا تبرؤ بطرس عن المسيح جنباً الى جنب مع استجواب المسيح على يد السنهدريم (المجلس الاعلى عند اليهود القدماء المترجم): في الوقت الذي يكون فيه بطرس في ساحة الدار وهو يتبرأ من المسيح، يكون المسيح في الداخل، يستجوبه كبار القساوسة والكتبة.

والتزامن ثمرة طبيعية للثنائية في الادب التي تكشف عن نفسها وذلك باجراء مقارنة بين الشخصيات او ازواج من الشخصيات التي غالباً ما تتطلب امورها حبكاً متوازياً مثلما يشير الى ذلك تاريخ الدراما. وعادة تكون احداها ذات اهمية ثانوية وشخصياتها لاتحظى باهتمامنا كثيراً. ان الثنائية في اي شأن من الشؤون تتطلب اجراء مقارنة بين الشخصيات وافعالها. ومما لاريب فيه ان المرء يحس بالصدمة ازاء جبن بطرس والاعجاب بشجاعة المسيح لكن كُتّاب الاناجيل الاربعة ينتزعون درجةً اكبر من التعاطف نحو المسيح وذلك عندما يجعلون بطرس يتبرأ من سيده في اللحظة ذاتها التي يقف فيها اعزل امام السنهدريم وبذلك فانهم يصعدون من درجة عزلته ويجعلونها اكثر مضاءً مما لو كانت الاحداث قد جرت كلاً على حدة.

لذلك فان التزامن يعمق المفارقة او السخرية، سواء النوع المؤلم الذي نجده في آلام المسيح او النوع المأساوي الذي نجده في عمل يوربيديس الموسوم «هيبوليتوس» (Hippolytus) حيث يكون ثيسيوس في طريقه الى ترويزين بينما تقدم زوجته على الانتحار في ذلك الوقت. ويشجع التزامن مسألة المفارقة ولعل هذا هو السبب الذي حدا بـ ادوين ستراتون بورتر Edwin Strotonporter ان يخرج اشرطة سينمائية توازي الحبك. في عام ١٩٠٣، اي بعد سبعة اعوام من اول عرض سينمائي ناجح على الصعيد التجاري في امريكا، كان ا. س. بورتر يعمل على ايجاد بعض التوازي بين فعلين متزامنين وعلى تعزيز الصلة بين فعلين متشابهين (على سبيل المثال، في الشريط السينمائي المعنون «هوس السرقة» The Kdeptomanic تسرق امرأة

■ برنارد. ف. دك

■ ترجمة: صبار سعدون سلطان

فقيرة رغيف الخبز في حين تسرق امرأة ثرية المجوهرات) من خلال الايحاء بان كلا الحدثين متزامنان.

في الشريط السينمائي يكون التزامن اسهل من اية اداة فنية اخرى وذلك لان اساس القص السينمائي هو القطع واستبدال الصورة بأخرى غيرها. وهكذا فان قطعاً بسيطاً يمكنه ان يخلق التزامن كما بيّن د. و. غريفث D. W. Griffith في شريطه المعنون «بعد عدة اعوام After Many Years» ، وكانت نسخته الاولى الصادرة في عام ١٩٠٨ تحمل عنوان «اينوك اردث» حينما اجرى قطعاً لـ آني ج Annie في البيت ينتقل الى اينوك Enoch في الجزيرة يجمع بينهما مؤقتاً عن طريق توارد الخواطر. على اية حال، بمقدور القطع ان يخلق تزامناً فقط، وليس تشويقاً. اما القطع المزدوج فانه يفضي الى كلتا النتيجتين. ففي عام ١٩٠٩ اخرج غريفث شريط «الفيلا المنعزلة» وهو ميلودراما يستغرق طوله عشر دقائق ويتناول اثنين من اللصوص يقتحمان احد المنازل ويهمّان الدخول الى الغرفة التي تختبىء فيها الأم مع بناتها وقد استبد بها الذعر. وفي الوقت الذي يهرع فيه الزوج لنجدة عائلته، يقوم غريفث بنوع من القطع الى الامام والى الخلف بين عمليتي السرقة والانقاذ ليترك كلا الفعلين دونما حسم، حتى يؤدي الفعل الاول الى الخاتمة الطبيعية والسعيدة حتماً للثاني.

وفي الوقت الذي يعتبر فيه استعمال القطع اكثر الوسائل المعروفة في ايجاد نوع من التزامن في الشريط السينمائي، فانه ليس الطريقة الوحيدة. فالتصوير ذو البؤرة العميقة يسمح للمخرج برؤية الواجهة الامامية والخلفية في الوقت عينه. ان شريط اورسون ويلز «المواطن كين» (١٩٤١) يعج بمثل هذه اللقطات ذوات البؤرة العميقة، كتلك التي يتبادل فيها الأب كين والام الاراء حول مستقبل ابنهما في الوقت الذي يمكن فيه ان نرى شارلي كين عبر نافذةٍ وهو يلعب في الخارج في الثلج. حتى اللقطة ذات البؤرة العميقة لايمكنها ان تصور بدقة متناهية الفعل المتعدد من اللقطة ذاتها، اذ انها تستطيع فقط ان تضفي الوضوح على مستويين من الفعل. في المسرح - لاسيما في الاوبرا - تستطيع الشخصيات ان تظهر على خشبة المسرح على شكل مجاميع او ازواج تنهمك في انشطة مختلفة التي اذ ماأحسنَ اخراجها، لاتتنازع فيما بينها للفت اهتمام المشاهد.

■ التجرد والحرص يتحققان عندما يطور المرء حساً تاريخياً، يجعله قادراً على الاحتفاظ برباطة جاشه حتى وإن كان البرابرة على الأبواب

ان اشكل الاكثر نجاحاً للتزامن الداخلي يحصل عندما يوظف مخرج الشريط السينمائي جزءاً معيناً من الاشياء (مرآة، جدار، عازل) اما لغرض عكس الافعال المتزامنة او لفصلها. في شريط روبين ماموليان Rouben Mamoulian المعنون «الدكتور جيكل والسيد هايد» (١٩٣٢) حين يقتحم هايد شقة آيفي Ivy ليقتلها، تكون ايفي واقفة امام المرآة، وهكذا ينعكس دخول هايد في المرآة على طول وجه ايفي المرعوب وفي شريط «وجهاً لوجه» (١٩٧٥) يعطينا انغمار برغمان بلقطة واحدة صورة عن غرفتين يفصلهما جدار. في الاولى يتعرض عالم نفساني (ليف اولمان) الى التهديد على يد احد تجار المخدرات، اما في الثانية فيجثم فيها شريك التاجر على مريض العالم النفساني المخدر. وينجم عن ذلك لجوء برغمان الى تقسيم الشاشة الى منطقتين من الفعل المتزامن وذلك باستخدام جدار باعتباره فاصلاً طبيعياً.

لذلك يكون امراً يسيراً بالنسبة للشريط السينمائي تحقيق التزامن لأن الصور لاتتقيد بالزمن وهكذا بالامكان تطويعها لتلبية مستلزمات عقارب الساعة او الدفق المتأتي من الذات الانسانية. وعلى نحو مشابه فان في اشكال معينة من المسرح حيث يقع الفعل ضمن اطار غير خاضع للزمن، يستطيع الكاتب المسرحي ان يحكم القبضة على الزمن، اذا صح التعبير ويجترح بعض الحيل التي تتناسب والاعيبه.

في بعض الاحيان وحين يتقدم الفعل الدرامي بوتائر غير اعتيادية فان التعجيل يؤدي الى نتيجة مغايرة للترابط المنطقي. اذ تبدو الاحداث التي تعقب بعضها بعضاً في تتابع سريع وكأنها تتمازج وتتداخل كليا وبالتالي فاننا نعدم الاحساس بالتساوق المنطقي في مسرحية جيرودا (الكترا) - الفصل الثاني، المشهد الخامس - ، تطلب البطلة معرفة اسم عشيق امها «مَنْ الذي تحبينه؟ من هو؟» يبدأ المشهد التالي بمحاولة الرئيس الحصول على المعلومات ذاتها من زوجته الخائنة، «مَنْ هو؟ من هذا الذي تحبين؟» ان الحوار المتكرر يربط المشهدين المتوازيين اصلاً لكن بحكم السرعة التي تتحول فيها ابيات الكترا الختامية الى كلام الرئيس الافتتاحي تبدو المشاهد ايضاً وكأنها تتزامن» - اي ان الاول لايعدو كونه تسجيلاً متزامناً للاخر.

في نهاية مسرحية (الكترا) يكشف جيرودا الخاتمة كي يستحضر



برغمان

الفوضى التي ترافق الحرب: اذ يتعمد ضغط عنصر الزمن بحيث يبدو مقتل كليمنسترا وايجيثوس وحرق ارغوز ومطاردة ربات الانتقام لـ اوريست ونبذ الكترا، تبدو كلها وكأنها تقع في وقت واحد. ومع ذلك لابد للمرء ان يتذكر ان التزامن المقترح ليس بالأمر الجديد. ففي مسرحية (روميو وجوليت) الفصل الخامس، المشهد الاول - ، يشتري روميو السم من صيدلي وينوي الانتحار لانه لم يتسلم الرسالة الحاسمة. وفي المشهد ذاته يشرح الراهب جون الى الراهب لورانس الاسباب التي دعته الى عدم تسليم الرسالة والاحتمال القائل ان كلا الحدثين يقعان في وقت واحد - والتقديم المرن يستطيع ان يسهم في هذا الاتجاه - يعمق الاحساس بالحتمية الذي يلف المسرحية بارادته.

ان الرسام والكاتب المسرحي ومخرج الشريط السينمائي يواجهون مشكلة اقل من الروائي في مجال التزامن. فالادب هو فن الزمن، على الضد من الرسم الذي هو فن مكاني والمسرح والشريط السينمائي اللذان يعتبران فنين للزمان والمكان.

في الاحوال الاعتيادية، يكون تصور المرء حول التزامن في الادب على انه احد الطرائق القصصية، الا انه يمكن ان يكون اكثر من مجرد ابراز لفعل متزامن الوقوع. بالاضافة الى التزامن القصصي هناك ايضاً تزامن بنائي حيث ينتظم العمل برمته تصور عن الزمن بوصفه كماً متصلاً اذ يمتلك الماضي والحاضر والمستقبل وجوداً متزامناً. في الادب الاسطوري يتمازج الزمن الافقي للاسطورة مع الزمن العمودي للقص لتكون الحصيلة لازمناً او سرمدية حقيقة. ان مثل هذا العمل وعلى الرغم من انه في ظاهره مرتبط بزمن محدد (مثل احداث مدينة دبلن في اليوم السادس عشر من عام ١٩٠٤ في رواية جويس) يفقد ارتباطاته الزمنية ومن ثم ارتباطاته المكانية. وايا كان الامر فانه اذا قيّض لهذا التداخل او التفاعل ان يحصل، فان العمل ملزم بالسير على زمن الساعة. لذلك يثبت اليوت وقائع قصيدة «الارض اليباب» ضمن حدود زمانية ومكانية معلومة - من الضباب الداكن الى الساعة البنفسجية، اي من لندن الى ضفاف الكنج ومن خلال تذكرنا بان هذه الوقائع تتكشف زمنياً - والبعض قال انها يوم واحد في جحيم الاحياء - كان اليوت يشير باستمرار الى الساعة: اجراس الكنيسة التي تقرع في الساعة التاسعة: «الماء الحار في العاشرة/واذا كان الجو ماطراً/فسيّارة مقفلة في الرابعة»، «اسرع رجاءً، لقد حان الاوان»، دعوة للغداء في الظهيرة واغواء مسائي.

لكن ضمن هذا الاطار الزمني ثمة زمن اخر - زمن الاسطورة الذي يربط تريسياس Teiresias الحديث بأسلافه الملوك السماكين الذين سبقوه والذين سيتبعونه بحكم انبعاثهم المتجدد. وهكذا يتزامن الماضي الذي يتذكره ترسياس مع الحاضر الذي يعيشه الآن، حاضر ينفتح نحو المستقبل. لان الاسطورة سلاح ذو حدين: فهي شأنها بذلك شأن الشيخ العجوز في جزيرة كريت عند دانتي تنظر الى الوراء صوب تجسدات الآلهة في اشخاص معينة والى الامام نحو صورها او امثلتها.

ان هذا المفهوم الخاص بواحدية الزمن يفتح امكانات رحبة امام الروائي الذي يبحث عن بدائل للسرد المنتظم حيث يقدم الوقائع المتزامنة اما على شكل اضافات في التفاصيل او يتوزع في ثنايا الرواية خلال العرض ان الرواية الجديدة قد حررت نفسها من ربقة الحدث المتسلسل والمتتابع من خلال تبني وجهة كلية واحدة monistic عن الزمن يكون الزمن بمقتضاها مرتداً باستمرار الى الماضي والمستقبل مرتداً باستمرار الى الحاضر. وهكذا يضحى الزمن كله واحداً - حاضر متشابك مع الماضي والمستقبل. تقع احداث رواية روب غرييه في حاضر مستمر او اذا توّخينا الدقة حاضر سينمائي. ولما كانت الصور لاتتأثر بقيود الزمن، فان الشريط السينمائي - «الصور المتحركة» - يعرف زمناً واحداً فقط الحاضر الذي يصهر كافة اشكال الزمن الاخرى (الزمن القصصي، زمن الراوي، الزمن النفسي، زمن الارتجاعات الذهنية) في اطار واحد، وهو زمن الشريط السينمائي الذي يجري عرضه.

في كتابه الذي يحمل عنوان «نحو رواية جديدة»، يعتبر روب غرييه من الحاضر المستثمر في الشريط السينمائي لتدعيم نظريته عن الرواية يتوصل الى رأي قوامه ان السينما والرواية الآن تلتقيان في تركيب اللحظات والفواصل والمشاهد التي لم تعد لها ادنى صلة بمثيلاتها في الساعات والتقاويم. ماينشده روب غرييه هو توافق بين الموضوع والمعنى من دون ذلك الحاجز المؤلف من (مثل) او (أشبه) بعبارة اخرى يريد الاشياء ان تكون ما ترمز اليه وهو شيء جائز في الشريط السينمائي حيث يكون هناك تطابق بين الدال والمدلول، وعلى ما يعتقد روب غرييه فان اليد او الكتف في الشريط السينمائي ليس رمزاً للصداقة، بل يفضل القول انها الصداقة ذاتها فان حاضر روب غرييه هو حاضر سينمائي حيث يلتقي الموضوع والمعنى والماضي والمستقبل، حيث يستطيع ان يحرك الزمن الى الامام والى الوراء على شكل قطع للتسلسل التاريخي للاحداث اما في استرجاع ما حدث او حدس ما سيحصل: وهو تكنيك اجاد في استخدامه في روايته «الماحي».

ان روب غرييه اسوة بسلفه جويس ورواية «يوليس» يجعل احداث رواية «الماحي» تغطي يوماً محدداً الثلاثاء، السابع والعشرين من تشرين الاول. وهو تاريخ يقع في مفترق الطرق بالنسبة للماضي والمستقبل تاريخ يؤدي بـ والاس Wallas الى مستقبله الاسطوري (مقتل ذلك الاب)، لكن السابع والعشرين في تشرين الاول يتحدد معناه بموجب يوم السادس والعشرين من تشرين الاول، لأن مالم يتحقق في يوم السادس والعشرين سوف يجعل في اليوم التالي هنا يستطيع المرء ان يرى كيف يجعل روب غرييه الحاضر (السابع والعشرين من تشرين الاول) مستنداً الى الماضي (السادس والعشرين من تشرين الاول) والذي بدوره يؤثر على مستقبل كل شخص في الرواية. كان من المفروض ان يكون دانيل دوبونت Daniel Dupont قد قتل في الساعة السابعة والنصف من مساء يوم السادس والعشرين من تشرين الاول، وبوصفه يمثل لايوس في الرواية، فان مقتل دوبونت ينبغي ان يتم ليس على يد القاتل الاخير غاريناتي Garinati بل على يد ابنه نفسه الذي وصل للتو الى المدينة في تمام الساعة السابعة والنصف مساءً. لقد توقف الزمن وسوف



■يكون امراً يسيراً بالنسبة للشريط السينمائي، تحقيق التزامن لان الصور لاتتقيد بالزمن.

يقترف الفعلة، اذا لم تكن في الزمن، ففي الاقل بما يعادله مجازياً.

تمتلك رواية (الماحي) الوحدة العضوية التي مردها عدم وجود نقلات: اذ لايحتاج روب غرييه اليها (النقلات) لتوجيه الحدث الى الامام او الى الوراء. لم يعد الماضي متداخلاً مع الحاضر كما هي الحال في الملحمة الكلاسيكية او الرواية الفكتورية.

ان الماحي اسطورة منفصلة عن التاريخ، بيد أن الاستنتاج المنطقي للتزامن هو تبني لمعنىً تاريخي (على الضد من المعنى الاكثر عمومية للوعي التاريخي) وهو ادراك ان احداث الحاضر بتفاصيلها تحدد جذورها وتستمد معناها من احداث معينة في الماضي. واذا يؤمن كاتب معين بتجاوز الماضي والحاضر كما يفعل توماس بنجون Thomas Pynchon فان الماضي يستطيع، والحالة هذه، ان يقطع الحاضر حين تحين اللحظة المناسبة. يجعل بنجون احداث روايته المعنونة «ف» تغطي زمنين احدهما عمودي والاخر افقي. ان الزمن العمودي للرواية هو ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦، حاضر غير مستقر اشبه بمادة كيمياوية متعددة الاشكال. انه حاضر تسكنه اشخاص كارتونية لاتختلف كثيراً عن تلك التي تسكن في الزمن الافقي: المستعمرون البريطانيون والجواسيس الدوليون في مصر في عام ١٨٩٨ والميكافيليون الذين يقبعون في دهاليز فلورنسا في عام ١٨٩٩ والمهرجون الجوف الذين يحجبون واقعنا من خلال احتفالاتهم برقصة الفاسكنك بلا توقف في جنوب افريقيا في عام ١٩٢٢، المتحللون الذين يسعون وراء الفن البريابوسي (نسبة الى القوة التناسلية عند الذكور لدى قدماء الرومان المترجم) في باريس عام ١٩١٣، الشخص المتخنث ذو الاعضاء التي تشبه دمية ميكانيكية الذي توفي في مالطا في عام ١٩٤٢ ـ ان هذه الفترات الخمس ـ ١٨٩٨، ١٨٩٩، ١٩٢٢، ١٩١٣، ١٩٤٢، بالاضافة الى الخاتمة التي تحمل تاريخ ١٩١٩ ـ تعكس صورة جامدة لاتختلف عن تلك التي تحيينا في مرآة.

في بداية الرواية، ينظر ايجسين فاليو الى التاريخ بوصفه نسيجاً تتخلله اعداد لاتحصى من الجماعات حتى يتعذر رؤية التصميم الرائع. وهكذا تصبح الجيوب الزمنية التي نعزل انفسنا فيها اكثر اهمية من النمط الكلي. وطيلة رواية «ف» يسحب بنجون الخيوط باستمرار ليحررنا من هذه الشرانق ولنطالب بمعرفة الوقائع مثل ازمة فاشودا وقصف مالطا في الحرب العالمية الثانية التي ربما لاتلتفت اليها حتى اكثر الثقافات تحرراً.

ويسمح تصور بنجون الافقي عن التاريخ له بادخال الماضي ضمن الحاضر كما لو كانا معاصرين لبعضهما. ان التأثير الناجم عما يسمى لحظات استرجاع الماضي في رواية «ف» شبيه الى حد ما باللحظات التي نجدها في شريط فرانس فورد كوبولا «العراب، الجزء الثاني» (١٩٧٤) حيث تتداخل حياة الاب بحياة ابنه على شكل علة معلول وماض/ حاضر. بيد ان هناك مداخل مختلفة الى الماضي كما يوضح بنجون. يستطيع المرء ان يتخيل وجوده، ان «ف» رواية الغاز بالطريقة التي تكون فيها «اوديب ملكاً» قصة بوليسية: انها بحث الابن لاكتشاف هوية «ف» المرأة الغامضة (القوة) التي كان ابوه يبحث عنها عندما توفي في ظروف غامضة في عام ١٩١٩. ان لحظة استرجاع الماضي الختامية تعود الى المؤلف الذي يعرف وحده ماحصل في عام ١٩١٩ باختياره لهذا الحدث لأن يكون الخاتمة لروايته فان بنجون يجعل الماضي الحاضر لأن موت ستنسيل في عرض البحر وكما هو شأن موت فليباس الفينيقي واوديسيوس في «الجحيم» هو الان جزء من حالات التكرار الازلي: لحظة يتكرر ظهورها متى مايشرع باحث اخر في رحلة البحث ذاتها.

ان اي مخرج سينمائي حتى وان كان مخرجاً عادياً يستطيع ان يقطع الماضي والحاضر. في شريطه السينمائي الرهيب المأخوذ عن قصة غور فيدال (ميرا بيركنج) (١٩٧٠) يقطع مايكل سارن Michael Sarne الشريط في اللحظة التي توشك بها ميرا Mira ان تخزي ربستي جنسياً، ليعود الى اللقطة من شريط في الاربعينات حيث تكون البطلة في مضمار سباق وهي تصفق جذلاً للجواد الفائز، كما لو ان ميرا تحتاج تشجيع شريط سينمائي قديم للاقدام على فعلتها تلك ولما كان من اليسير تصوير عملية التزامن فاننا نتوقع من صانعي الاشرطة السينمائية ان يفعلوا اكثر من مجرد الربط بين الماضي والحاضر، الا ان عدداً محدوداً جداً من المخرجين (مثل رينيه في شريط «هيروشيما مع الحب» وبرغمان «اشجار القطب البرية») قد نجح في سبر المضامين الفلسفية لعملية التزامن والتي بالتاكيد لايمكن طرحها في الشريط التجاري.

في هذا الشأن يتفوق الكاتب على مخرج السينما اذ لايحتاج المخرج السينمائي الا لقطع بسيط لأيصال مفهوم التزامن، الا انه سيلاقي صعوبة بالغة اذا ابتعد اكثر عن العملية البصرية، ولايتحقق ذلك على ايدي موهوبين بمستوى رينيه او برغمان لكن الكاتب يستطيع ان يعبر من خلال اللغة مايمكن ان توحي به الصورة المرئية فقط وهكذا يستطيع بنجون ان يرد على السؤال الذي يغيب عن اذهان معظم صانعي الاشرطة السينمائية وهو ما الذي يفعله المرء حين يتقبل النظام المتزامن للماضي والحاضر؟ لربما يتخلص رد بنجون في السطر الشهير المأخوذ من رواية «ف» وهو «حافظ على هدوئك واهتمامك». ان المحافظة على الهدوء ليست التقوقع او الانسحاب او النرجسية، بل هي مزيج من التجرد والحرص اللذين تتحققان عندما يطور المرء حساً تاريخياً، يجعله قادراً على الاحتفاظ برباطة جأشه حتى وان كان البرابرة على الابواب.

■ محمد هيكل: القاهرة



مائة عام على مولد

طه حسين ومستقبل

الثقافة العربية:

الكل في واحد في رحاب العميد

● كان حصاد ٣٢ ساعة مناقشة.. مكثفاً ومركزاً بين نخبة بلغوا مائة مفكر وفيلسوف واستاذ جامعة، ممن عملوا باخلاص لدراسة طه حسين، معه وضده، وان كان الحصاد قد أعلن: ان طه مازال ناطقاً للزمان، داعياً ومنذراً، وفي الوقت نفسه: سيظل «هو» يتكلم.

داهمني هذا الشعور في مدخل الندوة، وسيطر عليّ حقيقة هذا المنطوق في جلساتها خاصة مع من اختلفوا معه، وهذه سمة «العبقري المشاغب» طه، الذي فقد نور العينين، فمنحه الخالق بصيرة واسعة أشعت علينا، فاستطاع بها، عبر الزمان، ان يؤثر فينا «إيجابياً» فاحببناه، وتناقضنا معه، مع انه كان البشير لتعليمنا المجاني!!

● واذا جاز ان انقل صورة مكتوبة عن الندوة الدولية التي عقدتها كلية الآداب جامعة القاهرة في ذكرى مرور مائة عام على مولد العميد، وشهدها وشارك فيها اكثر من مائة مفكر، هم علامات واضحة وبارزة في عالم الادب والنقد والتاريخ والفلسفة، جاؤا من بلدان مختلفة، فاكد طه منظوره العالمي الانساني، وتاثيره الخلاق على الساحة الفكرية الدولية، وهنا كان - ايضاً - عاملاً وحدوياً وقومياً، فاشترك في رحابه مفكرون من الغرب العربي حتى المشرق العربي.. واذا كان طه حسين.. مصرياً، فان كل الرموز والتيارات الفكرية المصرية المتناقضة المتصارعة المختلفة قد التقت هنا فكان اللقاء في رحابه دافئاً، متدفقاً، لدرجة تدفعنا الى استخدام تعبير توفيق الحكيم: «صار الكل في واحد» في رحاب العميد.

وطه حسين الذي التقى حوله الجميع.. هو على حد - تعبير الناقد الادبي د. جابر عصفور رئيس اللجنة التحضيرية للندوة - رمز من رموز هذه الامة، التي نعتز بها، لأنه جمع القيم الاساسية التي ينطوي عليها معنى التنوير، والتقدم، فالعقلانية اكدها، والحرية آمن بها، والعدل الاجتماعي كان يدفعه الى ان يقف مع المعذبين في الارض! هذه القيم - إذن - المرتبطة «بالعقلانية والحرية والعدل الاجتماعي» جعلت منه قيمة اساسية، علينا تأملها، والتطلع الى تحقيق المزيد من معانيها.

ويؤكد د. حسنين ربيع عميد آداب القاهرة على مسألة «الرمز» ويقول إن العميد هو رمز لطموح الأمة العربية.. نحو نهضة شاملة، على

اساس من الاصالة والمعاصرة، في ضوء الاتصال الواعي بين الحضارات.. لذلك ليس غريباً ان ينال هذا التكريم العالمي، لانه إستطاع أن يقيم جسوراً قوية بين الفكرين العربي والعالمي.. فضلاً عن انه اختار «موقع المناضل» في الحفاظ على اللغة العربية وآدابها، أمام التغريب الذي إجتاح مصر في بداية هذا القرن.. بوصف اللغة جزءاً أساسياً من هويتنا الوطنية، مؤمناً بضرورة تطورها.

• طه والتنوير •

في الجلسة الاولى من الندوة طرح د. محمد حسن الزيات عدداً من التساؤلات حول منهج طه في كتاب (مستقبل الثقافة في مصر) الذي كتبه العميد منذ نصف قرن مضى، ومازال صالحاً للمناقشة والشغب والاختلاف والاتفاق، مؤكداً - اي الزيات - ان طه كان يؤمن بانه لايوجد بين الشعوب فارق ثقافي.. وانما «المفرق» هما السياسة والاقتصاد، في الوقت الذي طرح فيه د. لويس عوض «نظرية العصر الذهبي» في عصور الانحطاط! كأنما الامم تفتقد مجداً لاتجده عندها، فتبحث فيه عند الاسلاف.. مؤكداً على أن منهج طه، كان منهجاً ديكارتياً «أنا افكر.. إذن انا موجود» مضيفاً إليه بعداً إنسانياً، او وجوداً إنسانياً.


لويس عوض



■ د. لويس عوض: منهج طه كان ديكارتياً.

ولأن من الظلم ان تتمّ تجزئة فكر طه، على حد تعبير د. محمود مكي، وان كان ذلك - واحداً من أنتقاداتي على الندوة - وهو ذوبان الكل في واحد.. الا ان الجلسة الأولى التي حملت عنوان «التنوير» إلتزم بها د. محسن الموسوي، من خلال الورقة البحثية التي تقدم بها مؤكداً في معرض طرحه أن المنهجية التي جاء بها طه، حملت نظرة جديدة تجاه السكون الذي كان يمر بالأمة العربية، لذلك فقد خاض سجالاً في هذه الحالة.. او قل اربك تلك الحياة.

■ د. محسن الموسوي: طه حسين أربك سكون حياة الامة آنذاك.

يقول د. الموسوي: إن العقلية الجديدة او المنهجية الفكرية التي جاء بها طه حسين أثّرت تأثيراً حقيقياً وفعالاً في تكوين المحيط الأدبي الجديد، ذلك الذي تحققت او تتحقق فيه النقلة الجادة من السكون الذي خيم على الحياة العربية فاحتواها، الى الحركة التي انتعشت عندها او بموجبها هذه الحياة، والتي تكاد - تغفل - على أصعدة المنهج دوره الحاسم في تفجير مكونات التنوير في نهج التفكير.

ويضيف: وتكاد الضجة التي اثيرت حول مصادر الشعر الجاهلي من جانب او تلك التي خصت اراء طه حسين في مستقبل الثقافة في مصر من جانب آخر، ان تشكلا الاساس في طبيعة ماقيل ومايقال عن مجهوداته الثقافية والفكرية، لدرجة التهديد بالطغيان على منهجيته الفكرية ذات التأثير الفعال في تشكيل العقلانية العربية.

وخلص الموسوي الى صراحة طه العقلية ونزعته للقداسة فضلاً عن نزوعه الفني واعلائه للشخصية الانسانية، تشكل - هذه الصفات - بعضاً من فلسفة التنوير، لذلك لايأتي التجديد عنده معزولاً عن الاصلاح، هذا في الوقت الذي اشار فيه الموسوي الى أن (العقلانية) التي دعا اليها طه في البدء، قد اختطت مسارها وسط عاصفة من الاعتراضات والمناقشات، فانها وفي ظل التحولات التالية التي ألقت بسماتها عليها، او تلك التي تحققت بفعل الظروف السياسية والاجتماعية التي مرّ بها الوطن العربي، قد وجدت أصداءها في اكثر من مجال وميدان، بين الأدباء والمفكرين والساسة، لتقود كما هي حالها دائماً الى افرازات أخرى على اصعدة تأمل الواقع ومواجهته والتصدي له، في الآثار الابداعية او في الافكار والمنجزات الاجتماعية والسياسية، وفي كل ذلك لايمكن للمثقفين العرب الا ان يعترفوا لطه حسين «بالسبق» في اشاعة المعرفة، وتأكيد قيمة العقل، ومعالجة النقل، ومواجهة الحياة، وتأكيد قيمة النقد منزهاً وصادقاً.

د. محسن الموسوي

• ناطق الزمان •

واثار فاضل الاسود، او قل وضع يدنا على موضع الداء، حول ناطق الزمان، الذي اثار الاختلاف، اكثر مما اثار الاتفاق، ذلك وعلى حد تعبير فاضل فان الانتاج الفني لطه مازال مطروحاً للقراءة، يدعو الباحث والمتخصص كي يكشف أغواره ومراميه، يحاوره الباحث، ويعالجه المتخصص، لذلك مازال السؤال الفني حول ابداع طه قائماً، واظنه سيستمر بعدنا، ويمتد لأجيال اخرى آتية يطرح عليها النص سؤاله وتحاول هي ان تجد الاجابة عنه، او تسعى اليها ما وسعها السعي!

ويرى فاضل ان التعبير عند طه هو عبارة عن علاقة تؤسس على ثنائية محددة بين الفني والاجتماعي،

د. جابر عصفور



فالأول تعبير عن الثاني، وكل اجتماعي هو تناقضي او صراعي، بحكم التركيبات الاجتماعية، فيأتي الفني تعبيراً عن ذلك الاختلاف او تبشيراًوتحذيراً من وقوع المجتمع في الخطأ ونأيا على السبيل المعوج.

وفضلاً عن ذلك - وهذا من خصائص طه في الولوج الى الماضي - فانه لايهاجر اليه تاركاً خلفه (الآن وهنا) ولا يهمل هموم وقضايا عصره ومشكلات حاضره، وانما يمارس نوعاً من الكتابة ذات الطابع النقدي والصراعي، وهو لايأنس او يقر لثقافة التلقين ذات الطابع المؤسس، ولايأنس لأخطارها المستقرة ولايخشى السطوة الطاغية التي تمارسها علينا الثقافة السكونية السائدة!.. فيطرح اسئلته على تلك النصوص، يحاورها، ينقدها ثم يعيدها الى زمان مختلف كي تمارس هي فعل الحضور من جديد في الحاضر بعد ان يخلع عنها غطرسة وتعالي زمن مضى واستقر!!

• مدينة طه الفاضلة •

وقد اثارت ورقة بهاء طاهر (صورة الغرب في أدب طه حسين) جدلاً في الندوة، ذلك ان حلم طه - كما يرويه بهاء - ان يرى الناس في مصر وقد اظلها العلم والمعرفة، وشملت الثقافة اهلها جميعاً، وسعياً وراء تحقيق هذا الحلم، فقد فصلها في مستقبل الثقافة في مصر، خطة واضحة المعالم، لذلك - والكلام على لسان بهاء - فان صورة الغرب عند العميد، لاتقتصر على اوربا الحديثة، بل هي ترجع في الزمن الى اليونان القديمة التي تتوهج صورتها في كتاباته كمنارة للانسانية، وكفردوس مفقود.. على انه يجب ان تشيع في مصر روح جديدة، ذلك ان لمصر فيما يرى العميد رسالة إنسانية هي تحقيق التعاون الفكري الخالص الذي يقارب بين الامم ويلغي مابينها من فوارق، ويرتفع بحياتها العقلية من الوان الخصومة وضروب النزاع.

إذن الى اي العالمين - كما يقول بهاء - تنتمي المدينة التي يحلم بها، الى الفارابي او الى الثورة الفرنسية؟.. واقع الامر انها لاهذه المدينة، ولا تلك، ولكن عقلاً عبقريا وانسانيا مزجهما معا مزجا فريدا ليقدم لنا في النهاية اقتراحا واقعيا وممكنا، هو بالضبط «مدينة طه حسين الفاضلة».. ويتساءل بهاء طاهر: فهل لنا أن نتأملها؟

ويبدو أن هذا التأثير الفاضل، قد ذهب كثيراً، واثر في مفردات اللغة عند طه، ولرهافته الخاصة، وعند وصف «الفعل» عند طه - كما اثار د. عز الدين اسماعيل - أو مايسميه النحاة «الحال» ذلك بأن الاهتمام بوصف الفعل يدخل في باب «تحري الدقة» حيث يشير الوصف عندئذ الى الفروق الدقيقة بين كيفيات حدوث الفعل، وقد نشير الى كثرة استعمال الحال في لغة ما (وهذا مانلحظه بوضوح في اللغات الاوربية الحية) الى ماستقر في عقول أبناء هذه اللغة من ضرورة تحري الدقة في بيان كيفية حدوث الاشياء، وعلى كل فاستخدام الحال عند طه قد صار لازمة من لوازمه، وينفي د. عز الدين عن طه أن ذلك من آثار اللغة الفرنسية التي اتقنها العميد، وان كانت هذه الاناقة الشاعرية هي مايمنح كلام طه في عمومه شاعريته، ومايميزه في الوقت نفسه عن أساليب الانشائيين البلاغيين.. وان كان ذلك يصب فيما ذهب إليه بهاء من تزيين طه لمدينته الفاضلة!!

■ د. محمد حسن الزيات: طه كان يؤمن انه لا يوجد بين الشعوب فارق ثقافي

■ د. فاضل الاسود: كان طه لا يأنس لثقافة التلقين ذات الطابع المؤسس.

■ د. محمد مهران: لعل قوة الثورة التي صنعها طه تكمن في المنهج الجديد الذي طبقه في دراسة الادب العربي.

• طه فيلسوفا؟! •

طرح د. محمد مهران تساؤلا على الندوة: هل كان طه فيلسوفاً؟ ويجيب: بالرغم من ان طه رفض فكرة ان يطلق عليه فيلسوف، إلا ان الفلسفة كانت من أهدافه وغاياته في حياته الثقافية، فلم يختر ابن خلدون لأولى دراساته الاكاديمية الا من حيث هو فيلسوف اجتماعي، ولم يكن اعجابه بديكارت إلا لأنه صاحب منهج عقلي دقيق يمكن تطبيقه في غير مجال الفلسفة، لذلك فلا عجب حين نجد طه حسين يعطي للفلسفة جزءاً من إهتماماته المتعددة، فكتب في تاريخها ورجالاتها، وحل العديد من الكتابات عنها. ومن أهم مؤلفاته «قادة الفكر» الذي إنصب الجزء الاكبر منه على الفكر اليوناني الذي لاقى عنده اهتماماً خاصاً.

ويضيف د. مهران: ولعل قوة الثورة التي صنعها طه وخطورتها تكمن في المنهج الجديد الذي طبقه في دراسة الادب العربي، وهو منهج إستعاره من الفلسفة، وفي ذلك كان صريحاً، فهو يقول في بداية حديثه عن الأدب الجاهلي «.. اني سأسلك في هذا النحو من البحث مسلك المحدثين من اصحاب العلم والفلسفة فيما يتناولون من العلم والفلسفة، اريد ان اصطنع من الادب هذا المنهج الفلسفي الذي إستحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الاشياء في أول هذا العصر الحديث»





الروائي كلود سيمون اثناء المحاضرة والى يساره نجيب محفوظ

الروائي الفرنسي: كلود سيمون يقول:

لاأدب بلا أزمة

الروائي الفرنسي كلود سيمون كان احد ضيوف معرض القاهرة الدولي للكتاب وهو الحائز على جائزة نوبل في الآدب لعام ١٩٨٥، حيث نظمت ندوة له مع الأديب العربي نجيب محفوظ الحائز على الجائزة نفسها لعام ١٩٨٨.

عن تجربته الروائية والخاصة القى كلود سيمون محاضرة له، وهي المحاضرة التي القاها بمناسبة حصوله على درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة «بولونيا»، وفي هذه المحاضرة تناول التاثيرات الثقافية الفرنسية، وخاصة الابداع الايطالي والنص الذي القاه الروائي الفرنسي مرتبط بنص للناقد الفرنسي الشهير «ديستاف نلسون»، والذي يعكس تاثر الأدب الفرنسي بالفنون التشكيلية الايطالية وكيف أن هذه الفكرة كانت مرفوضة من قبل الفرنسيين.

الفن التشكيلي وعلاقته بالأدب

يؤكد كلود سيمون في محاضرته المهمة على العلاقة الحميمية بين الأدب والفنون التشكيلية. ان هذه العلاقة منذ بدات كانت مدهشة وكانت مثمرة وقد يكون السبب المباشر في اهتمام كلود سيمون بالفن التشكيلي وتاثيره على الأدب والإبداع الروائي خاصة، هي كونه فناناً تشكيلياً ومصوراً بارعا أيضا، وكيف أن فكرة التاثير هذه هي فكرة محورية يجب الا نتجاهلها في تناولنا الرواية الفرنسية المعاصرة بالحديث.

ولد كلود سيمون في تناريف بمدغشقر في عام ١٩١٣، ثم امضى بعد ذلك بقية حياته في بنبريوى واتم دراسته الثانوية في مدرسة «سان سلاس»، وكانت رحلته الصيفية الى اكسفورد وكمبردج لتعلم الانجليزية، وسافر عدة سفرات، وحاول تعلم فن التصوير على يد فنان معروف هو «أندري لوت»، وبدأت رحلاته التي بدأها بالمانيا ثم روسيا وعدة بلدان اوروبية، وعاش فترة من حياته في اسبانيا بين عامي ١٩٣٦: ١٩٣٩، وإن لم يشترك في الحرب الاسبانية وله كتاب عن هذه الرحلة اسماه «القصر» يتناول ماشاهده في برشلونة عن وقائع الحرب الاسبانية.

كلود سيمون والابداع

بدا كلود سيمون الكتابة في عام ١٩٤٦ برواية أسمها «الغشاش» ولم تر النور الا بعد حرب التحرير في فرنسا عام ١٩٤٥، ورأى النقاد انها تقترب كثيراً من رواية الأديب الكبير البير كامي «الغريب»، بعد ذلك كتب عدة كتابات منها الريح، العشب، واشهر رواياته «طريق الفلندر» والتي ترجمت في العراق. وبعد ذلك استمر بالكتابة بشكل ما يختلف عما بدا، حيث أصبحت الحياة المعاشية

■ محمد الشحات : القاهرة

وماتركته الحرب وآثرها على نفسه تسيطر على كتاباته. وآخر نص كتبه كان في سبتمبر ١٩٨٩ . وكان تحت عنوان «شجرة السنط» وهذا النص قوبل بالاستحسان في الاوساط الادبية في فرنسا والدول الناطقة بالفرنسية.

سيمون والرواية الفرنسية.

وهناك عناصر اساسية تميز اسلوب كلود سيمون غير الوصف.

النص الذي يعكس فكره وفلسفته واتجاهاته الابداعية وفي هذا النص تكلم سيمون عن الحرب ـ التي حدثت عام ١٩١٤ والتي مات فيها والده، وعام ١٩٤٠ والحرب التي شهدها، وينطلق من هزيمة الجيش الفرنسي في هذه الحرب، والنص يبدأ بالبحث عن جثة الأب الذي مات في الحرب عام ١٩١٤ ولكن البحث يبدأ في عام ١٩١٩. وهذا البحث عن الجثة هو ايضاً البحث عن الرواية التي

■ اود أن أبدأ كلمة، وأن أستمر فيها، وأن اكملها مثل عالم الفيزياء.

■ إذا لم تكن هناك أزمة، فلن يكون هناك أدب أبداً.

فالزمن كذلك أحد هذه العناصر المهمة التي يستعين بها، وهو لايستخدمه للربط بين الأحداث فقط، وانما يربط بينهما في كافة المستويات، أما المناخ والطبيعة فهما عنصران مهمان لايأتيان كخلفية تدور امامها الاحداث، وانما دائما الحضور كما في روايته «الريح» التي صدرت في عام ١٩٥٧. ولقد انعكست الالوان والفن التشكيلي على عالمه الروائي بحكم انه فنان تشكيلي ايضا، فالرواية لديه لوحة تشكيلية تتناغم الوانها وابعادها لتعكس مايدور حوله ومايعيشه هذا الأديب. ....

يتشكل التاريخ مثل العشب الذي لانلحظه.

ويطرح كلود اهم افكاره في هذا تتشكل من خلال زمن ليس ضائعاً أو موجوداً و لكنه معلق إنه الحاضر في الماضي، لذا كان لجوءه الى اسم المفعول بدلاً من الصيغ المباشرة، بالاضافة الى ظرف الزمان الآني ونتيجة لذلك يشعر القارئ بتصاعد الازمة التي اصابت كل من اشترك في هذه الحرب. من خلال اللعب بالكلمات والممارسة الابداعية ونرى خلال ذلك التاريخ يتشكل في تلك اللحظات ويقول سيمون بهذا الصدد إن التاريخ مثل العشب الذي ينمو دون أن نلحظه.

دكتوراه شرفية من جامعة بولونيا.

لقد حصل سيمون على الدكتوراه الشرفية من جامعة بولونيا عن نص مهم كتبه وتبلور عن فكرة تدور عن ارتباطه بنص أخذه عن الناقد الفرنسي المعروف «ديستاف تلسون»، والذي قال إن اللقاء بين فرنسا وايطاليا تم في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر، وكان عملياً لقاء بين الفن والأدب ويقول الناقد الفرنسي إن التوجه العملي بطبيعتنا نحن الفرنسيين ، لايجعلنا نرغب في إدخال الفن في الأدب لكن هذه الفكرة جاءتنا من ايطاليا وليس من الحضارة القديمة، وقد كشف سيمون عن العلاقة الحميمية بين الأدب والفنون التشكيلية، وقال إن هذه العلاقة منذ بدات كانت مدهشة ومثمرة.

ويضيف الروائي الفرنسي كلود سيمون قائلاً :

الحداثة اثقلت الفكر في التوجه العملي للأدب الفرنسي والأدب العالمي وبات مزاجنا القومي يأنف ادخال فكرة الفن في الأدب هذه هي الفكرة المحورية، ولكن اصبح هناك اتجاه قومي جعلنا نتعامل مع الأدب وخاصة الرواية كأداة نفعية هدفها التسلية مع اعطاء العبرة أو تعليم القارىء حيث يجد ذلك دارسوا الاخلاق والسلوك والسيكلوجيا الخ... ومن هنا تم تفصيل الرواية أو الحدوثة فلسفياً، وكما قال «بلزاك» إن الغوص في نفسك يعطيك الدرس والتعليم، وهنا كلمة الدرس والتعليم هي الكلمة المفتاح في هذا الأدب الذي ملأ القرن التاسع عشر.

وعندما نقرأ «بلزاك»، «استندال»، «زولا»، وحتى «فلوبير»، وبالرغم من مجهوداته ومراسلاته لم يستطع ان يتخلص من اثر هذه الرؤية «الواقعية»، وعندما نقرأ لهؤلاء الكتاب فاننا نعرف مصير الطموح البخيل، الفقير، الشريف، مصير المرأة الزانية او الشديدة الرومانسية الخ...

في هذا التوجه العملي لطبيعتنا نجد متعتنا، والشخصيات الروائية هنا لاتكون سوى عرائس متحركة، وهذه العرائس المتحركة ذات خيوط نفسية مبسطة للغاية واهمية هذا الدرس الاجتماعي انه يأتينا او يصل الينا ليس على شكل حكايات أو احداث او تحقيقات او دراسات ولكن على شكل معين يعبر به المبدع عما يدور في نفسه. وليس معنى ذلك اننا علينا ان نبتعد عن هذه القراءات ولكننا يجب ان نبحث عن جذور في الرواية الحديثة في اتجاهات اخرى.

إن «بلزاك» حاول ان يجعل الحواديث اكثر مصداقية واكثر إثارة باداخال العديد من المقاطع الوصفية التي لم تعد هي الأنماط المعهودة في الوصف تلك المقاطع التي لعبت طوال القرن التاسع عشر دور حصان طروادة حتى انها مع «بروست» قضت تماماً على حدوتة الرواية، هذا من جهة، أما من جهة اخرى وهي جهة تناقضه تماماً، وانطلاقا من جاذبية الرواية الاجتماعية نشأ مع «ديستويفسكي» خط او نمط من الرواية يختلف في كل تفاصيله، بمعنى انه جعل الغموض واللبس وتعدد المعاني غير الواضح مكان الحواديث الكاريكاتيرية، والتي تدور حول العرائس المتحركة، والتي تقدمها لنا الرواية الطبيعية، وان كان منذ البداية ومن الصفحات الاولى،

حضور الندوة من الادباء والمهتمين ويظهر في الصورة الشاعر حميد سعيد والروائي جمال الغيطاني



عندما يدخل «شارل بوفاري» الفصل مرتدياً القبعة المضحكة، ومنذ رصد قراءات وأذواق «بوفاري» فبوسعي وبسهولة ان أتنبأ بالحكاية، بينما لم اعرف ابداً الوضع بالنسبة «لمستديا» في بوذنا، او «كرامازوف» أو «لبيرستين» ان هذا اللبس وهذا الغموض هو الذي جذب كتاب الرواية الجديدة.

ويستكمل الكاتب الفرنسي حديثه بقوله:

وعلى صعيد آخر لم اعرف اكان «شكين» ابله تماماًام شديد الذكاء كما لااعرف إذا كانت شخصيات العبقري الغريب المدعو «بيراند لو» هل هم مجانين او عقلاء... طيبون او اشرار يتحركون في عالم ليس فيه قواطع عازلة بين الواقع والتخيل. لانجد هنا عبرة لاخ «اوليس» ولا في الزمن الضائع ولا في «ست شخصيات تبحث عن مؤلف» وكما تشير العناوين فإن عمل «بروست» بحث وعمل «جويس» مغامرة اما «بيراندلو» فانه يقول دون موارية إنه يبحث عن شخصيات تبحث هي ذاتها عن مؤلف وله حق «رنسوى» عندما يقول باللروعة وباللانبهار.

ونستطيع ان نرصد أن مع «ديستويفسكي» من روسيا ومع «جويس» من فرنسا ومع «بورست» من فرنسا ومع «بيراندلو» من ايطاليا ظهر شكل ادبي مغاير تماماً لهذا التوجه العملي التقليدي للمزاج الفرنسي، وحتى هذه اللحظة كانت الرواية مجرد وسيلة لتوصيل معنى موجود، وتحولت الى دمية، اي أن المعنى لايسبق الكتابة. فهو لم يعد يعبر عنها، كما إن العالم لم يعد يصور شيئاً، بل بالعكس، كل ماينتج هو من عمل الكاتب وبواسطة اللغة. وبالطبع هناك معاني متعددة، ومنذ ذلك الوقت لم تعد الرواية كما كان يقول الناقد الفرنسي «فاجي» ذات تتويج منطقي، فإن ذلك فرض شكلا من التشكيل، فلم يعد الترتيب الزمني هو الذي سيقرر التسلسل او اهمية الاحداث المكتوبة، من آخر كما في التصوير والموسيقى إن التاثيرات تلك تأثيرات الترابطات او التضاد او التجانس أو الاختلاف او الانحراف او التكرار او التنويعات او المقاطع التكرارية استبدلت بقيمة المكان بدل مبدأ السببية الذي كان يسيطر على كتابة الرواية التقليدية.

وهذا الغموض أو هذا الالتباس اعطى للرواية ضماناً اكثر مصداقية وقوة وتلاحماً. فإذا كان بوسعي ان اصدق مصير «جوليان سورلو» فبوسعي اكثر ان أصدق «موريست» عندما يصف كيف انه انتقل من مكان الى مكان عندما شعر بدرجتين من السلم تهتزان تحت رجليه. فأصبحت المصداقية اكثر من خلال هذا الخلط.

ولم يمنع ذلك الرواية من ان تجد من يدافع عن شكل آخر فيها وهنا اذكر «سارتر» الذي قال بسخرية: علينا ان نذكر في كلمة واحدة ماذا نريد من الكتابة، هل نريد من الكتابة ان نكتب عن الفراشات؛ او نكتب عن قدر أو مصير بعض الشعوب المهزومة؟. وهناك ايضا تاثير بعض المصوّرين مثل «رافلسون» «وراشل برتو» في امريكا و «تبيس» في اسبانيا، و «ديجي في» في فرنسا و «باستوري». في ايطاليا. وهم المصورون والنحاتون الذين كانوا يبحثون عن مانسميه بالدرجة صفر من العالم بعد الحرب العالمية الثانية، كانوا يبحثون عن الأساس المادي الملموس مستدعين الحوائط والخطوط المختلطة رافضين قناعات النظر والتصوير، وذلك من أجل طرح التساؤل على المادة ذاتها.

إن خاصية اللغة كما كتب، «نوفاليس» في نهاية عصر التنوير هي أن تكشف عن أهمية الشكل والرابطة الوثيقة بين الأدب والفنون التشكيلية وهذه الكلمة التي إستعادها «لانسو» قد ذكرها «نوفاليس» في نهاية القرن التاسع عشر.

وعندما دعيت الى روسيا في مؤتمر «أزمة الادب وازمة الرواية» رفضت هذا التعبير وقلت: إذا لم تكن هناك ازمة فلن يكون هناك ادب ابداً. وحينما سئلت ماهو اهم شيء تود إنجازه قلت: اود أن ابدأ كلمة وان استمر فيها، وأن اكملها مثلي مثل عالم الفيزياء او الكيمياء الذي لايهتم سوى بالبحث.

* عمارة

المعماري حسن فتحي و نظرية التكامل

الفلسفية والاقتصادية والجمالية

■ عادل ثابت: القاهرة



المعماري حسن فتحي

[نجح المهندس المعماري الفنان في ابتكار حلول لبُت احتياجات مجتمعه، ولعل أهم العوامل في مصر القديمة كانت المعتقدات الدينية التي من خلالها خلفت لنا تلك الآثار التي مازالت الى اليوم قائمة. فمن اهرامات ذات تشكيل راسخ بموقعها على الهضبة الصخرية غرب القاهرة أختيرت لتحمل الاثقال الضخمة، الى مقابر منحوتة في الحجر في طيبة إلى مئات الأمتار، إلى دور للعبادة صلبة ملهمة، تتآخى وفنون النحت والتصوير، هيات لها في مساحات شاسعة، أو خلفيات في ارتباط تكويني موحد.

[وقد استغل المعماري في مصر القديمة ـ أثناء عملية الخلق والابداع في حسبانه ـ تكنولوجيا العصر، فاستخدم الطاقة الطبيعية من طاقة شمسية في الإضاءة والفلك في التوجيه والجاذبية الأرضية، لتصل أشعة الشمس الى داخل قدس الأقداس في شروقها يوماً كل عام يطلق عليه يوم «مولد المعبد»، وإغلاق مداخل غرف المومياء بالأهرامات بواسطة سدّادات من الجرانيت الضخمة الثقيلة الوزن، ليجعلها ترتكز في جوانبها على كتل خشبية تحرق بعد ادخال المومياء، فما تلبث أن تهوي منزلقة الى أسفل بواسطة الجاذبية الارضية.

[وتستمر العمارة بعد ذلك تستلهم احتياجاتها من واقع طبيعة الأرض، ومتطلبات الناس. فمن أهم صفات العمارة الجيدة، التصميم الذي يشتمل على القيم الوظيفية والجمالية معاً. ومهما كان المهندس المعماري مراعياً للقواعد الفنية، ومهما كان التنفيذ دقيقاً، فإن جمال العمارة وكمالها يعتمد في كثير من جوانبه على شخصية الفنان والمثالية التي يريد أن يحققها.

• شخصية العمارة الاسلامية •

[وللعمارة الإسلامية شخصيتها وطابعها المميز الذي تتبيّنه العين مباشرة، سواء كان ذلك نتيجة للتصميم الاجمالي أو العناصر المعمارية المميزة أو الزخارف المستعملة.

[وقد نبغ المهندس العربي في أعمال الهندسة المعمارية، حيث وضع الرسوم والتفصيلات الدقيقة اللازمة للتنفيذ، كما وضع الأرائيك والنماذج المجسمة الى جانب المقايسات الإبتدائية. ولاشك ان كل هذا يحتاج منه الى التعمق في علوم الهندسة والرياضة والميكانيكا، وقد وضعت مؤلفات كثيرة في هذه العلوم، كما سجل التاريخ أسماء الكثير من نوابغ المهندسين العرب الذين وضعوا تصميمات المباني العربية العظيمة.

[ويمكن القول بأن العمارة الإسلامية قد بدأت منذ فجر الاسلام في القرن الأول الهجري (السابع الميلادي) وانتشرت في معظم بلدان العالم بعد الفتوحات الاسلامية، حتى بلاد اليمن جنوباً. ومن الطبيعي أن الأساليب المعمارية في الإمبراطورية الاسلامية الواسعة لم تكن ذات طراز معماري واحد في القرون الطويلة التي ازدهر فيها الفن الاسلامي، فهي تختلف وتتميز بعضها عن بعض في كل اقليم في العصور المختلفة، فالمنشآت المعمارية يختلف بعضها عن بعض في مواد العمارة نفسها، وفي انواع الاعمدة واشكال التيجان والعقود، وكذا في المآذن والقباب والدلايات أو المقرنصات، وفي أنواع الزخارف الهندسية والنباتية والخطية، وكذلك في المواد التي تغطى بها الجدران كالجص والقاشاني.

[وقد اندثرت أغلب القصور والمنازل الإسلامية القديمة، ولم يبق إلا مارواه المؤرخون عن عظمتها واتساعها وكثرة المرافق فيها، وما كانت تحويه من زخارف وصور وحدائق. وكانت القصور في الشام

والعراق والأندلس عظيمة الإتساع ذات إيوانات وأعمدة وعقود وزخارف جصيّة وصور جدارية ونوافير.

[أما المنازل فلم يبق منها الا نماذج قليلة، حيث يكاد يكون المنزل من الخارج خالياً من الفتحات إلا بعض النوافذ العالية لإدخال النور والهواء، ويتوسط المنزل صحن أو حوش سماوي يطل عليه تختبوش أو مقعد يجلس فيه صاحب المنزل في الصيف، وفي الدور الأرضي غرف المخازن والاصطبلات، وبالدور الثاني غرف النوم وقاعات الاستقبال، وكلها تطل بنوافذ على الحوش، وبعضها له خارجات من الخشب الخرط تسمى «مشربيات».

• العمارة ... والفضاء •

[والعمارة هي فن إحاطة حيِّز من الفضاء لاستخدامه لغرض انساني، ففي اليونان القديمة كان «يشرف على انشاء المعابد والمباني العامة الاخرى، ومن لقبه باليونانية (architekton) إشتقت كلمة (architect) الانجليزية: أي «المعماري».

أما في ايامنا هذه فيتعين على المعماري ان يتلقى قدراً كبيراً من التدريب العلمي على الشؤون العملية التي تتصل بمهنته، فعليه أن يعرف الرياضيات، وكذلك حقائق كثيرة تتعلق بالمواد، مثل الأثقال التي يمكن ان تتحملها المواد المختلفة بأمان، بحيث لاتتعرض مبانيه لخطر السقوط، ومعرفته بمبادئ علم الجمال وهي ما تتعلق بالعناصر التي تشترك فيها الفنون جميعاً: كالخط والشكل والفراغ والضوء واللون، وعن طريق هذه المبادئ يخلق المعماري منشآت مفيدة تبهجنا وتمنحنا إحساساً بما هو جميل.

• شيخ المعماريين.. حسن فتحي •

[هذا كل ما استوعبه تماماً المعماري الراحل «حسن فتحي» الذي جند كل دراساته وبحوثه ومواهبه لتصميم العمارة الاسلامية التي تعكس الشعور بالجمال، تماماً كما نستمع الى الموسيقى او نستمتع بالصور والمنحوتات، فعكف طول حياته في مشوار جميل أعطى له دون حساب، فهو صاحب اكثر من ٤٠ تصميماً عالمياً للمساجد والمنازل والمعاهد والقرى بدءاً من قرية «القرنة» بالأقصر وباريس بالواحات الخارجة الى «نيومكسيكو» بالولايات المتحدة الامريكية والسعودية والجزائر والكويت واسبانيا.

[توفي شيخ المعماريين العالمي، أو مهندس الفقراء «حسن فتحي» عن ٨٩ عاماً، والحاصل على العديد من الجوائز العالمية والمحلية، وعلى راسها جائزة احسن معماري في العالم من الاتحاد العالمي للمعماريين، وجائزة «الرئيس» من مؤسّسة اغاخان التي ترعى العمارة الاسلامية وتسعى للحفاظ على التراث الثقافي الاسلامي، والتي عقدت ندوتها الأخيرة، حيث اختارت المنظمة «القاهرة» هذا العام لاقامة الاحتفال بها تكريماً لدورها الرائد على الساحة العربية والاسلامية في السنوات الأخيرة.

[ولشيخ المعماريين «حسن فتحي» نظرية في العمارة تتكامل فيها الجوانب الفلسفية والإقتصادية والجمالية والحفاظ على اصالة تراثنا المعماري، فكثيراً ما كان ينادي باهمية الحفاظ على المسكن الاسلامي وتطويره، والعمل على انتشاره توفيراً اقتصادياً، من ناحية، والحفاظ على تأثير الهواء النقي والصحة من ناحية اخرى..

وكان أول من نفذ هذا المسكن الاسلامي لسكنه الخاص «بدرب اللبانة» بحي القلعة بالقاهرة، وهو أشبه بتحفة معمارية أقيمت على الطراز الاسلامي، وله من الخارج أربعة «مشربيات» زين زجاجها بالألوان، وقد اختار هذا المكان لمنزله، لما فيه من صمت غريب يصعب أن يجده الانسان في أي مكان آخر.

[وحسن فتحي.. يعتبر من جيل العقاد وطه حسين والمازني ومحمود عزمي، وله عدة كتب من أبرزها «البناء من أجل الفقراء» الذي كتبه باللغة الانجليزية وترجم الى اغلب لغات العالم (ماعدا العربية) وكتاب «الطبيعة والعمارة المحلية» وله بحث عظيم عن قاهرة المستقبل، قدمه في ندوة «اغاخان» للعمارة بالقاهرة ١٩٨٤ وكانت آخر جوائزه العالمية عن «دار الإسلام» التي صمّمها واشرف على تنفيذها في الولايات المتحدة في مدينة «ابيكيو» بولاية «نيومكسيكو» وقد عكس في تصميمه للقرية أسس العمارة الإسلامية المطورة لتلبية احتياجات الحياة والاقامة لساكنيها.. وقد منح عن هذه الدار جائزة اغاخان للعمارة الاسلامية هذا العام.

• أبرز مشاريع الراحل حسن فتحي •

- قرية «القرنة» النوذجية بالأقصر عام ١٩٤٨.
- مدرسة «فارس» ١٩٤٩.
- مشروع الاسكان في العراق ١٩٥٨.
- مشروع قرية «الدرعية» بالمملكة العربية السعودية ١٩٧٥.
- المشروع الارشادي لقرية «باريس» بالواحات الخارجة ١٩٧٠.
- قرية «دار الاسلام» نيومكسيكو ١٩٨٠.
- قرية الصحفيين المصريين ١٩٨٩.



احلام على المضجع



كثيراً ما تظهر احلامنا لنا كانها نوع من الاختلال في المدارك. انها هوس بصري من صنف غريب شاذ للغاية احياناً مليئة بالاحداث والاطاعات الغامضة . يمكن ان تبدو الاحاسيس مختلة في حبكة الحلم. اذ يموت محبوب عزيز ولا نشعر باي كرب، بينما ينجم قلق رهيب يقض مضاجعنا عن مشهد عادي حول مائدة العائلة. إن الاحلام تتبع قواعد من المنطق خاصة بها. اسماها فرويد "ذهانات او تشوشات نفسية زائلة" ومع ذلك كان موقنا بانها مفعمة بالمعنى حتى آخر تفصيل لها سخيف في الظاهر واصر قائلاً: "انها ليست عديمة المعنى وليست سخيفة".

في كتابه «تفسير الاحلام» هو رائعته الاقتحامية التي اسست علم التحليل النفسي كتب ، بل بالعكس انها ظواهر نفسية مشروعة كلياً منشأة بفعل نشاط عقلي معقد جداً». وهذا اليقين صمد ثابتاً امام اجتياح كاسح متواصل تقريباً من المشككين والمسفّهين جادلوا بنفس الثقة الرصينة بان الاحلام خالية من المعنى. وقد كانت المسألة مؤخراً مدار نقاش عنيف في مؤتمر عقدته جمعية الطب النفسي الامريكية في مدينة سان فرانسيسكو في ربيع عام ١٩٨٩.

كان فرويد يستطيع متابعة الرسائل الخفية للاحلام بعزم ماض لايضاهيه فيه احد غير معاصره الخيالي شيرلوك هولمز. كان واثقاً ان الاسرار ستذعن وتتجلي إن عاجلاً او اجلاً تحت وطأة اساليبه في فك الالغاز واستجلاء الخفايا او «تجميعته من وسائل فتح الاقفال» كما وصف هو مرة معرفته الخارقة في هذا المجال. بدا الامر له يستحق المجهود ، وقال في ذات مرة ان الاحلام هي «الطريق الملكية» الى الادراك اللاوعي. لكن بالرغم من ذلك وجد محللون لاحقون هذا المسلك وعراً شاقاً للغاية وعدل عنه العديد منهم الى طرائق اخر اهمها طريقة «الاحالة او الانابة transference» - اي الظاهرة التي يحول بها المريض عن غير علم علاقات مهمة من حياته الى شخص المحلل المحايد نفسه. لكن الاحلام تستمر في الظهور على بساط البحث واحياناً لاتزال من شأنها ان توفر المدخل الى عالم اللاوعي الجوفي الزاخر. وبالنسبة الى فرويد كانت القوة المولدة للحلم رغبة شديدة لاواعية، وليس النشاط العشوائي للدفاع كما يقول البعض الآن. وفي اغلب الاحيان تظهر الرغبة او الامنية بشكل تنكري لانها تضمر افكاراً محظورة - على سبيل المثال تشوقات اوديبية للوالد من الجنس المعاكس. اي انه توجد قوتان عاملتان هما الامنية والدفاع ضدها اي الرقيب . وبطريقة من التشويه او التحريف اسماها فرويد «عمل الحلم» .

يقوم الرقيب بتحويل المحتوى الخفي او الكامن للحلم الى محتوى ظاهر بيّن اي الحلم كما يظهر للحالم. ويؤكد فرويد: «ان آنذاك يمكن ان تكون الامنية قد تنكرت الى درجة

■ ترجمة: يعقوب ابونا

لاتقبل التعرف». وحتى قد تظهر الاشياء بشكل اضدادها اي السرور بشكل الالم والرغبة بشكل الخوف. وهذه الدرجة او النقطة تبقى صعبة الاستيعاب على الناس فالى هذا اليوم يقول مرضى التحليل النفسي المبلغين عن احلام محزنة او مخيفة «كيف يمكن ان يكون ذلك امنية؟». والمعالجون انفسهم قد انهكتهم الجهود لاستخراج الامنيات المطمورة . في الحقيقة حتى فرويد نفسه اعترف ان الاحلام لاتمثل دائماً تحقيقاً للامنيات ولو انه استمر في الاصرار إنها محفّزة بالامنيات. يوجد اليوم ميول متزايدة الى تفسير الحلم الظاهر بدون المزيد من التعمق بالمرة، وهو اتجاه يوازي انتقال المعالجة النفسية العامة ذاتها الى اساليب اكثر سطحية اذ يعتقد العديد من المحللين الآن ان تفاصيل الحلم السطحية مشفوعة بمقترنات المريض بها توفر المعلومات التي يحتاجونها لاعداد تفسير مفيد ويقول هاري فيس استاذ الطب النفسي بجامعة كونتيكات :. «لاحاجة الى الافتراض ان للاحلام محتوى كامن» والراي الاحدث هو ان الاحلام مجرد تواصل لهموم الوعي في حياة اليقظة ولكن "بلغة الاحلام" المتالفة من المجازات البصرية. وكمثال يذكر فيس عن مريض كهل له حديث الزواج كان قلقاً حول ارضاء زوجته زيجياً او جنسياً ولو انها هي لم تبدو ملحاحة كان فيس قد تثبت من ان عندما كان مريضه صغير السن كانت امه كثيراً ما تتركه لفترات مطولة مع الاقارب او الخدم. وبعد بضعة شهور تحت المعالجة ابلغ المريض عن حلم عمل هو فيه بصفة فنان الارجيح يؤدي قفزات متقلبة او تقلبات باهرة في الهواء ، ويعطي نزراً من الحديث الذي دار بين الاثنين:

فيس: ما الذي يحضر ذهنك عندما يأتيك هذا الحلم عن الحركات الاكروباتية؟

المريض: لاأعرف ..لسبب ما تحضر امي في ذهني حين كانت تاتي مرة بالسنة للزيارة كنت اقوم بحركات ملفتة للانظار.

فيس: آه، هذا مهم ربما شعرت انك لو اثرت اهتمامها ستبقى فترة أطول؟.. ماذا بالنسبة الى زوجتك، اتشعر ان عليك ان تثير اهتمامها هي ايضاً؟

بموجب فيس، اصبح التفسير نقطة تحول في المعالجة اي ما يسمى احياناً بشعور او احساس الرضا! ادرك المريض فجأة انه لم يكن ملزماً لانجاز بطولات جنسية لارضاء زوجته الجديدة. ويقول فيس ربما ان الفرويدي الصارم يفسر الحلم في منطوق اوديبي كمغازلة مكبوتة مع الاب تجاه الام، ولكنه يصر انه يوجد اي شئ خفي مضمر في مشكلة هذا المريض بل كان هذا واعياً تماماً ومحيطاً بها كلها، والمأثرة الاكروباتية كانت مجرد «طريقة لغة الحلم في ابداء التخوف من العنة في هيئة مصورة جعلته اكثر افادة للمريض ولا توجد امنية محظورة في هذا الحلم فان الحلم الظاهر يحكي القصة بكاملها.»

مع ذلك يبقى المحللون منقسمين بحدة حول هذا الموضوع، وهناك الكثير من الملتزمين بطريقة التفسير التقليدية . لكن من الامور التي تغيرت هو ان المحللين الآن يبدون اقل اهتماماً بالامنية المحظورة ذاتها مما في كيفية دفاع الحالم ضدها. فقد يظهر الدفاع نمطاً يعين في تفسير مشاكل المريض السلوكية في الحياة الحقيقية. ادورد برينان محلل نفساني يمارس مهنته على المستوى الخصوصي في مدينة نيويورك وفي مدينة غرينيج بكونيتكات، ويورد حلماً يوضح نمطاً دفاعياً مهماً. في الحلم تتعرض امرأة للملاحقة في مكان مشبوه من قبل رجل يواجهها في الاخير ويهددها بسكين صيد. قد يقول التفسير التقليدي ان الدافع هنا هو عنصر أوديب . اي ان المراة تحاول مغازلة ابيها لكن بما ان هذا مرفوض اخلاقياً قام «علم الحلم» التحريفي او المسخي بتحويله الى العكس، واصبح هدف امنيتها الخفية رجل غريب يضايقها لنفس الغرض. اما برنيان فيقدم قراءة اكثر تحديثاً. اذ برايه ان يعكس الحلم رغبة او امنية عادية في التقرب الى رجل لكن خيالاً او فكرة مغلوطة متربصة في عقل المراة اللاوعي قد علقت بالمنية ، اي ان اللقاء لن يكون محفوفاً بالعواطف والحنان ولا مشبعاً بل وحشي فظ وربما مميت. وهيئة الرجل يحمل كيناً ربما نشأت من خبرة سابقة منسية،على سبيل المثال ذكرى الاب المدمن على الكحول والتهديد. ومع تقدم الحلم يمكن ان يحصل احد امرين، بموجب بريننان. فأما ان يبدو المطارد وكأنه على وشك اغماد السكين فيها فيتصاعد قلق المراة الى الذعر «وفي تلك النقطة او المرحلة حيث الدفاع غير كاف» يخيم الجاثوم او الكابوس. فلن تملك من امرها خياراً غير الافاقة ويمكن ان تقول لنفسها كلاماً غاية في التطمين مثل: انه مجرد حلم: اما الاحتمال الآخر فيقول بريننان ان دفاعات المراة تبث الى الحركة وتغير مسيرة الحلم. يشتد الضوء سطوعاً ويكشف عن انها ليست في الشارع بل في قاعة ملابس راقية ، ومهاجمها هو مجرد ضيف آخر، وبدلاً من سكين يقدم لها قضيبين من الهليون من مائدة المقبلات. فلقد تمكنت دفاعاتها من دره الخطر بنجاح وجعلت مهاجمها عاجزاً. ويقول بريننان: «انه ليس سكيناً بل شئ رخو متمايل».

وهكذا يختتم الحلم بنبرة مطمئنة لكن الخطر كما يقول المحلل هو ان هذه الاستراتيجية الدفاعية قد تواصل تاثيرها على سلوك المراة في حياة اليقظة ايضاً، «بحيث انها عندما تحاول الاختلاط بالرجال يغلب الاحتمال انها ستنقضي سهواً لكن عمداً رجالاً قداماً/واعنّه، ويكثر ما سيكون لديها اقاصيص ترويها عن سوء الحظ الذي يلازمها في العثور

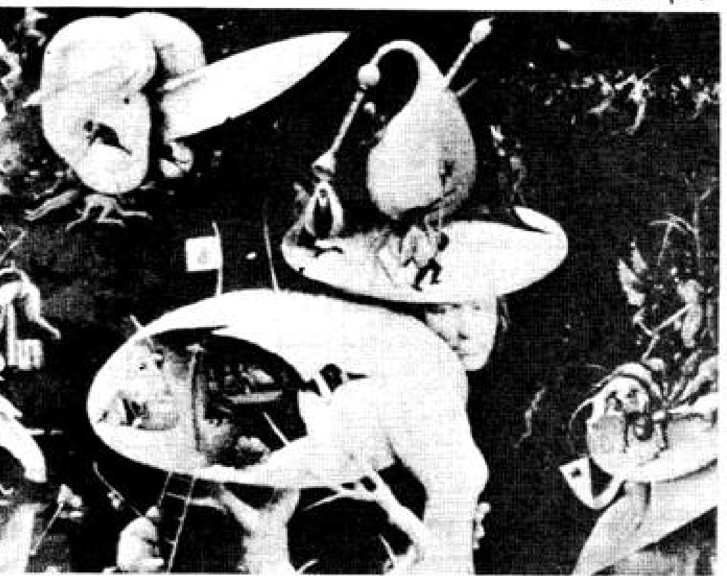
لاأعرف كيف تحصل الاحلام لكنني اعرف اننا لو تاملنا الحلم ملياً وكلياً، لو اخذناه معنا في تنقلاتنا وقلّبناه في الذهن مراراً وتكراراً، فان شيئاً ما يتاتى عنه تقريباً دائماً.

كارل غوستاف يونك

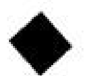
على رجال خيبوا كل آمالهـا». في الحقيقة كما يقـول بريـنـان ان الشئ الذي يجعل الاحلام جمة الفائدة هو انهـا لاتخفق في تعيين مثـل هـذه التنـاقضات اللاوعيـة وهي توضـح ليس الرغبـة او الامنية حسب، بـل ايضـا الخوف الملازم لهـا وكـذلك الدفـاع النـوعي الذي يستخـدمـه الحالم. وتفعل ذلك «مراراً وتكراراً حتى تبرز جلية بحيث لايعجز المحلل والمريض عن ملاحظتها الا اذا كانا مكفوفي البصر» ويضيف المذكور: «ان اللاوعي له اسلوب واحد فقط، وهـو التكـرار». قام بـاختبار هـذا الراي ميلتون كريمر وهو باحث بارز في مجال الاحـلام مقـره في سنسنـاتي. قـام بتجميع ١٥ وصفاً تفصيليـاً مختلفاً للاحـلام من كل واحـد من خمسـة متـطوعـين تجـريبيـين مختلفـين،ثم خلطها معاً وسلمها الى فريق من طلاب الثـانويـة لفرزهـا . ويقـول هـو ان الطلاب لم يـلاقوا مشقـة كبـرى في اكتشـاف من حلم بماذا بـواسـطة تكرارهم لمدارات معينة. لكن اياً كان الاسـلوب الذي يحـبـذه المحـللون فلربما انهم يعترفون ان تفسير الحلم يجب قبل كل شئ ان يأتي في صيغة مقبولة ومعقولة ظاهراً، او كقصة في محلهـا تمامـاً بالنسبـة الى الحالم. (وبمعنى مـاهـذا هـو مـا يعنى بـه التحليل بالذات). وقد قال يـونك ان الاختبار الوحيد الذي يجـريه عـلى التفسير هو ما اذا كان من "صالح" الحـالم. ووضـع قـاعدة لنفسـه بان «لايتجاوز ابداً المعنى الذي له تأثير على المريض». وكان فرويد قد وضـع قاعدة مماثلة قضت بعدم تحليل اي حلم قبـل اولاً الاسـتمـاع الى مـا للمريض من مشاركات او اقترانـات بمحتوياتـه، ولايزال معـظم المحللين العصريين يسعون الى مراعـاة هذه القاعدة.

مع ذلك تأتي العديد من الاحلام مربكة مشوشة ومكتظة بالتفـاصيل التي تبـدو تقع خـارج نطاق خبـرة الحالم، لدرجة انها لاتقبل الاقتران او الصلة بينما غيرها تعمل تقـريباً مثل القصائد وتعطي بـطرق لم يكن الحالم يعلم انه يملك القـدرة عليه تقـطرات رهيبة من شعـور او حالة معينة، واحياناً تستخدم وسائل تبد كأنها توحي ان للحلم عقل خاص به حكى مريض عمره ٤٠ سنـة لطبيب عند ابتدائه بالتحليل عن حلم له رأى نفسه فيه يحلق فوق الهند في الظلام بقوته الذاتية. كانت المناظر الطبيعة ملبدة بضباب ازرق جعل التضاريس المفردة صعبة التمييز لكنه رأى على الارض في الاسفـل خطاً متقـطعاً في خريطة تضم العبارة «منطقة موبوءة بـالملاريـا»، ولم يتذكـر كيف انتهى الحلم. عـلى مـا يـظهـر اضمحلت انـطباعـاتـه بنفس الغمـوض الذي برزت به. وعنـدما سـأله الطبيب ما الذي خـطر بباله عن الحلم تـذكـر المريض بغموض انه كان مرة قد قرأ عن حملة ناجحة ضد الملاريا في الهند وتذكر ايضاً انه افتتن بملصق جذاب للغاية يضم صـورة معبد هنـدي في شباك مكتب وكالة سفريات. هل كان المكتب في طريقه الى عيادة الطبيب؟ لم يكن متأكداً. وعليه هنا كـانت المادة التي تصنـع منهـا الاحـلام. قـال المريض ووافق الطبيب مبدئيـاً ربما ان الذاكرة استحثت الآن لكونه يقبل على سفرة سيكـولوجية مكـافئة الى المـاضي ويستنفر احـاسيس عنيفـة مطمورة. تضمن الحلم الماعاً قوياً الى عدم ارتياحه تجاه امر خاص واحد رغم انه كان متحمساً للقيام بالسفرة، وعندما سـأله المحلل ان كان يـربط شيئـاً ما بعبـارة «منطقـة مـوبـوءة بالملاريا» قرر بعد بعض التأمـل انه

الاحلام نعمة خاصة



يمكن ان تكون العبارة جناساً لفظياً اي بـالقلب والابـدال. وفي جلستـه التالية جلب الى المحلل اكثر من (٣٠) كلمة استخرجهـا من العبارة وكلهـا تتـألف من حروف في صلب مقـابل العبارة بالانكليزية'Malaria Area' مثل Liar—realm—Male الخ .لكن الكلمات ذوات المغـزى له كانت« 'mal — ear' 'alarm' والاخيـرة نحت هجـين من صنعه هو «وهـذه الكلمات ارتبـطت بخبرة قلما كان يتذكرها ، نـوبة من الحمى القرمزيـة في الطفولة زادهـا تعقيداً مرض حـاد في الاذن اضطر ابـواه معـه الى نقله الى المستشفى حيث تركاه مفصولاً عن امه في العمر الحرج الخطورة البالغ ١ / ٣٢ سنة



. بالطبع تضمن كل هذا شيئاً مطابقاً جداً، وبدا من المحتمل انه كان هناك بنية اعمق منطمرة في الحلم. شئ ما اشبه بهند ملبدة بضباب ازرق» بعيد عن الاستذكار الواعي ليس كل ما في الحلم خاضع للتحليل. لكن هنا مرة اخرى ظهر سياق في صالح الحالم ـ في هـذا المثـال يشجعـه عـلى المضي بالتحليل بالرغم من مخاوفه حوله.

كمـا يقـول ادورد بـريـنـان ان الاحلام تغتذي على المجاز. اذ يبدو ان بانعتاقنـا من محظورات التـواصل الشفهي نتجـاوب للرموز البصـرية التي لربما كانت وسيلتنـا الاقدم في التفكير، ولعل هـذا هو احـد اسباب استثارة لغة الشعـر لحميتنا مثلمـا تفعل ، ولعل هـذا هو السبب في ان بعض الاحـلام تراودنـا بقوة اكثـر اقناعية حتى من قوة الشعر تتألق في الاذهان كالمـدن المفقودة او تتـركنا لسـاعات لاحقـاً بشعور من الرعب يتعذر تعليله.

حين يتم انجاز عمل التفسير ندرك ان الحلم هو تحقيق امنية.

بعض الاحلام هي تقريبـاً كالقصائد .

سيغموند فرويد



صوتك في قلوبنا ايتها الحياة

عن قصيدة «الحرب» للشاعر ياسين طه حافظ

ظهر القسم الاول من **المطوّلة** الحرب للشاعر ياسين طه حافظ في جريدة الثورة العراقية سنة ـ ١٩٨٣ وفي صفحة كاملة تقريباً. القي القسم الاخير منها في المربد، في البصرة. ظهرت القصيدة كاملة في مجلة الاقلام سنة ١٩٨٣ وفي ثلاثة اعداد متتالية. صدرت بصورة كتاب سنة ١٩٨٥ عن دائرة الشؤون الثقافية. وصدرت ترجمتها الانكليزية الكاملة عن دار المأمون سنة ١٩٨٨ وقد ترجمها الاستاذ شهاب احمد الناصر الاستاذ في جامعة البصرة.

حظيت هذه **المطوّلة** باهتمام النقاد العراقيين والعرب، وقدم عنها الناقد المغربي الدكتور سعيد علوش بحثاً كاملا لمهرجان المربد عام ١٩٨٧ باعتبارها انموذجاً متميزاً من شعر الحرب في العراق.

وقد كلفت مجلة ادب العالم اليوم الصادرة في اوكلاهوما، والمهتمة بالاصدارات الادبية الحديثة في العالم، الاستاذ جوزف جون متابعها للاصدارات الادبية في الشرق الاوسط بالكتابة عن هذا العمل العراقي، وهو اول اهتمام عالمي بهذه القصيدة الحربية الطويلة.

ونقدم فيما يأتي نص المقال النقدي الذي نشرته المجلة الادبية الامريكية:ـ

نص المقال

على الرغم من ان قصيدة ياسين طه حافظ (الحرب) هي من وحي الحرب العراقية الايرانية، فأنها تدور عن الحرب بصورة عامة وعن اشياء اخرى اكثر من الحرب نفسها. فهي عبارة عن تأمل مثير ولكنه متزن في الحرب وطبيعة الانسان. وينعكس هذا التأمل في القتال بين البشر، على نحو يتعذر تجنبه، على موضوعات الحب والشهوة والكراهية والموت والحياة والايمان والالحاد.

ويقول حافظ في مطلع قصيدته: الحرب اعلنت/ ودق مسمار بقلبي، مشخصا بذلك الحرب بأعتبارها مأساة شخصية لاتقل بأي حال من الاحوال عن كونها مأساة وطنية وعالمية.

ان المواصفات الخاصة بهذه الحرب التي دعت الى كتابة القصيدة قليلة ومتباعدة ولهذا، تحولت هذه الحرب الى كابوس في وعي الانسان تماما مثلما امتزجت معركة (سايلي) والحرب العالمية الاولى في وعي المتحدث في قصيدة اليوت (الارض الخراب).

من الواضح ان حافظاً تعلم درسا من شعر اليوت. فاللغة التي يستخدمها هي لغة موحية ومثيرة للذكريات. كما ان الصور والرموز لا الجمل المباشرة هي التي تنقل لنا اهوال الحرب. يضاف الى ذلك ان الانتقال بين الاصوات ووجهات النظر (انت وانا وهي وهو وهم) تستحضر شخصيات عديدة تمثل كل انسان هو المؤلف والضحية في هذه القضية الجهنمية.

اما الحضارة فتتهم بأنها تتحول الى حالة من الرعونة والفوضى في مثل هذه الحالة. وتستحضر جسامة مشروع الحرب في صور بليغة مؤثرة. فالاجساد «تغدو عجينا اسود يركد/ في الوديان» و «كلامهم سحابة الجراد/ يأكل حقل النفس»، و «الخراب سكن المدينة/ في شارع تحكمه الهياكل العظمية»، و «موسمه يعلن عن نهايته/ وانتهيا برعشة الاله وارتجاجة الكواكب»، و «الرائق الاحمر يلوح فوق الخبز... فوق طبق العشاء»، ولا يجري الحديث عن البطولة الا قليلا، تلك البطولة التي نجدها موضوعا رئيسا في عدد كبير من قصائد الحرب في الشعر العربي التقليدي. يضاف الى ذلك، فأن القصيدة تخلو من اي كلمة عن «صحة» او «اخطاء» المأساة. ويسود في ملحمة حافظ تيار دقيق من المفارقة عن حقائق حرب الاستنزاف الكئيبة التي يتمثل «انجازها» الوحيد في تدهور الروح الانسانية المريع.

ويكفي ان نذكر مثالا واحدا في هذا الصدد: «مازال عيناه الى الوردة في خندقه/ وكفه تمر في محبة على قوام المدفع الجميل».

ويكشف لنا الشاعر عن نزعة «اليوتية»، وهو يحشد «ارضه الخراب» بصور غامضة عن الرعب والخواء.. «من اين جاء الشبح الملفوف الاسود/ حدق في وجهك، كنت نائماً...»

ومع هذا، فأن الحرب تسمو فوق حدود فضاء الحرب. فالحرب عند الشاعر ليست الاجزءا من «ملحمة الجنس البشري» والحياة تستمر على الرغم من الحرب: «صوتك في قلوبنا/ ايتها الحياة».

ويتحرك كالحب مستترا بين خرائب الحرب. كما ان «سيدة الحب/ ترنو لهذا البشر/ الميت بين الشمس والتراب».

وعلى الرغم من فداحة المجزرة فأن روح الانسان ستظل على قيد الحياة تماما مثلما سيظل جسده كذلك ايضا. وتظهر لنا رغبات الجسد بوصفها متاريس قوية تقف في وجه الموت: «حصان الشهوة الجامح/ احتضن الحياة واطلب المزيد».

ان ما يقدمه حافظ من دفق على مكان الجسد وفي محراب النفس يذكرنا بأسلوب (ويتمان) وهذا من اجمل المقاطع التي تحتويها القصيدة على الرغم من (اوربما بسبب) الحقيقة التي تفيد ان احتفالية الجسد هذه تتميز بجدية شديدة وتقارب السخرية الحزينة من الذات.

بمناسبة صدور طبعات دواوين ادونيس الجديدة



■ جهاد فاضل: بيروت

اصدرت دار الاداب في بيروت طبعات جديدة لدواوين ادونيس: اغاني مهيار الدمشقي، قصائد اولى ،هذا هو اسمي، اوراق في الريح، احتفاء بالاشياء الغامضة الواضحة، المسرح والمرايا، مفرد بصيغة الجمع، كتاب التحولات والهجرة ،مع كلمتين بارزتين على غلاف كل ديوان هما: «صياغة نهائية»، ومعنى ذلك ان الشاعر اعاد النظر بنصوصه الشعرية السابقة، للمرة الاخيرة، واجازها. وقد سالت الدكتور سهيل ادريس صاحب دار الاداب عن المقصود بهاتين الكلمتين، ومن اضافهما على الغلاف هل هو بوصفه ناشراً، ام ادونيس نفسه فكان جوابه: ادونيس هو الذي وضع العبارة، وقد اعاد قراءة دواوينه السابقة فحذف ما حذف، واضاف ما اضاف، واجرى تنقيحا تناول الكثير من عبارات قصائده.

وقد تساءلت عن مشروعية ما قام به ادونيس على النحو الذي وصفنا ،كما عدت الى دواوينه هذه وقارنتها مع طبعات سابقة لها فوجدت ان هناك فروقاً بين النصوص السابقة والنصوص الحالية في طبعة دار الاداب هذه، مع الاشارة الى ان الاعمال السابقة لادونيس مضى على صدور بعضها ثلث القرن او ربع القرن. والسؤال هو عن جواز مثل هذه «الصياغة النهائية» لاعمال صدرت عدة طبعات منها في السابق ،وحولها جرت ابحاث ودراسات ،واصبح لها تاريخ في الحياة الادبية.

بنظرنا يؤلف ما فعله ادونيس هنا بدعة ادبية، فعندما يكتب الاديب عملاً ما ويدفعه الى النشر، فيعني ذلك ان هذا العمل قد انجزه انجازاً نهائياً. لقد اودع في هذا العمل تجربته كاملةً بكل تفاصيلها وتضاريسها، يفترض ان ما قاله يؤلف ذروة الصدق النفسي والفني، وقد قاله على هذا النحو لاعلى اي نحو آخر. ثم ان ما قاله وكتبه ونشره على الناس قد اخذ سبيله الى الحياة الادبية الواسعة واصبح تاريخاً. لقد قرأه الناس واعتمدوه ذروة، واجرى عليه الباحثون والدارسون ابحاثاً ودراسات ، وبذلك اصبح نوعاً من ملكية عامة ولم يعد مجرد ملك شخصي يحق لصاحبه ان يتصرف به على النحو الذي تصرف ادونيس.

قد يذهب بعضنا الى التسهيل فيقول ان الشاعر هنا وجد بعد ان قرأ نصوصه السابقة ان هناك ما يستدعي تبديلاً هنا، او تغييراً هناك وهو الذي يقول «بالتحول» لا بالثبات، وطالما انه هو يتحول من حال الى حال ولا يستقر على راي او موقف وقرار (ماعدا بعض الثوابت الاستراتيجية عنده) فلماذا لايجد هذا التحول سبيلاً الى نصوصه الشعرية خاصة ان الشعر هو لغة الباطن، والباطن هو استراتيجية داعي دعاة الحداثة؟ فنجيب ان كل تحول هنا يفترض ان يؤلف تجربة جديدة مستقلة عن التجربة السابقة ،وعلى الشاعر ان يستنطقها كما هي، ويعطيها ابعادها ورؤاها الجديدة وبذالك يكون كل شئ يتصل بتجربته جليا مكشوفا امام القارئ. اما اذا عمد الشاعر او الفنان الى ما عمد اليه ادونيس فانه يسئ الى تجربته هو اولاً كما يصيب قارئه بالعمى في الوقت نفسه ، فلا يعود هذا القارئ يميز بين ماكان فعلاً وما حدث الآن، لأن الشاعر اعاد ويعيد تشكيله بخفة وبلا ضوابط.

وقد يقول آخر ان ما فعله ادونيس لايتناقض مع التجريب الذي يعتمده فهو شاعر مجرّب واكثر نصوصه الشعريه تجريب، وما يفعله اليوم هو تجريب مضاف الى تجريب سابق، انه فرع من اصل . فنجيب ان التجريب مباح للشاعر ،وللفنان ،طالما ان العمل مازال في حوزته، اي قيد التشكل عنده، اما وقد نشره على الناس،فانه يمتنع عليه مسّه مرة اخرى ويبقى له ان يتابع التجريب في عمل آخر ولو كانت لهذا الأخير صلة بسابق له.

الواقع ان ما فعله ادونيس هنا يؤلف بدعة او مخالفة لكل ماهو معمول به في تقاليد الادب والفن. عندما ينجز الفنان عمله وينشره على الناس، فمن المفترض انه انجزه في احسن تكوين. ونحن اذا راجعنا تاريخ الشعراء، من قدامى ومعاصرين، مع «الصياغة»، «وإعادة الصياغة»، وجدنا ان كل ما فعله الشعراء مع قصائدهم السابقة هو إما اجازتها ونشرها، او حجبها، وفي اسوأ الظروف تعديل عبارة او عبارتين بعد النشر ،وهذا مفهوم عندما يجد الشاعر ان هناك عبارة قد تفضل عبارة اخرى، وهذا كل شئ. اما «الهجوم» على الاعمال السابقة على نحو ما فعله ادونيس، فلا مبدأ يجيزه لا على ضوء تاريخ الادب ولا على ضوء قوانينه.

على ان الصياغة «الثانية» او «النهائية» عند ادونيس لم تقتصر على الشعر وحده، فقد شملت النثر ايضا. واذا كانت هذه «الصياغة» في الشعر تؤلف بدعة، فانها في النثر تؤلف سرقة موصوفة حسب التعبير القانوني.

وتفصيل ذلك ان ادونيس تناهى اليه عام ١٩٨٠ مصطلح جديد هو «الشعرية»، وذلك من خلال ما قرأه في بعض ترجمات تودوروف الى العربية حول الشعرية عند دوستويفسكي. ماذا فعل ادونيس؟ التقط المصطلح وعمد الى جمع مقالات قديمة له نشرها في فقرات مختلفة وغيّر عناوينها بعناوين جديدة ادخل في كل منها كلمة «الشعرية»، من ذلك مثلاًمقدمة مختاراته من قصائد يوسف الخال التي كان عنوانها فاتحة التجربة المسيحية في الشعرالعربي فاصبح هذا العنوان: شعرية الحضور. وكذلك فعل مع مقدمات المختارات من شعر احمد شوقي والزهاوي وامين نخلة وبدر شاكر السياب. بل هو فعلها في عشرة عناوين لعشرة موضوعات على نحو ما اثبته الشاعر سامي مهدي في كتابه «نمط الحداثة وحداثة النمط».

اننا نستنتج من كل ماتقدم ان هناك نوعا من خفة في تعامل الشاعر مع قارئه متكلاً ربما على ضحالة ثقافة هذا القارئ، وعلى كونه هو فقط الذي يقرأ. وايا كان الامر ، فان الادباء الكبار لايفعلون هذا الذي فعله وانما الذي يفعله عادة هم الادباء الصغار.

النقد الموضوعي



■ تاليف: د. سمير سرحان

■ إصدار: الهيئة المصرية العامة للكتاب

النقد الموضوعي ومدرسته هو المتقدم الآن في الساحة النقدية العالمية، فهذه المدرسة تعتمد النظرة العلمية الى الأعمال الادبية، ولقد استفادت من إعادة تقويم المدارس النقدية المختلفة من تعبيرية الى تاثرية الى تاريخية.. الخ.

■ لقد اسس هذه المدرسة الشاعر ت. اس. إليوت واصبح رائدها في اوائل هذا القرن، اما ما يميز هذه المدرسة فهو انها تعتبر مهمة النقد الأولية شرح الاعمال الأدبية، وتصحيح الذوق، ووسيلة الناقد في ذلك اداتان اساسيتان هما: التحليل والمقارنة، تحليل العمل الفني، والعمل على اكتشاف علاقاته الداخلية، ونسيجه وتركيبه وما يحتوي عليه من وسائل فنية يتوسل بها الفنان لتحويل عاطفته الى جسم موضوعي، له كيانه المستقل وحياته الخاصة به، ثم مقارنته بالاعمال الفنية السابقة عليه في التراث الادبي حتى يتحدد مكانه منها وقيمته الموضوعية، بوصفه فناً، بالنسبة الى باقي الاعمال العظيمة. ولا يعني هذا ان العمل الفني الجديد لابد ان يطابق اعمال التراث من حيث وسائله الفنية ومنهجه الفني، إذا جاز هذا القول، وانما العمل الفني الجديد بحق ـ كما يقول إليوت ـ هو ذلك الذي ينتمي الى تراث الأمة الادبي من ناحية، ولا ينتمي اليه من حيث هو عمل «جديد» يضيف على هذا التراث ويعدل فيه ويجدد نظرتنا اليه. اما الحكم الفصل في نقد العمل الأدبي الجديد فهو التراث الأدبي وليس القيم الاجتماعية والاخلاقية التي مافتئت تتغير من عصر الى عصر، ومن مجتمع الى آخر، او أهواء الناقد وميوله، فالناقد الموضوعي ينظر الى العمل بوصفه جسماً حيّاً مستقلاً بذاته، وهو يتناوله بالشرح والتحليل بهدف تبيان قيمته بوصفه كائناً مستقلاً قادراً على اداء وظائف محددة للمجتمع والفرد ولكنه بالتأكيد لا يهدف مباشرة الى اداء هذه الوظائف.

من هذا الفهم المدروس للنقد الموضوعي ينصب كتاب د. سمير سرحان بالدراسة والشرح والمتابعة الجادة لاعطاء فكرة مجملة في احسن حالاتها عن الملامح الرئيسية لهذا المنهج في النقد.

يقول الدكتور سمير سرحان في تقديم كتابه: لقد آثرت الحديث عن المقدمات الأولى لهذه النظرة الجديدة عن الناقد الأول للعصر الفكتوري في انكلترا، وربما في القرن التاسع عشر باكمله: ماثيو آرنولد إذ ان آرنولد كان اول من نادى بالموضوعية في النقد في عصر كان ومايزال غارقاً في الرومانسية والنقد الرومانسي، وكان اول من قال ان النقد هو «جهد موضوعي» فأطلق بذلك الشرارة الأولى التي اتهمت النقد الرومانسي بالقصور من جانب ثم اضاءت طريق النقد الموضوعي من جانب آخر. وهو لذلك يعتبر بحق «أبا النقد الحديث» رغم ان هذه المدرسة اختلفت، على طريق التطور، مع آرنولد في بعض النظرات، وخاصة في مهمة الشعر وطبيعته، التي قد تكون جوهرية. لقد عني الدكتور سمير سرحان في كتابه بتبيان اوجه الإلتقاء بين آرنولد وبين ابناء هذه المدرسة، واهمها النظرة الموضوعية، ثم حاول بعد ذلك بسط نظرية آرنولد في النقد والتي ترتكز على دعامتين رئيسيتين هما دور «العصر» في خلق الشاعر، وطبيعة عمل الناقد في الحكم على الاعمال الادبية. وفي هذا حاول المؤلف د. سمير سرحان ان يربط عمل آرنولد دوماً بهذه المدرسة ونقادها الكبار الذين ساروا فيما بعد على هديه ثم عدلوا في آرائه واعطوها صبغة علمية منهجية يبدو انها كما يقول المؤلف لم تتوفر لآرنولد بسبب طبيعة العصر الذي كان يعيش فيه.

لقد درس المؤلف د. سمير سرحان النقد الموضوعي في كتابه هذا من خلال اربعة فصول هي: الموضوعية، العصر، الشعر، الشعر نقد الحياة، إضافة الى مقدمة وافية. بقي ان نقول ان هذا الكتاب التفاتة ذكية لاحتواء كل مايخص مدرسة النقد الموضوعي التي لم تأخذ حظها من الدراسات العربية والمتابعات الجادة المستندة الى ثقافة ودرس مقنعين.

■ أضواء

ل من الطبيعي أن يبدأ الكاتب أميّاً ؟

الشعر والقصة في مجموعة «سَفَر»

لفت القاص محمد المخزنجي انتباه قراء القصة القصيرة وأثار إعجابهم، حين نشر منذ ست سنوات مجموعته القصصية الأولى «الآتي»، ثم اتبعها بعد سنة بالمجموعة الثانية «رشق السكين» . إذ بدا أن هذا الكاتب الشاب - الذي كان شاباً - يعرف كيف يعزف نغمته الخاصة، ويبرز صوته المتميز وسط الأصوات المتشابهة، فقد اهتدى إلى القاعدة الذهبية لهذا الفن الصعب، وهي الإمساك بلحظة البداية المناسبة، وكشف - بالتقابل الحاد في أغلب قصصه - عن غير المألوف فيما هو مألوف وعادي، فضلا عن هذه القدرة البارزة في استعماله للغة، والتي جعلت بعض النقاد يطلقون على قصصه «القصة القصيدة»، وأسرفنا نحن في الاشادة بمن يمتلكون هذه القدرة، وكأنه من الطبيعي أن يبدأ الكاتب أمياً .

ولكن هذا الاعجاب بقصص المخزنجي اقترن بدهشة كبيرة أيضا، لأن قصصه جاءت في أغلبها لوحات قصيرة جداً، لاتحفل كثيراً بالإجابة عن الأسئلة المشهورة: متى - وأين - وكيف - ولماذا - ؟ تلك الأسئلة التي يبدو أنها لن تصبح قديمة أبداً، وأحيل القارىء إلى مانشر بالمجلات العربية من قصص حديثة مترجمة، فلاتزال محاولة الإجابة على هذه الأسئلة، من داخل القصة بالطبع، هي الأعمدة الأساسية التي تنهض عليها أي قصة جيدة .

لقد تخلصت هذه اللوحات من العيب الأساس وهي أن تكون مجرد «أخبار» بسبب المهارة اللغوية التي أشرنا إليها، ولكنها لم تتحول الى قصص، فما يكاد القارىء يتعرف على إحدى الشخصيات، أو يمسك ببداية حدث، أو يتوهم أنه يتابع قضية، حتى يجد أن القصة قد أنتهت، أو بمعنى أدق انقطعت، وكأن الكاتب يكبح نفسه ليتوقف .

وعاد الكاتب في مجموعته الثالثة «الموت يضحك» الى القصة بالمعنى المتعارف عليه، فلم يعد يكتفي بلقطة واحدة، وإنما ترك الأحداث تنمو والشخصيات تتعدد والمعنى الكلي ينكشف في النهاية . ولكن الغريب في هذه المجموعة الثالثة أن الكاتب بدل أن يتحدث عن المجموعة في ظهر الغلاف كما هي العادة يجيب عن سؤال ربما توهم أن القارىء سيوجهه إليه فيقول :

«ما أحب الإشارة إليه، لو كان ذلك وارداً، هو أن هذه النوعية من القصص ليست مرحلة من مراحل تطوري في الكتابة باتجاه القصة القصيرة جداً أو القصة القصيدة أو الأقصوصة الموجزة التي اشتهرت بها واشتهرت بي الى حد ما، ولكن هذه القصة الأميل الى الطول هي طبقة من طبقات الصوت القصصي الذي لاينبغي أن يكون أحادي النبرة، في اعتقادي، بل ينبغي أن يكون قادراً على الانتقال بين النغمات إن تطلب الأمر ذلك .»

ولكن محمد المخزنجي يعود في مجموعته الجديدة «سفر»، التي نحاول قراءتها الآن، إلى هذا الشكل القديم الأثير لديه، فهل «تطلب الامر ذلك»؟ أو أن الكاتب وجد نفسه في هذا النوع من الكتابة ؟

تبدأ أحداث هذه المجموعة والطائرة تحلّق بالراوي ومعه أحلامه الوردية فوق سماء القاهرة متجهة به الى الاتحاد السوفيتي، وتنتهي في الباخرة العائدة به الى الاسكندرية، والأحداث تروى بضمير المتكلم من خلال تجربة السفر المثيرة، وكأنها يوميات تسجّل مشاهدات واكتشافات وهموم هذا الراوي المندهش .

إنها ليست رحلة من القاهرة إلى بغداد مثلاً حيث لايختلف المناخ ذلك الاختلاف الحاد، وإنما هي رحلة من القاهرة شديدة القيظ في اغلب شهور العام إلى الاتحاد السوفيتي حيث تتساقط الثلوج التي ربما لم يشاهدها الراوي إلا في الصور، ولذلك تتكرر كلمات «الثلج والجليد ودرجات الحرارة تحت الصفر» في هذه المجموعة مرات لاحصر لها .

وليس المكان وحده هو الذي يفاجىء الراوي ، فسلوك الناس في هذا المكان وعلاقتهم ببعضهم ونظرتهم إلى الحياة وتقديرهم للقيم .. كل هذه أشياء جديدة تنعكس في ردود أفعال الراوي وتربكه غالبا وهو يكتشف هذا العالم الغريب، إن مجرد النظر إلى فتاة مدة طويلة نسميه نحن عيباً أو سوء أدب، فما بالك إذا حدقت فيها وشاب يقبلها، أو إذا كانت هذه القبلة لك .. هكذا في الشارع وامام الناس؟ ولذلك فالكاتب صادق إلى حد كبير حين يصور الحدث على هذا النحو في قصة لاتزيد عن نصف صفحة :

«حين مالت عليّ وفاجأتني بقبلة على فمي، في الشارع، ارتبكت بشدة، وصعدت إلى الاتوبيس وأنا أتخيل أن كل الركاب ينظرون إليّ لكنهم لم يكونوا ينظرون، وقررت أن أخصص الغد لقُبل الشوارع الأوربية المباحة هذه .

وكأنني أتهيأ لإجراء تجربة علمية مثيرة، أوقفتها عند محطة أتوبيس الأمس، واستحضرت مايقارب خمس عشرة سنة من أحاسيس القبل الشرقية، القبل السرية . وفي مواجهتها بالضبط ملت بفمي نحو فمها .. أحسست بطعم الشفاه الناعمة على شفتي .. نعم .. لكن الاكثر أنني أحسست أثناء ذلك بابتراد، وكأن مؤخرتي عارية» .

هذه هي كل القصة، وإحساس البطل بأن «مؤخرته عارية» إحساس غريب، ولكنه طبيعي، لأن تحرير الجسد وحده من أسر المكان القديم لايكفي، مادامت الروح مقيدة في تلك القرية المظلمة البعيدة، تراقبه وتفسد متعة اللحظة التلقائية . بل إن هذه الروح كثيراً ماتشد الجسم، وتشل حركته حتى في



